جوزيه ساراماغو

الشبيه

مكتبة

ترجمها عن البرتغالية:
سعيد بنعبد الواحد

منشورات الجمل

رواية

جوزيه ساراماغو: **الشبيه**، رواية

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

جوزيه ساراماغو

مكتبة
t.me/soramnqraa

الشبيه

رواية

ترجمها عن البرتغالية:
سعيد بنعبد الواحد

منشورات الجمل

مكتبة
t.me/soramnqraa

جوزيه ساراماغو: **الشبيه**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمها عن البرتغالية: سعيد بنعبد الواحد
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، الشارقة - بغداد ٢٠٢٢
ص.ب: ٧٣١١١ - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

José Saramago: *El hombre duplicado*
© José Saramago, 2002
All rights reserved

© *Al-Kamel Verlag* 2022
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى بيلار، حتى لآخر لحظة

إلى راي غود ميرتين

إلى بيبا سانتشيث. مانجاباكاس.

الفوضى نظام ينتظرُ من يفكّ شفراتِه.

كتاب الأضداد

أعتقد بصراحة أنني اعترضتُ عدة أفكار
كانت السماء ترسلُها إلى شخص آخر.

لورنس ستيرن

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرّجُل الذي دخل للتوّ إلى المحلِّ لتأجير شريطِ فيديو يحملُ في بطاقة تعريفه اسماً غير مألوف تماماً، ذا مذاق كلاسيكي عتيق، تيرْتولْيانو ماكْسيمو أفونْسو، لا أقلّ ولا أكثر من هذا. فأمّا «ماكْسيمو» و«أفونسو»، المُستعمليْن بشكل أوسع، فإنه يستطيع تحمُّلَهما مع ذلك، رغم أن الأمر يتعلق بالحالة الذهنية التي يوجد عليها، وأمّا «تيرْتولْيانو» فيجثُم على نفسه منذ أول يوم أدرك فيه أن هذا الاسم المشؤوم يمكن أن يُنطقَ بسخرية قد تكون مُهينة. يشتغل أستاذاً لمادة التاريخ في مؤسسة تعليم ثانوية، وقد اقترح عليه الفيديو زميلٌ له في العمل الذي لم ينس بأن يذكره، **إنه** ليس تحفة فنية من تحف السينما، لكنه يمكن أن يسلّيك لمدة ساعة ونصف. في الحقيقة، كان تيرْتولْيانو ماكْسيمو أفونْسو بحاجة ماسة إلى حوافز تُسلّيه، فهو يعيش وحيداً ويشعر بالضجر، أو، حتى نتحدث بدقة طبية يستوجبُها هذا العصر، فقد استسلم لوهنٍ روحي مؤقت يُعرف عادة باسم الاكتئاب. لأخذ فكرة واضحة عن حالته، يكفي القول إنه كان متزوجاً ولا يذكر ما الذي دفعه إلى الزواج، وقد تطلّق اليوم ولا يُريد أيضاً أن يذكر أسباب الفراق. في المقابل، لم يتبقَّ من القران الفاشل أبناء يطالبونه اليوم بأن يقدم لهم مجاناً العالمَ فوق طبق من فضة، لكن «التاريخ»

الحلو، مادة التاريخ الجدية التي استدعوه لتدريسها، والتي يمكن أن تكون ملاذه المريح، فقد بات ينظر إليها كعياءٍ من دون معنى وكبداية من دون نهاية. بالنسبة للأمزجة الميّالة إلى الحنين، الهشّة عموماً، قليلة المرونة، فإن العيش في الوحدة عقابٌ قاس للغاية، لكنّ وضعاً كهذا، لنعترف بذلك، رغم صعوبته، لا تتولد عنه سوى من وقت لآخر مأساة تشنجية، من تلك المآسي التي تقشعرُّ لها الأجساد وينتفش لها الشَّعْر. ما يحدث في أغلب الأحيان، لدرجة لم يعد يثير معها أي مفاجأة، أنّ أشخاصاً يعانون بصبر بدقة كل تفاصيل الوحدة، كما يشهد الماضي القريب على ذلك بأمثلة من الوجوه العمومية، رغم أنها ليست أسماء مرموقة، بل، وفي حالتين، تُوّجتا بنهاية سعيدة، مثل ذلك الرسام الذي يصور الوجوه ولم نعرف عنه قطّ غير الحرف الأول من اسمه، أو ذلك الطبيب في العيادة العامة الذي عاد من المنفى ليموت في حضن الوطن الغالي، أو مصحح النصوص المرقونة الذي طرد حقيقةً ليغرس مكانها كذبةً، أو ذلك الموظف التابع في مصلحة الحالة المدنية الذي كان يعمل على إخفاء شهادات الوفاة، وكانوا جميعاً، عشوائياً أو بمحض الصدفة، من الجنس الذكوري، لكن لا أحد منهم كان من سوء حظه أن يسمّى «تيرْتولْيانو»، وهو الأمر الذي لا بد أنه شكل بالنسبة لهم امتيازاً لا يقدر بثمن فيما يرتبط بعلاقاتهم مع محيطهم. كان مستخدم المحلّ قد أخرج الشريط المطلوب من الرّف، كتب في سجل الإعارة عنوان الفيلم وتاريخ الخروج الموافق ليومه، وبعد ذلك أشار إلى المستأجر وبيّن له السطر الذي ينبغي أن يوقع فيه. بعد أن رسمه فور لحظة تردد، أظهر التوقيع فقط الكلمتيْن الأخيرتيْن من الاسم، ماكْسيمو أفونْسو، من دون تيرْتولْيانو، لكن، كمن قرّر أن يوضح مسبقاً أمراً قد

يثير جدلاً، همهم الزبونُ، وهو يكتب في الوقت ذاته، **هكذا** يكون أسرع. لكن هذا الاحتراز لم يُجْدِه شيئاً، لأن المستخدم، وهو ينقل إلى جدادةِ المعطيات الواردة في بطاقة التعريف، نطقَ بصوت عال الاسم العتيق المشؤوم، وفوق ذلك بنبرة قد يتعرّفُ فيها حتى طفل بريء كل ما تحمله من نوايا. نعتقدُ أن لا أحد، مهما كانت حياته خالية من العوائق، قد يجرؤ ليقول إنه لم يتعرض قطّ لإهانة من هذا القبيل. لكننا، عاجلاً أم آجلاً، يواجهنا، يبرز دائماً، واحد من هذه العقول القوية التي تثير فيها أشكال الضعف البشري، وخاصة تلك الدقيقة منها، قهقهات ضحك مستهزئة. والحقيقة أن بعض الأصوات غير الواضحة التي تصدر عن أفواهنا، بطريقة إرادية أو غير إرادية، ليست سوى أنّاتِ ألمٍ قديم يستحيلُ قمعُها، مثل جُرح يُذكّرُنا فجأة بنفسه. وبينما كان يحتفظ بالشريط في محفظته المتعبة، كابد الأستاذ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، بكبرياء يستحق التقدير، حتى لا يُظهر ما أصابه من امتعاض بسبب ما قام به مستخدم المحلّ من وشاية مجانية، لكنه لم يجد بداً من أن يقول في نفسه، رغم أنه يلوم نفسه بسبب ظُلم الفكرة الدنيئة، إن الذّنب هو ذنب الزميل، ذنب هوس بعض الأشخاص بتقديم النصائح من دون أن يطلب أحدٌ منهم ذلك. وتكون حاجتنا لإلقاء اللوم بعيداً ملحّة جداً، في حين أننا لا نملك الشجاعة لمواجهة ما يقف في وجهنا. فتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يعرف، لا يتخيّلُ، لا يستطيع أن يتكهن بأن المستخدم قد ندم عن تلك الزّلة الغليظة. فأُذنٌ أخرى، أكثر رهافة من أذنه، تستطيع التقاط أدق تدرُّجات الصوت التي يعلن فيها أنه رهن إشارة الزبون ردّاً على عبارة «أمسية سعيدة» الاضطرارية التي وجّهوها إليه على سبيل التوديع، لا بد أنه كان بوسعها أن تُدرك الرغبة الكبيرة في السلم التي استقرت

خلف الشباك. في نهاية المطاف، هذا مبدأ تجاري رائع، راسخ في القدم، أثبت نفسه على مر القرون، وهو أن الزّبون دائماً على حق، حتى إن كانت الفرضية غير محتملة، بل ومستحيلة، في أن يكون اسمه «تيرتوليانو».

وهو داخل الحافلة التي ستتركه قرب البناية التي يسكن فيها منذ ست سنوات، أي منذ طلاقه، قام ماكسيمو أفونسو، ونستعمل هنا الصيغة المختصرة من اسمه لأنّ من سمح لنا بذلك هو سيدُه ومولاهُ، وأساساً لأن كلمة «تيرتوليانو»، القريبة جداً، بالكاد بضعة أسطر قبل هذا السطر، قد تسيء لانسياب عملية السرد. كما كنا نقول، وجدَ ماكسيمو أفونسو نفسه يتساءل، وقد اضطرب فجأة واحتار في أمره، أيّ أسباب غريبة، أيّ دوافع خاصة تلك التي حملت زميله أستاذ الرياضيات، وقد نسينا أن نقول إن هذا الزميل كان يُدرّس مادة الرياضيات، لينصحهُ بكل ذلك الإلحاح ليشاهد الفيلم الذي جاء يستأجره، بينما، في الحقيقة، لم يكن الفن السابع قطّ موضوع حديث بينهما. بل إنه قد يفهم النصيحة لو أن الأمر كان يتعلق بفيلم جيد، من تلك الأفلام التي لا يمكن تجاهلها؛ في هذه الحالة فإن المتعة، الرضا، والحماس باكتشاف عمل ذي جودة جمالية عالية ربما كانت ستدفع الزميل، أثناء الغداء في المقصف أو أثناء فترة الاستراحة، ليسحبه من كمّه ويقول **لا** أذكرُ أننا تحدثنا يوماً ما عن السينما، لكني أقول لك الآن، يا عزيزي، إنه ينبغي لك، بل من الضروري، أن تشاهد «الإلحاح هو سر النجاح»، وهو بالضبط عنوان الفيلم الذي كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يحمله داخل محفظته، وكانت هذه المعلومة غائبة بدورها. وكان بوسع أستاذ التاريخ أن يسأل في أي قاعة سينمائية يُعرض، وهو ما قد يردّ عليه أستاذ

الرياضيات، مصححاً، **إنه** لا يُعرض، بل عُرض سابقاً، لأن الفيلم يعود إلى أربع أو خمس سنوات مضت، **لا** أعرف كيف فاتني أن أشاهده عند إطلاقه، وبعد ذلك، من دون توقف، قلقاً بسبب عدم جدوى النصيحة التي كان يقدمها بكلّ حماس، **لكن** ربما تكون قد شاهدتَه، **لم** أشاهدهُ، قليلاً ما أذهب إلى السينما، أكتفي بما يقدمونه في التلفزيون، ومع ذلك، **إذن**، عليك أن تشاهده، يمكن أن تجد الشريط في أيّ محل متخصص، استأجرهُ إن كنت **لا** ترغب في شرائه. كان من الممكن أن يدور الحوار على هذا الشكل، لكن الأمور، في الحقيقة، جرت بقليل من عبارات المدح، **لا** أريد أن أتدخل في حياتك، قال أستاذ الرياضيات وهو يقشر برتقالة، لكنني منذ مدة وأنا أجدك محبطاً شيئاً ما، فأكّد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ذلك، **صحيح**، أنا محبط بعض الشيء، **مشاكل** صحية، **لا** أعتقد، حسب علمي لا أعاني من مرض، ما يحدث هو أن كل شيء يصيبني بالتعب والضجر، هذه الرتابة اللعينة، هذا التكرار، هذا الانتظام، **تسلَّ**، يا رجل، فالتسليةُ كانت دوماً هي خير علاج، **اسمح** لي أن أقول لك إنّ التسلية هي علاج منْ لا حاجة له بالعلاج، **جواب** جيد، من دون شك، لكن عليك أن تقوم بشيء ما للخروج من الروتين الذي توجد فيه، **من** الكآبة، **الكآبة** أو الروتين، الأمر سيان، **لا** يهم الترتيب الاعتباطي للعوامل، **لكن** حدتها مهمة، **ماذا** تفعل خارج حصص التدريس، **إنني** أقرأ، أستمع للموسيقى، ومن حين لآخر أزور متحفاً من المتاحف، **لكن** هل تذهب إلى السينما، **قليلاً** ما أذهب إلى السينما، أكتفي بما يعرضونه في التلفزيون، **يمكنكَ** أن تقتني بعض أشرطة الفيديو، تُوفّرُ منها مجموعة، مكتبة أفلام، كما يقال اليوم، **نعم**، في الحقيقة أستطيع ذلك، الفظيع في الأمر أنه

ينقصنا فضاء خاص بالكتب، **إذن** استأجر الأفلام، لأن الاستئجار هو أحسن حلّ، **لدي** بعض أشرطة الفيديو، بعض الأفلام الوثائقية العلمية، علوم الطبيعة، علوم الأثار، الأنثروبولوجيا، الفنون بصفة عامة، كما أهتم بعلم الفلك، ومواضيع من هذا القبيل، **كل** هذا جيد، لكنك بحاجة لتسلّي نفسك بحكايات لا تشغل حيزاً كبيراً من الذهن، مثلاً، بما أنك تهتم بعلم الفلك، أتصور أنه يمكن أن يثير اهتمامك أيضاً الخيالُ العملي، مغامرات الفضاء، حرب النجوم، المؤثرات الخاصة، **فكما** أرى وأفهم، المؤثرات الخاصة هذه تعتبر أكبر عدو للخيال، هذه المهارة الغامضة، الملغزة، التي تعب الإنسان كثيراً في ابتكارها، **يا** عزيزي، إنك تبالغ، **إنني** لا أبالغ، من يبالغ هم أولئك الذين يريدون أن يقنعوني بأنه في أقل من ثانية واحدة، بنقرة إصبع واحدة، يمكن وضع مركبةٍ فضائية على بعد مئة ألف مليون كيلومتر، **عليكَ** أن تعترف أنه لخلق هذه المؤثرات التي تزدريها كثيراً، ثمة حاجة للخيال أيضاً، **لكنه** خيالهم، وليس خيالي أنا، **بإمكانكَ** دائماً أن تستعمل خيالك وتبدأ من النقطة التي توقف عندها خيالهم، **حسناً**، حسناً، مئتا ألف مليون كيلومتر بدل مئة ألف مليون، **لا** تنس أن ما نسمّيه واقعاً اليوم كان خيالاً بالأمس، فكّرْ في جول فيرن، **نعم**، لكن واقع اليوم هو أنه للذهاب إلى المريخ، مثلاً، والمريخ من الناحية الفلكية يمكن أن نقول إنه قريب جداً، لا بدّ من تسعة أشهر على الأقل، بعد ذلك ينبغي البقاء هناك لمدة ستة أشهر حتى يكون الكوكب في النقطة المواتية للعودة، وأخيراً، القيام برحلة عودة تستمر لمدة تسعة أشهر قبل الوصول إلى الأرض، وفي المجموع، عامان من الضجر القاتل، إنّ فيلماً عن رحلة إلى المريخ يحترم حقيقة المعطيات، قد يكون أكبر ملل عرفه العالَمُ، **لقد**

فهمتُ لماذا تشعرُ بالضجر، **لماذا**، لأنه لا شيء يمكن أن يُدخل عليك الفرح، **قد** أكتفي بالقليل، لو ملكتُه، **لا بدّ** أن تجد شيئاً ما، مسيرة مهنية، عملاً، للوهلة الأولى لا أجد لك من أسباب لتشتكي، **إن** المسيرة المهنية والعمل هما اللذان يملكانني، لست أنا من أملكُهما، **إننا** جميعاً نشتكي من هذه العلّة، في حالة ما كان كذلك، فأنا بدوري أريد أن يعرفوني عبقرياً في الرياضيات بدل أستاذ رديء وخنوع يشتغل في مؤسسة للتعليم الثانوي ولا خيار أمامي سوى أن أستمر كذلك، **إنني** لا أحبُّ نفسي، ربما هذا هو المشكل، **إنْ** أتيتني بمعادلة ذات مجهوليْن أستطيع مع ذلك أن أقدم لك خدماتي المتخصصة، لكن، والأمرُ يتعلق بتنافر من هذا الحجم، لن ينفعك علمي سوى في تعقيد حياتك، لذلك أطلب منك أن تشاهد أفلاماً كمن يتناول أدوية مُسكّنة، لا أن تتعاطى للرياضيات، التي تُتعب كثيراً خلايا الدماغ، **هل** لديك فكرة، **فكرة** عن ماذا، **عن** فيلمٍ مثير للاهتمام، يستحق عناء المشاهدة، **هذا** ما لا ينقص، ادخلْ إلى المحلّ، قم بجولة واختر فيلماً، **لكن** اقترحْ عليّ فيلماً واحداً، على الأقل. فكّرَ أستاذ الرياضيات، ثم فكّرَ، وفكّرَ، وأخيراً قال، «الإلحاح هو سرُّ النجاح»، **وما** هذا، **فيلم**، هذا ما طلبتَ مني، **يبدو** مثلاً شعبياً، **إنه** مثل شعبي، **كله**، أم العنوان فقط، **انتظر** لترى، **من** أيّ نوع، **المثل**، **كلّا** الفيلم، **كوميديا**، **هل** أنت متأكد أنه ليس من نوع الدراما القديمة، من مسرحيات الفروسية، أو دراما من النوع الحديث، بكل ما فيها من طلقات رصاص وانفجارات، **إنها** كوميديا خفيفة، مسلية، **سوف** أسجل ذلك، ما هو اسم الفيلم، «**الإلحاحُ** هو سرّ النجاح»، **حسناً**، لقد سجّلتُه، **إنه** ليس أي تحفة من تحف السينما، لكنه يمكن أن يسلّيك لمدة ساعة ونصف.

تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في بيته، تعلو وجهه أمارات شكّ، لا شيء خطيراً، لكن، ليست تلك هي المرة الأولى التي يحدث له شيء كهذا، أن يتابع تأرجح إرادته بين قضاء الوقت في تحضير شيء يأكله، وهو عموماً أمر لا يعني من جهدٍ سوى أن يفتح علبة ويحمل محتواها ليسخنه فوق النار، أو أن يخرُج ليتناول العشاء في مطعم في الجوار، حيث يعرفونه بقلة اهتمامه بلائحة المأكولات، ليس تكبراً من زبون يصعب إرضاؤه، بل بسبب اللامبالاة، بسبب عدم الاكتراث، بسبب الكسل في اختيار طبق من بين الأطباق التي يقترحونها عليه من تلك القائمة القصيرة المتكررة. وقد عضّد موقفَه في ألّا يُخرج من البيت ما جلبَهُ معه من عمل الثانوية، التمارين الأخيرة التي أنجزها تلاميذه، والتي ينبغي له أن يقرأها بتركيز ويصحّحها كلما هاجموا ما علّمَهم من حقائق أو سمحوا لأنفسهم بحرية مفرطة في التأويل. إنّ مادة التاريخ التي يقع على عاتق تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يُدرّسها مثل شجيرة بونساي يجب أن تقطع جذورها من حين لآخر حتى لا تكبر، منمنمة طفولية للشجرة الضخمة التي تضم الأماكن والأزمنة، وكل ما يجري فيهما، ننظر، فنرى تفاوت الأحجام ونكتفي بذلك، نمرُّ مرور العابرين على الاختلافات التي لا تقل وضوحاً، مثلاً، ولا أي طائر، بل حتى الطائر الطنان، لن يستطيع أن يبني لنفسه عشاً فوق شجرة بونساي، وإن كان صحيحاً أنه تحت الظل الصغير لهذه الشجيرة، شرط أن يكون وارفاً بما يكفي، يمكن أن تحتمي سحلية، فإنه من اليقين أن طرف ذيل هذا الزاحف سيظل خارج الظل. إنّ مادة التاريخ التي يُدرّسها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، كما يقرُّ هو نفسه بذلك ولا يهمه أن يعترف إنْ سألوه، لها كمية كبيرة من الأذناب التي تظل في الخارج، بعضها ما يزال يتحرك، بعضها الآخر تقلص إلى جلد

متصلب يحتوي صفاً صغيراً من الفقْرات المنفصلة بداخله. وهو يتذكر الحديث مع زميله، فكّر، **الرياضيات** جاءت من كوكب دماغي آخر، في الرياضيات لن تكون أذناب السحلية سوى أشياء تجريدية. أخرجَ الأوراق من داخل المحفظة ووضعها فوق طاولة العمل، أخرج أيضاً شريط فيلم «الإلحاحُ هو سرّ النجاح»، وهناك كان أمران يمكن أن يخصص لهما أمسية هذا اليوم، تصحيح التمارين، مشاهدة الفيلم، مع أنه كان يشكُّ في أن الوقت لن يكون كافياً للقيام بكل هذا، لأنه لم يكن من عادته أن يشتغل حتى وقت متأخر من الليل ولا يحب ذلك. لم يكن تصحيح تمارين التلاميذ أمراً مستعجلاً حدّ الجنون، أما مشاهدة الفيلم فلم يكن أمراً مستعجلاً البتّة. من الأفضل أن يستمر في قراءة الكتاب الذي كان يقرأه، فكّرَ. بعد المرور بالحمام، ذهب إلى الغرفة ليغير ملابسه، غيّر الحذاء والسروال، ارتدى سترة فوق القميص، دون أن ينزع ربطة العنق لأنه لا يحب أن يظهر عاري العنق، ثم دلف إلى المطبخ. أخرج من الخزانة ثلاث علب مختلفة من الطعام، وبما أنه لم يكن يعرف أيها يختار، فقد أجرى قرعة وهو يدندن أغنية طفولية قديمة غالباً ما كانت ترمي به خارج اللعبة، وتقول، **إمْ سترام غْرام، بيغا بيغا، بوغ بوغ إس ريد تام**. فازَ بالقرعة طبقُ اللحم، وهو ما لم يكن يحبه أكثر، لكنه ارتأى أنه لا ينبغي له أن يعاكس القدر. أكل في المطبخ، يدفع الكل بكأس نبيذ أحمر، وعندما كاد ينتهي، من دون أن يفكر تقريباً، كرّر الأغنية رفقة ثلاث قطع من فتات الخبز، واحدة في اليسار، خاصة بالكتاب، ثانية في الوسط، خاصة بالتمارين، وثالثة في اليمين، خاصة بالفيلم. ربح فيلم «الإلحاحُ هو سرّ النجاح»، واضح أنه ما يجب أن يكون، ويتمتع بقوة كبيرة، ولا فائدة من اللعب الأنيق مع القدر، لأننا دائماً نخسر. هذا

ما يُقال عادة، وبما أنه يُقال عادة، نقبل الحكم من دون نقاش، بينما واجبنا بصفتنا أشخاصاً أحراراً قد يكون هو أن نعترض بقوة على القدر المتسلط الذي قرّر، من يدري بأي نوايا خبيثة، أن الرّابح هو الفيلم، وليس التمارين أو الكتاب. بوصفه أستاذاً، يُدرّسُ مادة التاريخ فوق ذلك، فإن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا، بالنظر إلى المشهد الذي عايناه للتو في المطبخ، حيث سلّم مستقبله المباشر وربما ما سيأتي منه لاحقاً إلى ثلاث قطع من فتات الخبز وهذيان صبياني لا معنى له، يُعتبرُ نموذجاً سيئاً للمراهقين ولما يضعه القدر بين أيديهم. لسوء الحظ، لن يكون هناك من مجال في هذا السرد لاستباق الآثار الضارة المحتملة لما لهذا الأستاذ من تأثير في تكوين الأرواح الشابة للمُتمدْرسين، لذلك نتركها هنا، من دون أي أمل آخر في أنها سوف تجد، في يوم من الأيام، في طريق الحياة، تأثيراً ذا علامة مخالفة تحررها، من يدري ربما في آخر لحظة، من الضياع غير المنطقي الذي يُهددها الآن.

غسل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أواني طعام العشاء بعناية، فقد كان دائماً يعتبر أنه من الواجب المقدّس أن يترك كل شيء نظيفاً ومرتّباً في مكانه بعد الأكل، مما يوضح لنا، بالعودة للمرة الأخيرة إلى الأرواح الشابة التي ذكرناها سابقاً، والتي قد يعتبر إجراء كهذا بالنسبة إليها، ربما، بل وبنسبة احتمال عالية، أمراً مضحكاً، والواجب حبراً على ورق، حتى أنه مع شخص لا يُنصح به في مواضيع، أمور ومسائل تتعلق بحرية الإرادة يمكن تعلُّم شيء ما. وقد تلقّى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من العادات المنظمة لأسرته التي ولد فيها هذا الدرس ودروساً جيدة أخرى، وخاصة من أمه، التي ما زالت على قيد الحياة لحسن الحظ وتنعم بصحة جيدة، والتي سوف يذهب

لزيارتها بكل تأكيد في يوم من الأيام، هناك في مدينة صغيرة من مدن الأقاليم حيث فتح أستاذ المستقبل عينيه على العالم، مهد آل ماكسيمو من جهة أمه وآل أفونسو من جهة والده، وحيث صادف أنْ كان هو أول تيرتوليانو في شجرة العائلة، حين ولد قبل أربعين سنة تقريباً. أما والدُه، فليس هناك من بُدّ سوى أن يذهب ليزوره في المقبرة، هكذا هي الحياة العاهرةُ، دائماً ما تنقضي. خطرت الكلمة البذيئة على باله من دون أن يستدعيها، حدث ذلك عندما فكر في والده وهو يغادر المطبخ فشدّه الحنين إليه، لأن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليس ممّن يتفوّهون بالكلام البذيء، لدرجة أنه إن نطق بها في مناسبة نادرة فإنه يندهش هو نفسه لغرابة الأمر، وينذهل لغياب اقتناع الجهاز الصوتي، الحبال الصوتية، الفتحة الزرمدية، اللسان، الأسنان والشفتين، كأنها تنطق، مستاءة، لأول مرة، بكلمة من لغة كانت تجهلها إلى حدود تلك اللحظة. في القسم الصغير من البيت الذي اتخذ منه مكتباً وغرفة جلوس، ثمة أريكة من مقعدين، طاولة صغيرة، في الوسط، كرسي ذو مقعد مُنجّد يبدو مضيافاً، قبالته جهاز تلفاز، عند نقطة الاستهراب، وعلى الجانب كي تتلقى ضوء النافذة، طاولةُ عمل حيث كانت تمارين التاريخ وشريط الفيديو ينتظران من سيربح القرعة منهما. كان جداران تغطيهما الكتب، تعلو معظمها تجاعيد الاستعمال وما أصابها من تلف بسبب القدم. فوق الأرضية، سجاد برسوم هندسية، ألوان كامدة، أو ربما باهتة، تساعد على خلق أجواء رفاهية لا تعدو أن تكون متوسطة البساطة، من دون زيف ولا ادعاءات لتبدو أكثر مما هي، مكاناً يليق بعيش أستاذ يشتغل في التعليم الثانوي ويكسب أجراً قليلاً، وفق ما يبدو أنه عناد نزوي وسط طبقة المدرسين عموماً، أو حُكماً تاريخياً لم ينتهوا بعد من قضائه.

فقطعة فتات الخبز الوسطى، أي ذلك الكتاب الذي كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بصدد قراءته، وهو دراسة قوية عن حضارات بلاد الرافدين، كان مفتوحاً حيث تركه ليلة أمس، هنا فوق الطاولة الصغيرة في الوسط، ينتظر، بدوره، مثل قطعتَيْ فتات الخبز الأخرييْن، تنتظر، مثلما تفعل الأشياء على الدوام، كل الأشياء، وهي لا يمكنها أن تفلت من هذا الأمر، لأن القدر هو من يحكمها، ويبدو أنه يشكل جزءاً من طبيعتها التي لا تقهر بصفتها أشياء. من طرف شخصية كما أُعلن عن ذلك بخصوص تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا، الذي سبق وأبان عن فكر شارد، بل مراوغ أيضاً، منذ أن عرفناه قبل مدة وجيزة، لن يكون من المدهش في هذه اللحظة أن نتابعه وهو يقوم بعرض حركات محاكاة واعية لنفسه، يتصفّح تمارين التلاميذ بانتباه زائف، يفتح الكتاب في الصفحة التي توقفت عندها القراءة، ينظر من دون اهتمام إلى الشريط من جهة إلى أخرى، كأنه لم يقرر بعد أي شيء سيفعله في نهاية المطاف. لكن المظاهر، التي ليست دائماً خداعة كما يقال، غالباً ما تنفي نفسها وتسمح ببروز مظاهر تفسح المجال أمام إمكانية حقيقية لاختلافات مستقبلية جدية وفق نموذج تصرّف كان يبدو، عموماً، أنه يقدم نفسه بوصفه نهائياً وراسخاً. لقد كان بوسعنا أن نتحاشى هذا الشرح المتكلف لو قلنا إنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو توجّه مباشرة، أي في خط مستقيم، إلى طاولة العمل، أخذَ شريط الفيديو، جال ببصره عبر المعلومات الواردة في وجه العلبة وظهرها، استحسن فيها وجوه الممثلين الباسمة، التي تفيض مرحاً، لاحظ أن اسمَ واحدٍ منهم فقط، صاحب الدور الرئيسي، وهو ممثلة شابة جميلة، كان مألوفاً لديه، مما يشير إلى أن الفيلم، عند إمضاء العقود، لم يثر اهتماماً خاصاً

لدى المنتجين، وبعد ذلك، بحركة حازمة تنمّ عن إرادة يبدو أنها لم تشك قط في نفسها، دفع الشريط داخل جهاز الفيديو، جلس على الكرسي، ضغط على زرّ البداية في جهاز التحكم عن بُعد وعدل جلسته ليقضي على أحسن وجهة أمسية، يبدو مما لاحظناه، أنها كانت تعدُ بالقليل، وربما ستفي بأقل من ذلك. وكذلك كان. ضحكَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مرّتيْن، ابتسمَ ثلاث أو أربع مرات، فالكوميديا، علاوة على أنها خفيفة، وفق تعبير زميله أستاذ مادة الرياضيات، كانت على وجه الخصوص عبثية، سخيفة، ابتكاراً سينمائياً حيث المنطق والحسّ المشترك بقيا يحتجّان من خارج الباب لأنه لم يُسمح لهما بالدخول إلى حيث يسيطر الجنون. العنوان، «الإلحاحُ هو سرّ النجاح»، كان من تلك الاستعارات الواضحة، من نوع أبيض، تضعه دجاجة، أما من ألحّ نجحَ فلا يظهر في الحكاية، بل يقتصر كل شيء على قصة طموح جامح وشخصي لممثلة شابة وجميلة تُجسّد أحسن ما لقّنوها، ويتخلل ذلك حالات من سوء الفهم، مناورات، اصطدامات، لم تفلح وسطها، لسوء الحظ، تعاسةُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في العثور على أدنى عزاء. عندما انتهى الفيلم، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أكثر غضباً من نفسه مما كان عليه حيال الزميل. فهذا الأخير كانت تشفع له نواياه الحسنة، لكن هو، الذي بلغ من العمر ما لا يسمح له بأن ينساق وراء السراب، فما كان يؤلمه، كما يحدث دائماً للسُّذَّج، هو هذا الأمر نفسه، سذاجتُه بالضبط. بصوتٍ عالٍ، قال، **غداً** سوف أعيد هذا الخراء، ولم يشعر بأي دهشة هذه المرة، إذ رأى أن من حقه أن يخفف عن نفسه بطريقة بذيئة، وفوق ذلك يجب الأخذ بعين الاعتبار أن هذه هي فقط الكلمة البذيئة الثانية التي أفلتت منه في الأسابيع

الأخيرة، أما الأولى فلم تمكن، مع ذلك، سوى في تفكيره، وما يقتصر على التفكير لا يحتسبُ. ألقى نظرة على ساعته اليدوية فرأى أنها لا تتجاوز الحادية عشرة مساء. الوقت مبكر، همهم، وكان يعني بذلك، كما ظهر على الفور، أنه ما زال أمامه وقت ليعاقب نفسه على الطيش الذي استبدل به الواجب مقابل الإخلاص، والأصيل مقابل الزائف، والدائم مقابل العابر. جلس إلى المكتب، سحبَ نحوه، بعناية، تمارينَ مادة التاريخ، كأنه يستسمحها على ما بدر منه من إهمال، واشتغل طوال الليل، كأستاذ بضمير حيّ كما كان يفتخر دائماً أنه، يغمره حبٌّ بيداغوجي نحو تلامذته، صارم جداً في التواريخ ولا يرحم بخصوص الأسماء المستعارة. كان الوقت متأخراً عندما بلغ نهاية المهمة التي حددها لنفسه، لكن، وهو ما يزال مثقلاً بالذنب، نادماً عن الخطيئة، وكمن قرر أن يستبدل مسح آلام بمسح آخر لا يقل عنه عذاباً، أخذ إلى الفراش الكتاب حول حضارات بلاد الرافدين، في الفصل الذي يتناول موضوع الساميين الآموريين، وخاصة ملكهم حمورابي، صاحب القانون. بعد أربع صفحات نام نوماً هادئاً، في إشارة إلى أنه نال المغفرة وحظي بالعفو.

استيقظَ بعد نصف ساعة. لم ير أي حلم، ولم يزعج دماغه أي كابوس فظيع، لم يلوّح بيديه وهو يصدُّ عن نفسه وحشاً لزِجاً جاء ليلتصق بوجهه، فتح عينيه فقط وفكّرَ، **هناك** أحد ما في البيت. بهدوء، ومن دون تسرُّع، جلس على السرير وأصاخ السمع. الغرفة داخلية، وحتى خلال النهار لا تصل أصوات الخارج إلى هنا، وفي هذا الوقت من الليل، **كم** تكون الساعة، عادة ما يكون الصمت مطبقاً. وكان مطبقاً. أياً كان المُقتحمُ، فإنه لم يكن يتحرك من حيث كان. مدَّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ذراعه نحو طاولة السرير وأشعل

الضوء. كانت الساعة تشير إلى الرابعة والربع. مثل معظم الناس العاديين، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا شجاعاً بقدر ما كان جباناً، ليس من أولئك الأبطال السينمائيين الذين لا يُقهرون، لكنه أيضاً ليس رعديداً، من أولئك الذي يتبوّلون بين سيقانهم حين يسمعون الباب يصرُّ في قبو الحصن. صحيح أنه أحسّ بالشَّعْر ينتصبُ فوق جلد جسده، لكن هذا يحدث حتى للذئاب حين تواجه الخطر، ولا أحد يتمتع بكامل قواه العقلية قد يخطر بباله أن يجزم بأن الذئاب كائنات جبانة حقيرة. وسوف يبرهن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه ليس جباناً بدوره. ترك نفسه ينزلق من فوق السرير، حمل حذاءً في غياب سلاح أكثر حدة، وبكثير من الحذر، أطلّ على باب الممر. نظر إلى جهة، ثم إلى الأخرى. صار الإحساس بالحضور الذي أيقظه أكثر فأكثر قوة. وهو يشعل المصابيح كلما تقدم، يسمع صدى قلبه في قفصه الصدري كأنه حصان يركض، ولج تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الحمام ثم دخل إلى المطبخ. لا أحد. والحضورُ، هناك، بشكل غريب، بدا له أنه خفّض من قوته. عاد إلى الممر، وبينما هو يقترب من غرفة الجلوس أدرك أنّ الحضور الخفي بدأ يصير أكثر كثافةً عند كل خطوة، كما لو أن الأجواء أخذت تهتز بسبب انعكاس توهّج خفي، كما لو أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو المتوتر يمشي في أرض ملوثة بالأشعة ويحمل في يده مقياساً من نوع «جيغير» تشعُّ منه إكتوبلاسمات بدل أن تصدر عنه إشارات صوتية. لم يكن هناك من أحد في غرفة الجلوس. نظر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من حوله، وهناك كانا، راسخين صامدين، الرّفان العاليان الممتلئان بالكتب، وهناك النقوش المؤطرة على الجدران، التي لم تتم الإشارة إليها إلى حد الآن، لكنها بكل تأكيد، كانت هناك، وهناك، وهناك،

المكتب مع الآلة الكاتبة، الكرسي، الطاولة الصغيرة في الوسط مع منحوتة صغيرة وضعت وسط الشكل الهندسي بالضبط، والأريكة ذات المقعدين، وجهاز التلفاز. همهم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بصوت خفيض، بشيء من الخوف، **هذا** إذن، وحينئذ، بعد أن نطق بالكلمة الأخيرة، اختفى الحضور، في صمت، كأنه فقاعة صابون انفجرت. نعم، لقد كان ذلك، جهاز التلفاز، قارئ أشرطة الفيديو، الكوميديا التي تحمل عنوان «الإلحاحُ هو سرّ النجاح»، صورة هناك بالداخل عادت إلى مكانها بعد أن ذهبت لتوقظ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من سريره. لم يكن يتخيل أي صورة يمكن أن تكون، لكنه كان على يقين من أنه سيتعرّفها عندما تظهر. ذهب إلى الغرفة، ارتدى روباً فوق المنامة حتى لا يُصاب بنزلة برد ثم عاد. جلس على الكرسي، ضغط من جديد على زرّ جهاز التحكم عن بُعد ثم، منحنياً إلى الأمام، ومرفقاه متكئان على الركبتين، كلُّه عيون محدقة، وقد اختفت الابتسامة من وجهه وتلاشى منه الضحك، شاهد من جديد قصة تلك المرأة الشابة الجميلة التي كانت تريد أن تحقق نجاحاً في حياتها. بعد مرور عشرين دقيقة، رآها تدلف إلى الفندق وتتوجه إلى مكتب الاستقبال، وسمعها تنطق باسمها، **اسمي** إنيش دي كاشترو، وكان قد انتبه من قبل إلى تلك الصدفة المثيرة والتاريخية، سمعها بعد ذلك تتابع، **لديّ** حجزٌ هنا في فندقكم، نظر إليها الموظف وجهاً لوجه، إلى الكاميرا، وليس إليها، أو إليها هي التي كانت تقف مكان الكاميرا، ما قاله كاد لا يفهمه الآن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لأن إبهام يده التي تمسك جهاز التحكم عن بعد ضغطت بسرعة على زرّ التوقف، لكن الصورة كانت قد مرت، ومن المنطقي ألا يتلف الشريط سدى من أجل ممثل، من الكومبارس أو ما يزيد قليلاً عن

ذلك، لا يدخل إلى القصة إلا بعد مرور عشرين دقيقة، أعاد الشريط إلى الوراء، مرّ من جديد على وجه موظف الاستقبال، فدخلت المرأة الشابة الجميلة من جديد إلى الفندق، ومرة أخرى قالت إن اسمها إنيش دي كاشترو وأن لديها حجزاً في الفندق، نعم الآن، ها هي هنا، الصورة الثابتة لموظف الاستقبال وهو ينظر مباشرة إلى من تنظرُ إليه. نهض تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عن الكرسي، جثا على ركبتيْه أمام التلفاز، وجهه قريب جداً من الشاشة بقدر ما تسمح له الرؤيةُ، **هذا** أنا، قال، ومرة أخرى أحسّ بشَعْر جلد جسده ينتصبُ، ما يظهر هناك ليس حقيقة، لا يمكن أن يكون حقيقة، فأي شخص متوازن يحضر هناك بمحض الصدفة يمكن أن يطمئنه، **يا** لها من فكرة، عزيزي تيرتوليانو، أرجوك أن تلاحظ أن له شارباً، بينما وجهك أنت محلوق. هكذا هم الأشخاص المتوازنون، من عادتهم أن يُبسِّطوا كل شيء، بعد ذلك، لكن دائماً بعد فوات الأوان، نراهم يندهشون من التعدد الثري للحياة، فيتذكرون أن الشوارب واللحى لا تملك إرادات خاصة بها، بل تكبر وتزدهر حين يُسمح لها بذلك، أحياناً أيضاً بسبب كسل من يحملها، لكن، بين لحظة وأخرى، فقط لأن الموضة تغيرت أو لأن كثرة الشَّعْر الرتيبة جعلتهم منزعجين أمام المرآة، يختفون دون أن يتركوا أثراً. ويجب ألا ننسى أيضاً، لأن كل شيء ممكن حين يتعلق الأمر بمُمثّلين وبفنون التشخيص، الإمكانية الكبيرة في أن يكون الشارب الرقيق لموظف الاستقبال، شارباً اصطناعياً، بكل بساطة. وقد حدث ذلك من قبل. هذه التخمينات التي قد تبرز بشكل طبيعي أمام أي شخص، كان بوسع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يصوغها وحده لو أنه لم يكن مركّزاً تركيزاً كبيراً على الفيلم وهو يبحث فيه عن حالات أخرى يظهر فيها نفس الممثل

الثانوي، أو الكومبارس الذي ينطق ببعض السطور، كما تنبغي تسميتُه بشكل أدقّ. حتى نهاية القصة، الرجل ذو الشارب، دائماً في دور موظف الاستقبال، ظهر في أكثر من خمس مناسبات، وكل مرة في مهمة أقلّ قيمةً، رغم أنه في المناسبة الأخيرة كان عليه أن يتبادل جملتين تدّعيان الخبث مع المرأة المهيمنة إنيش دي كاشترو وبعد ذلك، بينما كانت تبتعد وهي تُؤرجحُ وركيها، نظر إليها بتعبير شهواني مثير للضحك، اعتقد المخرجُ أن المشاهد لن يقاوم ليضحك منه. إنه لمن نافلة القول أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يجد الأمر مسلّياً في المرة الأولى، بل وجده أقلّ إثارة للضحك في المرة الثانية. كان قد عاد إلى الصورة الأولى، تلك التي يظهر فيها موظف الاستقبال، في لقطة كبيرة، يحدق مباشرة في إنيش دي كاشترو، وراح يحلل الصورة، بدقة، سمةً بعد سمة، صفةً بعد صفة، **باستثناء** بعض الفروق الطفيفة، فكّرَ، الشاربُ خصوصاً، الشعرُ المحلوق بطريقة مختلفة، الوجهُ الأقل امتلاء، فهو مثلي تماماً. كان يشعر بالطمأنينة الآن، فمن دون شك أن الشبه كان، إن صح التعبير، مدهشاً، لكنه لا يتجاوز ذلك الحد، فأشكال التشابه ليس هو ما ينقص في هذا العالم، لننظر إلى التوأمين، مثلاً، قد يكون من المدهش أن نجد شخصين يتشابهان في كل شيء مع وجود أكثر من ستة مليارات شخص فوق الأرض. لا يمكنهما أن يكونا متشابهين تماماً في كل شيء، هذا معروف، قال، كأنه يتحدث إلى شبه أناهُ الأخرى التي كانت تنظر إليه من داخل جهاز التلفاز. جلس من جديد على الكرسي، فشغل الوضع الموافق لوضع الممثلة التي تعلب دور إنيش دي كاشترو، وراح يلعب، بدوره، دور زبون الفندق، اسمي تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أعلن، وبعد ذلك، مبتسماً، **وأنتَ**، كان

السؤال من أكثر الأمور بداهة، لو أن شخصين متشابهين التقيا، فمن الطبيعي أن يرغب كل واحد منهم في معرفة كل شيء عن الآخر، والاسم هو أوّلُ شيء لأننا نتصور أنه هو الباب الذي يكون منه الدخول. تصفّحَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الشريطَ حتى النهاية، وهناك كانت قائمة الممثلين الأقلّ أهمية، لم يتذكر إن جاء فيها ذكر الأدوار التي يلعبونها، لكن ذلك لم يكن في نهاية المطاف، كانت الأسماء تظهر وفق الترتيب الألفبائي، بكل بساطة، وكانت كثيرة. أمسكَ شبهَ شارد علبة الشريط، ومرّرَ من جديد عينيه على ما كُتب عليها وما كانت تُظهرهُ، وجوه باسمة للممثلين الرئيسيين، ملخص مقتضب عن أحداث الفيلم، وكذلك، في الأسفل، في سطر من المعلومات التقنية، بحروف صغيرة، تاريخُ صدور الفيلم. لقد مضت خمس سنوات على صدوره، همهم، وهو يتذكر في الوقت ذاته أن ذلك تماماً هو ما قاله له زميلُه أستاذ مادة الرياضيات. لقد مرت خمس سنوات، كرّرَ، وفجأة تزعزع العالمُ من جديد، ولم يكن أثرُ حضورٍ غامض غير ملموس هو ما أيقظهُ، لكنه شيء ملموس، ليس مادياً فحسب بل قابلاً للتوثيق. بيديْن مرتعشتيْن، فتحَ الجوارير وأغلقها، ثم أخرج منها أظرفة بداخلها صورٌ سلبية ونسخٌ من صورٍ، نشر كل ذلك فوق المكتب، ووجد في الأخير ما كان يبحث عنه، صورتَهُ، التي تعود إلى خمس سنوات خلت. كان له شارب، كان شعره محلوقاً بشكل مختلف، ووجهه أقلّ امتلاء.

حتى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو نفسه قد يعجزُ أن يقول إنْ كان النّومُ قد فتح له مجدداً ذراعيه الرحيمتيْن بعد ذلك الكشف المريع في أنه يُوجدُ، ربما في نفس المدينة، رجلٌ هو صورته طبق الأصل، بحكم الوجه والمظهر عموماً. بعد مقارنة متأنية لصورته قبل خمس سنوات مع الصورة المكبرة لموظف الاستقبال، بعد أن لم يجد أي فرق بين هاته وتلك، مهما كان صغيراً، ولو تجعيدة دقيقة عند هذا لا تظهر عند الآخر، ترك تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو نفسه يسقط على الأريكة، وليس الكرسي، حيث لا يتسع المجال بما يكفي لاحتضان الانهيار الجسدي والذهني لشخصه، وهناك، برأس يشدّه بين يديه، بأعصاب متوترة، ومعدة منقبضة، كابد لينظم أفكاره، يفكها من فوضى الأحاسيس المتراكمة منذ تلك اللحظة التي قامت فيها ذاكرته، وهي تحرص على ألا ينتبه إلى ذلك من وراء ستار عينيه المُغمضتيْن، بإيقاظه مفزوعاً من نومه الأول والوحيد. إنّ أكثر ما يحيّرني، كان يُفكّر بعناء، ليس أن هذا الرجل يشبهني، أنه نسخة مني، أو لنقل نسخة ثانية مني، لأن مثل هذه الحالات ليست نادرة، فلدينا التوأم، ولدينا اللّيمُ، والأنواع تتكرّر، الكائن البشري يتكرّر، إنه يتشكل من رأس، من جذع، من ذراعين، من ساقين، ويمكن أن يحدث، لست

متيقناً تماماً من ذلك، بل هي مجرد فرضية، أنّ تغييراً عرضياً في إطار جيني معيّن يمكن أن ينتج عنه كائن مشابه لكائن ناتج عن إطار جيني آخر من دون أن تكون له أي علاقة به، إنّ ما يُحيّرني ليس هذا الأمر بقدر ما يُحيّرني أنْ أعلم أنني قبل خمس سنوات كنت نظيرَهُ وقتئذ، بل كان لنا شارب معاً، بل وهناك أيضاً إمكانية، ماذا أقول، احتمال أنه بعد مرور خمس سنوات، أي اليوم، في هذه الساعة تحديداً، في هذه الساعة من الفجر، ما زال التناظر مستمراً، كما لو أن تغييراً في ذاتي كان عليه أن يُحدث تغييراً في ذاته، أو، أفظع من هذا، أو ألّا أتغير لأن الآخر تغيّر، لكن أن يكون التغيير متزامناً، فهذا ما قد يجعلني أرطم رأسي بالجدران، نعم، صحيح، لا ينبغي لي أن أُحوّل هذا الأمر إلى مأساة، بما أننا نعرف أن كل ما هو ممكن قد يقع، أولاً الصدفة هي ما جعلتنا متشابهين، بعد ذلك كانت صدفة الفيلم الذي لم يسبق أن سمعتُ به، كان من الممكن أن أعيش بقية حياتي من دون أن تختار ظاهرةٌ كهذه لتتجلى أستاذاً عادياً لمادة التاريخ، كان قبل ساعات يصحح أخطاء تلاميذه ولا يعرف الآن ما يفعل بالخطأ الذي تحول إليه هو نفسه، بين لحظة وأخرى. هل أنا خطأ بالفعل، تساءل، إنْ افترضنا أنني كذلك حقاً، فأيّ عواقب على الكائن البشري إن علم أنه خطأ. سرى إحساسٌ من الخوف عبر عموده الفقري ففكّر أن ثمة أشياء يُستحسنُ تركُها على حالها وجوهرها، وإلا فإن هناك خطرَ أنْ ينتبه الآخرون، أو، وهذا أفظع، أن ننتبه نحن من خلال عيونهم، إلى هذا الانحراف الخفيّ الذي شوّهنا جميعاً عند ولادتنا وينتظرُ، وهو يقضم أظافره من نفاد الصبر، اليومَ الذي يظهر فيه ويعلن عن نفسه، **ها** أنا ذا هنا. إنَّ الثقل المفرط لتفكيرٍ بهذا العمق، والمُركّز فوق ذلك على احتمال وجود شبيهيْن

مطلقين، لكن المُحْدَس بومضات عابرة أكثر مما هي مصاغة لغوياً، جعله يطأطئ رأسه، أما النومُ، وهو نوم يشتغل وفق وسائله الخاص وسيتابع عمله الذهني الذي كانت اليقظة تنجزه إلى حد الآن، فقد سيطر على الجسد المتعب وساعده على أن يتكبّب فوق وسادات الأريكة. لم يرْقَ ذلك إلى درجة الراحة كي يستحق ويبرر اسمه الجميل، إذ بعد مرور بضع دقائق، وهو يفتح عينيه فجأة، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، مثل دميةٍ ناطقة تعطّلت آلية اشتغالها، يُكرّر بكلمات مختلفة السؤال الذي طرحه قبل حين، ما معنى أن يكون المرء خطأً. هزّ كتفيه كما لو أن السؤال، فجأة، لم يعد يثيرُ اهتمامه. سواء كانت أثراً مفهوماً لتعبٍ بلغَ مداهُ، أو، عكس ذلك، نتيجةً حميدة لسنة نوم خفيف، فإن هذه اللامبالاة تبقى، مع ذلك، محيرة وغير مقبولة، لأننا نعرفُ جيداً، وهو أحسن من أي أحد آخر، أن المشكلة لم تُحلّ، أنها سليمة تماماً هناك داخل جهاز الفيديو، في انتظاره هو أيضاً، بعد أن عرضت في كلمات لم تُسمع لكنها كانت مضمنة في حوار السيناريو، **واحدٌ** منا خطأٌ، وهذا ما قاله بالفعل مُوظّف الاستقبال لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، عندما توجّه إلى الممثلة التي تلعب دور إنيش دي كاشترو وأخبرها أن الغرفة التي حجزتْها تحمل رقم ١٢١٨. كم من مجهول تتكون منه هذه المعادلة، سأل أستاذُ التاريخ أستاذَ الرياضيات لحظة كان يجتاز مرة أخرى عتبة النوم. لم يُجب زميلُه المتخصص في الأرقام على السؤال، اكتفى بحركة شفقة وقال، **نتحدثُ** لاحقاً، استرح الآن، حاول أن تنام، لأنك بحاجة ماسة إلى ذلك. النومُ، من دون شك، كان هو ما يرغب فيه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أكثر من أي شيء آخر في تلك اللحظة، لكن محاولته باءت بالفشل. وما هي إلا دقائق معدودات

حتى كان مستيقظاً من جديد، تحفزه الآن فكرة لامعة خطرت عليه فجأة، وهي أن يطلب من زميله أستاذ الرياضيات أن يقول له لماذا تذكّر أن يقترح عليه أن يشاهد «الإلحاحُ هو سرّ النجاح»، مع أنه فيلم ذو مزايا هزيلة ويحمل ثقل خمس سنوات من الوجود المليء بالمحن، وهو ما يُشكّلُ لفيلمٍ أُنتج بميزانية عادية سبباً أكثر من موثوق كي ينعم بتقاعد بسبب العجز، إن لم يكن بسبب موتٍ تأجل فقط لبعض الوقت بفضل فضول نصف دزينة من المتفرجين غريبي الأطوار سمعوا كلاماً عن الأفلام الغريبة فظنوا أنه واحد منها. في هذه المعادلة المتشابكة، كان المجهول الأول الذي ينبغي له أن يكشفه هو إنْ كان زميله أستاذ الرياضيات قد انتبه أم لا إلى الشَّبه عندما شاهد الفيلم، إنْ كان الجواب بنعم، فما السبب الذي جعله يحجم عن تنبيهه حين اقترح عليه المشاهدة، ولو بعبارات تحذير مضحكة، من قبيل، **استعدّ**، فإنك ستخاف خوفاً عظيماً. ورغم أنه لا يؤمن بالقدر بالمعنى الدقيق للكلمة، أي القدر الأكبر الذي يتميز عمّا سواه من الأقدار الثانوية، لم يفلح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في التخلص من فكرة أن كثيراً من الصدف والمصادفات مجتمعة يمكنها أن تتوافق مع خطة يستحيل فكّ شفراتها لحدّ الساعة، لكن تطورها ونهايتها محددان سلفاً في الألواح التي دوّنها فيها ذلك القدر، على افتراض أنه يوجد ويحكمنا، منذ أول الزمان، ووضِعَ فيها التاريخ الذي سوف تسقط فيه أول شَعْرة من شَعْرنا وتاريخ آخر ابتسامة تعلو شفتيْنا. لم يعد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مستغرقاً في الأريكة مثل بدلة مدعوكة لا جسم بداخلها، فقد نهض للتو حازماً قدر ما استطاع بعد ليلة لم يعرف لها مثيلاً في حياته فيما يتعلق بعنف الأحاسيس، ولمّا شعر أن رأسه ينفلت من مكانه بعض الشيء، ذهب ليرقب السماء عبر زجاج

النافذة. كان الليل ما يزال متشبثاً بسطوح المدينة، ومصابيح الشوارع ما تزال مشتعلة، لكن ندى الصباح الرقيق كان قد بدأ يصبغُ بالشفافيّة الأجواءَ هناك في الأعلى. هكذا، تأكّد أنّ العالم لن ينتهي اليوم، وأنه قد يكون هدراً لا يسمح به أن تُشرق الشمس من أجل لا شيء، فقط ليكون حاضراً عند بداية العدم من كان وراء وجود كل شيء، وعليه، رغم أنها غير واضحة تماماً، ولا جلية بطبيعة الحال، تلك العلاقة الممكنة بين هذا الأمر وذاك، برزَ الحسُّ السليمُ لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليسدي له النصيحة التي لوحظ غيابُها منذ ظهور موظف الاستقبال في التلفاز، وكانت تلك النصيحة كما يلي، **إنْ** رأيتَ أنه يجب أن تطلب تفسيراً من زميلك فاطلبه مرة واحدة وإلى الأبد، سيكون ذلك دائماً أفضل من أن تظل هناك بلسان منعقد بالسؤال والشك، أنصحُكَ في كل الأحوال ألّا تفتح فمك أكثر من اللازم، أن تراقب كلامك، فأنت تحمل مشكلة حارقة بين يديك، تخلّص منها قبل أن تحرقك، أرجعْ شريط الفيديو إلى المحلّ اليوم بالضبط، ادفن تحت حجرٍ هذا الموضوع وستأتي على اللغز قبل أن يبدأ يُلقي نحو الخارج بأشياء قد تفضل ألّا تعرفها، أو أن تراها، أو أن تقوم بها، وعلاوة على هذا، بافتراض أن هناك شخصاً هو نسخة منك، أو أنت نسخة منه، وهذا ما يبدو كذلك، فأنت غير ملزم تماماً بأن تبحث عنه، هذا الشخص موجود وقد كنتَ على علم بذلك، أنت موجود وهو لا يعلم بذلك، لم تريا بعضكما قط، لم تصادفا بعضكما قط في الشارع، وأحسن ما عليك أن تفعل هو أنْ، **وماذا** لو التقيتُه في يوم من الأيام، لو صادفتُه في الشارع، قاطعه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **أشحْ** بوجهك عنه، لا من رأى ولا من سمع، **وماذا** لو خاطبني، **لو** لديه ذرة من الحكمة سيفعل الشيء نفسه، **لا يمكن** أن

نطلب من كل الناس أن يكونوا حكماء، لهذا فالعالم كما هو على حاله، **لم** تجبني على سؤالي، **أي** سؤال، **ماذا** أفعل إن هو خاطبني، **قل** له يا لها من صدفة رائعة، عجيبة، غريبة، ما يبدو لك مناسباً، لكنها دائماً صدفة، ثم تضع حداً للحديث، **هكذا**، بكل بساطة، **نعم**، هكذا، بكل بساطة، **قد** يكون ذلك قلة أدب، وقاحة، **أحياناً** تلك هي الطريقة الوحيدة لتجنب عواقب أكبر، لا تفعل ذلك وسترى ما سيقع، فكلمة تجرّ أخرى، وبعد اللقاء الأول يأتي اللقاء الثاني والثالث، وسرعان ما ستحكي حياتك لشخص غريب، وأنت عشت ما يكفي لتتعلم أنه مع الغرباء والأشخاص الذين لا نعرفهم كل الحذر قليل حين يتعلق الأمر بأمور شخصية، ثم، إنْ شئت أن أقول لك ذلك، لا أتصور شيئاً أكثر خصوصية، أكثر حميمية، من هذه البَلْبلة التي أنت على وشك أن تحشر نفسك فيها، **من** الصعب جداً أن أعتبرَ غريباً شخصاً يشبهُني تماماً، **دعه** يكون على ما كان عليه إلى حدّ الساعة، شخصاً غريباً، **نعم**، لكنه لا يمكن أن يكون غريباً أبداً، **كلنا** غرباء، حتى نحن اللذان نوجد هنا، **من** تعني بكلامك، **أنت** وأنا، أعني حسّك السليم وأنت نفسك، نلتقي لماماً لنتحدث، من حين إلى حين فقط، وإن شئنا نكون صريحين، فقط في أحيان قليلة كان ذلك يستحق العناء، **إنه** بسببي أنا، **بسببي** أنا أيضاً نحن مضطران لنمشي في خطّيْن متوازييْن، لكن المسافة التي تفصلنا، أو تفرّقنا، كبيرة جداً حتى أنه في معظم الحالات لا يسمع الواحد منا الآخر، **إنني** أسمعُكَ الآن، **لأن** الأمر كان يتعلق بحالة مستعجلة، والحالات المستعجلة تُقرّب بين الناس، **ما** يجب أن يكون سيكون، **أعرفُ** هذه الفلسفة، عادة ما يسمّونها القضاء والقدر، لكن ما تعنيه حقاً هو أن تقوم بما ترغب فيه حقاً، كما تفعل دائماً، **تعني** أنني

سأفعل ما عليّ أن أفعل، لا أقل من ذلك، **هناك** أشخاص يبدو لهم سيان ما فعلوا أو ما اعتقدوا أنه كان عليهم أن يفعلوه، **عكس** ما يذهب إليه الحسُّ السليم، أمور الإرادة ليست دائماً بسيطة، لأن البسيط هو التردد، الشك، غياب القرار، **من** قد يقولُ ذلك، **لا** تندهش، نحن دائماً نتعلم، **انتهت** مهمتي، افعل ما يبدو لك، **تماماً**، **وداعاً** إذن، وإلى أن نلتقي في مناسبة أخرى، **ربما** حتى نلتقي في حالة مستعجلة قادمة، **إنْ** تمكنتُ من الوصول في الوقت المناسب. كانت مصابيح الشارع قد انطفأت، حركة السير تكبر دقيقة بعد أخرى، والأزرق يطغى على لون السماء. كلنا نعرف أن كل يوم يطلعُ يكون هو أوّل يوم للبعض وآخر يوم للبعض الآخر، أما بالنسبة لمعظم الناس، فهو مجرد يوم آخر من الأيام. بالنسبة لأستاذ مادة التاريخ، تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، هذا اليوم الذي نحن فيه، أو نوجد فيه، بما أنه ليس هناك من سبب يدعو للتفكير بأنه سيكون آخر يوم، فلن يكون كذلك مجرد يوم آخر من الأيام. لنقل إنه برز في هذا العالم كإمكانية ليكون يوماً أوّل آخر، بداية أخرى، وهو بذلك يشير إلى قدر آخر. يتوقف كل شيء على الخطوات التي قد يقوم بها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا اليوم. لكن، المَوْكب، كما كان يقالُ في الأزمنة الماضية، هو الآن بصدد الخروج من الكنيسة. فلنتبعهُ.

يا له من وجه، همهم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عندما نظر إلى نفسه في المرآة، ولم يكن بالفعل منظراً جميلاً. فهو لم ينم أكثر من نصف ساعة، وقضى بقية الليل يصارع الدهشة والخوف الموصوفين هنا بدقة ربما تكون مفرطة، لكنه مسموح بها إنْ تذكرنا أنه لم يحدث قط في تاريخ الإنسانية، هذا الذي يُجدُّ الأستاذ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في تلقينه لتلاميذه، أنْ تواجد شخصان متشابهان في نفس

المكان ونفس الزمان. في حقب سابقة، كانت هناك حالات من التشابه الجسدي بين شخصين، أحياناً بين رجلَين، أحياناً بين امرأتَين، لكن دائماً كانت تفصلهم عشرات، مئات، آلاف السنوات وعشرات، مئات، آلاف الكيلومترات. وكانت أكبر حالة مثيرة للدهشة هي التي حدثت في مدينة ما، اختفت اليوم، حيث في نفس الشارع وفي نفس المنزل، لكن ليس في نفس الأسرة، ومع فرق مئتيْن وخمسين سنة، وُلدت امرأتان تتشابهان. لم يأت أي تاريخ أخبار على ذكر هذه الحالة العجيبة، وقليلاً ما تحدثت عنها التقاليد الشفهية، وهو شيء مفهوم تماماً، بما أنه لما ولدت المرأة الأولى لم يكن هناك علمٌ بوجود الثانية، وحين جات الثانية إلى الدنيا كان النسيان قد طوى ذكرى المرأة الأولى. بطبيعة الحال. لكن، وفي غياب تام لأي حجة وثائقية أو أي شهادة، بإمكاننا أن نؤكد، بل وأن نقسم بكلمة الشرف إن كان ضرورياً، بأن كل ما صرحنا به، نصرح به أو ربما قد نصرح به على أنه وقع في المدينة المختفية، حدث فعلاً. أما أنّ التاريخ لم يسجل حدثاً فذلك لا يعني أن هذا الحدث لم يقع.
عندما وصل إلى نهاية عملية حلق الذقن الصباحية، فحص تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من دون مجاملة وجهه الذي كان أمامه، فوجد نفسه، عموماً، في شكل أحسن. في الحقيقة، إنّ أيّ ملاحظ محايد، ذَكراً كان أم أُنثى، لن يرفض أن يصف ملامح أستاذ التاريخ بالمتناسقة، إنْ اعتبرها في مجموعها، وأكيد أنه لن ينسى أن يأخذ بعين الاعتبار المناسب الأهمية الإيجابية التي تحظى بها بعض أشكال اللاتناسق الطفيفة وبعض التنويعات الحجمية التي تشكل، إن صح القول، المِلْح الذي، في الشق الجانبي، يُحسّن ذلك المظهر من الطبق عديم الطعم الذي تقريباً دائماً ما يضرُّ في النهاية بالوجوه

المتوفرة على ملامح منتظمة أكثر من اللازم. لا يتعلق الأمر هنا بإعلان أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو له وجه رجولي كامل الأوصاف، فلا هو يدّعي ذلك ولا نحن ذاتيون في الوصف، لكن، لو كان يتوفر على ذرة من الموهبة لكان له مسار رائع في المسرح ولتمكن من لعب أدوار البطولة. ومن يقول المسرح، يقول السينما، طبعاً. قوسان لا بدّ من فتحهما. ثمة لحظات في السرد، وهذه اللحظة، كما سنرى، كانت واحدة منها، ينبغي أن يكون فيها ممنوعاً بحكم قانون الكتابة الجيدة أيُّ ظهور مُوازٍ لأفكار أو مشاعر الراوي على هامش ما تشعر به الشخصيات أو تفكر فيه. إن مخالفة هذا البند المُقيِّد، إنْ وُجد، ولن يكون ملزماً، بسبب التهور أو عدم احترام الناس، يمكن أن تدفع الشخصية، بدل أن تتبع خطاً مستقلاً في التفكير والمشاعر المنسجمة مع الوضع الذي خُصّص لها، كحقٍّ من حقوقها غير القابلة للتصرف، لتجد نفسها مداهمة بشكل اعتباطي بعبارات ذهنية أو سيكولوجية، والتي نظراً لمن تصدر عنه فمن الأكيد أنها لن تكون غريبة عنه تماماً، لكنها قد تبدو في لحظة ما أنها غير ملائمة على الأقل، بل وكارثية في بعض الحالات. وهذا بالضبط ما حدث لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. كان ينظر إلى نفسه في المرآة كمن ينظر إلى نفسه في المرآة فقط ليُقيّم أضرار ليلة من النوم السيّئ، كان يفكر في ذلك ولا شيء أكثر من ذلك، وفجأة، جاءت الفكرة المزعجة للراوي حول ملامح جسده والاحتمال الإشكالي في أنها قد تكون في يوم ما من أيام المستقبل، بمساعدة من إبراز موهبته الكافية، في خدمة الفن المسرحي أو الفن السينمائي، فنتج عن ذلك ردُّ فعل لن نبالغ إنْ وصفناهُ بالفظيع. لو أن ذلك الشخص الذي يلعب دور موظف الاستقبال كان هنا، فكّر بشكل ملحوظ، لو أنه

كان واقفاً أمام هذه المرآة، لكان الوجه الذي يراه هو وجهه. لا ينبغي أن نلوم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لأنه لم يتذكر أن الآخر له شارب في الفيلم، لم يتذكر ذلك، هذا صحيح، بل لأنه كان يعلم علم اليقين أنه لم يعد له شارب اليوم، ولذلك عليه أن يلجأ إلى تلك المعرفة الغامضة التي هي الحدس، لأنه يعثر على أحسن سبب في وجهه الشخصي الحليق، المتحرر من كل أنواع الشَّعْر. إنّ أيّ شخص يملك إحساساً لن يتردد في الاعتراف بأن ذلك النعت، تلك الكلمة الفظيعة، غير المناسبة على ما يبدو لمحيط منزلي لشخص يعيش وحده، لا بد أنه عبّر بما يكفي من الملاءمة ما دار بخلد ذلك الرجل الذي عاد مهرولاً لتوّه من مكتبه حيث ذهب يبحث عن قلم لبدي أسود وهو الآن، مرة أخرى أمام المرآة، يرسم فوق صورة وجهه، فوق شفته العليا وبالقرب منها، شارباً يشبه تماماً شارب موظف الاستقبال، دقيقاً، رقيقاً، شارب بطل. في هذه اللحظة، تحوّلَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى ذلك الممثل الذي لا نعرف شيئاً عن اسمه وحياته، وأستاذ مادة التاريخ لم يعد له وجود هنا، لم يعد هذا البيت بيته، والوجه في المرآة هو في ملك شخص آخر بكل تأكيد. لو أن هذه الوضعية استمرت لدقيقة أخرى، بل وأقل من ذلك، كان سيقع أي شيء في هذا الحمام، نوبة جنون مفاجئة، حالة غضب مدمرة. لحسن الحظ، ورغم بعض التصرفات التي أشارت إلى عكس ذلك، والتي لم تكن هي الأخيرة بكل تأكيد، فقد كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مقدوداً من أديم صالح، فقد خرج الوضع عن سيطرته لحظة لكنه تدارك الموقف. مهما بذل المرء من جهود، نعرف أنه فقط بفتح العينين يمكن الخروج من الكابوس، لكن الحلّ، في هذه الحالة، كان يكمُن في إغلاقهما، ليس عينيْه، بل عينَي

الانعكاس في المرآة. وبنجاعة كبيرة كما لو أن الأمر يتعلق بجدار، فرّقَ تدفُّقٌ من الرغوة هذين التوأميْن السياميّيْن اللذين لم يتعرّفا على بعضهما بعد، وقامت يدُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، المبسوطة على سطح المرآة، بإلغاء وجهِ هذا ووجهِ ذلك الآخر، حتى أنه لا أحد منهما يستطيع أن يتعرف نفسه الآن في ذلك السطح الملطخ برغوة بيضاء تتخللها خطوط سوداء تنزلق شيئاً فشيئاً حتى تتخفّف. كفَّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عن النظر إلى الصورة في المرآة، وهو الآن وحده في البيت. اندسَّ تحت الدُّش، ورغم أنه منذ ولادته كان دائماً متشككاً بخصوص المزايا الصارمة للاستحمام بالمياه الباردة، التي كان والده يؤكد أنه لا يوجد أحسن منها في العالم لاستعادة لياقة الجسم وتخفيف الدماغ، فكّرَ أنه لو تلقّاها في ذلك الصباح، من دون مزجها بالمياه الدافئة الحلوة، ربما يكون ذلك نافعاً لرأسه الفارغ ويوقظ بصورة نهائية ذلك الشيء الذي يحاول بداخله، في كل لحظة، كأن شيئاً لم يقع، أنْ ينزلق نحو النوم. بعد أن اغْتسل وتنشّف، ومشط شعره من دون مساعدة المرآة، دلف إلى الغرفة، حيث رتب السرير بسرعة، ارتدى ملابسه وتوجّه إلى المطبخ ليعدّ وجبة الفطور، التي تتشكل كالعادة من عصير برتقال، خبز محمص، قهوة بالحليب، يوغورت، لأن الأساتذة ينبغي أن يتغذوا جيداً قبل أن يذهبوا إلى الثانوية حتى يتمكنوا من مواجهة العمل الشاق المتمثل في غرس أشجار أو شجيرات فقط من الحكمة في أراض تميل إلى الجدب أكثر من نزوعها إلى الخصب في معظم الأحيان. الوقت ما يزال مبكراً، لأن الدرس لن يبدأ قبل الحادية عشرة صباحاً، لكن، نظراً للظروف، يمكن أن نفهم أن البقاء في البيت ليس هو أكثر ما يحلو له. عاد إلى الحمام لينظف أسنانه، وبينما هو يقوم بذلك تساءلَ

إنْ لم يكن ذلك هو اليوم الذي تأتي فيه جارةُ الطابق العلوي لتنظف بيته، امرأة طاعنة في السن، أرملة من دون أبناء، ظهرت قبل ست سنوات خلت أمام باب بيته تعرضُ عليه خدماتها بعد أن لاحظت أن الجار الجديد يعيش أيضاً وحده، مثلها. لا، اليوم لا، يمكن أن يترك المرآة كما هي عليه، فالرغوة بدأت تجف، تتفتتُ مع أخف لمسات الأصابع، لكنها، مع ذلك، ما تزال متشبثة ولا يُرى أحدٌ يرقبُ من تحتها. الأستاذ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مستعد للخروج، وقد قرر أن يأخذ سيارته ليفكر بهدوء في الأحداث الأخيرة التي أثارت قلقه، دون أن يضطر لمكابدة ما يتعرّض له من ازدحام ودهْس في وسائل النقل العمومية، التي غالباً ما كان من عادته أن يستقلّها لأسباب اقتصادية بديهية. دسّ التمارين في المحفظة، توقف ثلاث ثوانٍ ينظر إلى علبة شريط الفيديو، وكان الوقت مناسباً ليتبع نصائح الحسّ السليم، أن يُخرج الشريط من آلة الفيديو، يضعه في العلبة ويذهب من هناك مباشرة إلى المحلّ، **خذ**، سيقول للمستخدم، ظننتُ أنه مهم، لكنه ليس كذلك، لم يكن يستحق العناء، كان مضيعة للوقت، **هل** تريد أن تأخذ شريطا آخر، سيسأله المستخدم وهو يجهد نفسه ليتذكر اسم ذلك الزبون الذي كان هنا بالأمس فقط، نتوفر على تشكيلة كاملة من الأفلام الجيدة من كل الأجناس السينمائية، القديمة منها والحديثة، آه، يا تيرتوليانو، طبعاً هاتان الكلمتان الأخيرتان ستفكر فيهما فقط، أما الابتسامة الساخرة المرافقة لذلك فهي بالكاد مُتخيَّلة. فات الأوان، ها قد بدأ الأستاذ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ينزل السلالم، ولن تكون هذه أول معركة يجب على الحسّ السليم أن يتقبّل خسارتها.

بكل هدوء، كمن قرّر أن يستغل أول ساعة من ساعات الصباح

ليستمتع بنُزهةٍ، قام بجولةٍ عبر المدينة وخلالها، رغم مساعدة إشارات المرور الحمراء والصفراء التي تتأخر في التغيُّر، لم يفده في شيء أن يعصر دماغه كي يجد مَخْرجاً لوضع كان بكامله بين يديه، كما يمكن أن يلاحظ ذلك أي شخص يتمتع بفكر متنوّر. أسوأ ما في الأمر أنه، كما أقر في نفسه، بصوت عال، عندما ولج الشارع حيث تقع الثانوية، **ليتني** أستطيع أن أرمي ورائي هذه الحماقة، أنسى هذا الجنون، أطوي هذا العبث، وهنا لزم صمتاً ليفكّر في أنّ أول عنصر من عناصر الجملة كان بوسعه أن يكون كافياً، ثم ختم بعد ذلك، **لكني** لا أستطيع، مما يدل إلى حد الملل إلى أي مدى وإلى أي هوس وصل هذا الرجل الحائر. حصة مادة التاريخ، كما ذكرنا من قبل، لن تبدأ إلا على الساعة الحادية عشرة صباحاً، وما تزال هناك ساعتان على هذا الموعد تقريباً. لكن، عاجلاً أم آجلاً، سيظهر الزميل أستاذ الرياضيات في هذه القاعة الخاصة بالأساتذة حيث تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذي ينتظره، يتظاهر، بعفوية زائفة، بأنه يراجع ما جلبه من تمارين في محفظته. وربما لن يتأخر كثيراً ملاحظٌ نبيهٌ في أن يدرك هذا التظاهر، لكن لأجل ذلك عليه أن يعلم أن لا أحد من هؤلاء الأساتذة النّمطيّين قد يشرع في أن يقرأ للمرة الثانية ما صحّحه في المرة الأولى، ليس لأن هناك احتمال أن يجد أخطاء جديدة وعليه أن يُدرجَ تصحيحات أخرى، بل إن الأمر يتعلق بمسألة سمعة، سلطة، صلاحية، أو فقط لأن ما صُحّح قد صُحّح وكفى، وهو لا يحتاج ولا يقبل العودة إلى الوراء. ولا ينقص سوى أن يكون تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يصحّح أخطاءه الخاصة، على افتراض أنّ ورقةً من تلك الأوراق التي ينظر إليها الآن دون أن يراها، كان قد صحح فيها ما كان صحيحاً ووضع فيها كذبة عوض حقيقة غير

منتظرة. إنَّ أحسن الاختراعات، ولن يكون التذكير بذلك من باب المبالغة، هي تلك التي تأتي من الرجل الذي لا يعرف أنهُ يخترعُ. حينئذٍ دخلَ أستاذُ مادة الرياضيات. رأى زميله أستاذ مادة التاريخ فتوجّه نحوه على الفور، **صباح** الخير، قال، **أهلاً**، صباح الخير، **هل** قاطعتُك، سأل، **كلا**، كلا، يا لها من فكرة، كنتُ فقط ألقي نظرة ثانية، فقد صحّحت كل شيء تقريباً، **كيف** هم، **مَن**، **تلاميذُك**، **كالعادة**، لا سيئون ولا جيدون، **تماماً**، مثلنا نحن عندما كنا في سنّهم، قال أستاذ الرياضيات، وهو يبتسم. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ينتظر من زميله أن يسأله أخيراً إنْ كان قد قرر استئجار شريط الفيديو، إنْ كان قد شاهده، إنْ كان قد أعجبه، لكن يبدو أن أستاذ الرياضيات قد نسي الموضوع، وطرد من فكره ذلك الحوار المثير الذي جرى بينهما يوم أمس. ذهب ليأخذ لنفسه قهوة، وعاد ليجلس، بهدوء، بسط الجريدة فوق الطاولة، مستعداً ليطّلع على أخبار العالم وأحوال البلاد. بعد أن استعرض عناوين الصفحة الأولى وقطّب حاجبيْه عند كل عنوان، قال، **أحياناً** أتساءل إن لم يكن الذنب الأول فيما وصل إليه كوكبُنا هو ذنبنا نحن، قال، **نحنُ**، ذنبُ من، ذنْبي، ذنبُك، سأله تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مبدياً اهتمامه، لكنه كان يأمل أن الحديث، رغم بداية بعيدة أشد ما يكون عن انشغالاته، قد تفضي به في الأخير إلى صلب الموضوع، **تصوّر** سلّةَ بُرتقال، قال الآخر، وتخيل أن حبة واحدة منها، هناك في العمق، بدأت تتعفن، تخيل أنها، واحدة بعد الأخرى، أخذت كل حبات البرتقال تتعفن، فمن يستطيع، في هذه المرحلة، أتساءلُ، أن يقول أين بدأ التعفن، **حبّاتُ** البرتقال هذه التي تشير إليها هل هي الدول، أم هم الأشخاص، سألهُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **داخل** بلدٍ معين إنهم الأشخاص، وفي

العالم هي الدول، وبما أنه لا وجود لدول من دون أشخاص، فإن التعفن يبدأ عنهم، لا محالة، **ولماذا** ينبغي أن نكون نحن هم المذنبين، أنا، أنت، **أحدٌ** ما كان مذنباً، **أُنبهكَ** أنكَ لا تأخذ بعين الاعتبار عامل المجتمع، **المجتمعُ**، يا صديقي العزيز، مثله مثل البشرية، شيء مجرد، **مثل** الرياضيات، **أكثر** بكثير من الرياضيات، وبالمقارنة معها تبدو الرياضيات شيئاً محسوساً مثل خشب هذه الطاولة، **وماذا** تقول، إذن، عن الدراسات الاجتماعية، **ليس** من النادر أن تكون ما يسمى بالدراسات الاجتماعية كل شيء سوى دراسات عن الأشخاص، **حذار** أن يسمعكَ بعضُ علماء الاجتماع، لأنهم قد يحكمون عليك بالموت المدني على الأقل، **إنَّ** الاكتفاء بموسيقى الجوقة التي نعزف فيها وعزف المقطع الذي علينا أن نعزفه، يعتبر خطأ شائعاً جداً، وخصوصاً في أوساط الموسيقيين، **أكيد** أن البعض يتحمل المسؤولية أكثر من الآخرين، أنت وأنا، مثلاً، بريئان نسبياً، على الأقل من الأشرار العظمى، **هذا** عادة هو خطاب الوعي الجيد، **ولا** يتوقف عن كونه حقيقة لأن الوعي الجيد هو من ينطق به، إنّ أحسن سبيل لتحقيق التبرئة الكونية هو الوصول إلى استنتاج يقول بما أن كل الناس مذنبون، فلا أحد مذنب، **ربما** ليس هناك من شيء يمكننا القيام به، إنّها مشاكل العالم، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، كأنه يريد أن ينهي الحديث، لكن أستاذ الرياضيات صحّح له، **إنّ** العالم ليس له من مشاكل غير مشاكل الناس، وبعد أن نطق بهذه الحكمة حشر أنفه في الجريدة. كانت الدقائق تمر، وساعة حصة درس التاريخ تقترب، وتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يرى طريقة للدخول في الموضوع الذي يهمه. يمكنه، طبعاً، أن ينادي زميله مباشرة، ويسأله، والعين في العين، **على**

فكرة، على فكرة، نعرف أن هذا لا علاقة له بالموضوع، ولكنّ حيَلَ اللّغة وُجدت بالضبط لمواقف مثل هذا الموقف، حين تكون هناك حاجة ملحّة للانتقال إلى موضوع لآخر دون أن نبدو حريصين على تحقيق ذلك، شيئا ما يشبه «وبما أنني تذكرتُ ذلك الآن» مقبول اجتماعياً، **على فكرة**، قد يقول، ألمْ تلاحظ أنّ موظف الاستقبال في الفيلم صورةٌ طبق الأصل مني، لكن هذا قد يكون مثل الكشف عن أهم ورقة في اللعبة، حشرُ شخصٍ ثالث في سرٍّ لم يتقاسمْهُ بعد اثنان، مع ما يترتب عن ذلك من صعوبة مستقبلية في التملّص من الأسئلة الفضولية، مثل، **إذن**، هكذا التقيت بشبيهك هذا. لحظتها رفعَ أستاذ الرياضيات عينيه عن الجريدة، **إذن**، سأل، هل استأجرت ذلك الفيلم، **نعم**، استأجرته، أجابه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، شبه سعيد، **وما** رأيكَ، **إنه** مُسلّ، **هل** ساعدك على تجاوز كآبتك، أعني ما تعانيه من ركود، **ركود** أو كآبة، لا يهم، لأن الضرر لا يكمن في الاسم، **هل** نفعك في ذلك، **أظن** أنه نفعني، على الأقل تمكنت من الضحك من بعض المواقف. نهض أستاذ الرياضيات، كان التلاميذ في انتظاره أيضاً، فأي فرصة أحسن من هذه أمام تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليقول أخيراً، **على** فكرة، متى شاهدتَ فيلم «الإلحاحُ هو سرّ النجاح» لآخر مرة، السؤال لا أهمية له، إنه مجرد فضول، **كانت** آخر مرة هي الأولى وأول مرة هي الأخيرة، **متى شاهدتَهُ**، **قبل** شهر تقريباً، أعارني إيّاه أحد الأصدقاء، **كنتُ** أظن أن الفيلم في حوزتكَ، وأنه جزء من مجموعتك، **يا** رجل، لو كان في حوزتي لأعرتك إياه، ما كنت أتركك لتصرف مالك في استئجاره. كانا قد بلغا الممر، باتجاه الحجرات، عندما شعر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بفكره حراً، مخففاً، كما لو أن الركود قد تبخر فجأة، اختفى في الفضاء

اللامتناهي، من يدري ربما كي لا يعود مرة أخرى أبداً. عند الزاوية القادمة، سيفترقان، ويذهب كل واحد في سبيله، وبعد أن بلغا ذلك المكان، بعد أن قال كلاهما إلى اللقاء، حينئذ، بعد أن قطع أربع خطوات، التفت أستاذ الرياضيات إلى الخلف وسأله، **على** فكرة، هل لاحظت أن في الفيلم مُمثّلاً، في دور ثانوي، يشبهكَ أيّما شبهٍ، لو وضعت شارباً مثل شاربه ستكونان أشبه من الماء بالماء. مثل الصاعقة، نزلت الكآبة من السماء وأحالت رماداً المزاج الرائق لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. ورغم هذا، تحمّل البلاء، بل واستطاع أن يرد بصوت يبدو أنه يخور عند كل مقطع كلمة، **نعم**، لاحظتُ ذلك، إنها لصدفة مدهشة، رائعة تماماً، ثم أضاف، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة لا لون لها، **أنا** لا ينقصني سوى الشارب وهو لا ينقصه سوى أن يكون أستاذاً لمادة التاريخ، عدا هذا يمكن لأي أحد أن يقول إننا نتشابه تماماً. حدجه الزميلُ بنظرةِ استغرابٍ، كأنه التقى به من جديد للتو بعد غيبة طويلة، **الآن** أتذكّرُ أنك أنت أيضاً، قبل بضع سنوات، كان لك شاربٌ، قال، فاحتقر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الحذَر، مثل ذلك الرجل التائه الذي أبى أن يسمع النصائح، وأجاب، **ربما**، في ذلك الوقت، كان هو الأستاذ. دنا منه أستاذ الرياضيات، وضع يده على كتفه، بشكل أبوي، **يا** رجل، إنك تعاني من كآبة حقيقية، شيء كهذا، صدفة مثل الكثير من الصدف، لا أهمية لها، لا ينبغي أن تؤثر فيك إلى هذا الحد، **أنا** لست متأثراً، فقط نمتُ لوقت قليل، قضيتُ ليلة سيئة، **من** المرجح جداً أنك قضيتَ ليلة سيئة لأن كل هذا أثّر فيك. أحس أستاذ الرياضيات أن كتف تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو صارت متوترة تحت يده، كما لو أن كل جسده، من الرأس إلى أخمص القدمين، قد تصلّب فجأة،

وكانت الصدمة قوية جداً، والانطباع حاداً للغاية، حتى أنه اضطر ليسحب يده. فعل ذلك بأبطأ طريقة ممكنة، يحاول ألّا يشعُرَ زميلُه بأنه قد صدّه، لكن القساوة الغريبة في نظرات تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لم تترك له أي شكّ، فأستاذ التاريخ الخنوع، المسالم، الوديع، الذي تعوَّد أن يعامله برفق، ودّي لكنه متجامل، كان الآن شخصاً آخر. مرتبكاً، كأنه وُضع أمام لعبة لا يعرف قواعدها، قال، **حسناً**، نلتقي لاحقاً، اليوم لا أتناول الغداء في الثانوية. وجواباً وحيداً على ذلك أحنى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو رأسه وتوجّه نحو حجرة الدرس.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عكسَ التأكيد الخاطئ الذي ورد قبل خمسة أسطر، والذي نعفي أنفسنا من عناء تصحيحه في عين المكان ما دامت هذه الرواية تقع درجة واحدة على الأقل فوق تمرين مدرسي بسيط، فالرّجُل لم يتغير، الرجل ظلّ هو نفسه. إنَّ التغير المزاجي الطارئ على تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، والذي أدهش أستاذ الرياضيات إلى حدّ كبير، لم يكن سوى مجرد مظهر عرضي للمرض النفسي المعروف باسم «غضب الوُدعاء». لو انحرفنا قليلاً عن الموضوع الرئيسي، ربما نستطيع أن نتفاهم بشكل أفضل إنْ نحنُ اعتمدنا التقسيم الكلاسيكي، وصحيح أن هذا التقسيم فقدَ قيمته بسبب التطورات العلمية الحديثة، الذي كان يقسم المزاج البشري إلى أربعة أنواع، وهي الكئيب، الناتج عن المِرّة السوداء، البَلْغَمي، الناتج عن البلْغَم طبعاً، الدّموي، المرتبط بالدم طبعاً، وأخيراً الغضوب، الذي يكون نتيجة للمِرَّة البيضاء. كما يمكن أنْ نلاحظ بكل سهولة، في هذا التقسيم الرباعي الموسوم بتناظر أساسي، لم يكن ثمة من حيّز يمكن أن توضع فيه طائفة الوُدعاء. ومع ذلك، فإن التاريخ، الذي لا يخطئ دائماً، يؤكد لنا أن الودعاء كانوا يوجدون دائماً، بل وبأعداد كبيرة، في تلك الأزمنة الغابرة، تماماً كما تفعل ذلك في أيامنا أحداثُ

الساعة، فصلُ التاريخ الذي لم يُكتب بعد، والتي تقول لنا إنهم ما زالوا يوجدون، كما أنهم يوجدون بأعداد أكبر من أي وقت مضى. إنّ تفسير هذا الشذوذ، الذي إن قلبناه قد يسعفنا ليس فقط في فهم ظلام الماضي وعتمته بل وفي إدراك الأضواء الاحتفالية للحاضر، ربما يكمن في أنّه، حين تمّ تحديدُ الإطار الطبي الموصوف أعلاه، سقط في النسيان مزاجٌ آخر من الأمزجة. ونعني بذلك الدمعة. إنه لمن المدهش، حتى لا نقول إنه من المخزي فلسفياً، أنّ شيئاً ظاهراً جداً للعيان، شيئاً عادياً جداً ووفيراً كما كانت الدموع على الدوام قد غاب عن أنظار علماء العصور القديمة الأجلاء ولم يحظ بتقدير علماء اليوم الأقل جلالاً. قد نتساءل ما علاقة هذا الاستطراد المسهب مع غضب الودعاء، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذي هو سبب كل ذلك على ما يبدو، لم نره يبكي لحد الساعة. إنّ الإبلاغ الذي قمنا به بخصوص غياب الدمعة في نظرية طب الأمزجة لا يعني أن الودعاء، الأكثر حساسية بحكم طبيعتهم، وبالتالي أكثر ميولاً لهذا التجلي السائل للأحاسيس، يقضون سحابة يومهم بمنديل في اليد يمخطون أنوفهم ويمسحون الدموع التي أغرقت عيونهم. بل إن هذا يعني أن إنساناً، رجلاً كان أو امرأة، يمكن أن يكون ممزّقاً من الداخل بسبب الوحدة، الإهمال، الخجل، وما تصفه المعاجم على أنه حالة عاطفية ناتجة عن العلاقات الاجتماعية المصحوبة بمظاهر إراديّة، ترتبط بأوضاع الجسم أو تتعلق بالجهاز العصبي النباتي، لكن، لسبب تافه، بسبب حركة نابعة من نية حسنة لكنها مفرطة في الرعاية، كتلك التي أفلتت قبل قليل من أستاذ الرياضيات، فإن المسالم، الوديع، الخنوع يختفي فجأة من الركح ومكانَه، وهذه ظاهرة محيرة وغامضة بالنسبة لمن

يعتقدون أنهم يفهمون كل عن النفس البشرية، تنفجرُ نوبة الغضب العمياء المُدمّرة للودعاء. عادة، لا تستمر هذه النوبة طويلاً، لكنها تثير الخوف حين تبرز. لذلك، بالنسبة لكثير من الناس، لا تكون الصلاة الأكثر حماساً، وقت الذهاب إلى النوم، هي الصلاة الربّانية المعروفة أو السلام الملائكي الخالد، بل صلاة «نجّنا، أيّها الرّبُّ، مِنَ الشِّرِّيرِ لأَنَّ لَكَ الْمُلْكَ، وَالْقُوَّةَ، وَالْمَجْدَ إِلَى الأَبَدِ» وخاصة من غضب الوُدعاء. قد تكون هذه الصلاة نافعة لتلاميذ مادة التاريخ إنْ هم مارسوها بانتظام، لكن، نظراً لصغر سنّهم، يبدو الأمر أكثر من غير مؤكد. لم تحن ساعتهم بعد. صحيح أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو دلفَ إلى القاعة بوجه مكفهرّ، وقد لاحظ ذلك تلميذ يحسب نفسه أكثر دهاء من معظم التلاميذ، مما دفعه ليهمس إلى زميل بجانبه، **يبدو** الرّجُل في مزاج سيّئ، لكن هذا لم يكن صحيحاً، لأن ما كان يبدو على الأستاذ كان هو الأثر النهائي للعاصفة، هباتُ ريحٍ أخيرة ومتفرقة، زخّاتُ مطرٍ تأخرت كثيراً، أشجارٌ أقل مرونة وجدت صعوبة في رفع هاماتها. والدليل على أن الأمر كان كذلك هو أن الأستاذ، بعد أن نادى الحاضرين بصوت حازم وهادئ، قال **كنتُ** قد فكرتُ في أن أحتفظ إلى الأسبوع المقبل بتصحيح التمرين الكتابي الأخير، لكن ليلة أمس كانت فارغة فقررتُ أن أُقدّم العمل. فتح المحفظة، أخرج منها الأوراق، التي وضعها على الطاولة، وتابع، **لقد** أُنجزت التصحيحات، وأُعطيت النقط حسب ما ارتُكب من أخطاء، لكن، عكس المعتاد، أي أن أسلمكم التمارين بكل بساطة، سوف نخصص وقت هذا الدرس لتصحيح الأخطاء، لذلك أريد أن أسمع من كل واحد منكم الأسباب التي يعتقد أنها جعلته يخطئ، بل يمكن أن أغيّر النقطة وفق ما يُقدّمُ لي من أسباب. لزم صمتاً ثم

أضاف، نحو الأحسن. وأخيراً، طردت الابتساماتُ التي ارتفعت في القسم الغيوم بعيداً.

بعد وجبة الغداء، شاركَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، مع معظم زملائه، في الاجتماع الذي دعا له المدير قصد تحليل آخر مقترح بشأن التحيين البيداغوجي الصادر عن الوزارة الوصيّة، من بين آلاف المقترحات التي تُحوّلُ حياة آلاف المدرسين الأشقياء إلى رحلة عذاب نحو كوكب المرّيخ وسط وابل لا ينتهي من النيازك التي غالباً ما تصيب الهدف مباشرة. حين جاء دوره ليتكلم، بنبرة متكاسلة ورتيبة استغربها الحاضرون، اكتفى بترديد فكرة لم تعد أي شيء جديد هناك بل وكانت سبباً ثابتاً لبعض الضحكات الراضية من طرف جل أعضاء المجلس وانزعاج المدير المُقنَّع بشك سيّئ، **في** نظري، قال، إن الاختيار الأهم، والقرار الذي يجب أن يُتّخذ فيما يتعلق بمعرفة التاريخ، هو أن نعرف إن كان ينبغي لنا أن نُدرّسهُ من الوراء نحو الأمام أو، كما أرى، من الأمام نحو الوراء، أما غير هذا، الذي لا ينبغي التقليل من شأنه، فيخضع للاختيار الذي سيُتّخذ، كما يعرف جميعاً وإن كانوا يتظاهرون بغير ذلك. كان أثر هذا الإطناب كالعادة تنهُّداً ناتجاً عن نفاد صبر المدير، وتبادُلَ نظرات وهمهمات بين الأساتذة. ابتسم أستاذ الرياضيات بدوره، لكن ابتسامته كانت ابتسامة صداقة متواطئة، كأن لسان حاله يقول، **معك** حق، لا شيء من هذا يمكن أخذه على محمل الجد. الإشارة التي أرسلها له تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو شبه مُقنَّعة من الجهة الأخرى من الطاولة كانت تعني أنه يشكره على رسالته، لكن، في الوقت ذاته، كان هناك شيء يرافق ذلك، وفي غياب عبارة أحسن، سنسمّيه إشارة ثانوية، تُذكره بأن ما حدث بينهما في الممرّ لم يطوه النسيان تماماً. بعبارة

أخرى، بينما كانت الإشارة الرئيسية تبدو متسامحة بشكل واضح، وتقول، ما فات قد مات، فإن الإشارة الثانوية، بحذر، تدقق الأمر، **نعم**، ولكن ليس تماماً. أثناء ذلك، انتقلت الكلمة إلى الأستاذ الموالي، وبينما هذا الأخير، عكس تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، يتحدّث بذلاقة لسان، بدقة ونجاعة، لنستغل ذلك كي نتوسع قليلاً، قليلاً جداً بالنظر إلى تعقد المادة الضرورية، فيما يتعلق بمسألة الإشارات الثانوية، التي تثار هنا لأول مرة، على الأقل حسب ما نتوفر عليه من معلومات. من العادة أن نقول إن هذا الشخص أو ذلك أو ذَيْنك، في حالة ما، قاموا بإشارة كذا أو كذا، أو كذلك، لنقُل، ببساطة، كما لو أن هذا، أو ذلك، أو ذَيْنك، شكّاً كان، مظهرَ دعم أو نصيحةً أو تنبيهاً لتوخي الحذر، كانت تعابير مصاغة من قطعة واحدة، الشكُّ، منهجي دائماً، الدّعمُ، غير مشروط على الدوام، التّنبيهُ، غير مهتم دائماً، بينما الحقيقةُ الكاملة، إنْ كنا نرغب حقاً في معرفتها، إنْ لم نكتف بالحروف البارزة للتواصل، تُطالبُنا أن ننتبه إلى الومضات المتعددة الصادرة عن الإشارات الثانوية التي تلي الإشارة كما يلي الغبار الكوني ذيل المُذنّب، لأن هذه الإشارات الثانوية، بلجوئنا إلى تشبيه في متناول كل الأعمار ومستويات الإدراك، مثل ما يُكتبُ بحروف دقيقة في العقود، التي يصعب فكّ شفراتها، لكنها هناك. ومع الدفاع عما تنصح به التقاليد والذوق السليم، فلا غرو أن نرى، في مستقبل منظور، الدراسة، التي تتناول الإشارات الثانوية وتصنفها، كل واحدة على حدة، تصبحُ من أخصب فروع علم السيميولوجيا عموماً. وقد كانت هناك حالات أكثر غرابة من هذه. ذلك الأستاذ الذي أخذ الكلمة أنهى مداخلته في هذه اللحظة بالضبط، والمدير سيتابع توزيع الكلمة على

الحاضرين، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو رفع بحماس يده اليمنى، مشيراً إلى أنه يريد أن يتكلّم. سأله المدير إن كان ما يريد أن يعلق عليه يرتبطُ بوجهات النظر التي تم عرضها للتو، ثم أضاف قائلاً، إنْ كان الأمر كذلك، فإن قواعد الاجتماعات الجاري بها العمل تقول، كما لا بد أنه يعرف ذلك، أن ينتظر حتى ينتهي كل المشاركين من عرض وجهات نظرهم، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أجابه، لا يا سيدي، إنه ليس تعليقاً ولا علاقة له بما جاء من أفكار جيدة على لسان زميله المحترم، وإنه يعرف القواعد وظل يحترمها على الدوام، سواء الجاري بها العمل أو تلك التي لم تعد تُستعمل، بل إن ما يرغب فيه هو فقط أن يستأذن لينسحب لأن لديه أموراً مستعجلة عليه أن يباشرها خارج الثانوية. هذه المرة، لم تكن إشارةً ثانوية، بل نبرة ثانوية، تناغمية، لنقُل، هي التي جاءت لتعطي دفعة جديدة لهذه النظرية الناشئة التي عرضناها أعلاه فيما يتعلق بالأهمية التي ينبغي أن تُعطى للتنويعات، ليس من الدرجة الثانية أو الثالثة فحسب، بل ومن الدرجتين الرابعة والخامسة، في مجال التواصل بالإشارة كما التواصل الشفوي. فيما يتعلق بالحالة التي تهمّنا، لاحظ كل الحاضرين أن النبرة التي صدرت عن السيد المدير عبّرت عن إحساس بالارتياح العميق من خلال الكلمات التي نَطَق بها بالفعل، **طبعاً**، بوسعك أن تنصرف. ودّع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الحاضرين في الجمع بحركة واسعة من يده، إشارة موجهة للعموم، وإشارة ثانوية خصّ بها المدير، ثم غادر. كانت السيارة مركونة قرب الثانوية، وبعد بضع دقائق كان بداخلها، ينظر بحزم إلى الطريق التي ستكون في هذه اللحظة الوجهة الوحيدة المنسجمة مع الأحداث التي وقعت منذ مساء يوم أمس، المحلّ الذي استأجر منه شريط فيلم

«الإلحاحُ هو سرّ النجاح». وضع معالم خطّة في المقصف بينما كان، وحيداً، يتناول وجبة الغداء، وقد جوّدها تحت الحماية ذرع مداخلات الزملاء المُنوّمة، وها هو الآن قبالته مستخدمُ محلّ الفيديو، ذلك الذي وجد أن من المضحك أن يكون اسم أحد الزبائن تيرتوليانو، والذي بعد إنهاء العملية التجارية سيكون له أكثر من سبب كاف ليفكر في التلازم بين ندرة الاسم وغرابة تصرّف حامِلِه. في البداية، لم يبدُ أن الأمور ستجري بهذا الشكل، دخل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مثل أي شخص آخر، وقال، مثل أي شخص آخر، مساء الخير، ومثل أي شخص آخر، راح يجول بين الرفوف، على مهل، يتوقف هنا وهناك، يلوي عنقه ليقرأ ظهور العلب التي تضم الأشرطة، إلى أن توجه في النهاية نحو صندوق الدفع وقال، **جئتُ** لأشتري شريط الفيديو الذي أخذتُه من هنا يوم أمس، لا أعرفُ إنْ كنتَ تذكر ذلك، **أذكرُ** ذلك تماماً، كان شريط فيلم «الإلحاحُ هو سرّ النجاح»، **تماماً**، جئتُ لأشتريه، **بكل** سرور، لكن، لو سمحت بملاحظة، قد يكون من الأفضل أن تعيد لنا الشريط الذي استأجرتَهُ وتأخذ شريط فيديو جديداً، لأنه، مع الاستعمال، كما تعرف، يحدث نوع من التدهور سواء في الصورة أو الصوت، تدهور طفيف، نعم، لكنه يُلاحَظ مع مرور الوقت، **لا داعي** لذلك، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لأنه حسب ما أريد، فإن الشريط الذي أخذتُه يفي بالغرض. سجّل المستخدم بحيرة عبارة «حسب ما أريد»، لأنها ليست جملة يمكن اعتبارها ضرورية للحديث عن شريط فيديو، لأننا نريد شريط فيديو كي نشاهده، لأنه وجد لذلك، ولأجل هذا صنعوه، ولا داعي للتفكير ملياً في الأمر. لكن فرادة الزبون لن تتوقف عند هذا الحدّ. بهدف جلب مزيد من

العمليات التجارية قرّر المستخدمُ أن يميز تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بأحسن دليل على التقدير والاحترام التجاري المعروف منذ عهد الفينيقيين، **أخصمُ** لك تكلفة الاستئجار من ثمن الشراء، قال، وحين كان يقوم بعملية الطرح، سمع أن الزبون يسأله، **هل** لديكم، بالصدفة، أفلام من نفس شركة الإنتاج، **أظنُّ** أنك تريد أن تقول نفس المُخرج، صحّح له المستخدم بحذر، **كلا**، كلا، قلتُ نفس شركة الإنتاج، لأن الشركة المنتجة هي التي تهمّني، وليس المُخرج، **سامحني**، ولكن بعد سنوات طويلة من العمل في هذا المجال، لم يسبق لأي زبون أن طلب مني هذا الأمر، يسألون عن عناوين الأفلام، كثيراً من الأحيان عن أسماء الممثلين، فقط من حين لآخر يحدثني أحدهم عن المخرج، لكنهم لا يسألون أبداً عن المُنتج، **لنقل**، إذن، إنني أنتمي إلى نوع خاص من الزبائن، **حقاً**، يبدو كذلك، سيد ماكسيمو أفونسو، همهم المستخدمُ، بعد أن ألقى نظرة خاطفة على بطاقة الزبون. شعر بالحيرة والارتباك، لكنه أيضاً كان راضياً على ما بدر منه وهو يتوجه إلى الزبون بالكلمتين اللتين تشكلان اسمه الشخصي، واللتين سوف تستطيعان انطلاقاً من الآن أن تطردا من ذهنه الاسم الحقيقي، ذلك الاسم الذي أثار رغبته في الضحك في لحظة مشؤومة. كان قد نسي أنه يدينُ بجواب للزبون، إنْ كان يتوفر أو لا يتوفر في المحل على أفلام لنفس شركة الإنتاج، واضطر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليطرح عليه السؤال من جديد، وأضاف توضيحاً كان يأمل منه أن يكون قادراً على تصحيح صورة الشخص غريب الأطوار التي اكتسبها على ما يبدو في المحل، **إنَّ** سبب اهتمامي بأفلام شركة الإنتاج هذه له علاقة بأنني في مرحلة متقدمة نسبياً من تحضير دراسة عن الاتجاهات، الميول، الأهداف،

والرسائل، الصريحة كما الضمنية واللاشعورية التي تقوم شركةُ إنتاجٍ سينمائية ما، دون اعتبار درجة الوعي الذي تفعل بها ذلك، بنشرها بين المستهلكين خطوةً خطوة، متراً متراً، لقطةً لقطة. وبينما كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يستعرض خطابه، كان المستخدم، بمحض الدهشة، بمحض التعجب، يفتح أكثر فأكثر عينيْه جاحظتيْن، وقد استمالهُ تماماً زبون لم يكن فقط لا يعرف ما يريد بل لديه أحسن الأسباب لتبرير ما يرغب فيه، شيء نادر جداً في عالم التجارة خاصة في محلات استئجار أشرطة الفيديو. ينبغي القول، رغم ذلك، إن وصمة بغيضة كانت تُلطِّخ بمصلحة تجاريّة وضيعة تلكَ الدهشةَ الخالصة وذلك الإعجاب الباديين على الوجه المتهلل للمستخدم، وكانت هي، بتزامن مع فكرة أن شركة الإنتاج تعتبر من أنشط وأقدم الفاعلين في السوق، ما جعل هذا الزبون، الذي لا يجب أن أنسى أن أناديه بالسيد ماكسيمو أفونسو، سيترك في النهاية في صندوق الأداء قدراً محترماً من المال عندما ينتهي من هذا العمل، الدراسة، المقالة، أو لستُ أدري ماذا. طبعاً، ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أنه لم يتم ترويج كل الأفلام تجارياً على شكل فيديو، لكن، مع ذلك، فالصفقة تعدُ بالكثير، وتستحقّ العناء، **فكرتي**، حتى نبدأ، قال المستخدم، وقد عاد من دهشته الأولى، ستكون هي أن نطلب من الشركة المنتجة لائحة بعناوين كل الأفلام، **نعم**، ربما، أجابه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكن هذا ليس أكثر الأمور استعجالاً، ثم ربما لن أحتاج إلى متابعة كل الأفلام التي أُنتجت، لذلك سنبدأ بتلك التي تتوفرون عليها هنا، وبعد ذلك، حسب ما أتوصل إليه من نتائج واستنتاجات، سأوجه اختياراتي المستقبلية. فجأة، تلاشت آمالُ المستخدم، فقد البالون ما به من غاز وهو ما يزال فوق

الأرض. على أيّ، تعرفُ أشكال التجارة الصغيرة هذا النوع من المشاكل، فساقُ الحمار لا تتكسّر لأنه وجّه ركلةً وإن لم تكن قادراً على الاغتناء خلال أربعة وعشرين شهراً ربما تستطيع الحصول على ذلك إن بذلت جهداً لمدة أربعة وعشرين عاماً. بعد أن استعاد درعه المعنوي بفضل المزايا العلاجية لقطع الذهب الصغيرة التي يتشكل منها الصبر، أعلن المستخدمُ وهو يجول حول منضدة الأداء ويتوجه نحو الرفوف، **سأرى** ما لدينا هنا، وهو ما أجاب عليه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **إنْ** كانت لديكم، يكفيني منها في البداية خمسة أو ستة، ما دمتُ أستطيع أن آخذ عملاً لهذه الليلة، سيكون ذلك جيداً، **إنّ** ستة أشرطة تمثل على الأقل تسع ساعات من المشاهدة، ذكّرهُ المستخدمُ، يجب أن تسهر حتى وقت متأخر من الليل. هذه المرة، لم يجبه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، كان ينظر إلى ملصق إعلان فيلم من إنتاج نفس الشركة، عنوانه «إلهةُ الخشبة» ولا بدّ أنه من الأفلام الأخيرة. كانت أسماء الممثلين مكتوبة بأحجام متباينة وتتوزع على مساحة الملصق وفق ما تشغله من أهمية في الساحة السينمائية الوطنية. طبعاً، قد لا يكون هناك اسم الممثل الذي يلعب دور موظف الاستقبال في الفندق. عاد مستخدم محلّ الفيديو من جولته الاستكشافية، وجاء يحمل كومة من الأشرطة التي وضعها على المنضدة، **لدينا** المزيد، لكن بما أنك قلت إنك تريد فقط خمسة أو ستة، **حسناً**، غدا أو بعد غد سأمر من هنا لآخذ ما ستجده، **هل** ترى أنه ينبغي أن أطلب بعض ما ينقص من الأشرطة، سأله المستخدم، محاولاً إنعاش آماله النحيلة، **لنبدأ** بما لدينا هنا، سنرى بعد ذلك. لم يكن ثمة من داع للإلحاح، فالزبون يعرف ما يريد. ذهنياً، ضربَ المستخدمُ في ستّة ثمن كل قطعة من قطع الفيديو، لأنه

خرّيج الثانوية القديمة، يوم لم تكن هناك آلات حاسبة محمولة ولا حتى كان الناس يحلمون بها، ثم نطق بالرقم. صحح له تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **هذا** هو ثمن الأشرطة، وليس قيمة الاستئجار، **بما** أنك اشتريتَ الشريط الآخر، ظننتُ أنك تريد شراء هذه أيضاً، قال المستخدم متعللاً، **نعم**، ربما آتي لشرائها، شريطاً واحداً أو ربما كل الأشرطة، لكني أحتاج أولاً إلى متابعتها، إلى مشاهدتها، أظن أن هذا هو المصطلح الصحيح، لأرى إن كانت تنطوي على ما أبحث عنه. بعد أن هزمه منطقُ الزبون الذي لا يُدحضُ، راجع المستخدمُ الحساب بسرعة ودسَّ الأشرطة في كيس من البلاستيك. دفع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الثمن، قال مساء الخير وإلى الغد ثم خرج. من سمّاكَ تيرتوليانو كان يعرفُ ما يفعلُ، دمدم البائع المحبطُ بين أسنانه.

بالنسبة للسارد، أو الراوي، على فرضية أنه سيتم لا محالة تفضيل شخصية تحظى بقبول أكاديمي، فإن أصعب شيء، بعد بلوغ هذه المرحلة، قد يكون هو كتابة أن مسار أستاذ التاريخ عبر المدينة، حتى اللحظة التي ولج فيها بيته، قد مرّ من دون مشاكل. مثل آلة تتحكم في الزمن، خصوصاً في حالة لم يسمح الضمير المهني باختلاق شجار في الشارع أو حادثة سير بهدف وحيد يتمثل في ملء فراغات الحبكة، فإنّ تلك الكلمات الثلاث، «من دون مشاكل»، تُستعملُ حين تكون هناك حاجة ملحّة للمرور إلى الحادث الموالي أو عندما، مثلاً، لا نعرف ما نفعله بالأفكار التي تخطر على الشخصية، خصوصاً إنْ كانت لها أي صلة بالظروف المعيشية التي تحدد فعلها وتصرفاتها. حسناً، في هذا الوضع بالضبط كان يوجد الأستاذ وهاوي أشرطة الفيديو الجديد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو

وهو يقود سيارته. صحيح أنه كان يُفكّرُ، يُفكّرُ كثيراً، وبحدّة، لكن أفكارهُ كانت بعيدة جداً عما عاشه في الأربع وعشرين ساعة الأخيرة لدرجة أنه لو قرّرنا أن نأخذها بعين الاعتبار وننقلها إلى هذا السرد، فإن الحكاية التي كنا قد نوينا روايتها قد تُعوّضُ لا محالة بحكاية أخرى. أكيد أن هذا الأمر يستحق العناء، ما دمنا نعرف كل شيء عن أفكار تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، نعرف أن هذا الأمر يستحق العناء، لكن ذلك يعني أن نعتبر لاغية وباطلة كل الجهود المبذولة إلى غاية الآن، وأنه لا جدوى من هذه الثماني وأربعين صفحة التي كُتبت، ونعود إلى البداية، الصفحة الأولى الساخرة والوقحة، لنبذر بذلك عملاً نزيهاً أُنجز من أجل تحمّل مخاطر مغامرة ليست جديدة ومختلفة فحسب، بل هي عالية الخطورة أيضاً، والتي نحن واثقون من أنّ أفكار تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ستجرّنا إليها جراً. لنكتفِ إذن بهذا الطائر في اليد بدل تجرّع خيبة طائريْن يحلّقان بعيداً. وفوق هذا، ليس هناك وقت للمزيد. ركَنَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو سيارته للتو، وهو الآن يقطع المسافة التي تفصله عن البيت، يحمل في يدٍ محفظةَ الدروس، وفي يدٍ أخرى كيساً من البلاستيك، فما الذي يمكن أن يُفكّر فيه الآن إن لم يكن أنه يتساءل كمْ عدد الأشرطة التي يستطيع مشاهدتها - يا له من فعل عويص - قبل الذهاب إلى النوم، هذا ما يحدث حين نهتم بالأدوار الثانوية؛ لو كان الأمر يتعلق بنجم فإنه قد يظهر مع أولى الصور. لقد فتح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الباب، لقد دخل، ولقد أغلق الباب أيضاً، وضع المحفظة على المكتب، وإلى جانبها الكيس مع أشرطة الفيديو. الهواءُ خالٍ من أيّ حضور، أو ربما فقط أنه لا يُلاحظ، كما لو أن ما دخل هنا بالأمس ليلاً قد صار، أثناء ذلك، جزءاً لا

يتجزأ من البيت. ذهب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى غرفته ليُغيّر ملابسَه، فتح الثلاجة ليرى إن كان بداخلها شيء ما يفتح شهيته للأكل، أغلقها مرة أخرى وعاد إلى غرفة الجلوس يحمل كأساً وقنينة جعة. أخرج أشرطة الفيديو ورتبها حسب تاريخ الإنتاج، من أقدمها، «الشفرة الملعونة»- الذي يسبق بسنتيْن الشريط الذي شاهده، «الإلحاحُ هو سرّ النجاح»، إلى آخر فيلم، «إلهةُ الخشبة»، الصادر في السنة الماضية. أما الأفلام الأربعة المتبقية، وفق نفس الترتيب، فهي «مسافر من دون تذكرة»، «الموت يهاجمُ عند الفجر»، «دقَّ ناقوس الإنذار مرّتيْن» و «اتّصلْ بي في يوم آخر». حركةُ ردّ فعل غير إرادية، ناتجة عن هذا العنوان الأخير، جعلتهُ يلتفتُ نحو هاتفه الخاص. كان مُؤشّرُ الضوء مشتعلاً في إشارة إلى وجود مكالمات في المجيب الآلي. تردّد بضع ثوان، لكنه في الأخير ضغط على الزّر الذي يسمح بالاستماع إليها. كان أوّل اتصال من صوت امرأة لم تعلن عن اسمها، ربما لأنها كانت تعلم أنه سيتعرف عليها مسبقاً، واكتفت بالقول، **هذه** أنا، ثم أضافت، **لا أعرفُ** ما يجري، فمنذ أسبوع لم تتصل بي، إنْ كنت تنوي وضع حدّ لعلاقتنا، فمن الأحسن أن تقول لي ذلك في وجهي، لأن نقاشنا قبل أيام لا ينبغي أن يكون سبباً لهذا الصمت، لكن لا أحد غيرك يعرف هذا الأمر، من جهتي أنا أحبك، وداعاً، قبلاتي. وكان الاتصال الثاني لنفس الصوت، **من** فضلك، اتّصل بي. كان هناك اتّصال ثالث، لكنه كان من لدن زميله أستاذ الرياضيات، **عزيزي**، قال، لدي إحساس بأنك انزعجت مني هذا اليوم، لكن، بكل صراحة، لا أستطيع أن أتذكّر ما يمكن أن أكون قد قمت به أو قلتُه كي يحدث أمر كهذا، أعتقدُ أنه يجب أن نتحدث، نوضح أي سوء تفاهم ممكن بيننا، إن تأكد أنه

يجب عليّ أن أعتذر إليك فاعتبر هذا الاتصال بداية لذلك، تحياتي، أعتقدُ أنه ينبغي لك أن تعلم أنني صديقُك. قطّب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو حاجبيْه، وحاول أن يتذكّر بشكل غامض إنْ كان قد حدث في الثانوية شيء ما مثير للغضب أو مزعج له علاقة بأستاذ الرياضيات، لكنه لم يفلح في تذكُّر أي شيء. أعاد شريط المكالمات إلى الوراء، واستمع من جديد إلى الاتصاليْن الأوّليْن، بنصف ابتسامة هذه المرة وبتعبير من تلك التعابير التي عادة ما نسمّيها حالمة. نهض ليُخرج من جهاز الفيديو شريط «الإلحاحُ هو سرّ النجاح» ويُدخل فيه شريط «الشفرة الملعونة»، لكن، في آخر لحظة، وإصبعه على زرّ التشغيل، انتبهَ إلى أنه، لو قام بذلك، قد يرتكب خطأ فادحاً، وهو أنه سيقفز على مرحلة من مراحل خطة العمل التي كان قد رسمها، أي أن ينسخ من نهاية فيلم «الإلحاحُ هو سرّ النجاح» أسماء الممثلين الثانويين من الفئة الثالثة، أولئك الذين، وإن كانوا يشغلون زمناً وحيزاً في القصة، ينطقون ببعض الكلمات ويشتغلون مثل أقمار، دقيقة طبعاً، لكن في خدمة الارتباطات والمدارات المتقاطعة للنجوم، ليس لهم الحق في اسم من تلك الأسماء المستعارة الضرورية في الحياة كما في الخيال، حتى لو كان قول ذلك كلاماً غير لائق. كان بوسعه أن يقوم بذلك لاحقاً، في أي وقت، لكن النظام، كما نقول ذلك عن الكلب أيضاً، يعضُّ من حين لآخر. أن يكون لكل مكان شيء والاحتفاظ بمكان لكل شيء كانت دائماً قاعدة ذهبية في أوساط الأُسر المزدهرة، وكما تبين بكل وضوح أن تنفيذ ما يتوجب من أمور وفق ترتيب جيد هو أحسن عقد تأمين ضد شبح الفوضى. قام تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بتقديم سريع للشريط المعروف «الإلحاحُ هو سرّ النجاح» نحو النهاية، ثم

أوقفه في المكان الذي يهمّه، عند لائحة الممثلين الثانويين، ثم ثبّت الصورة ونقل أسماء الرجال على ورقة، أسماء الرجال فقط، لأنه هذه المرة، عكس ما جرت به العادة، لم يكن موضوع البحث امرأة. نعتقد أن ما قيل هنا كان أكثر من كاف لنفهم أن العملية التي كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد خطط لها أثناء تفكيره الطويل والشاق، أي أن يقوم بالتعرف على هوية موظف الاستقبال في الفندق، ذلك الذي كان صورة طبقاً الأصل له يوم كان له شارب، وربما ما زال كذلك حتى اليوم من دون شارب، وربما سيكون كذلك غداً، عندما يفتح صدْغا أحدِهما العاريْن طريقاً باتجاه صلعة الآخر. إنّ ما كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ينوي القيام به، في نهاية المطاف، كان تكراراً متواضعاً لخفة عملية بيضة كريستوف كولومبوس، يدوّن أسماء كل الممثلين الثانويين، سواء في الأفلام التي شارك فيها موظف الاستقبال في الفندق أو في تلك التي لم يُستدعَ للمشاركة فيها. مثلاً، إن كان في هذا الفيلم الذي أدخله للتو في جهاز الفيديو، «الشفرة الملعونة»، لا تظهر نسختُه البشرية، سيكون بوسعه أن يشطب من اللائحة الأولى على كل الأسماء التي تتكرر في شريط «الإلحاحُ هو سرّ النجاح». نعرف أن رأس إنسان بدائي لن يفيده في شيء في مثل هذه الحالات، لكن بالنسبة لأستاذ متخصص في مادة التاريخ معتاد على التعامل مع وجوه من مختلف الحقب والبقاع، والذي بالأمس فقط كان يطالع كتاباً موسوعياً عن الحضارات القديمة في بلاد الرافدين ويقرأ الفصل الخاص بالساميين الآموريين، فإن هذه النسخة الرديئة من الكنز المخبأ لا تعدو أن تكون لعبة أطفال ربما لم تكن تستحق منا كل هذا الشرح المفصل.
في الأخير، وخلافاً لما افترضناه سالفاً، ظهر موظف الاستقبال في

فيلم «الشفرة الملعونة»، وبدا الآن في هيئة أمين صندوق في البنك، تحت تهديد مسدس وهو يبالغ في الارتعاد من الخوف، حتى يكون، بكل تأكيد، مُقْنعاً أمام عينَي المخرج غير الراضيتيْن، فلم يجد بُدّاً من أن ينقل محتوى الخزنة إلى كيس كان المعتدي قد ألقاه إليه داخل الشباك وهو يزمجر في الوقت ذاته، **إمّا** أن تملأَ الكيس، أو أن أملأك بالرصاص، عليك أن تختار. كان هذا اللص بارعاً في استعمال الأفعال وطُرُق تصريفها. تدخّلَ أمينُ الصندوق مرّتيْن في الأحداث، أولاً ليجيب على أسئلة الشرطة، ثانياً، عندما قرر مدير البنك أن يسحبه من الشباك، لأنه تأثر كثيراً بما حدث وأصبح كل الزبائن يبدون له لصوصاً. بقي أن نشير إلى أن أمين الصندوق هذا كان له نفس شارب موظف الاستقبال في الفندق. هذه المرة، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد شعر بحبات عرق باردة تنزلق نازلة عبر ظهره، لم تعد يداه ترتعشان، كان يوقف الصورة لبضع ثوان، يتفحصها بفضول بارد، ثم يواصل. بما أن الأمر يتعلق بفيلم يظهر فيه الرجل الشبيه، المطابق، التوأم المنفصل، سجيناً في حصن زينْدا أو أي شيء آخر لم يُحدّد بعد، فإن الطريقة لمواصلة البحث عن هويته الحقيقية ينبغي أن تكون مختلفة، طبعاً، لأن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو سيُدوّن الآن الأسماء التي ستظهر في اللائحتيْن. كان هناك اسمان، اثنان فقط، هما اللذان أشّر عليهما تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بعلامة. كان وقت العشاء ما يزال بعيداً، والرغبة في الأكل لا تظهر أي علامة إلحاح، لذا كان بوسعه أن يشاهد الفيلم الموالي حسب الترتيب الزمني، وعنوانه «مسافر من دون تذكرة»، والذي كان من الممكن أن يُسمى «الزمن الضائع»، لأنه لم يتم التعاقد مع الرجل ذي القناع الحديدي. قلنا إنه «زمن ضائع»،

لكنه لم يكن ضائعاً تماماً، إذ بفضله تم التشطيب على بعض الأسماء من اللائحة الأولى وكذا الثانية. لكثرة ما أحذفُ، سوف أبلغُ الهدف، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بصوت عال، كأنه شعر فجأة بالحاجة إلى رفقة. رنّ الهاتفُ. كان الأمر الأقل احتمالاً هو أن يكون المتصل زميله أستاذ الرياضيات، أما الأمر الأكثر احتمالاً من كل الإمكانيات المطروحة فهو أن يكون المتصل هو نفس المرأة التي قامت باتّصالَيْن من قبل. كما يمكن أن يكون المتصل هو الأمُّ التي تسأل من هناك بعيداً عن صحة ابنها العزيز. بعد أن رنّ بضع مرات، صمت الهاتفُ، وهو ما يعني أن آلية التسجيل قد بدأت تشتغل، وانطلاقاً من هذه اللحظة ستظل الكلمات المسجلة تنتظر متى ومن سيرغب في الاستماع إليها، الأمُّ تسأل، **كيف** حالك، يا ابني، الصديق الذي يلح، **لا** أظن أنني ارتكبتُ أي خطأ، العشيقة التي تصيح يائسة، **لا** أستحق منك هذا. أياً كان صاحب الكلمات داخل آلة التسجيل، لم يكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يرغب في الاستماع إليه. وحتى يتسلى، لأن معدته بدأت تطالبه بالطعام، توجّه إلى المطبخ ليحضر سندويشاً ويفتح قنينة جعة. جلس على كرسي، مضغ من دون متعة الأكل القليل، بينما كان فكرُه يستسلمُ، حراً طليقاً، لأحلام اليقظة. ولما شعر أن يقظة الوعي قد أغشي عليها فيما يشبه الإغماء، قامَ الحسُّ السليم، بعد أن ذهب بعد تدخّله الأول لا يعلم إلى أين إلا الرّبُّ، بالتسلل بين مقطعين ناقصين من ذلك الحديث المطول وسألَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إنْ كان يشعر أنه سعيد بالوضعية التي خلقَها. وهو يعود إلى المذاق المُرّ لجعة سرعان ما فقدت انتعاشها وإلى رخاوة ورطوبة تماسك لحم بارد من النوع الرديء ضُغط بين قطعتي خبز زائف، أجاب أستاذ التاريخ إنّ

السعادة لا علاقة لها بما كان يجري هناك، أما بخصوص الوضعية، فقد استسمح ليُذكر بأنه ليس هو من خلقها. حسناً، أنت لم تخلقها، أجابه الحسُّ السليم، لكن معظم الأوضاع التي نحشر أنفسنا فيها ما كان لها لتمضي بعيداً لو أننا لم نساعدها، وأنت لن تنكر أنك قد ساعدت هذه الوضعية، **كان** الأمر يتعلق بفضول خالص، لا أقل ولا أكثر، لقد تحدثنا في هذا الأمر، **هل** لديك شيء ما ضد الفضول، **ما** ألاحظه إلى حد الساعة أن الحياة لم تعلمك أن أحسن مهارة لدينا منذ الأزل، حسُّنا السليم، هو بالضبط فضولنا، **في** نظري، الحسُّ السليم والفضول أمران لا ينسجمان، **كم** أنتَ مخطئ، تنهّد الحسُّ السليم، **أثْبتْ** لي ذلك، **منْ** تعتقدُ أنه اخترع العجلة، **إننا** لا نعرف، **نعرفُ**، يا سيدي، الحسُّ السليم هو من اخترع العجلة، فقط قَدْرٌ كبير من الحسّ السليم هو من كان بوسعه أن يخترع، **والقنبلة** الذرية، هل كان حسُّك السليم هو من اخترعها، سأل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بنبرةِ انتصارِ منْ باغتَ خصمَهُ حافي القدمين، **لا**، هذا لا، القنبلة الذرية اخترعها حسٌّ أيضاً، لكن هذا الحس لم تكن فيه ولا ذرة من السلامة، **إنَّ** الحسّ السليم، واسمح لي لأقول لك هذا، محافظ، بل أغامر وأجزم بأنه رجعي، **هذا** النوع من رسائل الاتهام دائماً تصل، إذ عاجلاً أم آجلاً كل الناس يكتبونها وكل الناس يتوصلون بها، **إذن** لا بد أن عدد من وافقوا على كتابتها مثل عدد أولئك الذين لم يجدوا بُدّاً من التوصُّل بها، إلّا إذا كانوا يكتبونها بدورهم، **ينبغي** أن تعرف أن الموافقة على أمر ما لا تعني دائماً مشاطرة سببه، لأن الناس عادة ما يجتمعون تحت ظل رأي من الآراء كما لو أنهم يحتمون تحت مِمْطَرَة. فتح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو فمه ليرد، إن سُمح باستعمال عبارة «فتح فمه» والأمر يتعلق

بحوار صامت بكامله، كله ذهني، كما هو شأن هذا الحوار، لكن الحسّ السليم لم يعد هناك، كان قد انسحب من دون ضجيج، ليس منهزماً بالمعنى الدقيق للكلمة، لكنه كان غاضباً من ذاته لأنه سمح للحديث بأن ينحرف عن الموضوع الذي جعله يظهر من جديد. وفوق ذلك لم يكن له ذنب فيما وقع بكل بساطة. وبالفعل، ليس من النادر أن يخطئ الحسُّ السليم بخصوص العواقب، بطريقة سيئة بعد اختراع العجلة، وبطريقة أسوأ بعد اختراع القنبلة الذرية. ألقى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو نظرة على ساعته، قدّر كم من الوقت قد تأخذ منه مشاهدةُ فيلم آخر، لأنه في الحقيقة بدأ يشعر بآثار سوء النوم خلال ليلة أمس، وجفناه، بمساعدة من الجعة، بدآ يثقلان عليه كالرصاص، بل حتى الأفكار المجردة التي انغمس فيها قبل قليل لا يمكن أن يكون لها من سبب آخر. لو ذهبتُ لأنام فوراً، قال، من المحتمل جداً أن أستيقظ بعد ساعتيْن أو ثلاث ساعات، وبعد ذلك يكون الأمر أسوأ. قرر أن يشاهد شيئاً من شريط «الموت يهاجمُ عند الفجر»، ربما لا يلعب الرّجُل أي دور في هذا الفيلم، وهذا قد يُبسّط كل شيء، سينتقل إلى نهاية الشريط، سيُدوّن الأسماء، وحينئذ، سيذهب إلى النوم. لكن حساباته كانت خاطئة. ظهر الرجل، وكان يلعب دور مساعد ممرض وليس له شارب. مرة أخرى، عاد شعر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لينتصب، فقط عند مستوى ذراعيه هذه المرة، ترك العرقُ ظهره آمناً وليس بارداً، بطبيعة الحال، واكتفى بأن بلّلَ جبينه ببللٍ خفيف. شاهد الفيلم عن آخره، أشّر بعلامة أخرى على اسمٍ آخر يتكرّرُ، وذهب لينام. وفوق هذا قرأ صفحتيْن من الفصل الخاص بالساميين الآموريين، ثم أطفأ الضوء بعد ذلك. كان آخر من فكّر فيه بطريقة واعية هو زميله أستاذ

الرياضيات. في الحقيقة، لم يكن يعرف الأسباب التي قد يشرح بها لزميله تلك البرودة المفاجئة التي عامله بها في ممرّ الثانوية. لأنه وضع يده على كتفي، تساءل، لكنه سرعان ما أعطى الجواب، قد أبدو سخيفاً لو قلتُ هذا وقد يديرُ لي ظهره، وهذا ما قد أفعله أنا أيضاً لو كنتُ مكانه. استعملَ آخر ثانية قبل النوم ليُهمهم، ربّما متحدثاً مع نفسه، ربّما مع زميله، **ثمة** أشياء يستحيلُ شرحُها بالكلمات.

ليس الأمرُ كذلك تماماً. كان هناك زمنٌ قلّت فيه الكلمات وصارت نادرة حتى أننا لم نعد نتوفر عليها لنقول **هذا** لي وهذا لك، بل ولم نعد نتساءل حتى **لماذا** نجمع ما لي وما لك. إنّ أشخاص أيامنا هذه لا يخطر على بالهم كم كلّف من جهد ابتكار هذه الألفاظ، أولاً، بل ربما كان أصعب ما في الأمر هو الوعي بضرورتها، وبعد ذلك كان لا بدّ من التوصل إلى توافق حول معنى أثرها المباشر، وفي الأخير، وهي المهمة التي لن تنتهي بشكل تام، تصورُ العواقب الممكنة، على المدى المتوسط والطويل، لآثار تلك الألفاظ. بالمقارنة مع هذا الأمر، وعكس ما أكدهُ الحسُّ السليم بشكل قاطع الليلة الماضية، كان اختراع العجلة مجرد ضربة حظ، كما سيكون اكتشاف قانون الجاذبية الكوني فقط لأنّ تفاحةً فكرت أنْ تسقط على رأس نيوتن. لقد اختُرعت العجلة وهناك بقيت مخترعَة إلى الأبد، أما الكلمات، تلك الكلمات وكل الكلمات، فقد جاءت إلى الدنيا في مصير ضبابي، غامض، بوصفها تنظيمات صوتية ومورفولوجية ذات طابع مؤقت بشكل بارز، رغم أنه ربما بفضل ما ورثته من هالة خلقها، تصرُّ على أن تظهر بأنها أبدية، غير فانية أو خالدة، ليس حسب رغبة من يصنفها كذلك، بل بسبب ما تعنيه

وتمثله بطريقة متغيرة. إنّ هذه النزعة الوراثية التي لن يعرفوا ولن يقدروا على مقاومتها، صارت، مع مرور الوقت، مشكلة غاية في الخطورة وربما مستعصية الحل تتعلق بالتواصل، سواء الجماعي الذي يهم الجميع، أو الخاص بين فرد وآخر، حتى أنه في النهاية حصل خلط بين الأمور ومسمياتها، فاغتَصبت الكلماتُ المكان الذي كانت تسعى إلى التعبير عنه فيما قبل مما نتج عنه في نهاية الأمر، أتعرّفُكَ تحت قناعكَ، تلك الجلبة الرّاعدة لعلب القصدير الفارغة، هذا الموكب الكرنفالي من الصفائح التي تحمل لافتات من دون شيء بداخلها، أو فقط، تكاد تتبخر، رائحة تُذكّر بغذاء الجسد والروح كانت تحتويه وتحافظ عليه في يوم من الأيام. لقد أخذتنا بعيداً جداً عن موضوعنا هذه التأملات المتشعبة حول أصل الكلمات ومصيرها، حتى أنه لا بدّ لنا الآن من العودة إلى البداية. وعكس ما يكون قد بدا، لم تكن الصدفة البسيطة هي ما حملنا لنكتب «**هذا** لي وذلك لك، ولا حتى **لماذا** نجمع ما لي وما لك». لو أنَّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قضى بعض الوقت، قبل بضع سنوات، شريطة أن يفعل ذلك في الوقت المناسب، يفكرُ في النتائج والآثار، على المدى المتوسط والطويل، لجمل مثل تلك الجمل وجمل أخرى تنحو نفس المنحى وتميل نحو نفس الاتجاه، فإنه من المحتمل جداً ألا يكون الآن ينظر إلى الهاتف وهو يحك رأسه في حيرة، يتساءل اللعنة ما الذي يمكن أن يقوله لتلك المرأة التي تركت مرّتيْن، إن لم تكن ثلاث مرات، صوتَها وشكاواها في مسجلة المجيب الآلي. نصفُ الابتسامة والنظرةُ الحالمة اللتان لاحظناهما فيه عندما أعاد الاستماع للمكالمات في الليلة الماضية لم تكونا، في نهاية المطاف، غير علامة كبرياء يستوجب اللوم، والكبرياء، خصوصاً كبرياء نصف

العالم الذكوري، هو مثل أولئك الأصدقاء الزائفين الذين يهربون عند أدنى نكسة في حياتنا أو ينظرون إلى مكان آخر يصفرون وهم يتظاهرون بالانشغال. ماريّا دا بّاشْ، هذا هو الاسم العذب المفعم بالأمل لتلك المرأة التي اتّصلت، لن تتأخر في الخروج إلى العمل، وإن لم يتحدث معها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الآن بالضبط، فإن السيدة المسكينة ستعيش يوماً آخر من القلق، وهو ما لن يكون عادلاً، مهما ارتكبته من أخطاء أو ما اقترفته من ذنوب، إن كانت في الحقيقة قد فعلت. ينبغي القول، مع ذلك، احتراماً لدقة الأحداث وانصياعاً لها، إن التناقض الذي يتخبط فيه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليس ناتجاً عن أمور مهمة ذات طبيعة أخلاقية، ولا بتفاصيل دقيقة ترتبط بالعدل والظلم، بل بما يعرفه من أنه إن لم يتصل بها، سوف تتصل به، وسيكون من عواقب هذه المكالمة الجديدة ارتفاع أكثر من محتمل في عبء عبارات اللوم السابق، سواء جاءت مقترنة بالدموع أو غير مقترنة بها. قُدّم النبيذ وشُرب في الوقت المناسب، والآن ينبغي شرب ما تبقى منه مُراً في قعر الكأس. وبما أن فرص التأكُّد منذ ذلك لن تنقصنا في المستقبل، وخصوصاً في أحداث سوف تخضعه لامتحانات صعبة، فإن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليس من ذلك النوع الذي عادة ما نسمّيه شخصاً شريراً، بل إننا قد نجده مُصنّفاً بشكل مشرف ضمن لائحة ذوي الخصال الحسنة التي ربما يكون أحدهم قد قرر وضعها وفق معايير ليست صارمة جداً، لكنه، علاوة على أنه، كما رأينا من قبل، مفرط الإحساس، وهو مؤشر على قلة الثقة بالنفس، يعاني من نقص حاد في العواطف التي لم تكن يوماً قوية ولا دائمة عنده. طلاقُه، مثلاً، لم يكن من أنواع الطلاق الكلاسيكية، بما يصاحبها من دراما وزوابع عاطفية،

خيانات، هجران وعنف، بل كان تتويجاً لمسلسل من ذبول إحساسه بالحب، الذي لم يكن هو نفسه، ربما بسبب الانشغال أو اللامبالاة، قادراً على أن يرى إلى أي صحاري قاحلة وصل، لكن المرأة التي كان متزوجاً بها، الأكثر استقامة ونزاهة منه، اعتبرت ذلك في النهاية أمراً لا يطاق ولا يمكن تقبُّله. تزوّجتُكَ لأنني أحبك، قالت له ذات يوم مشهود، اليوم الجبنُ وحده يمكن أن يجبرني على أن أحافظ على هذا الزواج، **وأنتِ** لستِ جبانَة، قال لها. كلا، لستُ جبانة. إنّ الاحتمالات التي تجعل هذا الشخص الجذاب، لعدة لأسباب مختلفة، يلعبُ دوراً في الحكاية التي نسردها قليلة جداً لسوء الحظ، إن لم نقل منعدمة، وتتوقف على فعل، إشارة، أو كلمة من زوجها السابق؛ كلمةٌ، إشارة أو فعل من الأكيد أن ما يحددها هي حاجة أو مصلحة عنده، لكننا الآن لا نملكُ وسيلة لرؤيتها. وهذا هو السبب الذي يجعلنا نرى أنه ليس من الضروري أن نطلق عليها اسماً. أما ماريّا دا بّاشْ، إن كانت ستستمر أم لا في هذه الصفحات، لِكَمْ من الوقت ولأيّ غرض، فذلك أمرٌ يتعلقُ بتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، هو من سيعرف ما سيقوله لها حين يقرر أن يرفع سماعة الهاتف ويُركّب الرقم الذي يعرفه عن ظهر قلب. إنه لا يعرف عن ظهر قلب رقم هاتف زميله أستاذ الرياضيات، لذلك فهو يبحث عنه في المذكرة، على ما يبدو، في النهاية، لن يتصل بماريّا دا بّاشْ، فكّر أنه من الأهم والمستعجل أن يوضح خلافاً تافهاً على أن يُطمْئن روحَ امرأةٍ حزينة أو أن يوجّه لها رصاصة الرحمة. عندما قالت زوجة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السابقة إنها ليست جبانة، فقد حرصت أيّما حِرص على ألّا تهينه بقولها أو أيّ تلميح بسيط مهما كانت طبيعته، لكن، في هذه الحالة، كما في حالات متعددة في الحياة،

فاللّبيبُ من الإشارة يفهمُ، وبالعودة إلى المشهد العاطفي والموقف الحالي، فإن ماريّا دا بّاش، المثابرة الصبور، لن يكون من حقها ولو نصف كلمة، رغم أنها قد أدركت كل ما يجب أن تدركه، أي أنّ خطيبها، عشيقها، رفيقها في السرير أو لا ندري كيف يسمّونه في أيامنا هذه، يستعدُّ ليخبط الباب. كانت زوجة أستاذ الرياضيات هي من ردّت على الهاتف في الجهة الأخرى من الخط، سألت **مَنْ** معي بصوت يخفي بشكل سيّئ غضباً ناتجاً عن الاتصال في وقت كهذا، باكراً جداً، لم تعبّر عن ذلك بنصف كلمة، بل بنبرة مهتزة ونبرة ثانوية دقيقة، ولا شك أننا أمام مادة تستوجب انتباهاً خاصاً من الدارسين من مختلف مجالات المعرفة، وخاصة من أصحاب نظريات الأصوات، الذين ينبغي أن يحظوا باستشارة مناسبة من طرف أولئك الذي يعرفون الموضوع جيداً منذ عدة قرون، ونعني بهم، طبعاً، أهل الموسيقى، من مؤلفين، في المقام الأول، ولكن أيضاً العازفين، الذين لا بدّ أنهم يعرفون كيف يتم الحصول على كل ذلك الأمر. في البداية، اعتذر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وقال بعد ذلك اسمه وسألَها إنْ كان يمكن أن يتكلم مع، **لحظة**، سوف أناديه، قاطعتْهُ المرأة، ولحظة بعدها كان الزميل أستاذ الرياضيات يقول صباح الخير وهو يجيبه صباح الخير، اعتذر مرة أخرى، وأنه سمع الرسالة للتو، **كان** بوسعي أن أنتظر لأتحدث معك في الثانوية، لكني ارتأيتُ أنه ينبغي لي أن أوضح هذا اللبس في أقرب وقت ممكن حتى لا أفسح المجال لظهور أشكال من سوء الفهم تستفحل بعد ذلك، حتى إن لم نرغب في الأمر، **فيما** يخصني، ليس هناك أي سوء فهم، أجابه أستاذ الرياضيات، وضميري مرتاح مثل ضمير طفل في مهده، **أعرفُ** ذلك، أعرف ذلك، ردّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذنبُ ذنبي، إنه

هذا الركود، هذه الكآبة التي تثير أعصابي، أصبحُ حساساً، غير واثق، أتخيل أشياء، **أية** أشياء، سأله الزميل، **لستُ** أدري، أشياء، مثلاً، أنني لا أحظى بما أستحقُّ من تقدير، أحياناً أشعر أنني لا أعرف بالضبط ما أكونُ، أعرف من أنا ولكني لا أعرف ما أكونُ، لست أدري إن كان مفهوماً ما أقول، **إلى** حدّ ما، لكنك لم تقل سبب ما صدر عنك، لست أدري ما أسمّيها، ردة فعل، نعم ردة فعل، **حتى** أكون صريحاً معك، حتى أنا لا أعرفُ، كانت انطباعاً عابراً، كما لو أنك تصرفتَ معي بطريقة، كيف أقول، أبوية، **ومتى** تصرّفتُ معك بهذه الطريقة الأبوية، باستعمال تعبيرك، **كنا** معاً في الممر، افترقنا كي نذهب إلى حجرتَي الدرس، فوضعتَ يدكَ على كتفي، ربما كانت حركة صداقة بسيطة، لكني لم أستحسنها في تلك اللحظة، رأيتُ فيها اعتداء، **أذكرُ** ذلك الآن، **يستحيلُ** ألا تذكر ذلك، لو كان ثمة مُولّدٌ كهربائي مكان معدتي لسقطتَ هناك، مصعوقاً، **وهل** كان رفضكَ بكل هذه القوة، **ربما** ليس الرفض هو الكلمة المناسبة، فالحلزون لا يرفض الإصبع الذي يلمسه، ينكمش، **هل** تكون هذه هي طريقتُك في الرفض، **ربما** تكون، **لكن**، أنت، بالعين المجردة، لا تشبه الحلزون في شيء، **أحياناً** أظن أننا نتشابهُ كثيراً، **من** أنت وأنا، **كلا**، أنا والحلزون، **اخْرُج** من هذه الكآبة وسترى كيف سيتغير شكل كل شيء، **غريبٌ، ما** الغريبُ، **أنك قلت** لي الآن هذه الكلمات، **أي** كلمات قلتُ، **يتغير** شكل، **أعتقدُ** أن معنى الجملة واضح بما يكفي، **من** دون شك، فهمتُ المعنى، لكن ما قلتَهُ للتو يتقاطع تماماً مع بعض انشغالاتي في الآونة الأخيرة، **حتى** أستطيع متابعتك، ينبغي أن تكون أكثر وضوحاً، **ما** زال الوقت مبكراً جداً على ذلك، ربما في يوم من الأيام، **سأظل** أنتظر. فكّرَ

تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، سوف تنتظرُ طوال حياتكَ، وبعد ذلك، **بالعودة** إلى ما يهم حقاً، يا عزيزي، ما جئتُ أطلبُ منكَ هو أن تسامحني، **سامحتُك**، يا رجل، رغم أن الأمر لا يستحق أن تستسمحني، وما وقع هو أنك خلقت في ذهنك ما يسمّى عادةً زوبعة في فنجان، ولحسن الحظ، غالباً ما تحدث هذه الحالات قرب الشاطئ ولا يموت أحد غرقاً، **شكراً** لأنك تقبلت الأمر بمزاج رائق، **لا** داعي للشكر، فعلتُ ذلك عن طيب خاطر، **لو** أن حسّي السليم لم يشرد في تخيلاته، أشباحه وحِكَمه التي لم يطالبه بها أحد، لكان جعلني ألاحظ أن الطريقة التي أجبتُ بها على اندفاعك السخي كانت سخيفة أكثر مما كانت مفرطة، **لا** تنخدع، فالحسُّ السليم ليس سليماً بما يكفي ليكون حسّاً بالفعل، لأنه في الحقيقة لا يعدو أن يكون فصلاً من فصول الإحصائيات، وأكثرها شيوعاً، **مُهمٌّ** ما تقوله، إذ لم يسبق لي أن فكرت في الحس السليم القديم الذي يحظى بالتصفيق بوصفه فصلاً من فصول الإحصائيات، لكن، بالتفكير ملياً في الأمر، هو فعلاً كذلك، وليس شيئاً آخر، **لاحظْ** أيضاً أنه يمكن أن يكون فصلاً من فصول التاريخ، من جهة أخرى، ما دمنا نتحدث عن ذلك الآن، هناك كتاب كان من المفروض أنه قد كُتب، لكن، في حدود ما أعرف، لا يوجد، وهو هنا بالضبط، **أيُّ** كتاب، **تاريخ** الحسّ السليم، **إنّك** تتركني فاغر الفاه، لا تقُل لي إن من عادتك أن تنتج في ساعة مبكرة من الصباح أفكاراً بحجم هذه الأفكار التي سمعتُها للتو، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بنبرة تشبه السؤال، **نعم**، شريطة أن يشجعني أحد على ذلك، لكن ينبغي أن يكون ذلك بعد وجبة الفطور، أجابه أستاذُ الرياضيات ضاحكاً. منذ اليوم، سوف أتصل بك كل صباح، **حذار**، تذكّر ما حصل للدجاجة التي تضع بيضاً من

ذهب، **نلتقي** لاحقاً، **نعم**، نلتقي لاحقاً، وأعدُك أنني لن أبدو لك أبوياً مرة أخرى، **أنتَ** في عمر أبي تقريباً، **وهذا** سبب إضافي. وضع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السماعة، شعر بالرضا والارتياح، وعلاوة على ذلك كان الحديث مثيراً، ذكياً، لأنه لا يظهر كل يوم شخص يقول لنا إن الحسّ السليم ليس سوى فصل من فصول الإحصاء وإن مكتبات العالم ينقصها كتاب يروي حكايتهُ منذ طُرد آدم وحواء من الجنة. أخبرتهُ نظرةٌ خاطفة إلى الساعة أن ماريّا دا بّاش خرجت متوجّهة إلى عملها في البنك، وأنه يمكن أن يصلح ما أفسده معها مؤقتاً من خلال رسالة عملية يتركها في مجيبها الآلي، **بعد** ذلك سوف نرى. من باب الحذر، في حالة ما تدخّلَ الشيطان في الأمر، قرر أن يترك نصف ساعة لتنقضي. تعيشُ ماريّا دا بّاش مع أمها، ودائماً ما تخرجان معاً، تذهب الأولى إلى عملها، وتذهب الثانية إلى القُدّاس وشراء حاجيات اليوم. أصبحت أُمّ ماريّا دا بّاش مواظبة على الذهاب إلى الكنيسة منذ ترمّلت. بعد أن حرمت من جلالة الزواج التي كانت تظن أنها تستظل بظلالها، راحت تذبل لعدة سنوات، ثم ذهبت تبحث عن سيد آخر تخدمه، سيد يمنحها، فوق كل شيء، امتيازاً لا يُقدر بثمن وهو أنه لن يتركها لتترمّل مرة أخرى. بعد انقضاء نصف ساعة من الانتظار، لم ير تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد بكل وضوح بأي عبارات سيحرر رسالته، كان فكّر أنه ربما يكون من الأحسن تحرير رسالة بسيطة، بأسلوب لطيف وطبيعي، لكن، كما نعرف جميعاً، الفروق بين اللطيف والكريه وبين الطبيعي والمصطنع تكاد لا تنتهي، فعموماً تصدر عنا النبرة المناسبة لكل ظرف بطريقة عفوية، لكن، عندما نلتزم الحذر، كما هي الحال الآن، فإن كل ما بدا لنا للوهلة الأولى كافياً ومناسباً، سيبدو لنا ناقصاً أو مفرطاً في

اللحظة الموالية. فما كان نوعٌ من الأدب الكسول يصفُه لوقت طويل بالصمت البليغ لا وجود له، لأن لحظات الصمت البليغة ما هي إلّا كلمات غصّ بها الحلقُ، كلمات مخنوقة لم تفلح في الهروب من انقباض البلعوم. بعد أن أتعب دماغه في التفكير، ارتأى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه من أجل مزيد من الأمان، فإنه من الحكمة أن يكتب الرسالة ويقرأها على الهاتف بعد ذلك. إليكُم ما جادت به قريحتُه بعد تمزيق بعض الأوراق، **ماريّا دا بّاش،** لقد استمعتُ إلى رسائلكِ، وما أريد أن أقول لك هو أنه علينا أن نتصرف بكل هدوء، نتخذ القرارات المناسبة لكل واحد منا، علماً بأن الشيء الوحيد الذي يدوم مدى الحياة هو الحياة، أما ما عدا ذلك فهو عابر، غير ثابت وزائل؛ ولقد علّمني الزمن هذه الحقيقة الكبيرة، لكني واثق من شيء واحد، أننا صديقان وسنظل كذلك، ما نحتاج إليه هو حديث مطوّل، وحينئذ سترين كيف سيجد كل شيء حلّه نحو الأحسن، اتصلي بي في يوم من الأيام. تردّد لمدة ثانية من الزمن، ما كان سيقوله لم يكن مكتوباً، ثم انتهى، **قبلاتي**. بعد وضع السماعة، قرأ من جديد ما كتب فانتبه إلى الحضور غير المناسب لبعض التفاصيل التي لم يعرها ما يكفي من الانتباه، بعضها أكثر دقة من الأخرى، مثل هذه الجملة المحشوة «أننا صديقان، وسنظل كذلك»، وهذا أسوأ ما يكون لمن يريد أن يضع حداً لعلاقة حُبّ، لأننا نظن أننا قد أغلقنا الباب بينما نحن ما نزال عالقين به، دون أن نذكُر القبلات التي تعبّر عن ضعفه وهو يودّع، وذلك الخطأ المتمثل في الاعتراف بأنهما بحاجة إلى حديث مطوّل، وكان أكثر من اللازم عليه أن يعرف، من خلال التجربة المكتسبة والدروس المستمرة لتاريخ الحياة الخاصة عبر القرون، أن الأحاديث المطولة في حالات كهذه،

خطيرة بشكل فظيع، فكم مرة بدأت بالرغبة في قتل الآخر وانتهت بالارتماء في أحضانه. أي شيء آخر أستطيع فعله، تذمّر، طبعاً لا أستطيع أن أقول لها إنّ كل شيء بيننا سيستمر كما كان من قبل، كما أنني لا أستطيع، هكذا عبر الهاتف ودون أن تكون في الاستماع، أن أطلق عليها رصاصة الرحمة، بّامْ، انتهى كل شيء، يا حلوتي، قد يكون ذلك موقفاً مفرطاً في الجبن، وأنا لا أتمنى أن أصل أبداً إلى هذا الحد. قرّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يكتفي بهذه الفكرة التصالحية، من قبيل هذا لي وهذا ضدي، وهو يعلم، مع ذلك، أن الأصعب ما زال في الطريق. قمتُ بأحسن ما أستطيع، استنتجَ.

إلى حدّ الآن، لم نكن بحاجة إلى معرفة في أيّ أيامٍ من أيام الأسبوع تدور هذه الأحداث المُحيرة، لكن الأفعال القادمة التي سيقوم بها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، حتى نفهمها فهماً تاماً، تستوجب أن نعرف أن اليوم الذي نحن فيه هو يوم الجمعة، مما يُستنتج منه أن يوم أمس كان هو يوم الخميس وما قبله كان هو يوم الأربعاء. قد يجد الكثيرون أنها أكثر من سطحية، بديهية، عبثية، بل وسخيفة هذه المعلومات التكميلية التي قررنا أن ننعم بها على يومي الأمس وما قبل الأمس، لكننا نردّ مسبقاً بأن أي انتقاد يعبّر عنه بهذه المصطلحات لن يكون إلّا عن سوء نية أو جهل من يصدر عنه، ما دام أنه، كما هو معروف في كل لغات العالم يسمّون يوم الأربعاء، مثلاً، mercredi، miércoles، mercoledi أو wednesday، ويسمّون يوم الخميس jeudi، jueves، giovedi أو thursday، فإن يوم الجمعة، إن لم نكن قد حرصنا على الحفاظ صراحة على اسمه، فقد يظهر من يسمّيه «freitag». لا يعني هذا أن ذلك لا يمكن أن يحدث في المستقبل، لكن لكل شيء وقته، وستحين ساعته. بعد توضيح هذه

النقطة، التي تقر بأننا في يوم الجمعة، وتشير إلى أن أستاذ التاريخ، اليوم، لن تكون له حصة تدريس إلّا في فترة الزوال، وتُذكّرنا بأن غداً هو يوم السبت، samedi، sábado، sabato، saturday، لن يكون هناك درس، وعليه فنحن عشية نهاية أسبوع، وخصوصاً أنه لا ينبغي أن نترك إلى الغد ما يجب القيام به اليوم، ندرك أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يملك كل المبررات ليذهب إلى محلّ الفيديو قصد استئجار ما بقي هناك من أشرطة تهمه. سوف يعيد لصاحب المحل فيلم «مسافر من دون تذكرة»، لأنه لا ينفعه في بحثه، وسيقتني من دون شكّ شريطَي «الموت يهاجمُ عند الفجر» و«الشفرة الملعونة». بقي له من طلبيّة الأمس ثلاثة أفلام، تمثل على الأقل أربع ساعات من المشاهدة، ومع ما سيجلبه من المحلّ فإن كل شيء يشي بأنه تنتظره نهاية أسبوع لا تُنسى، ملء بطن من السينما يفوق حدّ الشبع، كما كان يقول القرويون يومَ كان لهم وجود. رتّب نفسه، تناول وجبة الفطور، أدخل الأشرطة في العلب الخاصة بها، أغلق عليها بالمفتاح في جارور في المكتب ثم خرج، أولاً ليخبر جارته في الطابق العلوي أن بإمكانها ابتداء من هذه اللحظة أن تنزل متى شاءت لترتيب بيته، **خذي** كامل وقتك، لن أعود إلّا عند نهاية الزوال، قال، وبعد ذلك، باضطراب أقل من يوم أمس، لكن مع شيء مستمر من التوتر المميز لمن يتوجّه إلى لقاء لن يسمح له، لهذا السبب تحديداً، أن يخطئ، ولج السيارة وتوجّه إلى محلّ الفيديو. لقد حان الوقت لإخبار أولئك القراء الذين يبنون حُكْمهم على الأوصاف المقتضبة المقدمة لحد الآن عن المدينة فيعتقدون أن أحداث هذه الحكاية تجري في مدينة متوسطة الحجم، أي من تلك التي يقل عدد سكانها عن المليون نسمة، حان الوقت لإخبارهم، كنا نقول، بأن الأستاذ تيرتوليانو

ماكسيمو أفونسو هذا واحد من بين خمسة ملايين ونيّف من الكائنات البشرية، بكل ما بينها من فوارق هامة في رفاهية العيش وفوارق أخرى لا مجال فيها للمقارنة، تعيش في الحاضرة العملاقة التي تمتد على ما كان في القدم جبالاً، وذْياناً وسهولاً، وهي الآن نسخة أفقية وعمودية لمتاهة، استفحلت منذ البداية بمكونات سنسمّيها منحرفة، لكن تبيّن، مع مرور الوقت، أنها تضمن توازن النسيج الحضري الموسوم بالفوضى، لأنها وضعت خطوطاً فاصلة تقرّب، بشكل مُفارق، بدل أن تُفرّق. إنّ غريزة البقاء، لأن الأمر يتعلق بهذا أيضاً عندما نتحدث عن المدينة، ينطبق على الحيوانات كما على اللّاحيوانات، وهذا مصطلح يُعتبر عسير الفهم لا وجود له في القواميس اضطررنا لنحته، بما يكفي ويناسب من الشفافية على ما يبدو للوهلة الأولى، بفضل المعنى العادي للكلمة الأولى، حيوان، أو الكتابة المفاجئة للكلمة الثانية، لاحيوانات، الفروق وأوجه التشابه بين الأشياء واللاأشياء، بين الجامد والحيّ. انطلاقاً من الآن، حين ننطق كلمة لاحيوانات فإننا سنكون واضحين بنفس القدر من الوضوح والدقة كما نكون في المملكة الأخرى، بعد أن تختفي تماماً جدة الكائن وما ينطبق عليه من مصطلحات، وكنا نسمّي الإنسان حيواناً والحيوان كلباً. رغم أنه يُدرِّسُ التاريخ، لم يفكر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قطّ أن كل ما هو حيواني مندور ليصير لاحيوانياً، وأنه، مهما كانت عظمة الأفعال التي تركها البشر مسجلة في صفحات التاريخ، فإننا نتحدّر من اللاحيوان وإليه نسير. في انتظار ذلك، ونحن منشغلون بأشياء لم تحدث بعد، كما كان يقول القرويون الذين ذكرناهم أعلاه، ويعنون بذلك أنه بين الذهاب والإياب يستريح الظهر من التعب، يتوجّه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو

نحو محلّ الفيديو، وهو واحد من تلك الوجهات المتوسطة التي تنتظره في الحياة. المستخدم الذي تكلف بخدمته في المرّتين اللتين جاء فيهما إلى هنا كان منشغلاً مع زبون آخر. لكنه، من هناك، لوّح إليه بإشارة تعرُّف وكشف عن أسنانه في ابتسامة، من غير أي معنى خاص، كان بوسعها أن تخفي نية مشبوهة. جاءت مستخدمةٌ لتسأله عما يرغب فيه الوافد الجديد لكن طريقها قُطع بكلمتين قصيرتين لكن حاسمتيْن **سأتكلّفُ** به، فاضطرّت لتتراجع إلى الخلف بعد أن رسمت على شفتيها ابتسامة صغيرة كانت ابتسامة تفهّم واعتذار في الوقت ذاته. بما أنها جديدة على المهنة والمحلّ، وعليه فلا خبرة لها في فنون البيع المنمّقة، فإنها لم تكن مؤهلة بعد للتعامل مع زبائن من الدرجة الأولى. يجب ألّا ننسى أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، بالإضافة إلى أنه معروف كأستاذ لمادة التاريخ كما نعلم ودارس ذائع الصيت فيما يتعلق بمجال السمعي البصري، هو أيضاً مستأجر لأشرطة الفيديو بالجملة وبكميات كبيرة، كما رأينا بالأمس وسنرى ذلك اليوم بشكل أفضل. بعد أن تخلّص من الزبون الأول، جاء المستخدم، متحمساً ومستعجلاً، فدنا منه وقال، **صباح** الخير، سيدي الأستاذ، إنه لمن دواعي السرور أن نراك مرة أخرى في هذه الدار. دون قصد التشكيك في صدق الاستقبال وحرارته، فإنه، مع ذلك، يستحيل ألّا نلاحظ التناقض الصارخ الذي يصعب تجاوزه على ما يبدو بينها وبين تلك العبارات الأخيرة التي همهم بها بالأمس هذا المستخدم نفسه وهو يقول، **منْ** سمّاكَ تيرتوليانو كان يعرف ما يفعلُ. لنُعجّل الأمر ونقول إنّ تفسير ذلك يعود إلى كومة الفيديوهات التي كانت فوق المنضدة، حوالي الثلاثين شريطاً، على الأقل. بحكم خبرته في البيع الجيد التي أشرنا إليها من قبل، وبعد أن أطلق

العنان بصوت خفيض لتلك الملاحظة القوية، فكّرَ أنه قد يكون من الخطأ أن ينساق حتى يعميه الإحباط وأنه، بما أنه لم يكمل صفقة البيع التي كان قد بدأها، فما تزال أمامه الفرصة كي يحث المدعو تيرتوليانو هذا ليستأجر كل ما يستطيع أن يستجمعه من أشرطة نفس الشركة المنتجة، ويحتفظ، بالإضافة إلى هذا، على أمل مبني على أسس متينة في أن يبيعه بعد ذلك قسطاً كبيراً من الأشرطة التي كان قد استأجرها. إنّ عالَم التجارة يعج بالفخاخ والأبواب المزيفة، علبة من المفاجآت ليست دائماً بالسهلة، لأن المرء يجب دائماً أن يكون حذراً، ويستعمل التقدير والحيلة من دون أن ينتبه الزبون إلى المناورات الدقيقة، يهاجم بلطف الأفكار الجاهزة التي يشهرها للدفاع عن نفسه، ينسف مقاومته، يسبر رغباته الخفية، وعموماً، المستخدمة الجديدة ما زال أمامها الكثير مما ينبغي أن تتعلمه حتى تكون في المستوى المطلوب. ما لا يعرفه مستخدم المحلّ هو أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كان قد ذهب إلى هناك بالضبط بهدف أن يتزود بأفلام لنهاية الأسبوع بكامله، وقد استقرّ عزمه على أن يستنفد كل أشرطة الفيديو التي تُقدّمُ له بدل أن يكتفي بنصف الدزينة التي كان فقط بالأمس يريد أن يستأجرها. هكذا، ومرة أخرى، حيّت الرذيلةُ الفضيلَةَ، هكذا، مجّدَتْها بينما كانت تعتقد أنها على وشك أن تدوسها بقدميْها. وضعَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو شريط «مسافر من دون تذكرة» على المنضدة وقال، **هذا** الفيلم لا يهمّني، **والأفلامُ** الأخرى التي أخذتَها، هل قررتَ ما ستفعل بها، سأله المستخدم، **أحتفظُ** بشريط «الشفرة الملعونة»، أما الأشرطة الثلاثة المتبقية فلم أشاهدها بعدُ، **إنها**، إن لم أكن مخطئاً، «إلهةُ الخشبة»، «دقَّ ناقوس الإنذار مرّتيْن» و«اتّصلْ بي في يوم آخر»، استظهر المستخدم بعد أن

ألقى نظرة على سجلاته، **تماماً**، **هل** يعني هذا، يا سيدي، أنك تستأجر «مسافر من دون تذكرة» وتشتري «الموت يهاجمُ عند الفجر» و«الشفرة الملعونة»، **تماماً**، **حسناً**، فيما يخص هذا اليوم، لديَّ هنا، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يمهله كي يكمل جملته، **أتصوّرُ** أن الفيديوهات التي أراها هنا وُضعت جانباً لأجلي، تماماً، ردّ المستخدم، متردداً في ذهنه بين الرضا لأنه انتصر من دون أن يحارب والخيبة لأنه لم يحتج ليحارب كي ينتصر، **كم** عددها، ستة وثلاثون، **كم** ساعة سيستغرق ذلك، إن بقينا نقدر أن كل فيلم يستغرق ساعة ونصف الساعة في المعدل، دعني لأرى، قال المستخدم وهو يضع يده على آلة حاسبة هذه المرة، **لا** داعي لتتعب نفسك، أقول لك كم، إنها أربع وخمسون ساعة، **كيف** حسبت ذلك بكل هذه السرعة، سأله المستخدم، أنا، منذ ظهرت هذه الآلات الحاسبة، رغم أنني لم أفقد عادة الحساب الذهني، أستعملها لإنجاز العمليات الأكثر تعقيداً، **إنه** لأمر في غاية السهولة، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ستة وثلاثون نصف ساعة تساوي ثماني عشرة ساعة، ثم، مجموع الست وثلاثين ساعة كاملة والثماني عشرة من أنصاف الساعات التي حصلنا عليها يكون أربعاً وخمسين ساعة، **هل** أنت أستاذ الرياضيات، **كلا**، أنا أستاذ التاريخ وليس الرياضيات، والأرقام لم تكن قط نقطة قوتي، **حسناً**، ما كنتُ لأظن ذلك، المعرفة شيء جميل حقاً، **يتوقفُ** الأمر على ما نعرفُ، **وقد** يتوقف أيضاً على منْ يعرف، أعتقد، **إذا** كنت قد توصلت وحدك إلى هذا الاستنتاج، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، فلست بحاجة إلى آلة حاسبة. لم يكن المستخدم واثقاً تماماً من أنه قد استوعب كل معاني كلمات الزبون، لكنه وجدها لطيفة، ظريفة، بل ومتملّقة، وما إن يصل إلى بيته، إن لم

ينسها في الطريق، سيرددها على مسامع زوجته. تجرأ وقام بعملية ضرب بقلم وورقة، عدد الفيديوهات وكل فيديو بثمن كذا، لأنه قرر ألّا يستعمل الآلة الحاسبة مرة أخرى، على الأقل أمام هذا الزبون. كان النّاتجُ مَبْلغاً لا يستهان به، ليس بالمبلغ الهام الذي قد يحصل عليه لو قام بعملية بيع، لكن هذه الفكرة المصلحية سرعان ما ذهبت كما جاءت، واستقرت السكينةُ بشكل نهائي. دفعَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الثمن، بعد ذلك طلب، **من** فضلك هيّئ لي علبتيْن بداخل كل واحدة منهما ثمانية عشر شريطاً ريثما أذهب لأبحث عن السيارة، لأن هذا ثقيل كي أحمله حتى إلى هناك. بعد ربع ساعة، كان مستخدم المحل بنفسه هو من يضع الرُّزم داخل صندوق السيارة، وهو من يغلق بابها بعد أن ولجها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وهو من يقول وداعاً بابتسامة على محياه وحركة من يده كانتا تجسدان العطف فعلاً بالإشارة والابتسامة، ثم راح يهمهم وهو عائد إلى المنضدة، **ومع** ذلك يُقالُ إن الانطباع الأول هو المهم، ها هنا شخصٌ لم يَرُقني بتاتاً في الوهلة الأولى، وفي نهاية المطاف. كانت أفكار تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو تسيرُ في اتجاه مختلف تماماً، يومان هما ثمانٍ وأربعون ساعة، طبعاً من الناحية الحسابية هي غير كافية لمشاهدة كل الأفلام حتى إن لم أنم خلال هذين اليومين، لكن، لو بدأتُ اليوم، وأمامي يوم السبت بكامله ويوم الأحد كله، مع الحرص على أن أحترم بكل جد القاعدة التي تنص على ألّا أشاهد حتى النهاية تلك الأفلام التي لا يظهر فيها ذلك الشخص قبل منتصف الحكاية، فأنا مقتنع بأن أنهي المهمة قبل يوم الاثنين. كانت خطة العمل كاملة المعنى ومنتهية الشكل، لا تحتاج إلى أية إضافات، ملاحق أو ملاحظات على الهامش، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أصرَّ رغم

ذلك، إنْ لم يظهر قبل منتصف الشريط، فلن يظهر لاحقاً كذلك. نعم، لاحقاً. هذه هي الكلمة التي ظلت تنتظر هناك منذ لعب الممثل دور شخصية موظف استقبال في فندق لأول مرة في الفيلم المسلي «الإلحاحُ هو سرّ النجاح». وبعد ذلك، تساءل أستاذ التاريخ، مثل طفل لا يعرفُ أنْ لا جدوى من السؤال عمّا لم يحدث بعد، ما الذي سأفعله بعد ذلك، ما الذي سأفعله بعد أن أعرف أن هذا الرجل شارك في خمسة عشر أو عشرين فيلماً، لأنه، حسب ما شاهدتُ من أفلام لحدّ الآن، فهو، بالإضافة إلى موظف استقبال في فندق، كان صرّافاً في أحد البنوك ومساعد ممرض، ما الذي سأفعلُه. كان الجواب على طرف لسانه، لكنه لم يقدمه إلّا دقيقة بعد ذلك، **سأتعرَّفُ** عليه.

بمحض الصدفة أو لقصد غير معروف، ربما ذهب أحدهم وأخبر مدير الثانوية أن السيد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يتواجد في قاعة الأساتذة ينتظر وقت الذهاب لتناول الغداء على ما يبدو، ما دام شغله الوحيد منذ ولج ذلك المكان كان قراءة الجرائد. لم يكن يصحح التمارين، لم يكن يضع اللمسات الأخيرة على تحضير درس من الدروس، لا يدوّن ملاحظات، فقط يقرأ الجرائد. أولاً، أخْرجَ من المحفظة فاتورة استئجار ثلاثين فيديو، وضعها مفتوحة على الطاولة وبحث في الجريدة الأولى عن صفحة العروض الفنية، فقرة السينما. وسيقوم بنفس الأمر مع جريدتيْن أخرييْن. رغم أن شغفه بالسينما قريب العهد، كما نعرف، وجهله بكل الأمور المتعلقة بصناعة الصورة ظل على حاله، فقد كان يعرف، يقدر، يتخيل أو يحدس بأن الأفلام التي صدرت للتو لن تُطرح مباشرة في سوق الفيديو. لبلوغ هذا الاستنتاج لم يكن من الضروري أن يكون موهوباً بذكاء استنباطي خارق أو طرق ولوج مدهشة إلى المعرفة تستغني عن المنطق، بل كان الأمر يتعلق بتطبيق بسيط وبديهي لأكثر أشكال الحس المشترك ابتذالاً، قسم الأسواق، الفقرة الخاصة بالبيع والاستئجار. بحث عن قاعات السينما المهيمنة على إعادة العروض، وواحداً واحداً، بقلم

في يده، راح يقارن عناوين الأفلام المعروضة فيها مع تلك التي تظهر في الفاتورة، ويضع علامة صغيرة كلما كان هناك تطابق بين الاثنين. لو سألْنا تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لأية أسباب يقوم بذلك، إن كان ينوي أن يشاهد في تلك القاعات الأفلام التي يملكُها على شكل فيديو، فمن الأكيد أنه سينظر إلينا مندهشاً، مذهولاً، بل وربما مهاناً لأننا نحسبه قادراً على فعل سخيف كهذا، لكنه لن يقدم لنا تفسيراً مقبولاً، سوى ذلك التفسير الذي يرفع أسواراً أمام فضول الآخرين والمُعبّر عنه بكلمتين **لأنه** كذلك. لكن، نحن الذين ما فتئنا نتقاسم مسارات أستاذ التاريخ ونلمح إلى أسراره، بوسعنا أن نخبر بأن العملية غير الملائمة لا هدف آخر من ورائها غير تركيز اهتمامه على الهدف الوحيد الذي استحوذ على اهتمامه منذ ثلاثة أيام، ألا هو أن يمنعه من أن يتشتت، مثلاً، ويلتفت إلى الأخبار الأخرى في الجرائد، كما يعتقد ذلك الأساتذة الآخرون الحاضرون في القاعة في هذه اللحظة بالضبط. لكن الحياة وُضعت بطريقة تكون معها حتى الأبواب التي كنا نعتبرها موصدة محكمة الإغلاق في وجه العالم توجد تحت رحمة هذا الحاجب الملحاح الذي دخل ليخبر السيد الأستاذ أن السيد المدير يطلب منه أن يأتي إلى مكتبه. نهض تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، طوى الجريدة، احتفظ بالفاتورة في حقيبته وخرج إلى الممر حيث كانت هناك بعض الحجرات. كان مكتب المدير يوجد في الطابق العلوي، وكان في سقف الدرج المؤدي إليه نافذةٌ علوية مغشاة جداً من الداخل ومتسخة كثيراً من الخارج حتى أنها، صيفاً كما شتاءً، لا تسمح إلا بشكل شحيح بمرور قدر قليل من الضوء الطبيعي. دخل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عبر ممر آخر وتوقف عند الباب الثاني. بما أنّ ضوءاً أخضر كان

مشتعلاً، فقد طرق الباب بمفاصل أصابعه وفتحها حين سمع من الداخل **تفضّل**، حيا، صافح اليد التي مدها إليه المدير، وبعد إشارة منه جلس. كلما دخل إلى هنا كان لديه إحساس بأنه قد رأى نفس هذا المكتب في مكان آخر، مثل حلم من تلك الأحلام التي نعرف أننا قد رأيناه لكننا لا نستطيع أن نتذكر حين نستيقظ. كانت الأرضية مغطاة بالموكيت، على النافذة ستار من ثوب سميك، طاولة المكتب واسعة، ذات أسلوب قديم، والكرسي عصري مصنوع من جلد أسود. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يعرف ذلك الأثاث، وذلك الستار، وذلك الموكيت، أو يظن أنه يعرف كل ذلك، ربما ما وقع له أنه قرأ ذات يوم في رواية ما أو في قصة ما وصفاً مقتضباً لمكتب آخر لمدير آخر في مدرسة أخرى، وهو، إن تأكد، وفي حالة ما ثبت من خلال هذا النص الماثل أمام عينيه، سوف يجبره على أن يعوض بسبب تفاهة في متناول أي شخص يملك ذاكرة متوسطة ما كان يعتقد إلى غاية اليوم أنه ملتقى بين حياته الرتيبة والتدفق الرائع الدائري للعوْد الأبدي. تخيّلات. غارقاً في رؤيته الحالمة، لم يسمع أستاذ التاريخ الكلمات الأولى للمدير، لكن نحن، الذين سنظل دائماً هنا لملء الفراغات، بوسعنا أن نقول إنه لم يضيّع شيئاً كثيراً، فقط ما جاء من رد على تحيته، والسؤال **كيف** حالك، والمقدمة **طلبتُ** منك أن تأتي إلى هنا، ومنذ تلك اللحظة صار تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو حاضراً جسداً وفكراً، اشتعل الضوء في عينيه وفي إدراكه أيضاً. طلبتُ منك أن تأتي إلى هنا، كرّر المدير لأنه بدا له أنه رأى ما يشبه تشتتاً في الانتباه على محيا مُحاوره، حتى أتحدث معك عمّا قلتَه لنا في اجتماع يوم أمس بخصوص تدريس مادة التاريخ، **ما** الذي قلتُه خلال اجتماع يوم أمس، سأل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **ألا** تذكُر،

لديّ فكرة عابرة، لكن ذهني مشوش بعض الشيء، لم أنم تقريباً هذه الليلة، **هل** أنت مريض، **مريض**، لا، قلق، لا غير، **هذا** ليس بالأمر القليل، **لا** أهمية لذلك، سيدي المدير، لا تشغل بالك، **إنَّ** ما قُلتَه، بالكلمة والحرف، قد سجّلتُه هنا، في هذه الورقة، أي أن القرار الوحيد الذي يجب اتخاذه فيما يتعلق بمعرفة التاريخ هو إنْ كان يجب أن نُدرّسهُ من الخلف نحو الأمام أو من الأمام نحو الخلف، **لم** تكن هذه أول مرة أقول فيها ذلك، **تماماً**، لقد سبق وقلتَه عدة مرات حتى أن زملاءك لم يعودا يأخذونه على محمل الجد، يشرعون في الضحك ما إن تنطق بالكلمات الأولى، **إنَّ** زملائي أشخاص محظوظون، يضحكون بسهولة، وأنت سيدي المدير، **أنا**، ماذا، **أسألك** إن كنت لا تأخذني على محمل الجد بدورك، إن كنت تضحكُ ما إن أنطقُ بالكلمات الأولى، أو الثانية، **إنَّكَ** تعرفُني بما يكفي لتعلم أنني لا أضحك بسهولة، وخاصة في حالات كهذه، أما فيما يتعلق بأخذك على محمل الجد، فهذا أمر لا يقبل الشك، أنت من خيرة أساتذتنا، التلاميذ يقدرونك ويحترمونك، وهذه معجزة في أيامنا هذه، إذن لا أرى سبب طلبك لحضوري، **فقط** لأطلب منك ألّا تفعل ذلك مرة أخرى، **ألّا** أقول مرة أخرى إن ذلك هو القرار الجدي الوحيد، **نعم**، **حسناً** لن أفتح فمي مرة أخرى في الاجتماعات القادمة، إن كان هناك شخص يظن أن لديه شيئاً مهماً يدلي به والآخرون لا يرغبون في الاستماع إليه، من الأحسن أن يلزم الصمت، **شخصياً**، وجدتُ دائماً أن فكرتك مهمة، **شكراً**، سيدي المدير، لكن لا تقل ذلك لي أنا قله لزملائي، قله بالخصوص للوزارة، ثم إن الفكرة ليست فكرتي أصلاً، أنا لم أبتكر أي شيء، فأشخاص أكثر كفاءة مني هم من اقترحوها ودافعوا عنها، **من** دون

أي نتائج ذات قيمة، **هذا** أمر مفهوم، سيدي المدير، الحديث عن الماضي هو من أسهل ما يمكن فعله، كل شيء مكتوب، يكفي أن نُكرّر، أن نتكلم كالببّغاوات، نتأكد من خلال الكتب مما يكتبه التلاميذ في التمارين أو ما يقولونه في الاختبارات الشفوية، بينما نحن نتحدث عن حاضرٍ ينفجر في وجوهنا في كل دقيقة، نتحدث عنه في كل يوم من أيام السنة ونبحر في نهر التاريخ باتجاه العالية حتى المنبع، أو بالقرب منه، نسعى جاهدين كي نفهم أحسن فأحسن تسلسل الأحداث التي جاءت بنا إلى حيث نحن الآن، وهذا أمر مختلف تماماً، يتطلب كثيراً من الجهد، يستوجب مثابرة ومواظبة، إذ ينبغي الحفاظ على الحبل موتوراً على الدوام مع تجنب تقطُّعه، **رائعٌ** ما قلتَهُ للتو، أعتقد أن الوزير نفسه سيقتنع ببلاغتك، **أشكُّ** في ذلك، سيدي المدير، إن الوزراء وضعوا ليُقنعونا نحن، **أسحبُ** ما قلتُه من قبل، وانطلاقاً من هذا اليوم سوف أدعمك من دون تحفّظ، **شكراً**، لكن من الأفضل ألا نخلق أوهاماً، ينبغي للنظام أن يقدم الحساب لمن من حقه ذلك وهذا حساب لا يعجبهم، **سوف** نلحُّ، **هناك** من أكد إن كل الحقائق الكبرى تافهة تماماً وإنه يتعين علينا أن نعبّر عنها بطريقة جديدة، إنْ كان ممكناً، ومُفارِقة، حتى لا يطالها النّسيان، **من** قال هذا، **شخصٌ** من ألمانيا، يدعى شليجل، والأكيد أن أشخاصاً آخرين قبله قالوا هذا الأمر أيضاً، **أمرٌ** يدعو للتفكير، **نعم**، لكن ما يجذبني هو الإعلان الساحر بأن الحقائق الكبرى هي مجرد تفاهات، أما ما عدا ذلك، أي تلك الحاجة المفترضة في التعبير عنها بطريقة جديدة ومُفارِقة تطيل وجودها وتغذيها، فلم تعد تعنيني، فأنا مجرد أستاذ لمادة التاريخ في التعليم الثانوي، **ينبغي** أن نتحدث أكثر في هذا الأمر، يا عزيزي، **إنَّ** الوقت لا يكفي للقيام بكل شيء، سيدي

المدير، ثم هناك زملائي، قد تكون لديهم أمور أحسن يقولونها لك، مثلاً، كيف نردّ بضحكة سهلة على كلام جدي، والتلاميذ، علينا ألّا ننسى التلاميذ، المساكين، لأنهم لا يجدون من يتحدثون إليه وقد ينتهي بهم الأمر يوماً ما وهم لا يملكون شيئاً يقولونه، تصوّرْ كيف ستكون الحياة في الثانوية ونحن جميعاً نتحدث، لن نفعل أي شيء آخر، وستبقى الدراسةُ تنتظر. ألقى المدير نظرة على ساعته وقال، هناك الغداء أيضاً، هيا بنا نتناول وجبة الغداء. نهض، جال حول طاولة المكتب، وفي حماس عفوي للتعبير عن تقديره وضع يده على كتف أستاذ التاريخ الذي كان قد وقف بدوره. كان هناك، لا محالة، في هذه الحركة شيء ما ينمُّ عن إحساس أبوي، لكن هذا، بما أنه صدر عن مديرٍ، فقد كان أمراً طبيعياً، بل ومناسباً أيضاً، ما دامت العلاقات الإنسانية هي كما نعرفها. إن المولد الكهربائي الحساس لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يُبدِ أي ردة فعل عند الاتصال، وهذه إشارة على أنه لم يكن هناك أي انزعاج مبالغ فيه مما بدا له من مظاهر التقدير التي تلقاها، أو أنه، من يدري، ربما يكون قد أطفأَهُ ذلك الحديث الصباحي مع أستاذ الرياضيات. لن نُكرّر بما يكفي ذلك الأمر المبتذل الآخر الذي يقول إن الأسباب الصغيرة يمكن أن تُحدث نتائج كبيرة. في اللحظة التي عاد فيها المدير إلى طاولة المكتب، نظر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من حوله فرأى الستار، الكرسي ذا الجلد الأسود، والموكيت، ففكّر مرة أخرى، **لقد** كنتُ هنا من قبل. بعد ذلك، ربما لأن أحدهم افترض أنه فقط قد قرأ في مكان ما وصفاً لمكتب شبيه بهذا المكتب، أضاف فكرةً لما فكّرَ فيه من قبل، **ربما**، لأن القراءة أيضاً شكل من أشكال التواجد في المكان. كانت نظارتا المدير في الجيب العلوي لمعطفه، وهو يقول

مبتسماً، **هيا**، وتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لن يستطيع أن يشرح الآن ولن يعرف كيف يشرح أبداً لماذا فجأة بدا له أن الأجواء صارت أكثر كثافة، كأنها مشبعة بحضورٍ خفيّ، وحادٌّ جداً، قويٌّ جداً مثل ذلك الحضور الذي أيقظه فجأة في سريره بعد شريط الفيديو الأوّل. فكّرَ، **إنْ** سبق لي أن كنتُ هنا قبل أن أصبح أستاذاً، فما أشعر به الآن قد لا يكون أكثر من ذكرى عن ذاتي، تجددت بشكل هستيري. أما بقية هذا التفكير، إنْ كانت ثمة بقية، فظلّ من دون تحقُّق، لأن المدير كان قد أمسك بذراعه، وراح يقول شيئاً مما يتعلق بالأكاذيب الكبيرة، إنْ كانت مبتذلة بدورها، وإنْ كانت المفارقات، فيما يتعلق بها، قادرة على أن تَحُولَ دون سقوطها في النسيان. اقتنص تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هذه الفكرة في آخرة لحظة، **حقائق** كبيرة، أكاذيب كبيرة، أعتقد أنه مع مرور الوقت سيصبح كل شيء تافهاً، نفس الأطباق المعتادة، بالتوابل المعروفة، أجاب، **أتمنى** ألا يكون هذا انتقاداً لمطبخنا، قال المدير مازحاً، **أنا** زبونٌ وفيٌّ، أجابه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بنفس النبرة. كانا ينزلان السلالم نحو قاعة الأكل، وبعد ذلك، في الطريق، انضمّ إليهما الزميل أستاذ الرياضيات وأستاذةٌ لمادّة اللغة الإنجليزية، وهكذا كانت مائدة المدير خلال هذه الغداء قد اكتملت. حينئذ، سأله زميلُه أستاذ الرياضيات بصوتٍ خفيض لحظة كان المدير وأستاذة اللغة الإنجليزية متقدميْن، كيف حالك الآن، **جيد**، جيد جداً، **هل** جرى بينكما حديثٌ، **نعم**، استدعاني المدير إلى مكتبه ليطلب مني ألّا أتحدث مرة أخرى عن فكرة تدريس التاريخ بطريقة معكوسة، **رأساً** على عقب، **إنها** طريقة في الكلام، **وأنت**، بما أجبته، **شرحتُ** له وجهة نظري للمرة المئة وأظن أنني نجحتُ في إقناعه في النهاية بأن تلك الغرابة كانت أقل

حماقة مما بدا له من قبل، **انتصارٌ**، **لن** يفيد في أي شيء، **فعلاً**، لا نعرف أبداً لأيّ شيء تصلح الانتصارات، قال أستاذ الرياضيات مُتنهّداً، **لكن** الهزائم نعرف جيداً لأيّ شيء تصلح، يعرف ذلك بالخصوص من يلقون في المعركة بكل ما كانوا يملكون وبكل ما يملكون، لكن لا أحد ينتبه إلى هذا الدرس التاريخي الدائم، **كأنك** قد مللت من عملك، **ربما**، ربما، فنحن ما زلنا نضع نفس التوابل في الأطباق المعهودة، لا شيء يتغير، **هل** تفكر في التخلي عن التدريس، **لا** أعرف بالضبط، ولا أعرف حتى بشكل غامض، ما أفكر فيه ولا ما أرغب فيه، لكني أتصور أنه قد تكون فكرة جيدة، **أن** تتخلى عن التدريس، **أن** أتخلى عن أي شيء. دخلوا قاعة الأكل، جلس أربعتهم إلى المائدة، وبينما كان المدير يبسط المنديل، طلب من تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **أودُّ** أن تعيد هنا على الزملاء ما قلتَه لي قبل قليل، **عن** أي موضوع، **عن** تصورك الأصيل في تدريس مادة التاريخ. بدأت أستاذة اللغة الإنجليزية تبتسم، لكن النظرة التي حدجها بها المعني بالأمر، ثابتة، غائبة وفي الوقت نفسه باردة، شلَّت تلك الحركة التي بدأت ترتسم على شفتيْها. إذا سلّمنا بأن التصور هو المصطلح المناسب، سيدي المدير، فإنه لا ينطوي على أي شيء أصيل، إنه تاج من نبات الغار لم يصنع ليُكلّل رأسي، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد فترة صمت، **نعم**، لكن ذلك الخطاب الذي أقنعني كان خطابَك، ردّ عليه المديرُ. في لحظة، ابتعدت نظراتُ أستاذ التاريخ، غادرت قاعة الأكل، جالت في الممرّ وصعدت إلى الطابق الأعلى، عبرت الباب المغلق لمكتب المدير، رأت ما كان يُنتظر أن تراهُ، ثم عادت أدراجها عبر نفس الطريق، رجعت من جديد إلى الحاضر، لكن الآن بتعبير حيرة قلقة، ورعشةِ

لاطمأنينة تلامسُ الخوف. كان هو، كان هو، كان هو، راح يكرّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في نفسه، في حين، وبينما عيناه تركزان على زميله أستاذ الرياضيات، يضيف كلمة وينقص أخرى، كان يتذكّرُ مراحل إبحاره المجازي عبر عالية نهر الزمن. هذه المرة، لم يقل نهر التاريخ، قال في نفسه إن عبارة «نهر الزمن» قد تُحدث أثراً أكبر. كانت أستاذة اللغة الإنجليزية متجهّمة الوجه. كانت تناهز الستين من عمرها، إنها أمٌّ وجدّة، وعكس ما بدت عليه في البداية، لم تكن من ذلك النوع من الأشخاص الذين يكرسون وقتهم للتجول في الحياة يوزعون الابتسامات الساخرة يميناً وشمالاً. حدث لها ما حدث للكثير منا، أننا أخطأنا من دون نية في ارتكاب الخطأ، بل لأن الخطأ يبدو أنه قد اختلط بعلامة وصل، بتواطؤ مريح، بغمزة من عيْنِ منْ يعتقدُ أنه يعرف بأي شيء يتعلق الأمر فقط لأن الآخرين كانوا يؤكدون ذلك. عندما أنهى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو خطابه المقتضب، رأى أنه قد أقنع شخصاً آخر. بخجل، كانت أستاذة اللغة الإنجليزية تهمهم، **يمكن** القيام بالشيء نفسه مع اللغات، تدريسُها بهذه الطريقة، نبحر حتى نبلغ منبع النهر، ربما بهذه الطريقة ندرك بشكل أفضل مسألة الكلام هذه، **لا** ينقص المتخصصون الذي يمكن أن يعرفوا ذلك، ذكّر المدير، **أما** أنا التي من المفروض أن أُدرّس الإنجليزية كما لو أنه لم يكن هناك من شيء من قبل فلا أعرف. قال الزميل أستاذ الرياضيات مبتسماً، **أخشى** ألا تعطي هذه الطرق نتائج مع الحساب، فرقمُ عشرة عنيدٌ لا يتغيّر، لأنه لم يضطر للمرور عبر رقم تسعة ولا يجتاحُه طموحٌ ليصبح أحد عشر. أحْضَروا الطعام إلى المائدة، وجرى الحديث عن أمر آخر. لم يعد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو واثقاً جداً من أن المسؤول عن البلازما الخفية التي انتشرت

في أجواء مكتب المدير هو أمين صندوق البنك. لا هو ولا موظف الاستقبال في الفندق. وله، فوق ذلك، ذلك الشارب المضحك، فكّرَ، وهو يبتسم حزيناً في دواخله، **لا بدّ** أنني أفقد رشدي. في الحصة التي تلت وجبة الغداء، ألقى الدّرسَ بنبرةٍ خارج الموضوع تماماً، لأن المادة لم تكن تشكل جزءاً من البرنامج الدراسي، فقضى الوقت بكامله في الحديث عن الساميين الآموريين، عن قانون حمورابي، عن القوانين البابلية، عن الإله مردوخ، عن اللغة الأكديّة، وكانت النتيجة أنه جعل تلميذاً يغيّر رأيه بعد أن كان قبل أيام يهمس لزميله أن الرّجُل كان بمزاج سيّئ. الآن، صار التشخيص جذرياً، ويقول إن الرّجل كان له برغي خارج الرأس أو أنه جنَّ تماماً. لحسن الحظ، الحصة الموالية، الخاصة بتلاميذ أصغر سناً، جرت بشكل عادي. استُقبلت إشارةٌ معزولة، عابرة، إلى السينما التاريخية باهتمام حماسي من القسم، لكن التسلية توقفت عند هذا الحد، ولم يجرِ الحديث عن كليوباترا، ولا عن سبارتاكوس، ولا عن أحدب نوتردام، بل ولا حتى عن نابليون الذي يُستعملُ بطرق شتى. يومٌ للنّسيان، فكّرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عندما ولج السيارة ليعود إلى البيت. لم يكن منصفاً مع اليوم ومع نفسه، فقد ضمّ إلى جانبه مع أفكاره الإصلاحية المدير وأستاذة اللغة الإنجليزية، وهذا يعني ابتسامة أقل خلال الاجتماع القادم للأساتذة، أما الأول فلا يُخشى منه شيء، فقد أدركنا أنه ذو ابتسامة صعبة.

كان البيت مرتّباً، نظيفاً، السرير يبدو مثل سرير عريسيْن، المطبخ نظيف للغاية، الحمّام تفوح منه رائحة مطهر، شيء ما مثل رائحة الليمون، ما إن يشمّها المرء حتى يتطهر جسده وتسمو روحه. في الأيام التي تأتي جارةُ الطابق العلوي لترتب بيت هذا الرجل الذي

يعيش وحده، فإن القاطن فيه يغادرُ ليأكل في الخارج، يشعر أنه من قلة الاحترام أن يوسخ الأطباق، يشعل أعواد الثقاب، يقشر البطاطس، يفتح علب الأكل، ويستحيل أن يضع مقلاة فوق النار، لا يجب حتى أن يفكر في ذلك، لأن الزيت يتطاير في كل مكان. المطعم قريب؛ في المرة الأخيرة التي كان هناك أكل لحماً، اليوم سيأكل سمكاً، لا بدّ من التنويع، لأنه إن لم ننتبه للأمر فإن الحياة سوف تصبح بسرعة متوقَّعة، رتيبة، مُملّة. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو دائماً حذراً بخصوص هذا الأمر. على الطاولة الصغيرة، وسط القاعة، كان يتراكم الثلاثون شريطاً التي جلبها من المحل، وفي جارور بالمكتب كان يُحتفظ بالأشرطة الثلاثة التي تبقت من الطّلبيّة السابقة والتي لم يشاهدها بعد، وحجم المهمة التي تنتظره مرهق، لا يتمناه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو حتى لألدّ أعدائه، الذي لا يعرف من يكون، ربما لأنه ما يزال صغيراً جداً، ربما لأنه يعيش حياته بحذر كبير. حتى يتسلى في انتظار ساعة الغداء، أخذ يرتب الأشرطة وفق تواريخ إنتاج الفيلم الأصلي، وبما أنه لم يتسع لها حيز الطاولة ولا المكتب، فقد قرر أن يصفّها على الأرض، على طول أحد الرفوف، من أقدمها، يساراً، بعنوان «رجلٌ مثل أي رجل آخر»، إلى أحدثها، يميناً، «إلهةُ الخشبة». لو أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كان منسجماً مع الأفكار التي ما فتئ يدافع عنها في مجال تدريس التاريخ لدرجة تطبيقها، كلما كان ذلك ممكناً، في أنشطته اليومية، فإنه سيشاهد هذه الفيديوهات من الأمام نحو الخلف، أي أنه سيبدأ بشريط «إلهةُ الخشبة» لينتهي بشريط «رجلٌ مثل أي رجل آخر». إن الجميع يعرفون، مع ذلك، أن عبء التقاليد الكبير، العادات والتقاليد التي تشغل أكبر قسم من أذهاننا تخنق بلا رحمة ألمع

الأفكار وأكثرها تجديداً التي ما يزال القسم المتبقي قادراً عليه، إنْ كان صحيحاً أن هذا العبء في بعض الحالات يستطيع أن يعيد التوازن لخلل الخيال وجموحه الذي يعلم الرّب أين يمكن أن يقودانا إليه إنْ هما تُركا حرّين طليقين، كما أنه لا يقل حقيقة عن ذلك أن هذا العبء يملك، في أغلب الأحيان، فنّ إخضاع ما نعتقد أنه حريتنا في التصرف إلى أشكال من الانتحاء غير الواعية، مثل نبتة لا تعرف لماذا يجب عليها أن تنحني دائماً نحو الجهة التي يأتي منها الضوء. وعليه سوف يتبع الأستاذ بكل دقة برنامج الدراسة الذي وضعوه بين يديه، وسيشاهد الأشرطة من الخلف إلى الأمام، من أقدمها إلى أحدثها، من عصر المؤثرات التي لا نحتاج لنسمّيها طبيعية إلى هذا العصر الآخر من المؤثرات التي نسمّيها خاصة، لأنه، بما أننا لا نعرف كيف تُخلق، تُصنع وتُنتج، فإنه كان يتوجب علينا أن نطلق عليه اسماً من الأسماء. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد عاد من وجبة العشاء، في النهاية لم يأكل سمكاً، بل كان طبق سمك المخادع، وهو لا يحب أكل سمك المخادع، هذا النوع البحري الذي يعيش في المياه العميقة والرمال الغائصة أو الموحلة، من الشاطئ حتى ألف متر في أعماق البحر، حيوان برأس ضخم، مسطح ومسلح بأسنان قوية جداً، يبلغ طوله متريْن ويتجاوز وزنه الأربعين كيلوغراماً، أي أنه حيوان ذو منظر مثير للاشمئزاز ومذاق مُنفّر للذوق، لذا فإن أنف تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ومعدته لم يتحمّلاهُ قط. كل هذه المعلومات كان بصدد جمعها في هذه اللحظة من موسوعة، مدفوعاً في نهاية المطاف بفضوله لمعرفة شيء ما عن حيوان كرهه من الوهلة الأولى. كان هذا الفضول يعود لفترات سابقة، من زمن قديم، لكن اليوم فقط، لسبب غير مفهوم، كان يلبيه

بطريقة كاملة. لسبب غير مفهوم، نقول، ومع ذلك علينا أن نعلم أن الأمر ليس كذلك، ينبغي أن نعرف أنْ ليس هناك من تفسير منطقي، موضوعي، جعل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يمضي أعواماً وأعواماً من دون أن يعرف عن سمك المخادع شيئاً آخر غير المظهر، مذاق وصلابة القطع التي يضعونها في صحنه، وفجأة، في لحظة ما من يوم ما، كأنه ليس لديه من أمر مستعجل يقوم به، يفتح موسوعة ويستعلمُ. غريبةٌ هي العلاقة التي تربطنا بالكلمات. نتعلّمُ بعضها ونحن صغار، وطوال حياتنا نلتقط كلمات أخرى تأتينا عن طريق التعلُّم، عن طريق الحديث، وبواسطة التعامل مع الكتب، ولكن، بالمقارنة مع ذلك، قليلة جداً هي الكلمات التي لن تثير معانيها ودلالاتها أي شك في أذهاننا إن نحن طرحنا السؤال بكل جد في يوم من الأيام. هكذا، نؤكد وننفي، هكذا نُقنِع ونقْتنعُ، هكذا نقيم الحجج، ندرك النتائج ونستخلص الدروس، ونحن نتحدث مطولاً بهدوء بطريقة سطحية عن مفاهيم لا نملك عنها سوى أفكار غامضة جداً، ورغم الثقة الزائفة التي نُظهرها ونحن نتلمسُ طريقنا وسط هذا الضباب اللغوي، فإننا مع ذلك نتفاهم، في النهاية، بل نلتقي أيضاً. لو توفّر لنا شيءٌ من الوقت، ودفعَنا فضولٌ جامح، فإننا دائماً ما نعرف في النهاية شيئاً ما عن سمك المخادع. ابتداء من الآن، عندما سيعود النادل ليقترح عليه مرة أخرى ذلك النوع من السمك الكامل العظام، سيعرف أستاذ التاريخ كيف يجيبه، **ماذا**، هذا النوع المقرف الذي يعيش في الرمال الغائصة والموحلة، ثم سيضيف، جازماً، **أبداً**. إن المسؤولية في هذا الاستطراد السمكي واللغوي تقع بكاملها على عاتق تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لأنه تأخّر كثيراً في وضع شريط «رجلٌ مثل أي رجل آخر» داخل جهاز الفيديو، كأنه تسمّر عند سفحِ جبلٍ ليقدر ما

سيحتاج إليه من قوة كي يبلغ القمة. وكما يبدو أننا نقول ذلك عن الطبيعة، فإنّ السرد بدوره يكره الفراغ؛ وبما أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يقم خلال هذه الفترة بأي شيء يستحق أن يُسردَ، لم نجد بُداً من ارتجال حشو نملأ به الوقت بما يناسب الوضع نوعاً ما. الآن، وقد قرر أن يُخرجَ الشريط من العلبة ليدخله في جهاز الفيديو، يمكننا أن نستريح.

بعد مرور ساعة من الوقت، لم يكن الممثل قد ظهر بعد، والأكيد أنه لم يلعب دوراً في هذا الفيلم. قام تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بتقديم الشريط حتى النهاية، قرأ الأسماء بكلّ انتباه وحذف من لائحة المشاركين تلك التي تتكرّر. لو طلبنا منه أن يشرح لنا بكلماته الخاصة ما رآه للتو، فإنه من المحتمل جداً أن يحدجنا بنظرة غاضبة تُخصص للوقحين وقد يرد علينا بسؤال، **هل** يبدو عليّ أنني أهتم بهذا النوع من التفاهات. يجب أن نعترف أنه محق، في الحقيقة، لأن الأفلام التي شاهدها لحدّ الساعة تنتمي إلى النوع الذي يسمّى أفلاماً من الدرجة باء، منتوجات سريعة موجهة للاستهلاك السريع لا تصبو سوى لتُسلّي دون أن تثير قلق الفكر، كما عبّر عن ذلك جيداً، ولو بعبارات أخرى، أستاذ مادة الرياضيات. لقد أُدْخلَ شريطٌ آخر في جهاز الفيديو، وهذا الشريط يحمل اسم «الحياة المرحة» وفيه يظهر شبيهُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يلعبُ دور بوّاب كباريه أو نادٍ ليلي، لن نميز بشكل واضح أي التعريفين يليق أكثر بهذا المحل الخاص بالتسلية العادية حيث تجري أشكال من الفرح منقولة من دون خجل عن مختلف أنواع التسلية التي تظهر في شريط «الأرملة المرحة». توصّل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى أنه لا تستحق العناء مشاهدة الفيلم حتى النهاية، لأن ما يهمه، أي إن كان

أناهُ الآخر يدخل أم لا في الحكاية، فقد كان يعرف ذلك، لكن الأحداث كانت محبوكة بشكل جيد فاستسلم لها حتى النهاية، واندهش حين بدأ يشعر في قرارة نفسه بإحساس شفقة على ذلك الشيطان المسكين، الذي، عدا فتْحِ الأبواب وإغلاقِها، لا يقوم بشيء آخر غير رفع أو خفض قبعته ليحيّي بمزيج غير دقيق دائماً من الاحترام والتواطؤ الزبائن الأنيقين الذين يدخلون ويخرجون. أنا، على الأقل، أستاذ لمادة التاريخ، همهم. إنّ تصريحاً كهذا، الذي حاول فيه عن قصد تحديد وتضخيم تفوُّقه، ليس المهني فحسب، بل أيضاً الأخلاقي والاجتماعي، في علاقة بالدور التافه للشخصية، كان يتطلب رداً يعيد اللياقة إلى مكانها المناسب، وجاء ذلك على لسان الحسّ السليم لما عُهد فيه من سخرية، **حذار** من التكبر، يا تيرتوليانو، فكّرْ فيما أضعْتَهُ وأنت لست ممثلاً، كان بوسعهم أن يجعلوا منك مدير مدرسة، أستاذاً لمادة الرياضيات، أما أن تكون أستاذةً للغة الإنجليزية فمن الواضح أنك لا تستطيع، وعليك أن تكون أستاذاً. راضياً عن نفسه من نبرة التحذير، استغل الحسُّ السليم الحديد الساخن فوجّه إليه ضربة مطرقة على رأسه، **طبعاً**، ينبغي أن تتوفر على حدّ أدنى من الموهبة لممارسة التمثيل، وفوق هذا، يا عزيزي، بشكل أكيد كما أن اسمي الحسّ السّليم، قد يجبرونك على أن تغير اسمك، لأنْ ليس هناك من ممثل يحترم نفسه يجرؤ على أن يقدم نفسه للجمهور باسم تيرتوليانو المثير للضحك، ولن يكون أمامك من بدّ سوى أن تتخذ لنفسك اسماً مستعاراً جميلاً، أو ربما، بعد تفكير أعمق، لن يكون ذلك ضرورياً، لأن ماكسيمو أفونسو ليس اسماً سيئاً، فَكِّرْ في هذا الأمر. أعيد شريطُ «الحياة المرحة» إلى علبته، وظهر الفيلم الموالي بعنوان مثير، من الأشرطة التي تعد

بالكثير في هذه الظروف، اسمه «قُل لي من تكون»، لكنه لم يضف شيئاً لما كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يعرفه عن نفسه ولم يقدم شيئاً لما كان منهمكاً فيه من أبحاث. من أجل التسلية، ترك الشريط ليمر حتى النهاية، وضع بعض العلامات الصغيرة على اللائحة، وبعد إلقاء نظرة على ساعته، قرر أن يذهب لينام. كانت عيناه محتقنتيْن، يشعر بضغط في صدغيْه، وبثقل يجثم على عظم جبهته، هذا لن يكلفني حياتي، فكّرَ، العالم لن ينتهي إنْ لم أنجح في مشاهدة كل الأشرطة في نهاية الأسبوع، وحتى لو انتهى لن يكون هذا هو اللغز الوحيد الذي بقي من دون حلّ. كان قد استلقى، في انتظار أن يأتي النوم ملبّياً نداء القرص الذي أخذه من قبل، عندما جاء شيءٌ ما يمكن أن يكون هو الحسّ السليم، لكنه لم يقدم نفسه بهذه الصفة، وقال إنّ الحلّ الأكثر بساطة في رأيه، بكل صراحة، هو أن يتصل أو يذهب شخصياً إلى الشركة المنتجة ويسأل، هكذا، بكل عفوية، عن اسم الممثل الذي يلعب في الأفلام كذا وكذا أدوار موظف استقبال في فندق، أمين صندوق في بنك، مساعد ممرض وبواباً في نادٍ ليلي، ثم ربما يكونون متعوّدين على ذلك، ربما يستغربون من أن السؤال يتعلق بممثل ثانوي، بالكاد أكثر من ممثل صامت، لكن هذا الأمر، على الأقل، سيحدّ من روتين السؤال عن النجوم والكواكب طوال الوقت. بشكل مشوش، ومع أولى حجب النوم التي تلفُّه، أجاب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن الفكرة ليست مضحكة إطلاقاً، أنها بسيطة للغاية، وفي متناول أي كان، **ليس** لهذا درستُ التاريخ، قال في الأخير. لم تكن لهذه الكلمات الأخيرة أي علاقة بالموضوع، كان مظهراً آخر من مظاهر التكبر، لكن يجب أن نسامح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لأن قرص الدواء هو من كان يتحدث،

وليس الشخص الذي تناولَهُ. عكس ذلك، كان التأمل الأخير، الذي صدر عن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لامعاً بشكل غريب مثل شعلة شمعة على وشك أن تنطفئ، **أريدُ** أن أصل إليه من دون أن يعلم بذلك أحد ومن دون أن يشكّ في الأمر. كانت كلمات نهائية، لا تقبل أي ردّ. أغلق النومُ الباب. ونام تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد شاهد ثلاثة أفلام، رغم أنه لم يتابع أي واحد منها من البداية حتى النهاية. استيقظ باكراً جداً، اكتفى في الفطور بقطعتيْ بسكويت وفنجان قهوة مسخن، ودون أن يضيع وقتاً في حلق ذقنه، قفز على بعض المراحل من الاغتسال غير الضرورية تماماً، ثم ارتدى منامة وروباً كمن ينتظر زيارات، وانهمك في مهمته اليومية. مرّ الشريطان الأوّلان سدى، لكن الثالث، الذي كان عنوانه «مُوازي الرُّعب»، فقد جلب إلى مسرح الجريمة مُصوراً مرحاً من رجال الشرطة كان يمضغ العلك ويردد، بصوت تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، في الموت كما في الحياة كل شيء هو مسألةُ زاويةٍ. في النهاية، حُيِّنت اللائحةُ من جديد، ووُضعت علامات أخرى. كان هناك خمسة ممثلين أُشير إليهم خمس مرات، بعدد الأفلام التي شارك فيها شبيهُ أستاذ مادة التاريخ، مع أسمائهم، وهم وفق الترتيب الألفبائي، أدريانو مايّا، كارلوس مارتينْيو، دانييل سانتا كلارا، لويش فينتورا وبيدرو فيليكس. إلى غاية تلك اللحظة، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يمضي تائهاً في بحر عظيم يضمّ أكثر من خمسة ملايين نسمة من سكان المدينة، لكنه انطلاقاً من الآن لن يشغل باله سوى بنصف

دزّينة، بل بأقل من نصف دزّينة إنْ حصل وأُقصيَ واحدٌ من تلك الأسماء لأنه لا يلبي النداء، **هذا** عمل ضخم، همهم، لكن سرعان ما قفزت في عينيه بداهة أنّ هذا العمل الجبار الآخر لم يكن كذلك في نهاية الأمر، ما دام أن مليونيْن وخمسمئة ألف شخص على الأقل كانوا ينتمون إلى الجنس المؤنث، وعليه فإنهم خارج مجال بحثه. لا ينبغي أن نتعجب من نسيان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لأنه، عندما يتعلق الأمر بحساب يشمل أرقاماً كبيرة، كما في هذه الحالة، فإن النزوع إلى عدم أخذ النساء بعين الاعتبار أمرٌ لا يُقاوم. رغم ما طال الإحصائيات من تقليص، ذهب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى المطبخ ليحتفل بالنتائج الواعدة وهو يحتسي فنجان قهوة. دقّ جرسُ الباب مع الجرعة الثانية، وظل الفنجان معلقاً في الهواء، وسط الطريق في نزوله نحو الطاولة، **من** يكون، سأل، وهو يضع الفنجان بهدوء في الوقت ذاته. قد تكون الجارة الخدوم في الطابق العلوي تريد أن تعرف إنْ كان قد وجد كل شيء على ذوقه، قد يكون أحد أولئك الشبان الذين يقومون بالدعاية للموسوعات التي تشرح عادات سمك المُخادع، قد يكون زميله أستاذ الرياضيات، كلا، لم يكن هذا، لأنهما لم يتبادلا الزيارات قط، **من** يكون، كرّرَ. أسرع في إنهاء قهوته وذهب ليرى من يدقُّ الجرس. وهو يعبر الصالة، ألقى نظرة قلقة على علب الفيديو المتناثرة، على ذلك الصف من الأشرطة المتراصة فوق الأرضية، على طول الرّف، وهي تنتظر بدورها؛ أما جارة الطابق العلوي، على افتراض أنها هي، فلن يعجبها في شيء أن ترى في هذه الحالة المزرية ما تعبت كثيراً في ترتيبه يوم أمس. لا أهمية لذلك، هي لا يجب أن تدخل، فكّر، ثم فتح الباب. لم تكن جارة الطابق العلوي من كانت أمامَهُ، لم تكن الشابة بائعة

الموسوعات التي تقول له إن في وسعه، أخيراً، أن يحظى بالامتياز الكبير في معرفة عادات سمك المُخادع، من كانت تقف هناك كانت امرأة لم تظهر لنا بعد لكننا نعرف اسمها من قبل، اسمُها ماريّا دا بّاش، موظفة في بنك. آه، هذه أنتِ، صاح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ثم حاول أن يخفي اضطرابه وحيرته، **أهلاً**، يا لها من مفاجأة. كان عليه أن يقول لها، **ادخلي**، ادخلي، الآن بالضبط كنتُ أشرب فنجان قهوة، أو، **رائع** أنك جئت، اجلسي على راحتك بينما سأقوم بحلق ذقني وأستحمّ، لكنه كان يبتعد بصعوبة نحو الجانب ويفسح لها الممر، آه لو استطاع أن يقول لها، **انتظري** هنا ريثما أذهب لأخبئ بعض الفيديوهات التي لا أريدك أن تريْنها، آه لو استطاع أن يقول لها، **أستسمحُكِ**، ولكنكِ أتيت في وقت غير مناسب تماماً، لا أستطيع الآن أن أوليك أي اهتمام، عودي غداً، آه لو استطاع أن يقول لها شيئاً ما، لكن الوقت كان قد فات الآن، كان عليه أن يفكر في الأمر قبل ذلك، كل الذنب ذنبه هو، الرجل الحذر يجب عليه أن يكون دائماً في حالة تأهُّب، يتوقع كل أمر طارئ، وخصوصاً ألا ينسى الطريقة الأصح والأبسط، مثلاً، ألا يذهب ويفتح الباب فقط لأن الجرس رنّ، فالتسرع دائماً ما تنتج عنه تعقيدات، كما جاء في الكتب. دخلت ماريّا دا بّاش على راحتها كمن يعرف زوايا البيت، وسألت، **كيف** حالك، وبعد ذلك، **سمعتُ** رسالتك وفكرتُ مثلك، نحن بحاجة إلى أن نتحدث، أتمنى ألا أكون قد جئتُ في وقت غير مناسب، **يا** لها من فكرة، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أطلب منك أن تعذريني لأنني أستقبلك بهذه الطريقة، أشعث الشعر، بلحية طويلة ومظهر من غادرَ سرير النوم للتو، **رأيتُكَ** هكذا مرات أخرى ولم تجد قط أنه من الضروري أن

تعتذر، **المسألةُ** مختلفة، اليوم، **مختلفةٌ**، في أي شيء، **إنّكِ** تعرفين ما أقصد، لم يسبق لي أن جئتُ لأستقبلك بهذه الهيئة، أرتدي منامة وروباً، **هذا** أمر مستجد، شيء قليلاً ما يحدث بيننا. كان مدخل الصالة على بعد ثلاث خطوات، ولن تتأخر الدهشة في الظهور، **ما** هذا يا إلهي، ماذا تفعل بكل هذه الفيديوهات، بيد أن ماريّا دا بّاش توقفت لتسأل، **ألا تُقبّلني**، طبعاً، كان هو الجواب التعس والمُحرَج الذي جاء على لسان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وهو يدفع، في الوقت ذاته، شفتيْه ليقبّل وجهها. الخجلُ الرجولي، على افتراض وجوده، كان من دون جدوى، فقد ذهب فمُ ماريّا دا بّاش لملاقاة فمه، وراح يمتصُّه الآن، يعصرُه، يلتهمُه، بينما كان جسدها يلتصق بجسده من أعلى إلى أسفل، كأنْ لا وجود لملابس تفرق بينهما. في الأخير، كانت ماريّا دا بّاش هي من انفكّت عنه لتهمهم، لاهثةً، بجملة لم تستطع أن تكملها، **حتى** لو ندمتُ عما أتيتُه للتو، حتى لو خجلتُ لأنني فعلتُ ذلك، **لا** تقولي حماقات، قاطعها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يحاول أن يربح بعض الوقت، يا لها من أفكار، ندم، خجل، هذا ما كان ينقصنا، أن يخجل، أن يندم شخص لأنه عبّر عما يشعر به، **أنتَ** تعرف جيداً ما أقصد، لا تتظاهر بأنك لم نفهم، **تخلتِ**، قبّلنا بعضنا، كان هذا أمراً طبيعياً جداً، **كلا**، إننا لم نقبّل بعضنا، أنا من قبّلتُكَ، **لكني** قبّلتُكِ بدوري، **نعم**، لم يكن أمامك خيار، **إنّكِ** تبالغين، كالعادة، تهوّلين الأمر، **أنتَ** على حق، أنا أبالغ، أهوّل الأمر، بالغتُ حين أتيتُ إلى بيتك، وهوّلتُ الأمر حين عانقتُ رجلاً لم يعد يحبُّني، ينبغي أن أغادر في هذه اللحظة بالضبط، نادمة، نعم، خجلانة، نعم، رغم أنك تصدّقت وقُلت إن الأمر ليس ضرورياً. إمكانيةُ أن تذهب ماريّا دا بّاش، رغم أنها

مستبعدة جداً، ألقت شعاعَ أملٍ على الخبايا الملتوية من ذهن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكن الكلمات التي خرجت من فمه، وقد يقول أحدهم تلك التي أفلتت منه رغم إرادته، كانت تعبّر عن شعور مختلف، **في الحقيقة**، لست أدري أين ذهبتِ تبحثين عن تلك الفكرة الغريبة بأنني لا أحبكِ، **لقد** عبّرتَ عن رأيك بكل وضوح في المرة الأخيرة التي التقينا فيها، **لم** أقل قطّ إنني لم أكن أحبُّكِ، لم أقل قط إنني لا أحبّكِ، **في** أمور القلب، التي تعرفها معرفة سيئة، حتى أسوأ الفاهمين يدركُ نصفَ ما لم يُعبّر عنهُ. أن نتخيّلَ أنّ هذه الكلمات التي نحللها الآن قد أفلتت من تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو رغماً عن إرادته هذه، قد يكون بمثابة أن ننسى أن شلّة الفكر البشري تتكون من خيوط كثيرة ومختلفة، وأن وظيفة البعض منها، وهي تبدو أنها تؤدي بالمُحاور إلى المعرفة التي بداخله، سيكون مثل وضع توجيهات زائفة، والإيحاء بانعطافات تنتهي عند طرق مسدودة، إلهاء عن الموضوع الأساسي، أو، كما في هذه القضية التي تهمنا، التخفيف، باستباق الصدمة الوشيكة. وهو يؤكد أنه لم يسبق له قط أن قال إنه لم يكن يحب ماريّا دا بّاش، ملمّحاً إلى أنه كان يحبها بالفعل، فإن ما كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يرغب فيه، مع الاعتذار عن تفاهة الصور، هو أن يلفّها في قطن ناعم، يحيطها بالوسادات المخففة للصدمات، يربطها إليه بعاطفة الحُبّ حين سيستحيل الاستمرار في توقيفها لوقت أطول خارج الباب المؤدي إلى الصالة. وهذا ما يحصل الآن بالضبط. قطعت ماريّا دا بّاش للتو الخطوات الثلاث المتبقية، دخلت، إنها لا تريد أن تفكر في غناء العندليب الرخيم الذي داعب أذنيها، لكنها لا تستطيع أن تفكر في شيء آخر، بل إنها مستعدة لتعترف، على مضض، أن إشارتها الساخرة إلى من يدركون الأمور

ومن يسيئون فهمها لم تكن وقحة فحسب، بل غير منصفة أيضاً، بل إنها باسمة تلتفتُ نحو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، مستعدة لتسقط في حضنه وعازمة على أن تنسى الإهانات والشكاوى. بيد أن الصدفة شاءت، رغم أنه كان من الأدق القول إنه كان أمراً حتمياً، ما دامت مفاهيم ساحرة جداً، مثل مصير أو قدر، لا مكان لها في هذا الخطاب، أن قوس الدائرة التي رسمتها عينا ماريّا دا بّاش مرّ، أولاً، عبر جهاز التلفاز المُشغّل، عبر الأشرطة التي لم تُرجع إلى مكانها فوق الأرضية، وأخيراً عبر الصف الذي تشكله الفيديوهات، حضورٌ غير مفهوم، غريب، بالنسبة لأي شخص، مثلها، له ألفة بهذه الأماكن، ويعرف بما يكفي أذواق صاحب البيت وعاداته. ما هذا، ماذا تفعل هنا كل هذه الأشرطة، سألتْهُ، **هذه** معدات لإنجاز عمل يشغلني الآن، أجابها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يشيح ببصره عنها، **إنْ** لم أكن مخطئة، منذ عرفتُك، يكمُنُ عملكَ في تدريس التاريخ، قالت ماريّا دا بّاش، وهذا الشيء، كانت تنظر بفضول إلى الفيديو، المسمى «موازي الرُّعب»، لا يبدو لي ذا صلة كبيرة بتخصصك، **لا** يوجد أي شيء يلزمني بأن أهتم فقط بالتاريخ طوال حياتي، **طبعاً**، لا، لكن من الطبيعي أن أشعر بالحيرة وأنا أراك محاطاً بالفيديوهات، كما لو أنك فجأة أصبحت تهوى السينما، بينما لم تكن تهتم بها إلا لماماً فيما مضى، **لقد** قلتُ لكِ إنني منهمك في عمل، دراسة اجتماعية، إنْ صحّ القول، **أنا** مجرّدُ موظفة عادية، مصرفية، لكن أضواء عقلي القليلة تكفي لأدرك أنك لستَ صريحاً معي، **لستُ** صريحاً، صاح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو غاضباً، أنا لست صريحاً، هذا ما كان ينقصني أن أسمعه، **لا داعي** لتغضب، قلتُ لك ما بدا لي، **أعرفُ** أنني لست الكمال المتجسد في الرجل،

لكن غياب الصراحة ليس من عيوبي، كان من واجبكِ أن تعرفيني بشكل أفضل، **أستسمحُكَ، حسناً**، أسامحكِ، ولنغلق هذا الموضوع. قال هذا، لكنه كان يفضل أن يستمر في الموضوع حتى لا يدخل في موضوع آخر يخشاه. جلست ماريّا دا بّاش على الكرسي أمام جهاز التلفاز وقالت، جئتُ لأتحدث معك، وفيديوهاتكَ لا تهمّني. ضاع غناء العندليب في الطبقات الجوية العليا من السقف، وصار، كما جرت العادة أن يقال في العهود السابقة، ذكرى توقظ الحنين، وتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، شكل بئيس، محشو في روبه، ينتعل خفّيْن وله لحية لم تحلق، كان في وضعية دونية صارخة، يعي تمام الوعي أن حديثاً بنبرة فظّة، رغم أن الكلمات المتوترة يمكن أن تساهم في تحقيق الهدف النهائي الذي نعرفه والمتمثل في وضع نهاية لارتباطه بماريّا دا بّاش، قد يكون من الصعب القيام به وأصعب من ذلك إنهاؤه. جلس على الأريكة، جمع جناحَي الرُّوب فوق ساقيه، وبدأ بنبرة متصالحة، **فِكْرتي** هي، **عن** أي شيء تتحدث، قاطعته ماريّا دا بّاش، عنّا، أم عن الفيديوهات، **سوف** نتحدث عنّا لاحقاً، أريد أن أشرح لك الآن نوع الدراسة التي أنا بصدد إنجازها، **إنْ** كنتَ مصراً على ذلك، أجابته ماريّا دا بّاش، وهي تسيطر على نفاد صبرها. مدّد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قدر ما استطاع الصمت الذي تلا ذلك، استخرج من ذاكرته تلك الكلمات التي ضلّلَ بها البائع في محلّ الفيديوهات، كما شعر في الوقت ذاته بإحساس غريب ومتضارب. رغم أنه كان يعرف أنه سوف يكذب، فكّر، مع ذلك، إنّ هذه الكذبة ستكون شكلاً ملتوياً من الحقيقة، أي أنه حتى لو كان الشرح خاطئاً تماماً فإن مجرد تكراره، بطريقة ما، سيجعلها قابلة للتصديق، ثم أكثر فأكثر قابلية للتصديق لو أنه لم يكتفِ بهذه المحاولة

الأولى. في الأخير، شعر أنه متمكن من موضوعه، فبدأ، إنّ اهتمامي بمشاهدة بعض أفلام هذه الشركة المنتجة، التي وقع عليها الاختيار بالصدفة، وكما تستطيعين التأكد من ذلك فهي من إنتاج نفس الشركة السينمائية، نشأت عن فكرة خطرت لي قبل وقت طويل، وهي أن أنجز دراسة حول التوجهات، الميولات، المقاصد، الرسائل، الصريحة كما الضمنية واللاشعورية، أو، لنكون أكثر دقة، الإشارات الإيديولوجية التي يقوم صانعُ أفلامٍ معيّن بنشرها، صورةً صورةً، في أوساط من يستهلكونها، **وكيف** تولّد لديك فجأة هذا الاهتمام، أو، كما سميتهُ، هذه الفكرة، ما علاقة هذا بعمل أستاذٍ لمادة التاريخ، سألتْهُ ماريّا دا بّاش، التي لن يخطر لها أنها قد قدمت للتو على طبق من ذهب ذلك الجواب الذي ربما لم يكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قادراً على أن يعثر عليه وحده، بالنظر لما كان فيه من حرجٍ جدَلي، **هذا** أمر في غاية البساطة، أجابها بتعبير ارتياح يمكن خلطه بسهولة برضا يمكن أن يعبّر عنه أي أستاذ جيد وهو ينقل المعرفة إلى قسم من التلاميذ، **إنه** لأمر في غاية البساطة، كرر، مثل التاريخ الذي نكتُبه، نَدْرُسه أو نُدرّسُه فينفذ في كل سطر، في كل كلمة، بل وفي كل محطة تاريخية، وما أشرتُ إليه بعبارة الإشارات الإيديولوجية، الملتصقة ليس فقط بتأويل الأحداث، بل أيضاً باللغة التي نعبّر بها عن ذلك، هذا دون أن ننسى مختلف أنواع ودرجات القصدية التي نلجأ إليها عن استعمال هذه اللغة نفسها، تماماً مثل السينما، طريقة رواية الحكايات، والتي من خلال نجاعتها الخاصة، تؤثر على محتويات التاريخ نفسها، فتُلوّثُها بطريقة ما وتُشوّهُها، وكذلك تفعل السينما أيضاً، أكررُ، تساهم بدورها بسرعة لكن ليس بقصدية أقل، في نشر واسع لكل هذه الشبكة من الإشارات الإيديولوجية الموجهة عادة

بطريقة نفعية. لزم صمتاً ثم، بنصف ابتسامة من يعتذرُ عن صعوبة عرضٍ نسي أن يأخذ بعين الاعتبار قدرة الجمهور غير الكافية في الفهم، أضاف، **أتمنى** أن أكون أكثر وضوحاً عندما أنقل هذه الكلمات إلى الورق. رغم تحفُّظِها الأكثر من مُبرَّر، لم تجد ماريّا دا بّاش بُدّاً من النظر إليه بشيء من الإعجاب، فهو، في نهاية المطاف، أستاذ مؤهل في مادة التاريخ، محترف مثالي أثبت جدارته، ومن المفترض أنه يعرف عما يتحدث حتى عندما يتطرق لمواضيع خارج تخصصه، في حين أنها مجرد موظفة بنكية بسيطة من المستوى المتوسط، لا تكوين لها كي تلتقط بطريقة كاملة أي إشارات إيديولوجية لا تبدأ، أولاً، بشرح كيف تُسمى وما تريدُه. لكن، طوال حديث تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لاحظت ماريّا دا بّاش ما يشبه بحّةً مزعجة في صوته، تنافراً يشوّه في بعض الأحيان فصاحته، بالإضافة إلى ارتجاج مثل ارتجاج وعاء مشقوق حين نضربه بمفاصل أصابعنا، فليهُبّ أحد لنجدة ماريّا دا بّاش، ويخبرها أنه بذلك الصوت تخرج الكلمات من أفواهنا حين تكون الحقيقة التي ندعي أننا نقولها هي الكذبة التي نخفيها. على ما يبدو، على ما يبدو جاء من ينبهها، أو من يُفهمها ذلك بنصف الكلمات المعتادة، لأنْ ليس هناك من تفسير لبريق الإعجاب الذي انطفأ بسرعة في عينيْها ومكانَه برزَ تعبيرٌ مؤلم، ملامح شفقة وعطف، ويبقى معرفة إن كان ذلك تجاه نفسها أم تجاه الرجل الجالس قبالتها. أدرك تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن الخطاب مهين، بالإضافة إلى عدم جدواه وأن هناك طرقاً عديدة لعدم احترام ذكاء وحساسية الآخرين، وأن هذه كانت أكثرها فظاظة. لم تأت ماريّا دا بّاش إلى هنا ليقدّموا لها شروحات حول تصرفات غير منسجمة، مهما كان الطرف الذي نمسكها منه، جاءت إلى هنا لتعرف

كم ستدفع حتى يُعيدوا لها السعادة، إنْ كان ذلك ما يزال ممكناً، تلك السعادة الصغيرة التي تخيّلت أنها عاشتها في الشهور الستة الأخيرة. لكن من المؤكد أيضاً أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لن يقول ذلك، كما لو أن الأمر يتعلق بشيء طبيعي جداً في هذا العالم، **تصوّري** أنني اكتشفتُ رجلاً هو نسختي طبق الأصل وهذا الرجل يلعب أدواراً في بعض هذه الأفلام، لن يقول لها هذا بأي حال من الأحوال، وخصوصاً، إنْ سمح بضمّ هاتين الكلمتين إلى الكلمات التي سبقتها مباشرة، في الوقت الذي يمكن لماريّا دا بّاش أن تُؤوّل الجملة على أنها محاولة لصرف انتباهها، هي التي جاءت إلى هنا فقط لتعرف كم عليها أن تدفع حتى يعيدوا إليها تلك السعادة الصغيرة التي كانت تتخيل أنها قد عاشت فيها خلال الشهور الستة الأخيرة، ونحن نطلب السماح عن هذا التكرار نيابة عن الحق الذي يسمح لأي شخص بأن يقول مرة ومرات ما يؤلمه. ران صمتٌ محرج، وينبغي لماريّا دا بّاش أن تأخذ الكلمة الآن، وتتحدّاهُ، **إنْ** كنتَ قد انتهيت من خطابك السخيف عن ترهات الإشارات الإيديولوجية، لنتحدث عن نفسينا، لكن الخوف وضع فجأة عقدةً في حلقها، الفزع من أنَّ أبسط كلمة يمكن أن تهشّم الزجاج الهش لأملها، لذلك لزمت الصمت، ولذلك ظلت تنتظر أن يبدأ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ظلّ يخفض عينيه، يبدو شارداً في تأمّل خُفّيْه وقطعة الجلد الباهتة التي تطلُّ حيث ينتهي سروال المنامة، والحقيقة شيء آخر مختلف تماماً، لا يجرؤ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو على رفع عينيه خوفاً من أن تتحولا نحو أوراق كانت على طاولة المكتب، لائحة الأفلام وأسماء الممثلين، مع علامات صغيرة قربها، علامات الشطب، علامات السؤال، كل شيء بعيد جداً عن ذلك الخطاب

المشؤوم حول الإشارات الإيديولوجية الذي كان يبدو له لحظتها أنه لشخص آخر. وخلافاً لما يُعتقدُ عموماً، فإن الكلمات المساعدة التي تستهلُّ الحوارات العظيمة والدرامية متواضعة جداً، عادية، ولا أحد يعتقد أن السؤال **هل** تريد قهوة، يمكن أن يكون مقدمة لنقاش مطول حول الأحاسيس الضائعة أو حول حلاوة تصالُحٍ لا يُعرف كيف يتم التوصل إليه. كان ينبغي لماريّا دا بّاش أن تجيب بما يليق من جفاف، **كلّا**، لم آتِ لأشرب قهوة، لكن، وهي تنظر إلى دواخلها، رأت أنه لم يكن الأمر كذلك، وجدت أنها جاءت لتشرب قهوة بالفعل، وأن سعادتها الشخصية، تصوروا، قد تتوقف على تلك القهوة. بصوت لا يرغب في سوى أن يُظهر خنوعاً متعباً، لكن التوتر يجعله يرتعش، قالت، **نعم** هو كذلك، ثم أضافت، **سوف** أحضّرها بنفسي. نهضت عن الكرسي، ولم تتوقف كثيراً وهي تمرُّ بالقرب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، فكيف لنا أن نفسر ما حدث، إننا نضم الكلمات، كلمةً كلمة، تلك الكلمات التي تحدثنا عنها في مكان آخر، ضمير شخصي، ظرف، فعل، نعت، ومهما حاولنا، مهما بذلنا من جهد، دائماً نجد أنفسنا في الجهة الخارجية من الأحاسيس التي رغبنا بكل سذاجة أن نصفها، كما لو أن إحساساً ما مثل منظر طبيعي به جبل يظهر بعيداً وأشجار عند سفحه، لكن الأكيد أنّ فِكْرَ ماريّا دا بّاش علّق الحركة الخطية للجسد، في انتظار شيء لا يعلمه إلا الرّبُّ، ربما أن ينهض تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليحضنها أو يمسك بلطف يدها المهجورة، وكذلك كان، في البداية شدّت اليدُ اليدَ، ثم الذراع التي لم تجرؤ على الذهاب أبعد من اقتراب محتشم، هي لم تقدم له فمها، وهو لم يبحث عنه، ثمة مناسبات يكون فيها من الأفضل ألف مرة القيام بما هو أقل من القيام بما هو أكثر، يُسلِّمُ الأمر لحكومة

الحساسية، وهي، أحسن من الذكاء المنطقي، ستعرف كيف تتصرف وفق ما يناسب الكمال التام لما يلي من لحظات، إنْ هي وُلدت لهذا الغرض. انفصلا بتثاقل، فابتسمت هي شيئاً ما، وابتسم هو قليلاً، لكننا نعرف أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو له فكرة أخرى في ذهنه، وهي أن يبعد عن ناظر ماريّا دا بّاش، بأسرع وجه ممكن، تلك الأوراق الفاضحة، لذلك، فلا غرو أنه دفَعها تقريباً نحو المطبخ، **اذهبي**، اذهبي وحضّري القهوة بينما أقوم أنا بترتيب هذه الفوضى، وحينئذ حدث الأمر الغريب، كأنها لا تعير اهتماماً لما يصدر من كلام عن فمها أو كأنها لم تفهم تماماً، همهمت، **الفوضى** نظامٌ ينتظرُ من يفكّ شفراته، **ماذا**، ما الذي قُلتِه، سألها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذي كان قد وضع لائحة الأسماء في يده، **الفوضى** نظامٌ ينتظرُ من يفكّ شفراته، **أين** قرأتِ هذا، من سمعته يقولُه، **خطر** لي في هذه اللحظة، لا أظنّ أنني قد قرأتهُ مرة، أما إن كنتُ سمعت أحداً يقولُه، فأنا لم أسمعه بكل تأكيد، **لكن** كيف حصل ونطقتِ بجملة كهذه، **أي** شيء خاص في هذه الجملة، **أشياء** كثيرة، **لستُ** أدري، ربما لأن عملي في البنك يقوم على الأرقام، والأرقام، حين تُقدَّمُ ممزوجة، مختلطة، قد تبدو مثل عناصر فوضوية لمن لا يعرفها، لكن، يوجد فيها، كامناً، نظامٌ، في الحقيقة أعتقد أن الأرقام لا معنى لها خارج أي نظام معين يُنسبُ إليها، تكمن المسألة في معرفة العثور عليه، **هنا** لا توجد أرقام، **لكن**، هناك فوضى، أنت نفسك من قلت ذلك، **بعض** الفيديوهات المتناثرة، لا غير، **وأيضاً** الصور التي توجد بداخلها، ملتصقة واحدة بالأخرى بحيث تحكي قصة ما، وهذا نظام، ثم هناك أشكال الفوضى التي قد تُشكلها لو فرقناها قبل أن نعيد إلصاقها حتى تنظم حكايات مختلفة، ومختلف أشكال النظام التي

ستحصل قد نحصل عليها، تاركين دائماً خلفنا فوضى منظمة، دائماً نتقدم نحو داخل فوضى تنتظر التنظيم، **الإشاراتُ** الإيديولوجية، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، غير واثق تماماً من أن الإحالة مناسبة، **نعم**، الإشارات الإيديولوجية، إنْ شئتَ ذلك، **لدي** إحساس بأنكِ لا تصدقينني، **لا يهم** إن كنتُ أصدقك أم لا، أنت تعرفُ ما تبحث عنه، **ما** يصعب عليَّ أن أدركه هو كيف خطرت لكِ هذه الفكرة، فكرةُ نظامٍ يوجد داخل الفوضى ويمكن فكّ شفراته داخلها، **هل** تقصد أنه خلال كل هذه الشهور، منذ بدأت علاقتنا، لم تعتبرني قطّ ذكية بما يكفي كي تكون لي أفكار، **هيا**، لا يتعلق الأمر بهذا، أنت شخص ذكي بما يكفي، لكن، **لا داعي** لتكمل كلامكَ، أقل ذكاء منك، وطبعاً، ينقصني ذلك القسط الصغير من التكوين الأساسي، أنا موظفة بنكية مسكينة، **دعكِ** من السخرية، لم أفكّر يوماً أنك أقل ذكاء مني، ما أقصد هو أن فكرتك هذه مدهشة تماماً، **غير متوقعة** مني، **بطريقة** ما، نعم، **أنتَ** هو المؤرخ، لكن أعتقد أنني أعرف أن أسلافنا، فقط بعد الحصول على أفكار جعلت منهم أشخاصاً أذكياء، بدأوا يصيرون أذكياء بما يكفي لتكون لهم أفكار، **الآن** ها أنت تستعملين المفارقة، وأنا أنتقل من دهشة إلى أخرى، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **قبل** أن تتحول إلى تمثال من ملح، سوف أذهب لأحضر القهوة، ابتسمت ماريّا دا بّاش، وبينما هي تتابع سيرها عبر الممر المؤدي إلى المطبخ، كانت تقول، **رتّب** الفوضى، يا ماكسيمو، رتّب الفوضى. وُضعت لائحةُ الأسماء بسرعة داخل جارور وأُغلق عليها بالقفل، أعيدَ كُلُّ شريط إلى علبته الخاصة، وفيلم «موازي الرُّعب»، الذي بقي في جهاز الفيديو، سارَ على نفس الطريق، ولم يكن قطّ سهلاً بهذه الطريقة ترتيبُ الفوضى منذ كان العالمُ عالَماً. لكن التجربة علّمتنا أنه

دائماً ما تبقى بعض الخيوط المتناثرة التي يجب ربطها، ودائماً ما يهرق شيء من الحليب في الطريق، ثمة دائماً صفٌّ ينتفخ نحو الدخل أو تجاه الخارج، وهو، إن طُبّق على الحالة التي نحللها، يعني أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو على وعي بأنه قد خسر الحرب حتى قبل أن يبدأها. إلى هذا الحدّ الذي وصلت إليه الأمور، بسبب سخافة خطابه وهو يتحدث عن الإشارات الإيديولوجية، والآن بسبب تلك الضربة البارعة التي شكلتها الجملة التي تقول بوجود نظام في الفوضى، نظام يمكن فكّ شفراته، يستحيل أن يقول للمرأة التي توجد هناك داخل المطبخ، **إنّ** علاقتنا قد بلغت نهايتها، يمكن أن نستمر كصديقيْن في المستقبل، إن شئتِ، لكن ليس أكثر من هذا، أو، **يصعب** عليّ أن أتسبب في حزنكِ، لكن، وأنا أُقيّم مشاعري تجاهك، فإنني لم أعد أجدُ حماس البداية، أو، **كان** شيئاً جميلاً، لكنه انتهى، يا عزيزتي، وانطلاقاً من هذا اليوم أنت تذهبين لتعيشي حياتك وأنا أذهب لأعيش حياتي. راح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يجتر الحديث في ذهنه يحاول أن يكتشف أين فشلت خطته، إنْ كان يملك خطة في الأصل، إن كان قد ترك نفسه ينساق وراء تقلبات مزاج ماريّا دا بّاش، كما لو أن الأمر يتعلق ببؤر نار مفاجئة كان لا بدّ من إخمادها كلما برزت، من دون أن يدرك، مع ذلك، أن النار ظلت كامنة تحت قدميه. كانت دائماً أكثر ثقة بنفسها مني، فكّرَ، ولحظتها رأى بوضوح أسباب هزيمته، تلك الشخصية المضحكة التي كانَها، بشعر أشعث ولحية طويلة، ينتعل خُفّيْن رثّيْن، خطوط سروال منامته تظهر مثل شرائط شاحبة، الرّوب الذي يتدلى برخاوة، ثمة قرارات في الحياة يُنصح أن يتخذها المرء وهو يرتدي ملابس مناسبة للخروج، يضع ربطة عنق وينتعل حذاء مُلمَّعاً، وهذا يسمّى طريقة نبيلة، ثم

يصيح بنبرة غاضبة، **إنْ** كان حضوري يزعجُك، سيدتي، لا أحتاج لأن تقولي لي ذلك، وعلى الفور يخرج من الباب دون أن ينظر إلى الخلف، فالنظر إلى الخلف خطر كبير، لأن المرء يمكن أن يتحول إلى تمثال من ملح ويبقى هناك تحت رحمة أولى قطرات المطر. لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عليه الآن أن يحل مشكلة أخرى، وهذا الأمر يتطلب كثيراً من اللباقة، كثيراً من الدبلوماسية، ومهارة في المراوغة كان يفتقد إليها حتى هذه اللحظة، بما أنه، كما رأينا، كانت المبادرة تأتي دائماً من ماريّا دا بّاش، حتى أنها عندما وصلت ارتمت في حضن عشيقها مثل امرأة على وشك أن تغرق. وكان هذا بالضبط ما فكّر فيه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، يتقاسمه الإعجاب، الانزعاج وما يشبه حناناً خطيراً، **كانت** تبدو كأنها تغرق لكنها، في نهاية المطاف، كانت راسخة القدمين فوق الأرض. وبالعودة إلى المشكلة، لا يمكن لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يسمح لنفسه بأن يترك ماريّا دا بّاش وحدها في الصالة. لنتخيّل أنها تظهر وهي تحمل القهوة، وعلى فكرة لا يُفهم كيف تأخرت كثيراً، فالقهوة تحضّرُ في ثلاث دقائق، لقد ولى ذلك الزمن الذي كان فيه من الضروري تقطير القهوة، لنتخيّل أنه، بعد أن احتسيا القهوة في تناغم تام، تقول له بقصد خفيّ أو حتى ظاهر، **اذهب** لتُرتّب نفسك بينما أضعُ هذه الفيديوهات في الجهاز، لأرى إن كنت أكتشف واحدة من إشاراتك الإيديولوجية الشهيرة، لنتخيّل أن قدراً ملعوناً أراد أن يُظهرَ ضعف تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في شخص بواب نادٍ ليلي أو في أمين صندوق في بنك، لنتخيّل تلك الصيحة التي قد تطلقها ماريّا دا بّاش، **تعال**، اجْرِ، تعال لترى ممثلاً يشبهك تماماً، في الحقيقة، يمكن أن نسمّي مساعدَ ممرّضٍ كما شئنا، السامري الطيب، العناية الإلهية، أخ

الشفقة، لكن لا يمكن بتاتاً أن نسمّيه إشارة إيديولوجية. لكن، لن يحدث أي شيء من هذا كله، سوف تجلب ماريّا دا بّاش القهوة، وها قد بدأت تُسمعُ خطواتها في الممر، الصينية مع الفنجانيْن وعلبة السكر، بعض قطع البسكويت لإراحة المعدة، وسيمر كل شيء كما لم يجرؤ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يحلم بذلك قطّ، شربا القهوة صامتيْن، لم يكن صمت المرافقة، ولا صمتاً عدائياً، بل صمت راحة منزلية تحوّل بالنسبة لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى نصر مبارك عندما سمعها تقول، **بينما** تهيّئ نفسكَ، أرتّب الفوضى في المطبخ، بعد ذلك أتركك وشأنك مع دراستك، **هيا**، هيا، الدراسة، دعينا لا نتحدث مرة أخرى عن هذه الدراسة، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليزيل هذا الحجر المزعج من وسط الطريق، لكنه يعي أنه وضع مكانَه حجراً آخر تصعُب إزالته، كما لن نتأخر في التأكُّد من ذلك. مهما يكن من أمر، لم يكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يرغب في أن يترك شيئاً للصدفة، حلق ذقنه في رمشة عين، غسل وجهه بسرعة، ارتدى ملابسه في برهة، ولكنه فعل ذلك سريعاً جداً حتى أنه كان أمامه ما يكفي من الوقت ليلج المطبخ ويجفف الأواني. حينئذ حدث في ذلك البيت مشهد عائلي مؤثر للغاية حيث رجلٌ يجفّف الأواني وزوجتُه ترتّبها، وكان من المحتمل أن يقع عكس هذا، لكن القدر أو الصدفة، سمّوهُ كيفما شئتُم، قرّرَ أن يكون كذلك حتى يحدث ما حدث في اللحظة التي رفعت فيها ماريّا دا بّاش ذراعيْها عالياً لتضع صحناً فوق أحد الرفوف، لتعرض من دون وعي، أو على علم تام بذلك، خصرها النحيف على يديْ رجُلٍ لم يكن قادراً على مقاومة الغواية. تخلى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عن منديل تجفيف الأواني، بينما أفلت الفنجان من يده وتكسر على الأرض، فعانق ماريّا دا بّاش وجذبها إليه

بقوة، ولن يتردّدَ المُشاهد الموضوعي غير المنحاز في أن يسلّم بأنّ ما يسمّى حماس البداية لا يمكن أبداً أن يكون أكثر قوة من هذا. المسألةُ، المسألةُ المؤلمة الخالدة، هي أن نعرف كم من الوقت سيدوم كل هذا، هل هو انبعاث عاطفة اعتُبرت حباً ذات مرة، أو حتى عشقاً، أم أننا فقط مرة أخرى أمام الظاهرة المعروفة جداً حين تنطفئ الشمعة فتظهر منها شعلة ترتفع عالياً وتلمع بشكل يفوق التحمُّل، لأنها هي الأخيرة، ليس لأن عيوننا ترفضها وهي التي ترغب أيما رغبة في أن تغوص فيها. يُقالُ ويُكرَّرُ إنّ الظَّهْر يرتاحُ بين نزول الهراوة وصعودها، لكن الظَّهْر، بالمعنى الحرفي للكلمة، لا يرتاح كثيراً في هذه اللحظة بل نستطيع أن نقول، لو قبلنا أن نكون وقحين، إنّ الهراوة ترتاح بشكل أقل، لكن الحقيقي هو أنه، حتى إن لم تكن هناك من أسباب تدعو للانسياق وراء جموح غنائي، فإن سعادة، متعة، واستمتاع هذين اللذين ارتميا على السرير الواحد فوق الآخر، فالتفّت سيقانهما بذراعيهما حرفياً، يجب أن تحملنا لنرفع لهما القبعة وأن نتمنى لهما أن يدوم ذلك إلى الأبد، لهما، ولأي أحد ممّن سيربطه القدر بهما في يوم من الأيام، إن لم تدم الشمعة التي تحترق الآن لوقت أطول من هذه اللحظة من الرعشة الأخيرة التي تجعلنا قساة عادة وهي تُذيبنا في الوقت ذاته. الأجسادُ، الأفكارُ. فكّرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في تناقضات الحياة، في أنه كي نربح معركة يكون من الضروري أحياناً أن نخسرها، لنرى هذه الحالة الراهنة، فالانتصار ربما كان هو أن يقود الحديث في الاتجاه الذي يرغب فيه، أي نحو الانفصال النهائي والتام، وهذه المعركة، على الأقل في الوقت الوشيك، عليه أن يعتبرها خاسرة، لكن الانتصار يعني أن يصرف انتباهَ ماريّا دا بّاش عن الفيديوهات والدراسة المتخيلة حول الإشارات الإيديولوجية، وهذه المعركة كان قد ربحها لحدّ الساعة. تقول

الحكمة الشعبية إننا لا يمكن أن نحصل على كل شيء، وهي محقة في ذلك، فحصيلة حياة الناس تعتمد أساساً على ما يُربح وما يُخسر، وتكمن المشكلة في الاستحالة، الإنسانية بدورها، في أن نتفق حول القيمة النسبية لما ينبغي أن نخسره وما يجب أن نربحه، لهذا السبب فالعالَمُ على ما نراه عليه من حال. فكّرت ماريّا دا بّاش بدورها، لكن، بما أنها امرأة، وعليه فهي أكثر قرباً من الأشياء الأساسية والجوهرية، تذكّرت ذلك القلق الذي جاءت تحملُه في روحها عندما ولجت هذا البيت، ويقينُها في أنها سوف تغادر هذا المنزل مهزومة ومهانة، وفي النهاية حدث ما لم يخطر على بالها في أي لحظة، أن تكون في الفراش مع الرجل الذي تحبه، مما يدل على الكثير مما على هذه المرأة أن تتعلمه إنْ لم تعلم أن عديداً من النقاشات الدرامية بين الأزواج تنتهي وتُحل هنا، ليس لأن ممارسة الجنس هي الترياق لكل داء جسدي وروحي، رغم أنه لا يعدم من يفكر كذلك، بل لأنه، حين تُستنزف كل قوى الجسد، تستغل الروح الفرصة لترفع إصبعها في خجل وتستأذن الدخول، تسأل إن كان يُسمح لها بتقديم حُجَجها، وإن كانت الأجساد مستعدة لتعيرها الانتباه. حينئذ، عندما يقول رجلٌ لامرأةٍ، أو امرأةٌ لرجلٍ، **كم** نحن مجنونان، كم كنا سخيفيْن، فيشفق أحدهما ويلوذ بالصمت فإنّ الجواب المناسب قد يكون، **أنت**، ربما، أنا كنتُ في انتظارك فقط. ومهما بدا مستحيلاً، فإن هذا الصمت المفعم بالكلمات غير المنطوقة هو الذي ينقذ ما كان يُعتبر في عداد الضائع، مثل طوْفٍ يتقدم وهو يبرز من الضباب بحثاً عن بحّارته، بمجدافه وبوصلته، بشراعه وصندوقه المليء بالخبز. اقترح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **يمكن** أن نتناول وجبة الغداء معاً، لست أدري إن كنت مستعدة لذلك، **طبعاً**، أنا دائماً مستعدة، **هناك** أمُّكِ، أقصدُ، **شرحتُ** لها أنني أرغب في القيام بجولة وحدي، وربما لن أعود

لأتناول الأكل في البيت، **ذريعة** لكي تأتي إلى هنا، **ليس** هذا بالضبط، فقط بعد أن غادرتُ المنزل قررتُ أن آتي لأتحدث معك، **ها** قد تحدثنا، **ماذا** تعني، سألتهُ ماريّا دا بّاش، أنّ كل شيء بيننا سيستمر كما كان من قبل، **طبعاً**. ربما كنا ننتظر أكثر من فصاحة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكنه يستطيع دائماً أن يدافع نفسه، **لم** يكن لدي وقت، تعلّقت بعنقي لتقبّلني، ثم فعلتُ معها نفس الشيء، وما هي إلا هنيهة حتى وجدنا نفسينا مشتبكين، كان الرّبُّ في عوننا، **وهل أعانكما**، سألَ الصوتُ المجهول الذي لم نسمعه منذ مدة طويلة، **لا** أدري إنْ كان هو لكن الأمر كان يستحق العناء فعلاً، يستحق العناء، **والآن، الآن**، سنذهب لنتناول الغداء، **ولم** تتحدثا عن الموضوع مرة أخرى، **أي** موضوع، **موضوعكما**، **لقد** تحدثنا في ذلك، **لم** يحصل كذلك، **حصل**، **إذن** انجلت الغيوم، **انجلت**، **هل** تعني أنك لم تعد تفكر في الانفصال، **هذا** أمرٌ مختلف، لنترك للغد ما ينتمي ليوم الغد، **هذه** فلسفة جيدة، **أحسن** فلسفة، **شريطة** أن نعرف ما ينتمي ليوم الغد هذا، **وما** دمنا لم نصل إلى هناك فلا نستطيع أن نعرف، **تملكُ** جواباً لكل شيء، **حتى** أنتَ ستملك جواباً لكل شيء إن وجدت نفسك مضطراً لتكذبَ بقدر ما كذبتُ أنا في الأيام الأخيرة، **إذن** اذهبا لتناول الغداء، **حسناً** سنذهب، **شهية** طيبة، وماذا بعد ذلك، **بعد** ذلك، آخذها إلى بيتهم وأعود، **لتشاهد** أشرطة الفيديو، **نعم**، لأشاهد أشرطة الفيديو، **شهية** طيبة، قال الصوت المجهول مُودّعاً. كانت ماريّا دا بّاش قد نهضت، وسُمع الدّش الذي أطلقت ماءه، فيما مضى كانا دائماً يغتسلان معاً بعد المضاجعة، لكن هذه المرة لا هي تذكّرت ولا هو وجد من يُذكّره، أو ربما تذكّرا معاً لكنهما فضّلا أن يلوذا بالصمت، ثمة أوقات يستحسن أن يكتفي فيها المرء بما في يده، وألا يخسر كل شيء.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة عصراً حين عاد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى البيت. كم من الوقت الضائع، فكّرَ وهو يفتح الجارور حيث كان يحتفظ باللائحة ويتردد بين شريطيْ «بذراعين متشابكتين مع الحظ» و«الملائكة ترقص أيضاً». كلا، لن يتمكن من إدخالهما في جهاز الفيديو، لذلك لن يرى قط نسخته، ذلك الرجل الذي يشبهه تماماً، كما قد تقول ماريّا دا بّاش، والذي يلعب دور موزع مائدة قمار في الشريط الأول ودور أستاذ للرقص في الشريط الثاني. فجأة، غضب من نفسه لأنه فرض على ذاته أن يتابع الترتيب الزمني لإنتاج الأفلام، من أقدمها إلى أحدثها، فرأى أنه لن تكون فكرة سيئة لو أنه نوّع بعض الشيء، وكسر الروتين، سوف أشاهد «إلهة الخشبة»، قال. لم تمض عشر دقائق حتى ظهر شبيهه يلعب دور مقاول مسرحي. شعر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بصدمة في معدته، لا بدّ أن أشياء كثيرة قد تغيرت في حياة هذا الممثل كي يلعب الآن دور شخصية أخذت تكتسي أهمية أكبر فأكبر بعد أن كان لعدة سنوات يلعب أدواراً عابرة كموظف استقبال في فندق، أمين صندوق في بنك، بواب في نادٍ ليلي ومصور في صفوف الشرطة. بعد نصف ساعة، لم يستطع أن يصمد أكثر من ذلك، قدَّم شريط الفيديو بكل سرعة نحو النهاية، لكن، عكس ما كان ينتظره، لم يجد في الجينريك أي اسم من أسماء الممثلين الذين سجّلهم في اللائحة. عاد إلى بداية الفيلم، إلى جينريك البداية الذي لم ينتبه إليه بحكم العادة، ورآهُ. رأى أن الممثل الذي يلعب دور المقاول المسرحي في شريط «إلهة الخشبة» اسمه دانييل سانتا كلارا. مكتبة سُر مَن قرأ

إنّ اكتشافات نهاية الأسبوع ليست أقل قيمة ولا أهمية من الاكتشافات التي تحدث أو تُعبِّرُ عن ذاتها في أيّ يوم من الأيام الأخرى، التي تسمّى أيام العمل. في هذه الحالة، كما في الأخرى، يقوم صاحب الاكتشاف بإخبار المساعدين، إنْ كان هؤلاء يشتغلون لساعات إضافية، أو الأسرة، إنْ كانت بالقرب منه، وفي غياب الشامبانيا يمكن تخليد الحدث بقنينة نبيذ فوّار ظلّت تنتظرُ يومها في الثلاجة، وتُقدَّمُ التهاني، تُسجّلُ المعطيات من أجل استصدار الرخصة، وتستمر الحياة هادئة، تتقدم، بعد أن تتم البرهنة مرة أخرى على أن الإلهام، الموهبة أو الصدفة لا يختاران، كي يظهرا، اليوم أو المكان. نادرةٌ هي الحالات التي يشتغل التي فيها المكتشف وحده من دون مساعدين، فلا يكون في متناوله على الأقل شخص واحد يتقاسم معه فرحةَ إهداءِ العالَم نورَ علمٍ جديد. إنّ الحالة التي يوجد عليها الآن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أكثر غرابة وروعة، لأنه لا يملك فقط من يخبره بأنه اكتشف اسم الممثل الذي هو صورته طبق الأصل، بل عليه أن يحرص كل الحرص على كتمان ما اكتشفه. بالفعل، لا يمكن أن نتصوّرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يهرول ليتصل بأمه، أو بماريّا دا بّاش، أو زميله أستاذ الرياضيات، يتحدث

بكلمات تتدافع في فمه من شدة الحماس، **اكتشفتُ**، اكتشفتُ، اسمُ الرجل هو دانييل سانتا كلارا. إنْ كان ثمة في حياته سرّ يريدُ أن يحتفظ به جيداً، ولا يشك أحد حتى في وجوده، فهو هذا السرُّ بالضبط. خوفاً من العواقب، اضطر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ربما إلى الأبد، ليلزم صمتاً تاماً حول نتائج أبحاثه، سواء أبحاث المرحلة الأولى، التي انتهت اليوم، أو الأبحاث التي سوف ينجزها في المستقبل. كما أنه مجبر، إلى غاية يوم الاثنين على الأقل، ليتعطّل تعطلاً تاماً عن العمل. يعرف أن صاحبه يُدعى دانييل سانتا كلارا، لكن هذه المعرفة تفيد بقدر ما يفيده أن يعرف أن نجمة ما تسمّى نجمة الدّبَران لكنه يجهل عنها كل شيء. الشركة المنتجة مغلقة اليوم وغداً، ولا داعي لمحاولة الاتصال بهم بالهاتف، في أحسن الأحوال قد يردّ على الاتصال واحد من حراس الأمن ويكتفي بالقول، **اتّصلْ** يوم الاثنين، اليوم لا يشتغل أحد، **اعتقدتُ** أنه بالنسبة لشركة إنتاج سينمائية ليست هناك من أيام أحد ولا عطل، وأنهم يصورون الأفلام في كل يوم من الأيام التي سخّرها الرّب للعالم، خصوصاً في فصلَي الربيع والصيف حتى لا يضيعوا ساعات الشمس، قد يدّعي تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يسعى جاهداً لتمديد زمن الحديث، **هذه** الأمور لا تدخل في مجال اختصاصي، أنا مجرد مستخدم في الحراسة، **إن** حراسة جديرة بهذا الاسم ينبغي أن تكون على علمٍ بكل صغيرة وكبيرة، **لا** يدفعون لي أجراً على هذا، **أمرٌ** مؤسف، **هل** ترغب في شيء آخر سيسأله الرجل وقد نفد صبره، **أخبرني** على الأقل إنْ كنت تعرف من يقدم هناك معلومات عن الممثلين، **لا** أعرف، لا أعرف شيئاً، لقد قلتُ لك أنا من أفراد الحراسة، اتّصلْ يوم الاثنين، قد يكرّر الرجل، هذا إن لم تفلت من فمه كلمة من

الكلمات الفظّة التي تبررها وقاحةُ مُحاوره. جالساً على الكرسي المنجّد، قبالة جهاز التلفاز، تحيط به أشرطة الفيديو، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يعترف مع نفسه، ليس هناك من خيار آخر، عليّ أن أنتظر حتى يوم الاثنين لأتصل بالشركة المنتجة. قال ذلك، ولحظتها شعر بانقباض في معدته، كأنه خوف مفاجئ. كان ذلك سريعاً، لكن ما تلاه من رعشة مقلقة كانت كأنها رجّةُ كمانٍ. حتى لا يفكر فيما بدا له نوعاً من التهديد، تساءل ما الذي يمكن أن يقوم به لما تبقى من أيام الأسبوع، وما تبقى من هذا اليوم ويوم الغد، كيف يشغل كل هذه الساعات من الفراغ، قد يكون أحد الحلول هو أن يشاهد ما بقي من الأفلام، لكنّ هذا لن يمدّهُ بمزيد من المعلومات، فقط سيرى وجهه في أدوار أخرى، من يدري ربما أستاذاً للرقص، ربما رجل إطفاء، ربما مدير قمارٍ، نشّالاً، مهندساً معمارياً، معلماً في مدرسة ابتدائية، ممثلاً يبحث عن عمل، وجهه، جسده، رجلاه، حركاته، حتى التخمة. يمكن أن يتصل بماريّا دا بّاش، يطلب منها أن تأتي لزيارته، غداً إن لم تستطع ذلك اليوم، لكن هذا يعني أنّه يكبّل يديْه بيديْه، لأن رجُلاً يحترم نفسه لا يمكن أن يطلب مساعدة امرأة، حتى إن لم تكن على علم بذلك، ثم يطردها بعد ذلك. في تلك اللحظة، ومن دون أن يكون تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أعارها انتباهاً من قبل، كانت فكرةٌ قد أطلّت أحياناً على ذهنه خلف أفكارٍ أخرى أكثر حظاً، ونجحت فجأة في أن تتبوأ المكان الأول، إنْ نظرتَ إلى دليل الهاتف، قالت الفكرةُ، تستطيعُ أن تعرف أين يسكن، ولن تكون بحاجة لأن تسأل الشركة المنتجة، بل، إذا ما كنتَ مستعداً لذلك، يمكنكَ أن تذهب إلى الشارع الذي يسكن فيه، وإلى بيته، طبعاً يجب أن تتوخى الحذر الأساسي بأن تتنكّر، لا تسألني كيف، فهذا شأنك.

انقبضت معدة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مرة أخرى، هذا الرجل يرفض أن يدرك أن العواطف تعج بالحكمة، أنها منشغلة بشأننا، وغداً ستقول، **لقد** حذّرناكَ فعلاً، لكن وقتئذ، سيكون قد فات الأوان لا محالة. يمسكُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو دليل الهاتف بين يديه المرتعشتين اللتين تبحثان في حرف «س»، تُقلّبان الصفحات نحو الخلف ونحو الأمام، ها هو هنا. هناك ثلاثة يحملون لقب سانتا كلارا لكن لا أحد اسمه دانييل.

لم تكن الخيبة كبيرة. إنّ بحثاً مضنياً بذلك الشكل لا يمكن أن ينتهي هكذا، سيكون أمراً مضحكاً ببساطته. صحيحٌ أن دليل الهاتف كان دائماً من أول وسائل التحقيق بالنسبة لأي محقق خاص أو من الشرطة يتوفر على معارف أولية، ما يشبه مجهراً ورقياً قادراً على أن يجلب البكتيريا المشكوك في أمرها حتى منحنى الإدراك البصري للباحث، لكن صحيح أيضاً أن هذه الطريقة في كشف الهوية كان لها بعض الصعوبات والإخفاقات فالأسماء تتكرر، المسجلات الآلية لا ترحم، الصمت مريب، وذلك الجواب المتكرر المحبطُ **هذا** الرجل لم يعد يسكن هنا. كانت أول فكرة، منطقية وصائبة بالطبع، خطرت لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هي أن المدعو دانييل سانتا كلارا هذا لم يكن يرغب في أن يظهر اسمهُ في دليل الهاتف. بعض الشخصيات المؤثرة، من الطبقات الاجتماعية الراقية، يتخذون هذا الإجراء، وهذا ما يسمّى الدفاع عن الحق المقدس في الخصوصية، ويقوم به، مثلاً، المقاولون، أصحاب المال، السياسيون من الدرجة الأولى، نجوم السينما، كواكبُها، مذنباتُها ونيازكُها، بالإضافة إلى الكُتّاب العباقرة والمتأملين، محترفو كرة القدم، متسابقو الفورْمولا وانْ، عارضات الأزياء الراقية والمتوسطة، وأيضاً البسيطة، ولأسباب أكثر

وضوحاً، يفضّلُ أيضاً المجرمون من مختلف فروع الجريمة تكتُّم السرّية وتواضعها اللذين يحميانهم إلى حدّ ما من بعض أشكال الفضول المنحرفة. في حالة هؤلاء، حتى لو حملتهم أعمالهم إلى الشهرة، سنكون شبه متيقنين أننا لن نجدهم أبداً في دليل الهاتف. حسناً، بما أن دانييل سانتا كلارا، بالنظر لما عرفنا عنه لحدّ الآن، ليس مجرماً، وليس كذلك نجماً سينمائياً، لأنه لا يخامرنا أي شك بهذا الخصوص رغم أنه يمارس هذه المهنة، فإن سبب غياب اسمه من اللائحة المحدودة لمن يحملون لقب سانتا كلارا تنتجُ عنه بالضرورة حيرةٌ كبيرة لا سبيل لتجاوزها إلا بالتفكير. كان ذلك هو الشغل الذي انكبّ عليه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بينما كنا نحن، بتفاهة مثيرة للاشمئزاز، نستفيضُ في الحديث عن التنوع الاجتماعي لأولئك الأشخاص الذين يثمنون، في الحقيقة، أن يكونوا ضمن لائحة هاتف خاصة، سرية، متحفظة، تشبه تقويم غوتا الذي يدوّنُ الأشكال الجديدة للنّبالة في المجتمعات الحديثة. إنّ الاستنتاج الذي توصل إليه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، رغم انتمائه إلى فئة البديهيات، فإنه مع ذلك يستحق التصفيق، لأنه يثبت أن الاضطراب الذهني الذي طالما عذّب أستاذ التاريخ في الأيام الأخيرة لم يتحوّل بعد إلى عائق أمام تفكيره الحرّ والصحيح. صحيحٌ أن اسم دانييل سانتا كلارا لا يوجد في دليل الهاتف، لكن هذا لا يعني أنه لا يمكن أن تكون ثمة لنقُل علاقةُ قرابة بين واحدٍ من الأشخاص الذي يظهرون فيه وسانتا كلارا المُمثل السينمائي. بل يمكن أن نقبل حتى أنهم ينتمون جميعاً إلى نفس العائلة، أو، إنْ نحن تابعنا نفس الطريق، أن يسكن دانييل سانتا كلارا، في نهاية الأمر، في واحد من تلك المنازل وأن يكون الهاتف الذي يستعمله، مثلاً، في اسم جده المُتوفّى. إذا

ما أردنا أن نثبت، كما كان يُحكى للأطفال قديماً، من أجل توضيح العلاقات بين الأسباب الصغيرة والنتائج الكبيرة، أنّ خسارة معركة كانت بسبب انفصال حُذْوَةِ فرس، فإن مسار التخمينات والاستنتاجات التي حملت تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى الاستنتاج الذي عرضناه للتو لا يبدو لنا أكثر ريباً وإشكالاً من ذلك الحادث الموجب للعبرة المرتبط بتاريخ الحروب الذي كان فاعله الأول والمسؤول الأخير عنه، في نهاية الأمر ومن دون أي هامش الاعتراض، هو عدم كفاءة حدّاد الجيش المهزوم. ما هي الخطوة التي سيتخذها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ذلك هو السؤال الحارق. ربما يرضى بأنه أوْضح معالم المشكلة على أساس أن يدرُس لاحقاً شروط تحديدِ تكتيكِ مقاربةٍ ليست مباشرة، من تلك المقاربات الحذرة التي تتصرف من خلال أشكال تقدُّم بسيطة مع الحفاظ على قدَمٍ في الخلف. من يراه جالساً على الكرسي حيث بدأت، في جوانب متعددة، مرحلةٌ جدية من حياته، ظهرُه مقوس، مرفقاهُ على ركبتيه ورأسُه بين يديه، لا يمكن أن يتخيل ما يدور من اشتغال في ذلك الدماغ، يفكر في البدائل، يقيس الخيارات، يقدر المتغيرات، يستبق الرّدود، كأنه لاعب شطرنج بارع. مرت نصف ساعة وهو لا يتحرك. ويجب أن تنقضي نصف ساعة أخرى كي نراه ينهض، فجأة، ويذهب ليجلس إلى مكتبه ودليل الهاتف مفتوح عند صفحة اللغز. واضح أنه اتخذ قراراً رجولياً، ولنُبدِ إعجابنا بمن ترك الاحتراز خلفه وقرّر أن يهجم مباشرة. ركَّب رقمَ هاتفِ أوّل شخصٍ يحملُ اسم سانتا كلارا وانتظرَ. لم يُجب أحد على المكالمة ولم يكن هناك من مجيب آلي. ركّبَ رقمَ هاتفِ ثاني شخص يحملُ اسم سانتا كلارا فردّ عليه صوت امرأة، **ألو، مساء** الخير، سيدتي، أستسمح إن كنتُ

أزعجك، لكني أودُّ أن أتحدث إلى السيد دانييل سانتا كلارا، لديَّ معلوماتٌ بأنه يسكن في هذا العنوان، **أنتَ** مخطئ، هذا الرجل لا يسكن في هذا البيت، ولم يسكن فيه قطّ، **لكن** الاسم العائلي، **الاسم** العائلي صدفة، مثل صدف أخرى كثيرة، **اعتقدتُ** أنكِ من عائلته وقد تساعدينني على العثور عليه، **بل** إنني لا أعرفه حتى، **لا** تعرفينه، **لا** هو ولا أنتَ، **اسمحي** لي، كان عليّ أن أخبرك باسمي، **لا** تقل لي، لا يهمني معرفة ذلك، **على** ما يبدو، زوّدوني بمعلومات خاطئة، **هو** كذلك، **شكراً** جزيلاً على اهتمامك، **لا** شكر على واجب، **مساء** الخير. بعد هذا التبادل للكلمات، المتوتر بشكل غير مفهوم، قد يكون من الطبيعي أن يقوم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بوقفة يسترجع من خلالها هدوءه ونبضه المعتاد، لكن هذا لم يحدث. ثمة مواقف في الحياة لا يهمنا فيها أن نخسر بعشرة أو ننهزم بمئة، وما نريده هو أن نتعرف بسرعة مجموع الكارثة حتى لا نفكر لاحقاً في الموضوع مرة أخرى، إنْ كان ذلك ممكناً. رُكِّبَ الرقمُ الثالث من دون كثير من التردُّد، وفي الجهة الأخرى سأله صوتُ رجلٍ، فجأة، **منْ** معي. شعَرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كأنه متلبس بخطأ، تلعثم باسم ما، **ماذا** تريد، سأله الصوتُ من جديد، وظلت النبرة فظة، لكنها، بشكل غريب، لم تكن تنم عن أي عداوة، ثمة أشخاص هكذا، يصدر منهم صوتٌ كأنه غاضب من كل الناس، ولكنهم، في النهاية، يملكون قلباً من ذهب. هذه المرة، بسبب قصر الحوار، لن نتمكن من معرفة ما إذا كان قلبُ ذلك الشخص من المعدن النبيل حقّاً. أعرَب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عن رغبته في الحديث إلى السيد دانييل سانتا كلارا، فأجابه الرجل ذو الصوت الغاضب أنه لا يسكن هناك أي شخص يحمل هذا الاسم، فلم يبد

أن الحديث يستطيع أن يتقدم كثيراً، لكنه لم يكن أمراً يستحق العناء تكرارُ التطابق الغريب للأسماء العائلية ولا المصادفة المحتملة لعلاقة عائلية تضع المهتم صوب وجهته، ففي مثل هذه الحالات تتكرر الأسئلة والأجوبة، هي نفسها دائماً، فلان هنا، فلان لا يسكنُ هنا، لكن ظهر شيء مستجد هذه المرة، ويتمثل في أنّ الرجل ذا الحبال الصوتية المبحوحة تذكّرَ أنه قبل أسبوع تقريباً اتصل شخصٌ يطرح نفس السؤال تماماً، **أفترضُ** أنه لم تكن أنتَ، يا سيدي، على الأقل الصوتُ لا يتشابه، لدي سمع جيد لتمييز الأصوات، **لا**، لم أكن أنا، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، مضطرباً فجأة، ومن كان ذلك الشخص، رجلاً أم امرأة، **كان** رجلاً، بالطبع. نعم، رجل، أين كان يفكرُ، لأنه مهما كان الاختلاف كبيراً بين صوتيْ رجليْن، فإن الاختلاف قد يكون أكبر من ذلك بين صوت امرأة وصوت رجل، **رغم** أنه، أضاف المُحاورُ، وأنا أفكر في ذلك الآن، بدا لي لحظة أنه كان يبذل جهداً ليُخفي طبيعة صوته. بعد تقديم الشكر، كما يملي الواجبُ، وضع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السمّاعة ونظر إلى الأسماء الثلاثة في اللائحة. لو أن ذلك الرّجل اتّصل يسأل عن دانييل سانتا كلارا، فإن المنطق الطبيعي لهذا الإجراء، كما فعل هو نفسه للتو، يفترض أنه اتصل بالأرقام الثلاثة. لم يكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يعرفُ، طبعاً، إنْ كان أحدهم في البيت الأول قد أجاب على الاتصال، وكان كل شيء يشير إلى أن المرأة غير المهذبة التي تحدّث معها، تلك الفظّة رغم نبرة صوتها المحايدة، لم تكن تتذكر أو لم تعتبر من الضروري ذكر ذلك الأمر، أو، بشكل طبيعي، لم تكن هي من ردّت على المكالمة. ربما لأنها تعيش وحدها، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في نفسه، إنني أنزع إلى تصوّر أنّ الآخرين

يعيشون على طريقتي. ومن ذلك الاضطراب القوي الذي تسبب له فيه خبرُ أنّ مجهولاً كان يبحث عن دانييل سانتا كلارا بقي لديه إحساس قلق من الحيرة كما لو أنه أمام معادلة من الدرجة الثانية بعد أن نسيَ كيف تُحلُّ معادلات الدرجة الأولى. ربما يكون أحد الدائنين، فكّر، هذا هو الأرجح، دائن، لأن الفنانين والأدباء يعيشون حياة غير منتظمة، لا بدّ أنه أخذ قرضاً من تلك الأماكن التي يمارس فيها القمار والآن يريدون أن يجبروه على السداد. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد قرأ فيما مضى أنّ ديون القمار هي الأكثر قداسة من بين كل الديون، حتى أنّ هناك من يسمّيها ديون الشرف، ورغم أنه لم يفهم ما علاقة الشرف بكل تلك الحالات أكثر من غيرها، قبل بالعُرف والقانون كشيء لا يعنيه، **ذاكَ** شأنهم، فكّر. لكن، اليوم كان يفضل ألّا تكون تلك الديون مقدسة بذلك الشكل، أن تكون ديوناً عادية، من تلك التي يطالها العفو والنسيان، كما في الصلاة الربّانية القديمة التي لا يدعو فيه المؤمن فحسب، بل يعِدُ أيضاً. وحتى يستجلي أفكاره، ذهب إلى المطبخ يُحضّر قهوة، وبينما هو يحتسيها، قام بتقييم الوضع، **ما** زال ينتظرني القيام بتلك المكالمة، يمكن أن يقع أمران عندما أقوم بها، إمّا أن يقولوا لي إنهم لا يعرفون الاسم ولا الشخص فيكون المشكل منتهياً من هذه الناحية، وإما أن يقولوا لي نعم، إنه يعيش هناك، وحينئذ سأضع السماعة، لأنه في هذه اللحظة لا يهمني سوى أن أعرف أين يسكن.

بعد أن ارتاحت نفسُه لهذا التفكير المنطقي الرائع الذي أنتجه وللاستنتاج الذي لا يقل روعة، عاد إلى الصالة. كانت اللائحة ما تزال مفتوحة فوق طاولة المكتب وأسماء سانتا كلارا الثلاثة لم تُغيّر مكانَها. ركّب رقم هاتف الاسم الأول وانتظر. انتظر وظلّ ينتظر

حتى بعد أن صار متيقناً من أنهم لن يردّوا على المكالمة. اليوم سبتٌ، فكّر، ومن المحتمل أن يكونوا خارج البيت. وضع السماعة، وكان قد قام بكل ما في وسعه، ولا يمكن لأحد أن يتهمه بقلة العزيمة أو الخجل. نظرَ إلى ساعته اليدوية، كان الوقت مناسباً ليخرج كي يتناول العشاء، لكن الذكرى المشؤومة لمناديل المطعم، البيضاء مثل أكفان، المزهريات البلاستيكية البئيسة فوق الموائد، وخاصة ذلك التهديد المستمر من سمك المخادع، جعلته يغير رأيه. إنّ مدينة بخمسة ملايين نسمة تتوفر، طبعاً، على عدد مناسب من المطاعم، بضعة آلاف على الأقل، وحتى لو اضطر لإقصاء المطاعم الفخمة لسبب ما، وتلك التي لا تُطاق لسبب آخر، فإنه يتبقى لديه تشكيلة واسعة من الاختيارات، مثلاً، ذلك المكان الجميل حيث تناول الغداء اليوم رفقة ماريّا دا بّاش، الذي اختاره بالصدفة وهو يمرُّ من هناك، لكنّ احتمال أنْ يروه وحده الآن بعد أن كان في رفقةٍ جميلةٍ من قبل لم يرُق لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. قرّر، إذن، ألّا يخرج وأن يأكل أي شيء، وفق التعبير المتداول، ثم يذهب لينام مبكراً في سريره. لن يكون بحاجة لأن يفتحه، لأنه كان ما يزال كما تركاهُ، الأغطية مجعدة، ورائحةُ حُبّهما باردة. فكّر أنه من اللائق أن يتصل بماريّا دا بّاش، يقول لها كلمة لطيفة، يبتسم لها ابتسامة ستشعر بها لا محالة في الجهة الأخرى. صحيحٌ أن العلاقة بينهما على وشك أن تنتهي بين يوم وآخر، لكن هناك واجبات حساسية ضمنية لا يمكن ولا يجبُ إهمالها؛ قد يكون إظهاراً لقدر كبير من عدم الإحساس، حتى لا نقول فظاظة أخلاقية لا تغتفر، أنْ يتصرّف كما لو أنه في هذه الشقة، هذا الصباح، لم تحدث بعض الأفعال الممتعة، الصّحية والمُسلّية التي، مثل النوم، يكون السرير لها ركحاً وساحةً للعمليات.

أنْ يكون ذكَراً لا يجب أن يمنعه من أن يتصرّف مثل رجل شريف. ليس لدينا أدنى شك في أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو سيتصرف بهذا الشكل، مهما بدا غريباً في أول وهلة، لو أن ذكرى ماريّا دا بّاش تحديداً لم تعدهُ إلى هاجسه المسيطر في الأيام الأخيرة، أي كيف يجد دانييل سانتا كلارا. فالنتيجة السلبية التي أسفرت عنها محاولات اتصالاته الهاتفية لم تترك له من سبيل غير كتابة رسالة إلى الشركة المنتجة، ما دام من المستبعد تماماً أن يتقدم شخصياً، بلحمه ودمه، فيجازف بأن يسأله الشخص الذي يطلب منه معلومات، **كيف** حالك، سيد دانييل سانتا كلارا. إنّ اللجوء إلى تنكُّرٍ، إلى المزيفات الكلاسيكية من لحيةٍ وشاربٍ وشعرٍ مستعار، بالإضافة إلى أنها مثيرة للضحك، قد يكون أكثر من سخيف، وقد يجعله يشعر بأنه ممثل رديء في ميلودراما من القرن الثامن عشر، مثل أبٍ نبيل أو شخص ساخر في الفصل الرابع، وبما أنه كان يخشى دائماً أن تجعل منه الحياة هدفاً لمزاح من الذوق السيّئ كعادتها، فقد كان على يقين أنّ شاربه ولحيته قد ينفصلان في اللحظة التي يسأَلُ فيها عن السيد دانييل سانتا كلارا وأنّ الشخص الذي يتلقى السؤال سينفجر ضاحكاً وينادي زملاءه ليتسلوا معه، **مزحة** جميلة، مزحة جميلة، تعالوا لتروا السيد دانييل سانتا كلارا يسأل عن نفسه. وعليه فقد كانت الرسالة هي الوسيلة الوحيدة، الأكثر أماناً على أكثر من مستوى، كي يبلغ أهدافه، شريطة ألّا يكتب عليها اسمه ولا يذكُر فيها عنوانهُ. يمكن أن نُقسمَ أنه فكّر في الآونة الأخيرة في هذه الفوضى من التكتيك، لكنه فعل ذلك بطريقة مشتتة ومضطربة يصعب معها أن نصف بالتّفكير هذا العمل الذهني الذي كان بالأحرى عبارة عن تذبذب، وتسكع لشظايا مترددة من الأفكار التي بالكاد كانت تفلح في أن تتناسق

وتنتظم بطريقة مناسبة، وهذا هو السبب الذي يجعلنا نتحدث عنها هنا والآن فقط. إنّ القرار الذي اتخذه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو للتو يتميز ببساطة محيرة، وشفافية مثل وضوح الشمس عند منتصف النهار. أما الحسُّ السليم الذي دخل للتو من الباب فليس مع هذا الرأي، يسأل، غاضباً، **كيف** يعقل أن تُولدَ فكرة كهذه في ذهنك، **إنها** الفكرة الوحيدة وهي الأحسن، أجابه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بكل برودة، **ربما** تكون الوحيدة، ربما تكون الأحسن، لكن، إن كان يهمُّكَ رأيي، قد يكون أمراً مخزياً لك أن تكتب تلك الرسالة باسم ماريّا دا بّاش، وتقدم عنوانها لتلقّي الجواب، **أمرٌ** مخزٍ، لماذا، **كم** أنت بائس إنْ كنت بحاجة لأن أشرح لك، **هي** لن ترى مشكلة في ذلك، **وكيف** تعرف أنه لن ترى مشكلة في ذلك إنْ لم تكلمها في الموضوع بعد، **لديَّ** أسبابي، **إنّ** أسبابك، يا صديقي العزيز، معروفة أكثر من اللازم، وتسمى اعتداد ذكَرٍ، غرور غاوٍ، خيلاء فاتح، **أنا** ذكرٌ، حقاً، وهذا هو جنسي، لكني لم أر قط ذلك الغاوي منعكساً في المرآة، أما الفاتح، فمن الأفضل ألا نتحدث عنه، إن كانت حياتي كتاباً، فهذا فصل من الفصول التي تنقصه، **يا** لها من مفاجأة عظيمة، أنا لا أفتحُ، أنا المفتوح، **وأي** تفسيرٍ ستقدم لها بأنك تكتب رسالة تطلب فيها معلومات عن ممثلٍ، **لن** أقول إنني مهتم بمعرفة معلومات عن ممثلٍ، **وماذا** ستقول إذن، **إن** الرسالة تتعلق بالدراسة التي حدّثتُها عنها، **أية** دراسة، **لا** تجبرني على تكرار ذلك، **مهما** يكن، هل تظن أنه يكفي أن تطقطق أصابعك كي تأتي ماريّا دا بّاش مهرولة لتلبّي نزواتك، **أكتفي** بأن أطلب منها خدمة، **في** النقطة التي وصلتْ إليها علاقتُكما خسرتَ الحقّ في أن تطلب منها خدمات، **قد** لا يكون مناسباً أن أوقّع الرسالة باسمي الشخصي، **لماذا**، **لا** تُعرف

أية عواقب يمكن أن تنتج عن ذلك في المستقبل، **ولماذا** لا تستعمل اسماً مزيفاً، **قد يكون** الاسم مزيفاً، لكن العنوان ينبغي أن يكون حقيقياً، **ما** زلتُ أعتقد أنه يجب عليك أن تضع حداً لحكاية الأشباه، التوائم والنسخ هذه، **ربما** يجب عليّ ذلك، لكني لا أستطيع، إنه أمر أقوى مني، **لديّ** الانطباع بأنك شغّلتَ آلة مُفتِّتة تتوجه نحوكَ، حذّره الحس السليمُ، وبما أنّ مخاطَبَه لم يُجب، انسحب يحرّكُ رأسه، حزيناً لنتيجة الحديث. ركّبَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو رقمَ هاتف ماريّا دا بّاش، ربما ستجيبه أمها، وسيكون الحوار القصير عبارة عن كوميديا من التظاهر، غريبة مع شيء من إثارة العواطف، **هل** ماريّا دا بّاش موجودة، سيسألُ، **من** يريد أن يتحدث معها، **صديق**، **ما** اسمُكَ، **قولي** لها إنه صديق، ستعرف من يكون، **ابنتي** لها أصدقاء آخرون، **لا** أظنُّ أن لها عدداً كبيراً منهم، كثيرون كانوا أم قلة، أصدقاؤها لهم أسماء، **إذن**، أخبريها أنني ماكسيمو. منذ ستة أشهر على علاقته بماريّا دا بّاش، لم يضطر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليتصل بها في بيتهم ليجد في كثير من المناسبات أمها في الجهة الأخرى من الخط، لكن في كل مرة كان فحوى كلام الأم ونبرة صوتها يطبعهما الشك وصبرٌ غير متحكم فيه من جهته، هي ربما لأنها لم تكن على علم بعلاقتهما كما كانت ترغب في ذلك، وهو أكيد لأنه كان متضايقاً لأنها تعرف كل ذلك. لم تكن الحوارات السابقة مختلفة جداً عن المثال المعروض هنا، بل كانت فقط نموذجاً أكثر حدّة مما كان يمكن أن يقع ولكنه في النهاية لم يقع لأن ماريّا دا بّاش هي من ردّت على المكالمة، ومع ذلك فإن هذا الحوار، وكل الحوارات الأخرى من دون استثناء كان بالإمكان إدراجها تماماً في الفصل الذي يحمل عنوان «سوء تفاهم متبادل في الكتاب المفضل

للعلاقات الإنسانية». كنتُ أظنُّ أنكَ لن تتصل بي، قالت ماريّا دا بّاش، **كما** ترِيْن، كنتِ مخطئة، ها أنا ذا، **ربما** كان صمتُكَ يعني أن هذا اليوم لم يمثل لك نفس ما يمثله بالنسبة لي، **ما** مثّلَهُ فقد مثّله لنا معاً، **لكن** ربما ليس بنفس الطريقة ولا لنفس الأسباب، **تُعوزنا** الأدوات لقياس هذه الفروق، إنْ كانت هناك فروق، **أما** زلتَ تحبُّني، **نعم**، ما زلتُ أحبكِ، **إنكَ** لا تعبّر عن ذلك بحماس كبير، لم تقم سوى بتكرار ما قلتُه من كلمات، **اشرحي** لي لماذا لا يمكن أن تكون هذه الكلمات صالحة لي أنا أيضاً، **لأنها** إنْ كُرّرت تفقد جزءاً من قوة الإقناع التي قد تملكُها لو قيلت لأول مرة، **طبعاً**، تصفيقات لصاحبة الفكر الخلاق والتحليل الدقيق، **قد** تعرفُ ذلك أيضاً لو خصّصت وقتك لقراءة الأدب التخييلي، **كيف** تريدين أن أشرع في قراءة التخييل، الروايات، القصص، أو أي شيء شئتِ، إنْ كنتُ لا أجد وقتاً لقراءة التاريخ، الذي هو عملي، وها أنا الآن أصارع من أجل قراءة كتاب أساسي حول حضارات بلاد الرافدين، **لاحظتُ** ذلك، كان على طاولة السرير، **لقد** رأيتِ ذلك، **على** أيّ، لا أظنُّ أنه ينقصك الوقت إلى هذا الحد، **إنْ** كنتِ تعرفين حياتي، لن تقولي ذلك، **ساعرفُها** لو سمحتَ لي بمعرفتها، **إنّنا** لا نتحدث عن ذلك، بل عن حياتي المهنية، **أكثر** من رواية قد تقرأها في ساعات فراغك، لولا ما يصيبك من ضررٍ جرّاء تلك الدراسة المعروفة التي أنت منخرط فيها، وكل تلك الأفلام التي تشاهدها. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد أدرك أن المنحى الذي اتخذه الحديث لا يناسبه، وأنه كان يبتعد أكثر فأكثر عن هدفه، أن يُدرِج فيه، بأكبر عفوية ممكنة، مسألةَ الرسالة، والآن، للمرة الثانية في هذا اليوم، كأن الأمر يتعلق بلعبٍ آلي من الأفعال والردود، فإن ماريّا دا بّاش نفسها

عرضت عليه للتو الفرصة، على طبق من ذهب تقريباً. ومع ذلك، عليه أن يكون حذراً، ألّا يجعلها تفكر في أن سبب الاتصال هو المصلحة فقط، وأنه في النهاية لم يتصل بها فقط ليتحدث عن العواطف، أو حتى عن اللحظات الجميلة التي جمعتهما معاً في السرير، إنْ كان لسانه يرفض أن ينطق بكلمة حُبّ. صحيحٌ أن الأمر يهمني، قال، بلطف، لكن ليس للدرجة التي تعتقدين، **لا** أحد قد يقول ذلك وهو يراك كما رأيتُك أنا، أشعثَ الشعر، بروبٍ وخُفّيْن، لحية غير محلوقة، تحيط بك أشرطة الفيديو من كل الجوانب، لا تشبه في شيء ذلك الرجل العاقل الذي كنتُ أظنُّ أنني أعرفُه، **كنتُ** على راحتي، وحيداً في البيت، هذا أمر مفهوم، لكن ما دمت تتحدثين عن هذا الموضوع، خطرت لي فكرة يمكن أن تسهل العمل وتُعجّل به، **أتمنى** ألا يكون قصدك هو أن تطلب مني أن أشاهد أنا أيضاً أفلامكَ، لأنني لم أفعل شيئاً يستحق هذا العقاب، **كوني** مطمئنة، فغرائزي المتوحشة لا تصلُ إلى هذا الحد؛ إنّ الفكرة، بكل بساطة، هي أن نكتب للشركة المُنتجة نطلب منها مجموعة من المعطيات الملموسة المتعلقة خصوصاً بشبكة التوزيع، تحديد مكان قاعات العرض وعدد المشاهدين عن كل فيلم، أظن أن ذلك سيكون مفيداً لي وسيساعدني في الخروج ببعض الاستنتاجات، **لا أرى** جيداً ما علاقة هذا بالإشارات الإيديولوجية التي تبحثُ عنها، **ربما** لا تكون العلاقة بقدر ما أتصوّرُ، ولكن أريد أن أحاول، **أنتَ** أدرى، **نعم**، لكن ثمة مشكلة صغيرة، **ما** هي، **لا** أريد أن أكون أنا من يكتبُ هذه الرسالة، **ولماذا** لا تذهب شخصياً إلى هناك، ثمة أمور لا تُعالج بشكل أحسن من خلال لقاءٍ وجهاً لوجه، وأراهنُ على أنهم سيشعرون بالسعادة وهم يرون أستاذاً لمادة التاريخ يهتمُّ بما ينتجونه

من أفلام، **هذا** بالضبط ما لا أريده، أن أخلط مؤهلاتي العلمية والمهنية بدراسة توجد خارج مجال تخصّصي، **لماذا**، **لا** أعرف كيف أشرح ذلك، ربما تكون مسألة ضمير، **إذن** لا أرى كيف ستحلُّ صعوبةً أنت نفسك من يخلقها، **يمكنُ** لكِ أنت أن تكتُبي الرسالة، **هذه** فكرة حمقاء تماماً، اشرَحْ لي كيف أستطيعُ أن أكتب رسالة حول موضوع غامض بالنسبة لي غموضَ اللّغة الصينية، **عندما** أقول إنكِ ستكتبين الرسالة، فما أقصد هو أنها ستُكتبُ باسمك ومع عنوانك، وهكذا أبقى أنا في منأى عن أي فضول، **ولن** يكون هذا خطيراً، أفترض أنه في هذه الحالة لن يكون شرفك موضع شك ولا كرامتُك، **لا** تتهكّمي مني، لقد قلتُ لك إنها مسألة ضمير فقط، **نعم**، لقد قلت لي ذلك، **ولا** تصدّقينني، **أصدقُكَ**، نعم، لا تشغل بالك، **ماريّا دا بّاش**، **نعم**، **أنتِ** تعرفين أنني أُحبّكِ، **أعتقدُ** أنني أعرف ذلك حين تقولُ لي ذلك، وبعدها أتساءل إنْ كان حقيقة، **إنه** حقيقة، **وهذه** المكالمة جاءت لأنك كنت متلهفاً لتقول لي ذلك، أم لتطلب مني أن أكتب تلك الرسالة، **جاءت** فكرة الرسالة أثناء الحديث، **نعم**، لكن لا تحاول أن تجعلني أظن أنها خطرت لك ونحن نتحدث بالضبط، **صحيح**، كنتُ قد فكرتُ فيها بشكل عابر من قبل، **بشكل** عابر، **نعم**، بشكل عابر، **ماكسيمو**، **نعم** عزيزتي، **يمكن** أن تكتبَ رسالتك، **أشكركِ** على قبول ذلك، في الحقيقة، كنتُ أعتقد أن أمراً بسيطاً كهذا لن يزعجكِ، **الحياةُ**، عزيزي ماكسيمو، علّمتْني أنْ ليس هناك من أمرٍ بسيط، وأنه يبدو فقط أحياناً كذلك، وأنه كلما بدت الأمور بسيطة علينا أن نتوخى الحذر، **ها** أنتِ مُتشكّكة، **ما** من أحد يولد مُتشكّكاً، حسب علمي، **إذن**، ما دمت توافقين، سأكتُب الرسالة باسمكِ، **أظنُّ** أنه يجب أن أوقّعها، **لا** أعتقد أن ذلك يستحق

العناء، سوف أبتكر توقيعاً، **على** الأقل، يشبه توقيعي، **لم** أكن قط موهوباً في فن الخطّ، لكن سأقوم بأحسن ما لديّ، **كن** حذراً، راقب نفسك، لأنه عندما يبدأ شخص ما بالتزييف لا يُعرف إلى أي حد سيصل، **التزييف** ليس هو المصطلح الدقيق، بل تقصدين التزوير، **شكراً** على التصويب، عزيزي ماكسيمو، كنتُ أرغب فقط في كلمة تستطيع أن تُعبّر عن معنى تيْنك الكلمتيْن معاً في الوقت ذاته، **حسب** علمي، لا توجد كلمة واحدة تجمع وتصهر معنى التزييف والتزوير، **إنْ** كان الفعل موجوداً، فينبغي أن توجد له كلمة، **الكلمات** التي لدينا توجد في المعاجم، **كلُّ** المعاجم مجتمعة لا تحوي ولا نصف المصطلحات التي قد نحتاج إليها للتفاهم فيما بيننا، **مثلاً، مثلاً**، لا أعرف الكلمة التي يمكنُها أن تعبّر في هذه اللحظة عما يخالج نفسي من تداخل واضطراب في الأحاسيس، **أحاسيس** لها علاقة بماذا، **ليس** بماذا بل بمَن، **بي** أنا، **نعم**، بكَ أنتَ، **أتمنى** ألا يكون شيئاً سيئا، **هناك** طرفٌ من كل شيء، كما عند العطّار، لكن اطمئن، لن أستطيع أن أشرح لك مهما حاولتُ، **سنعود** إلى هذا الموضوع مرة أخرى، **هل** تقصد أن حديثنا وصل إلى نهايته، **هذه** لم تكن هي كلماتي ولا هذا هو معناها، **حقاً** لا، سامحني، **على** أيّ، بالتفكير ملياً، يستحسن أن نترك الأمر هنا، من الواضح أن هناك توتراً زائداً بيننا، يتطاير الشرر مع كل كلمة تخرج من فمنا، **لم** يكن ذلك هو قصدي، **ولا** قصدي أنا أيضاً، **لكنه** كان كذلك، **نعم**، كذلك كان، **لذلك** سنودع بعضنا كطفليْن وديعيْن كما نحن، نتمنى لبعضنا ليلة سعيدة وأحلاماً لذيذة، إلى أن نلتقي في يوم من الأيام، **اتّصلْ** بي متى شئتَ، **سيكون** كذلك، ماريّا دا بّاش، **ما** زلتُ أنا هو أنا، **أُحبّكَ**، **لقد** قلتِ لي ذلك من قبل.

بعد أن وضع السّماعة، مرّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كف يده على جبينه المُتصبّب عرقاً. كان قد بلغ مبتغاهُ، ولا بدّ أنه لا تعوزه أسبابٌ ليكون راضياً، لكن ماريّا دا بّاش لم تكفَّ عن تسيير ذلك الحوار الطويل والشاق، حتى عندما لم تكن تبدو كذلك، فأخضعتهُ لإهانة مستمرة لم تكن تُترجَمُ صراحة إلى كلمات ينطق بها هذا أو ذاك، لكنها، مع ذلك، كانت تترك في فمه مذاقاً أكثر فأكثر مرارة، كما يُقال عادة عن الهزيمة. كان يعرف أنه قد انتصرَ، لكنه يدرك أيضاً أنّ الانتصار كان ينطوي على جزء من الوهم، كما لو أنّ أي تقدُّم أحرزه لم يكن سوى نتيجة لتراجع تكتيكي من العدو، جسور ذهبية وضعت بمكر حتى تجذبه على أنغام الطبول والأبواق وكل الرايات المبسوطة حتى نقطة ربما سيكتشف نفسه فيها محاصراً من دون حلّ. حتى يحقق أهدافه، كان قد طوّق ماريّا دا بّاش بشبكة من خطاباته المخادعة، الماهرة في التخطيط، لكن، في النهاية، الحبال التي كان يظنُّ أنه أوقعها فيها كانت تعيق حركاته هو. خلال ستة أشهر من علاقتهما، حتى لا يرتبط بها أكثر من اللازم، كان قد ترك عن وعي ماريّا دا بّاش على هامش حياته الخاصة، والآن، وقد قرر أن يضع حداً لعلاقتهما وفي انتظار اللحظة المناسبة، وجد نفسه مضطراً ليس فقط ليطلب مساعدتَها، بل أيضاً أن يجعلها تشاركه في أفعال كانت تجهل تماماً مصدرها، سببها وهدفها. قد يتهمه الحسُّ السليم بأنه انتهازي لا ضمير له لكنه سيرُدّ عليه أن الوضعية التي يعيشها فريدة في العالَم، وأنه لم تكن هناك من سوابق يمكن أن تضع قواعدَ تصرّف مقبولة اجتماعياً، وبما أنه لم يسبق لأي قانون أن نظر في الحالة الغريبة لتكرار شخص معين، فإن عليه هو، تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أن يبتكر، في كل مناسبة، الإجراءات، القانونية

أو غير القانونية، التي تقوده إلى تحقيق أهدافه. لم تكن الرسالة إلا واحداً من تلك الإجراءات، ولكتابتها كان لا بدَّ من استغلال ثقة المرأة التي يقول إنه يحبُّها، والجريمة لم تكن خطيرة جداً، فقد قام آخرون بأشياء أفظع من ذلك ولا أحد طالب بعقابهم أمام الملأ.

وضعَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ورقة في الآلة الكاتبة وأخذَ يفكّر. يجب أن تبدو الرسالة كأن كاتبتها امرأة معجبة، ينبغي أن تكون متحمسة، لكن من دون مبالغة، لأن الممثل دانييل سانتا كلارا ليس بالضبط نجماً سينمائياً قادراً على أن يثير عبارات جموح، ويجب، مبدئياً، أن تتخلى عن طقس طلب صورة فوتوغرافية مُوقّعة، لأن ما يهمّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو أن يعرف أين يسكن، اسمه الحقيقي، إنْ كان دانييل سانتا كلارا، كما يشير كل شيء، اسماً مستعاراً لرجُلٍ ربما يسمّى هو أيضاً تيرتوليانو. بعد إرسال الرسالة، قد ينتج عن ذلك فرضيتان ممكنتان، إما أن تجيبه الشركة المنتجة مباشرة وتقدم له ما طلب من معلومات، وإما أن تقول إنه غير مسموح لها بأن تقدم المعلومات المطلوبة، وستقوم، في هذه الحالة، على الأرجح، ببعث الرسالة إلى المرسل إليه الحقيقي. هل سيكون الأمر كذلك، تساءل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. جعله تفكيرٌ سريع يرى أن الفرضية الأخيرة هي الأقل احتمالاً لأنها قد تنمُّ عن احترافية متدنية وكثير من عدم التقدير من طرف الشركة في حق ممثليها وهي تثقلهم بتكاليف الرد على الرسائل وإرسال الصور. ليت الأمر يكون كذلك، همهم، وقد ينهار كل شيء إذا ما أرسل الممثل جواباً شخصياً إلى ماريّا دا بّاش. لمدة لحظة واحدة، شعر كأنه يرى كلّ أوراق الحصن الذي ظل يشيده منذ أسبوع بكل عناية وحرص تتهاوى في صخب، لكن المنطق الإداري، بالإضافة إلى وعيه بأنه لا وجود لسبيل آخر،

ساعداه على استرجاع معنوياته المهزوزة. لم يكن تحرير الرسالة بالشيء الهين، مما يفسر أن جارته في الطابق العلوي سمعت صوت طرقِ الآلة الكاتبة لأكثر من ساعة. في لحظة ما، رنّ الهاتفُ، وظلّ يرنُّ بإلحاح، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يُجب على المكالمة. لا بدّ أنها كانت ماريّا دا بّاش.

استيقظَ في وقت متأخر. كانت ليلة مضطربة، تخللتها أحلامٌ عابرة، اجتماعٌ لمجلس الثانوية غاب عنه كل الأساتذة، ممرٌّ من دون مخرج، شريطُ فيديو يرفضُ أن يدخل في آلة القراءة، قاعةٌ سينمائية بشاشةٍ سوداء تعرض فيلم جرائم، دليلُ هاتف كامل يضم نفس الاسم الذي يتكرّر في كل سطر من سطوره، لكنه لا يستطيع قراءته، طردٌ بريدي بداخله سمكة، رجل يحملُ صخرةً على ظهره ويقول أنا آموري، معادلةٌ جبرية بها وجوه آدمية حيث من المفروض أن تكون الحروف. الحلمُ الوحيد الذي استطاع أن يتذكره بشيء من الدقة هو ذاك الذي يظهر فيه طردٌ بريدي، لكنه لم يستطع أن يحدد نوع السمكة، والآن، بعد أن استيقظ على نحو سيّئ، كان يهدئ نفسه وهو يفكر أنه، على الأقل، لا يمكن أن يكون سمكَ المخادع، لأن علبة لا تتسع لسمك المخادع. نهض بصعوبة، كما لو أن جهداً بدنياً مفرطاً وغيْرَ معتادٍ جمّد مفاصل جسده، ثم ذهب إلى المطبخ ليشرب ماء، كأساً ممتلئة عبّها بلهفةٍ منْ أكلَ طعاماً مالحاً. كان به جوع، لكنه لم يكن يرغب في تحضير وجبة الفطور. عاد إلى الغرفة ليرتدي الرّوب ثم توجّه إلى الصالة. كانت الرسالة الموجهة إلى الشركة المنتجة على طاولة المكتب، وكانت هي المحاولة الأخيرة والحاسمة

ضمن عديد من المحاولات التي كانت تفيض بها تقريباً سلّة المهملات. قرأها مرة أخرى فبدا له أنها تخدمُ الأهداف المسطرة، لا تكتفي بطلب صورة للممثل مع إهدائه وتوقيعه، بل تطلب أيضاً، بالمناسبة، عنوانه أيضاً. مع إشارة ختامية، لم ير تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مانعاً في اعتبارها تطوراً مفاجئاً واستراتيجياً من الدرجة الأولى، لأنها تلمح إلى الضرورة الملحّة لإنجاز دراسة حول أهمية الممثلين الثانويين، الأساسية جداً في مسار حركة الفيلم، حسب كاتبة الرسالة، تماماً مثل أهمية الروافد الصغيرة في تشكيل الأنهار الكبيرة. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يعتقد أن نهاية مجازية وغامضة كهذه قد تقضي نهائياً على إمكانية أن تبعث الشركة بالرسالة إلى ممثل، رغم أن اسمه بدأ يظهر مؤخراً في مقدمة الأفلام التي يشارك فيها، ظل مع ذلك ضمن جحافل الممثلين المعتبرين من الرتب الدنيا، الثانويين والتكميليين، ما يشبه شراً لا بدّ منه، عقاباً لا يمكن ردّه، يثقلُ الميزانية، حسب رأي المنتج. لو أن دانييل سانتا كلارا توصل برسالة حُرّرت وفق هذا الأسلوب، فإنه من الطبيعي جداً أن يبدأ في التفكير في مطالب تتعلق بالأجر والوضع الاجتماعي وفق ما يتناسب ومساهمته بوصفه رافداً من روافد نهر النيل ونهر الأمازون التي تتصدر ملصقات الأفلام. وهذا الفعلُ الفردي، الذي ينطلق بالدفاع عن الرفاهية الأنانية لمن يطالب بها، سيتضاعف، سيتّسع، وسينتشرُ في فعل تضامني وجماعي، وحينها سوف ينهار هرم الصناعة السينمائية مثل أي حصن ورقي آخر ونحن سوف نستمتع بحظ مذهل، أو، بالأحرى، بالامتياز التاريخي في معاينة نشأة تصوُّرٍ جديد وثوري في مجال الفرجة والحياة. لكن، ليس هناك من خطر يذكر في حدوث كارثة كهذه. فالرسالة التي تحمل توقيع امرأة اسمها ماريّا دا بّاش

سوف تُنقل إلى القسم المناسب، وهنالك سيقوم موظفٌ بلفت انتباه الرئيس إلى التلميح المقلق المتضمن في الفقرة الأخيرة، ومن دون إضاعة أي وقت سيقوم الرئيس برفع الورقة الخطيرة إلى رئيسه المباشر، وفي ذلك اليوم بالضبط، قبل أن ينتشر الفيروس في الشارع، من دون قصد، سيطلبُ من الأشخاص القلائل ممن يعلمون بالقضية أن يلزموا صمتاً مطبقاً، وسيُكافؤون على ذلك بزيادات مهمة في تعويضاتهم. سيبقى معلقاً قرارُ أمر الرسالة وما يجب العمل بها، هل يُلَبّى طلبُ صورة تحمل توقيع الممثل مع تقديم عنوان إقامته، الأول أمرٌ روتيني لكن الثاني شيء ما غريب، أو فقط يتصرفون كما لو أن الرسالة لم تكتب قط أو أنها ضاعت في فوضى البريد. وسيشغلُ نقاشُ مجلس الإدارة حول الموضوع اليومَ بكامله واليومَ الموالي، ليس لأنه كان من الصعب التوصُّل إلى إجماع مبدئي، بل لأن كل العواقب المتوقعة كانت موضع تقييم مطول، ليس وحدها فحسب، بل هناك عواقب أخرى تولدت عن خيالات مريضة. وسيكون النقاش النهائي راديكالياً وبارعاً في الوقت ذاته. راديكالياً لأن النّار ستأكلُ الرسالة عند نهاية الاجتماع، وكل أعضاء المجلس يتنفسون الصعداء، وبارعاً لأنه يُلبّي الطّلبيْن معاً بطريقة تضمن رضا مضاعفاً لصاحبة الطلب، الأول، روتيني كما قيل من قبل، والثاني، من دون أي تحفّظ، **استجابةً** للاعتبار الخاص الذي أوليناه لرسالتكِ، وفق التعابير المستعلمة التي تُبرز الطابع الاستثنائي للمعلومات المدلى بها. ولم يكن من المستبعد أيضاً أن تتعرف ماريّا دا بّاش هذه في يوم من الأيام على دانييل سانتا كلارا، الآن وهي ستحصل على عنوانه، لتحدثه عن أطروحتها بخصوص الأنهار الروافد المطبقة على توزيع الأدوار في الفنّ الدرامي، لكن، وكما بيّنت تجربةُ التواصل بشكل

مستفيض، فإنّ قدرة تعبئة الكلمة الشفهية، وإن كانت لا تقل أهمية عن الكلمة المكتوبة، فإن مداها التاريخي أكثر محدودية لأنه مع تكرار الخطاب فإن نَفَسَها يتعبُ بسرعة وتتلاشى الأهداف. ولا نرى من سبب آخر لوجود كل القوانين التي تحكمنا في صيغة مكتوبة. لكن، إنْ كُتِب لهذا اللقاء أن يحدُث ولهذا الموضوع أن يُناقش، فإنه من الأرجح ألّا يعير دانييل سانتا كلارا لأطروحة ماريّا دا بّاش حول الروافد إلا اهتماماً ساهياً ويوجّه الحديث نحو مواضيع أقلّ جفافاً ولنحظ بالعفو إن نحنُ وقعْنا في تناقض سافرٍ كهذا، بما أننا كنا نتحدث عن الماء والأنهار التي تحملُه.

بعد أن وضع أمامه الرسائل التي كانت ماريّا دا بّاش قد كتبتها له قبل مدة، وبعد عدة تجارب قام بها ليطلق يدهُ ويدرّبها، ختَم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بأحسن توقيع وأكثره أناقة. قام بذلك احتراماً لرغبةٍ نوعاً ما حزينة وطفولية كان قد عبّر عنها، وليس لأنه يؤمن بإتقان أكبر في تزوير يمكن أن يمنح مزيداً من المصداقية لوثيقةٍ سوف تختفي من هذا العالم وقد صارت رماداً، كما أُعلن عن ذلك بشكل مناسب من قبل. قد نرغب في القول، كل هذ العمل من أجل لا شيء. ها قد أصبحت الرسالة داخل الظرف، الطابع البريدي في مكانه، ولم يتبق الآن سوى النزول إلى الشارع ووضع الرسالة في صندوق البريد عند الزاوية. وبما أن اليوم أحد، فإن سيارة مصلحة البريد لن تمرَّ لجمع المراسلات، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يتلهف ليتخلص من الرسالة في أقرب وقت ممكن. وما دامت هنا، هذا هو الإحساس القوي الذي ينتابه، فإن الوقت سيظل متوقفاً كأنه ركح مقفر. ونفس القلق المتوتر ينتُج عن طابور من أشرطة الفيديو على الأرض. يرغب في تنظيف المكان، ألّا يترك أثراً، لأن الفصل الأول انتهى، وحان

الوقت لسحب الديكور من الركح. انتهت أفلام دانييل سانتا كلارا وانتهى القلق، **هل** سيلعب في هذا الفيلم، **ألَنْ** يلعب، **هل** سيكون له شارب، **هل** سيشق شعره عند الوسط، انتهت العلامات الصغيرة أمام الأسماء، وانتهى اللغز المحير. لحظتها خطرت على باله تلك المكالمة الهاتفية التي أجراها مع أول شخص يحمل اسم سانتا كلارا في دليل الهاتف، ذلك البيت الذي لم يردّ فيه أحد على مكالمته. هل أحاولُ مرة أخرى، تساءل. لو فعل ذلك، لو أجابوه، وقالوا له إن دانييل سانتا كلارا يسكن هناك بالضبط، فإن الرسالة التي تطلبت منه عملاً ذهنياً شاقاً ستصبح غير ضرورية، يمكن التخلي عنها، يمكنه أن يمزقها، ويرميها في سلة المهملات، غير نافعة تماماً مثل المسودات الفاشلة التي مهدت له الطريق نحو الصيغة النهائية. أدرك أنه بحاجة إلى وقفة، إلى فترة راحة، ولو لأسبوع واحد أو اثنين، في انتظار أن يصل ردُّ الشركة المنتجة، الوقت الذي سيتظاهر فيه بأنه لم ير قط فيلم «الإلحاحُ هو سرّ النجاح» ولا موظف الاستقبال في الفندق، وهو يعلم مع ذلك أن ذلك الهدوء الزائف وتلك الطمأنينة الظاهرة لهما حدٌّ، أجلٌ معلوم، وأنّ الستار، عندما تحين الساعة، سيُرفع معلناً لا محالة عن بداية الفصل الثاني. لكنه أدرك أيضاً أنه إن لم يقم باتصال آخر فسيظل انطلاقاً من تلك اللحظة مشدوداً إلى هاجس أنه تصرف على نحو جبان في نزالٍ لم يتحدّهُ فيه أحد وأنه، بعد أن تسبب فيه، دخل فيه بمحض إرادته الوحيدة والحصرية. البحثُ عن رجلٍ يُدعى دانييل سانتا كلارا الذي لم يكن ليتخيل أنهم يبحثون عنه، تلك هي الوضعية العبثية التي خلقها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، التي تناسب أكثر حبكة رواية بوليسية من دون مجرم معروف له ما يبرره في حياة لا اضطراب فيها لحدّ الساعة لأستاذٍ في مادة التاريخ. وهو بين المطرقة

والسندان، توصّل إلى اتفاق مع نفسه، **سأتّصلُ** مرة أخرى، إنْ ردُّوا على مكالمتي وقالوا إنه يسكن هناك، أرمي الرسالة وأنتظر في حذر، بعد ذلك سأرى إن كنتُ أتكلّمُ أو لا أتكلّمُ، لكن، إنْ لم يردُّوا على مكالمتي، فستتابع الرسالة وجهتها، ولن أتصل مرة أخرى، مهما حدث. الإحساسُ بالجوع الذي شعر به إلى غاية تلك اللحظة عوّضَهُ ما يشبه خفقاناً متوتراً في معدته، لكنه كان قد اتخذ قراره ولن يقوم بأي خطوة إلى الوراء. رُكّبَ الرقمُ ورنّ الهاتف هناك بعيداً، فبدأ العرق ينزل بطيئاً على وجهه، الهاتف يرنُّ ويرنُّ، كان من الواضح أنه ما من أحد في البيت، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كان يتحدى القدَر، يمنح خصمه آخر فرصة وهو لا يضع السماعة، إلى أن تحولت تلك الرنّات إلى إشارة صارخة على الانتصار وصمتَ الهاتفُ المتصَل به من تلقاء نفسه. حسناً، قال بصوتٍ عال، حتى لا يُقال عنّي إنني لم أبذل قصارى جهدي. وفجأة، شعر بالسكينة كما لم يشعر بها منذ مدة طويلة. لقد بدأ وقت راحته، وبوسعه أن يدخل إلى الحمام هادئ البال، يحلق لحيته، ينظف نفسه من دون عجلة، يرتدي ملابسه بعناية، فأيام الأحد غالباً ما تكون حزينة، مضجرة، لكن منها ما يسعدنا وجودُها في هذا العالَم. كان الوقت متأخراً لتناول الفطور، وباكراً لتناول وجبة الغداء، وكان لا بدّ من تزجية الوقت بطريقة ما، يمكنُه أن ينزل ليشتري الجريدة، يمكنُه أن يلقي نظرة على درس يوم الغد، يمكنُه أن يجلس ليقرأ بضع صفحات أخرى من كتاب تاريخ حضارات بلاد الرافدين، يمكنُه، يمكنُه، ولحظتها اشتعل ضوء في ركن قَصيّ من ذاكرته، فتذكّر حلماً من أحلام تلك الليلة، ذلك الذي يظهر فيه رجلٌ يحمل حجراً على ظهره ويقول أنا آموري، قد يكون من المضحك أن يكون الحجر هو قانون حمورابي المعروف وليس أي

حجر عادي التُقط من الأرض، ومن المنطقي أن يرى المؤرخون أحلاماً تاريخية، ولهذا الغرض درسوا. أنْ يقودَه كتابُ تاريخ حضارات بلاد الرافدين إلى قانون حمورابي فلا غرو في الأمر، لأن ذلك كان انتقالاً طبيعياً جداً كمن يفتح باباً على الغرفة المجاورة، لكن أن يذكّرهُ حجرٌ على ظهر الآموري بأنه لم يتصل بأمه منذ أسبوع تقريباً، فإن حتى أكبر مُفسّر للأحلام قد لا يستطيع أن يشرحهُ لنا، إذا استبعدنا من دون شك ولا شفقة، لأنه قد يكون مجحفاً وسيّئ النية، ذلك التأويل البسيط الذي يقول إنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، خفية، دون أن يجرؤ على الاعتراف بذلك، يعتبرُ والدتهُ عبئاً ثقيلاً. المرأة المسكينة، هناك بعيداً جداً، من دون أخبار، الكتومة الحريصة جداً على احترام حياة ابنها، تصوّرُوا، أستاذ في الثانوية، قد لا تجرؤ على الاتصال به إلا في الحالات القصوى، يقطعُ عملاً يفوق فهمَها بطريقة ما، ليس لأنها لم تتلق أي تعليم، ليس لأنها لم تدرس التاريخ بدورها يوم كانت صغيرة، لكن ما كان دائماً يحيرها هو أنه يمكن تدريسُ التاريخ. عندما كانت تجلسُ في مقعدها في الثانوية وتسمع المعلمة تتحدث عن الماضي، كان يبدو لها أن كل ذلك مجرد تخيلات، وأنه إن كانت المعلمة تملكُها، فإنها هي أيضاً تستطيع أن تملكَها، وكانت تندهش من نفسها أحياناً وهي تتخيل حياتها الخاصة. أما أنْ تظهرَ أمامَها أحداثُ التاريخ مرتبة بعد ذلك في مقرر التاريخ، فإن ذلك لم يكن يغير شيئاً من فكرتها، لأن المقرر لا يقوم سوى بجمع الخيالات الحرة لمن كتبَها، وعليه فإنه لا يمكن أن توجد فروق كبيرة جداً بين تلك الخيالات وتلك التي يمكن قراءتُها في أي رواية من الروايات. إنّ أُمَّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، التي تسمّى كارولينا، واسمها العائلي ماكسيمو، وتظهرُ أخيراً هنا، تقرأ الروايات بانتظام وحماس.

وبهذه الصفة، تعرفُ كل شيء عن الهواتف التي ترنُّ أحياناً من دون أن ينتظرها أحد وعن تلك التي ترن أحياناً ونحن ننتظرها يائسين كي ترنَّ. لم يكن الأمر كذلك الآن، فأمُّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو تتساءل، **متى** سيتصل بي ابني، وها هو صوتُه قريب جداً من مسامعها، **صباح** الخير، أمي، كيف حالك، **بخير**، بخير، كالعادة، وأنتَ، **أنا** أيضاً، بخير كالعادة، **هل** كان لديكَ عمل كثير في الثانوية، **عملٌ** معتاد، تمارين، امتحانات، اجتماع الأساتذة، **ومتى** ستنتهي الدروس هذه السنة، **بعد** أسبوعيْن، بعد ذلك لديّ أسبوعان من الامتحانات، **هذا** يعني أنك قبل مضيّ شهر ستكون هنا معي، **سأذهب** لأراك، طبعاً، لكني لن أستطيع البقاء أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام، **لماذا**، **لأنه** ما تزال لديّ بعض الأمور التي ينبغي أن أرتبها هنا، وبعض الإجراءات، **أية** أمور هذه وأية إجراءات، فالثانوية تغلق من أجل العطلة، ووُجدت العطلة ليستريح الناس، **كوني** مطمئنة، سأستريح، لكن ثمة أمور ينبغي أن أحلّها أولاً، **وهل** هي أمور جدّية، **أعتقدُ** أنها كذلك، **لا** أفهمُ، إن كانت جدّية فهي جدّية فعلاً، ليس لأنك تظن أنها كذلك أو ليست كذلك، **كانت** طريقة في التعبير، **هل** لذلك علاقة بصديقتِكَ، ماريّا دا بّاش، **إلى** حد ما، **إنكَ** تبدو لي مثل شخصية من كتابٍ أنا بصدد قراءته، امرأة كلما سألوها تجيب بسؤال آخر، **لا** تنسيْ أنكِ أنتِ من تسألين يا أُمّي، أما سؤالي الوحيد فكان عن أحوالكِ، **لأنك** لا تُحدّثُني بكل وضوح وصراحة، تقول أعتقد ذلك، إلى حد ما، أنا لست متعوّدة على غموضك معي، **لا** تغضبي، **أنا** لستُ غاضبة، لكن يجب أن تفهم أنني أستغرب، بعد أن تبدأ عطلتك، تأتي مباشرة إلى هنا، ولا أذكر أن هذا حدث مرة، **سأحكي** لكِ كل شيء لاحقاً، **هل** ستقوم برحلة أخرى، **سؤال** آخر، **هل**

ستفعل ذلك أم لا ، **إنْ** كنتُ سأفعل ذلك فسوف أخبركِ، **ما لا** أفهم هو لماذا قلتَ إنّ ماريّا دا بّاش لها علاقة بهذه الأمور التي تجبركَ على البقاء، **ليس** كذلك تماماً، ربما أكون قد بالغتُ، **هل** تفكّرُ في الزواج مرة أخرى، **يا** لها من فكرة، يا أُمّي، **حسناً**، ربما ينبغي لك، **إنّ** الناس اليوم يتزوجون قليلاً، وأكيد أنكِ استنتجت ذلك من الروايات التي تقرئينها، **أنا** لستُ غبية، وأعرف أي عالم هذا الذي أعيش فيه، لكني أظنُّ أنه ليس من حقك أن تتماطل مع تلك الفتاة، **لم** أعدْها قطّ بالزواج ولم أقترح عليها يوماً أن نعيش معاً، **بالنسبة** لها علاقة تدوم لأكثر من ستة أشهر تعتبر وعداً، أنت لا تعرف النساء، **لا** أعرف نساء زمانِكِ، **وهل** تعرف نساء زمانِكَ، **هذا** ممكن، في الحقيقة، تجربتي مع النساء ليست بالكبيرة، تزوجتُ مرة وتطلقتُ، أما الباقي فلا يُحتسبُ، **هناك** ماريّا دا بّاش، هي أيضاً لا تُحتسبُ، **ألا** تدري أنكَ قاس، **قاس**، يا لها من كلمة وقورة، **أعرفُ** أنها تبدو مثل رواية رخيصة، لكن القسوة لها عدة أشكال، بل إن بعضها يتخذ قناع اللامبالاة أو الخمول، إن شئت أعطيتُك مثلاً، عدم اتخاذ القرار في الوقت المناسب يمكن أن يتحول إلى سلاح واع للاعتداء الذهني على الآخرين، **كنتُ** أعرفُ أن لديكِ مواهبَ مُحلّلة نفسيّة، لكني ما كنتُ أعلم أنها تبلغ كل هذا المدى، **لم** أدرس من علم النفس ولا سطراً واحداً في حياتي، لكني أعتقد أنني أعرف شيئاً ما عن طباع الناس، **نتحدثُ** عندما أذهب إلى هناك، **لا** تتركني أنتظر كثيراً، انطلاقاً من هذه الساعة لن أنعم بلحظة هدوء، **اطمئني**، من فضلك، لأن كل شيء يجد حلاً في هذا العالم بطريقة أو بأخرى، **أحياناً**، بطريقة أسوأ، **لن** يكون الأمر كذلك، **أتمنى** ذلك، **قبلاتي لكِ**، يا أمي، **قبلاتي لكَ**، يا ابني، اعتنِ كثيراً بنفسك، **سوف** أفعلُ. أدّى

قلقُ الأم إلى اختفاء ذلك الإحساس بالراحة الذي أنعش مجدداً روح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بعد ذلك الاتصال الهاتفي مع سانتا كلارا الذي لم يكن في بيته. كان الحديث مع أُمّه حول أمور جدية بعد انتهاء الدروس خطأً لا يُغتفر. صحيحٌ أن الحديث سرعان ما تحوّل نحو الكلام عن علاقته بماريّا دا بّاش، بل بدا لحظة أنه سوف يستقر هناك، لكن تلك الجملة التي نطقتْ بها الأُمُّ، **أحياناً** بطريقة أسوأ، حين قال لها وهو يطمئنُها، إنّ كل شيء له حلّ في هذا العالم، بدت له الآن نبوءةَ كارثةٍ، نذيرَ مصائب، كما لو أنه، عوض السيدة العجوز المسماة كارولينا ماكسيمو التي هي أمُّه، خرجت له في الجهة الأخرى من الخط عرّافة أو نذيرةُ شؤم تقول له، بعبارات أخرى، **ما** زال أمامك وقت كي تتوقف. لحظةً، فكّرَ أن يدخل إلى السيارة ويقوم برحلة من خمس ساعات تأخذه إلى تلك المدينة الصغيرة حيث تعيش أمه، يحكي لها كل شيء ثم يعود بروح مغسولة من التعفنات المرضية الناتجة عن عمله أستاذاً لمادة التاريخ لا يحب كثيراً السينما، عازماً على أن يطوي هذه الصفحة المضطربة من حياته بل، ومن يدري، مستعداً ليفكر بجد في الزواج من ماريّا دا بّاش. "les jeux sont faits, rien ne va plus"، أُلقيت كل الرهانات، ولم يعد أي شيء على ما يرام، قال بصوت مرتفع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذي لم تطأ قدماه يوماً أي كازينو، لكنه كان قد قرأ بعض الروايات المعروفة من فترة بداية القرن العشرين. احتفظ بالرسالة الموجهة إلى الشركة المنتجة في جيب من جيوب معطفه وخرج. سينسى أن يضعها في صندوق البريد، سيتناول الغداء في ركن بالقرب من هناك، ثم سيعود إلى البيت ليشرب حتى الثمالة تلك الظهيرة من يوم الأحد.

كانت أوّلُ مهمة قام بها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في اليوم التالي أنّه هيأ علبتيْن من الأشرطة التي سيُرجعها إلى المحلّ. بعد ذلك، أضاف إليها الأشرطة المتبقية، حزمها بخيط وذهب ليحتفظ بها في دولاب الغرفة، وأغلق عليها بالمفتاح. مزّق بطريقة منهجية الأوراق التي دوّن فيها أسماء الممثلين، وقام بالشيء نفسه مع مسودة الرسالة التي نسيها في جيب المعطف والتي عليها أن تنتظرَ دقائق أخرى قبل أن تأخُذ طريقها نحو من كُتبت إليه، وأخيراً، كان لديه سبب قوي لمحو بصمات أصابعه، نظف بمنديل مبلل كل قطع أثاث المكتب التي لمسها خلال ذلك اليوم. كما أنه محا أيضاً ما تركتْهُ ماريّا دا بّاش من بصمات، لكنه لم يفكّر في ذلك. كانت إشارات المرور التي يريد إخفاءها ليست له هو ولا لها هي، بل لذلك الحُضور الذي انتزعهُ بعنف من النوم في أول ليلة. لا جدوى من تنبيهه إلى أن مثل هذا الحضور لم يوجد إلا في ذهنه، أنه تشكل بكل تأكيد في ذهنه بسبب قلق ناتج عن حلم نسيهُ، لا جدوى من التلميح له بأن ذلك ربما يكون فقط نتيجة طبيعيّة لعملية هضمٍ عسير بعد أكل لحم مطهي، ولا جدوى من الإثبات له بحجج المنطق أنه حتى لو كنّا مستعدّين لتقبل فرضية شيء من القدرة على التجسُّد

لبعض الأشياء الذهنية في العالَم الخارجي، فإن ما لا نقبله بتاتاً هو أنّ الحضور غير المادي واللامرئي لصورة سينمائية لموظف استقبال في فندق قد ترك آثار تعْريقٍ أصابع منتشرة في كل أرجاء البيت. على ضوء ما يتوفر من معرفة حالياً، فإن الإكتوبْلاسما لا تنتج عرقاً. بعد الانتهاء من العمل، ارتدى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ملابسه، أخذ محفظة عمله والعلبتيْن، ثم خرج. صادف على السلالم جارته في الطابق العلوي التي سألته إنْ كان بحاجة إلى مساعدة، فقال لها لا، يا سيدتي، شكراً جزيلاً، واهتم من جهته بها فسألها كيف قضت نهاية الأسبوع فقالت بيْن بيْن، كالعادة، وأنها قد سمعتهُ يشتغل على الآلة الكاتبة، فقال لها إنه، عاجلاً أم آجلاً، عليه أن يقرر شراء حاسوب، لأن هذه الآلات صامتة على الأقل، فقالت إن صوت الآلة لا يزعجها في شيء، بل، على العكس من ذلك، يخلق لها رفقة. بما أن اليوم سيكون يوم تنظيف، سألتهُ إن كان سيعود إلى البيت قبل الغداء فأجابها بلا، وأنه سيتناول الغداء في الثانوية ولن يعود إلا في المساء. ودَّع أحدهما الآخر، وبما أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كان على وعي بأن الجارة ستظل ترقب مشفقة خرقه في حمل الحزمتيْن والمحفظة، نزل السلالم منتبهاً إلى حيث يضع قدميْه حتى لا يسقط فيتهشّم وجهه ويموت من الخجل. كانت السيارة في الجهة المقابلة لصندوق البريد. وضع الرزمتين في صندوق السيارة وعاد أدراجه، وراح يُخرج الرسالة من جيبه في الوقت ذاته. مرّ طفلٌ يجري بجانبه واصطدم به من دون قصد فانفكّت الرسالة من بين أصابعه وسقطت على رصيف الشارع. توقف الطفل على بعد بضع خطوات واستسمح، لكنه، خوفاً من توبيخ أو من عقاب، لم يأت ليلتقطها ولا أن يعيدها إلى صاحبها،

كما كان يقتضي منه واجبه. أومأ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بحركة موافقة من يده، كأنه قرر أن يتقبل الاعتذار ويسامح ما تبقى، ثم انحنى ليلتقط الرسالة. فكّرَ أنه يستطيع أن يقوم برِهَانٍ مع نفسه، يترك الرسالة حيث كانت ويُسلّم مصيرَهُ ومصيرَها إلى يدَي القدر. يمكنُ لأوّل شخصٍ يمرُّ من هناك أن يلتقط الرسالة الضائعة، يرى أنها تحمل طابعاً بريدياً، وكمواطن صالح يضعها بكل أمانة في صندوق البريد، يمكن أن يفتحها ليرى ما بداخلها ثم يرميها بعد قراءتها، يمكن ألّا ينتبه إليها فيطأها غير مبال، وخلال بقية اليوم يسحقها عدة أشخاص بأقدامهم، فتزداد اتساخاً وتجعُّداً، حتى يقرر أحدهم في النهاية أن يدفعها بمقدمة حذائه في البالوعة، حيث سيجدها منظف الشارع. لم يُنجَز الرّهانُ، والتُقطت الرسالة ثم أُخذت إلى صندوق البريد، وهكذا تحركت عجلة القدر أخيراً. الآن سيذهبُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى محلّ كراء أشرطة الفيديو، سيتأكد مع المستخدم من الأشرطة التي جاء يحملها في الحزمتيْن، وباستثناء تلك التي تركها في البيت، سيؤدي ما عليه ومن المحتمل أن يقول في نفسه إنه لن يلج مرة أخرى ذلك المكان. في الأخير، عزاءً لهُ، لم يكن هناك ذلك المستخدم المُتملّق، فاستقبلته شابة جديدة ليس لديها تجربة، لذلك استغرقت العمليات مزيداً من الوقت، رغم أن سهولة الزبون في إجراء عمليات الحساب الذهني كانت نافعة مرة أخرى لمّا حان وقت الدفع. سألته المستخدمةُ إنْ كان يريدُ أن يكتري أو أن يشتري أشرطة أخرى، فقال لها لا، أنه بلغ نهاية عمله، وقال ذلك من دون أن يتذكر أن الشابة لم تكن بعد في المحلّ عندما كان قد ألقى خطابه المعروف حول العلامات الإيديولوجية الحاضرة في أي سرد سينمائي، وبالطبع في كل أعمال

الفن السابع العظيمة، وخاصة في الإنتاجات الموجهة للاستهلاك العادي، المسلسلات من فئة باء أو جيم، تلك التي لا ينتبه إليها أحد، لكنها ناجعة لأنها تقبض على المتفرجين في غفلة منهم. كان المحل يبدو له أصغر عما رآه حين دخل إلى هناك لأول مرة، ولم يمر أسبوع واحد على ذلك بعد، وحقيقة أنه أمرٌ لا يصدق كيف أنّ حياته تغيرت كثيراً في وقت وجيز جداً، فكان يشعر لحظتئذ أنه يطفو فيما يشبه اليمبوس، في ممرٍّ عبورٍ بين الجنة والجحيم مما جعله يتساءل، مع إحساس بالاندهاش، من أين جاء وإلى أين هو متجه الآن، لأنه، بالنظر لما يروج من أفكار حول الموضوع، لا يمكن أن يكون نفس الأمر أن تنتقل روحٌ من الجحيم إلى الجنة أو أن تُدفع دفعاً من الجنة إلى الجحيم. كان داخل سيارته في الطريق نحو الثانوية حين حلَّ مكانَ هذه التأملات الأُخْرويّة شبهٌ من طبيعة أخرى، أُخذ من التاريخ الطبيعي، قسم دراسة الحشرات، دفعه ليقارن نفسه بشرنقة في حالة سبات عميق وتمرُّ بمسلسل خفي من التحوّل. رغم المزاج العكر الذي صاحبه منذ نهض من السرير، ابتسم من المقارنة وقال في نفسه، في هذه الحالة، إنه قد دخلَ يرقةً في الشرنقة وسيخرج منها فراشةً. أنا، فراشة، همهم، ما كان ينقصني غير هذا. ركنَ سيارته قرب الثانوية، نظر إلى ساعته اليدوية، كان ما يزال لديه وقت ليشرب قهوة ويلقي نظرة على الجرائد، إنْ كانت متوفرة. كان يعرف أنه أهمل تحضير الدرس، لكن تجربة السنين ستعوض عن الخطأ، فقد سبق له أن ارتجل ولم ينتبه أحد للفرق. ما لن يقوم به أبداً هو أن يدخل إلى القسم ويشرع في قصف الأطفال الأبرياء عن كثب، **اليوم** لدينا فرض شفوي. قد يكون فعلاً غير عادل، استغلالاً للسلطة من لدن رجل يحمل سكيناً

ويستعمله كما يحلو له ويُنوّعُ سُمْكَ قطعِ الجُبن التي يوزعها وفق نزوات اللحظة والأفضليات المقررة. عندما دخل إلى قاعة الأساتذة، رأى أنه ما تزال هناك جرائد متوفرة في الواجهة الزجاجية، لكن كي يصل إليها عليه أن يمرّ قرب مائدة حيث كان يتحدث ثلاثة زملاء أمام ثلاثة فناجين من القهوة وكؤوس من الماء. قد يبدو أمراً سيئاً ألا يتوقف، خصوصاً وأن واحداً منهم كان هو صديقه أستاذ مادة الرياضيات الذي كان يدين له بتفهُّمه وصبره. أما الآخران، فكانا أستاذة لمادة الأدب وأستاذاً شاباً لمادة العلوم الطبيعية اللذين لم تكن تربطهما به أي علاقة من التقارب. حياهم، سأل إن كان بوسعه أن ينضم إليهم، ومن دون انتظار أي رد، سحب كرسياً وجلس. أي شخص غريب عن عادات المكان قد يجد ذلك الفعل ملامساً لقلة الأدب، لكن بروتوكول العلاقات داخل قاعة الأساتذة انتظم وفقاً لذلك، لنقل بطريقة طبيعية، لم تُدوّن كتابةً، لكنها كانت تستند إلى أسس من التوافق، بما أنه لا أحد يفكر في الرد سلبياً على السؤال، فمن الأحسن تفادي جوقة الأجوبة الموافقة، بعضها صادق، وبعضها أقل صدقاً، واعتبارها أمراً مكتسباً. إن النقطة الحساسة الوحيدة، التي يمكن أن تثير توتراً بين من كانوا جالسين من قبل هناك وبين الوافد الجديد، تتعلق بإمكانية ما إذا كان الموضوع المتداول ذا طبيعة سرّية، لكن هذا المشكل تمّ تجاوزه باللجوء بوسيلة ضمنية إلى سؤال آخر، بلاغي بامتياز هذه المرة، **هل** أقاطعكم، فيكون الجواب عنه مقبولاً اجتماعياً، **لا** بكل تأكيد، انضمّ إلينا. أن يُقال إلى الوافد الجديد، مثلاً، ولو بأكثر الطرق لباقة في العالَم، نعم، إنك تقاطعُنا، اذهب واجلس في مكان آخر، قد يتسبب في صدمة قوية جداً قد تهز شبكة العلاقات بين أفراد

المجموعة وتضعها موضع شك. عاد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يحمل القهوة التي ذهب ليجلبها، جلس وسأل، **ما** هي المستجدات، **هل** تقصد ما استجد في الخارج أم في الداخل، سأله بدوره أستاذ الرياضيات، **فأما** مستجدات الداخل فمن السابق لأوانه معرفتها، وأما مستجدات الخارج، فإنني لم أقرأ الجرائد بعد، **ما** كان من حروب بالأمس ما زالت تدور اليوم، قالت أستاذة الأدب، **من** دون أن ننسى الاحتمال القوي جداً بل واليقين من أن حرباً أخرى على وشك أن تندلع، أضاف أستاذ العلوم الطبيعية كأنهما كانا متفقين، **وأنت**، كيف قضيت نهاية الأسبوع، سأله أستاذ الرياضيات، **في هدوء**، وسلام، أمضيتُ كل الوقت تقريباً في قراءة كتاب أظنُّ أنني قد حدثتُك عنه حول حضارات بلاد الرافدين، والفصل المتعلق بالآموريين مهم للغاية، **أما** أنا فذهبتُ إلى السينما مع زوجتي، **آه**، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يحوّل نظرهُ، **زميلُنا** هذا ليس من عشاق السينما، أسرَّ أستاذ الرياضيات إلى الآخريْن، **أنا** لم أجزم يوماً أنني لا أحبُّ السينما، ما قلتُه وأعيده الآن هو أن السينما لا تشكل جزءاً من اهتماماتي الثقافية المفضلة، لأنني أفضل الكُتُب، **يا عزيزي**، لا داعي للغضب، فالموضوع لا أهمية له، إنك تعرف جيداً أنني اقترحتُ عليك ذلك الفيلم بكل حسن النية، **ما** معنى أن يغضب المرء، سألت أستاذة الأدب من باب الفضول ورغبةً في تلطيف الأجواء، **أنْ** يغضب المرء، أجابها أستاذ الرياضيات هو أن يتوتر، يسخط، أو، بكل دقة، أن يغتاظ بلا داع، **ولماذا** في نظرك أن يغتاظ بلا داع قد تكون أكثر دقة من الغضب أو التوتر، سأل أستاذ العلوم الطبيعية، **إنه** بكل تأكيد تأويل شخصي له علاقة بذكريات الطفولة، عندما كانت أمي توبّخني أو

تعاقبني لأي شيطنة أقوم بها فأستغلق وجهي وأرفض أن أتكلم، ألزم صمتاً مطلقاً يمكن أن يدوم لساعات طويلة فتقول لي إنني غاضب، **أو** مغتاظ بلا داع، **تماماً**، **في** بيتنا، عندما كنتُ في مثل هذه السن، قالت أستاذة الأدب، كانت العبارة التي تشير إلى غضب الأطفال مختلفة، **مختلفة** في أي شيء، **لنقل** إنها كانت ذات طبيعة أخرى، كان يقال قطّبَ، ولا تبحث عن ذلك في القاموس، لأنه من المحتمل أنها عبارة غير واردة فيه، وأتصور أنها كانت حصرية بأسرتي. ضحكوا جميعاً، عدا تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الذي أطلق سراح ابتسامة شبه مستاءة ليصحح الأمر، **حصرية**، لا أظن ذلك، لأنها كانت مستعملة في بيتنا أيضاً. ارتفعت ضحكات أخرى، وعاد الوئام. نهض أستاذ العلوم الطبيعية وأستاذة الأدب، قالا إلى اللقاء على سبيل التوديع، ربما لأن قاعتيْ درسيْهما بعيدتان بعض الشيء، ربما في الطابق العلوي، أما من بقيا فأمامهما بعض الدقائق لإتمام الحديث، **إنني** أنتظرُ أي شيء مِنْ شخصٍ يقولُ إنه أمضى يومين يقرأ في هدوء كتاباً تاريخياً، قال أستاذُ الرياضيات، إلا هذا الوجه المعذب، **هذا** انطباعُكَ، ليس لدي من أمر يعذبني، ربما لدي وجه شخص لم ينم بما يكفي، **يمكنُكَ** أن تقدم لي ما شئت من أسباب، لكن الحقيقة هي أنك لست نفس الشخص منذ شاهدتَ ذلك الفيلم، **ماذا** تعني بقولك إنّك لستَ نفسَ الشخص، سأله تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بنبرة قلق غير منتظرة، **فقط** ما قلتُ، أنني أجدُكَ متغيراً، **أنا** نفس الشخص، **لا** أشُكُّ في ذلك، **في الحقيقة**، تؤرُقني أمور ذات طبيعة عاطفية تعقّدت في الآونة الأخيرة، أمور يمكن أن تحدث لأي شخص، لكن هذا لا يعني أنني صرتُ شخصاً آخر، **وأنا** لم أقل ذلك، ليس لديّ أدنى شك في أنك

ما تزال تحمل اسم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وأنت أستاذ لمادة التاريخ في هذه الثانوية، **إذن** لا أفهم لماذا تصرّ على القول إنني لا أبدو نفس الشخص، **منذ** شاهدتَ الفيلم، **دعنا** لا نتحدث عن الفيلم، أنت تعرفُ رأيي بخصوصه، **اتفقنا**، **أنا** نفس الشخص، **طبعاً** إنه كذلك، ينبغي أن تتذكر أنني عانيتُ من اكتئاب، **أو** فترة خمول، كما سبق لكَ وسمّيتَها، **تماماً**، وهذا أمر يستحق الاحترام، **لكَ** كل احترامي، وأنت تعرف ذلك جيداً، ولكننا لم نكن نتحدث عن هذا الأمر، **أنا** نفس الشخص، **الآن** أنت من تلحُّ، **صحيح**، أخبرتُك قبل أيام أنني أمُرّ بفترة توتّر نفسي قوي ومن الطبيعي أن ينعكس ذلك على وجهي وأن يؤثر على مزاجي، **طبعاً**، **لكن** هذا لا يعني أنني تغيرتُ على المستوي المعنوي والجسدي لدرجة أنني صرتُ أشبه شخصاً آخر، **قلتُ**، فقط، إنك لا تبدو أنتَ نفسك، وليس إنك تشبه شخصاً آخر، **ليس** الفرق كبيراً بين الأمريْن، **زميلتُنا** أستاذة الأدب قد تقول إن الفرق، على العكس من ذلك، شاسع، وهي تفهم في هذه الأمور، وأعتقد أن الأدب مثل الرياضيات تقريباً فيما يتعلق بالدقة والتفاصيل الصغيرة، **أما** أنا، المسكين، فأنتمي إلى مجال التاريخ حيث لا وجود لدقة والتفاصيل الصغيرة، **قد** توجد لو أن التاريخ كان بوسعه أن يكون، لنقل، صورةً للحياة، **إنك** تدهشني، ليس من عاداتك أن تكون بلاغياً بطريقة تقليدية، **أنتَ** على حق تماماً، في هذه الحالة لن يكون التاريخ هو الحياة، بل فقط صورة من صورها الممكنة، يتشابهان، صحيح، لكنهما لا يتطابقان أبداً. حوّلَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عينيْه مرة أخرى، وبعد ذلك، بجهد إرادة صعب، حدّق بهما في زميله، حتى يتحقق مما يكون قد أخفاه وراء الهدوء الظاهر على وجهه. ظل

زميله أستاذ الرياضيات بنظرة ثابتة دون أن يبدو أنه يعيره اهتماماً خاصاً، ثم، بابتسامة ملؤها لطفٌ ساخر وعطفٌ صادق، قال، **ربما** أكونُ مستعداً يوماً ما لمشاهدة تلك الكوميديا مرة أخرى، لعلّي أكتشف ما يزعجك إلى هذا الحد، لأنني أعتقد أن أصل الشر يوجد هناك. ارتعش تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، لكنه، وسط اضطرابه، وسط هلعه، أفلح في تقديم جواب معقول، **لا** تُتعب نفسك، إن ما يزعجني، باستعمال عبارتك، هو علاقة لا أعرف كيف أخرج منها، لو أنك لم تجد نفسك يوماً في وضع كهذا، فعليك أن تعرف ما يشعر به المرء، والآن عليّ أن أذهب إلى درْسي، لأنني تأخرتُ كثيراً، **إنْ** لم تكن ترى أي مانع، ورغم أنه في تاريخ هذه المؤسسة قد كانت هناك سابقة مشؤومة، سأرافقك حتى منعطف الممرّ، قال أستاذ الرياضيات، لكني أعدُك بكل جلال ألا أكرر تلك الحركة المتهورة بوضع يدي على كتفكَ، **هكذا** هي الأمور، قد يحدث ألا يهمني ذلك اليوم، **ولكني** لا أريد أن أجازف، لأنك تبدو لي مشحوناً ومملوءاً عن آخرك. ضحكا معاً، فعل أستاذ الرياضيات ذلك من دون أي تحفّظ، وقام به تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بشيء من الحرج، وفي أذنيْه ما زالت ترنُّ الكلمات التي أصابته بالهلع، أفظع تهديد يمكن أن يوجهه له أيٌّ كان. افترقا عند زاوية الممر وذهب كل واحد منهما إلى وجهته. بدّد وصول أستاذ التاريخ الوهم الساحر الذي خلقه تأخره لدى التلاميذ، بأنه لن يكون هناك درس اليوم. حتى قبل أن يجلس، أعلن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه، بعد ثلاثة أيام، أي يوم الخميس القادم، سينجزون فرضاً آخر جديداً هو الأخير، **اعلموا** أنه سيكون فرضاً حاسماً في تحديد النقطة النهائية، قال، بما أنني لا أنوي تنظيم

فروض شفوية في الأسبوعيْن المتبقييْن من الموسم الدراسي، وبالإضافة إلى هذا، فإن وقت هذه الحصة والحصّتيْن القادمتيْن سوف يخصص حصرياً لمراجعة الدروس السابقة، بحيث يمكنكم أن تتقدموا إلى الامتحان بأفكار منعشة. حظي الخطاب باستقبال جيد من لدن الجزء المحايد في القسم، حمداً للرّب، وكان من الواضح أن تيرتوليانو لم يكن ينوي أن يكون أقسى مما هو ضروري. من الآن فصاعداً، سوف يتركز اهتمام التلاميذ على التشديد الذي سوف يعالج به الأستاذ كل مادة من مواد الدرس، وعليه فإن منطق الوزن والقياس شيء إنساني، وإن كان الحظ إلى جانب واحد من معاييرها المتغيرة، فإن تغير حدة التواصل يمكن أن تعلن مسبقاً، من دون أن ينتبه الأستاذ إلى ذلك الكشف غير الواعي، عن اختيار مواضيع الفرض. إنْ كان من المعروف جداً أنه لا يوجد أي كائن بشري، بمن فيهم أولئك الذي بلغوا سناً نسمّيها سن الشيخوخة، يمكنهم أن يعيشوا من دون أوهام، ذلك المرض النفسي الضروري لحياة عادية، فماذا عسانا نقول عن هؤلاء الفتيات والفتيان الذين، بعد أن فقدوا الأمل في أنه لن يكون هناك من درس هذا اليوم، يحرصون الآن على تغذية أمل آخر أكثر إشكالاً بكثير، أمل أن يكون فرض يوم الخميس بالنسبة لكل واحد منهم، وبذلك لهم جميعاً، هو تلك القنطرة الذهبية التي سيمرون فوقها إلى السنة الموالية. كانت الحصة تشرف على نهايتها عندما طرقَ مستخدمٌ باب القسم ودخل ليقول للأستاذ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إنّ السيد المدير يطلب منه أن يتفضل بالحضور إلى مكتبه مباشرة بعد انتهاء الدرس. وفي أقل من دقيتيْن أنهى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو العرض الذي كان يقدمه حول معاهدة ما، فمرّ عليه مرّ الكرام، وارتأى أن يقول لا تُشغلوا بالكم

كثيراً بهذه المسألة لأنها لن تكون موضوع أي فرض. تبادل التلاميذ نظرات متواطئة، كان من السهل أن يُستنتجَ منها أن أفكارهم حول قيمة التشديد قد تأكدت للتو في حالةٍ كانت فيها نبرة الازدراء التي نطقت بها الكلمات لها قيمة أكثر من المعنى. نادراً ما انتهى درسٌ في أجواء من الوفاق كهذه.

رتَّب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أوراقَه في المحفظة وخرج. امتلأت الممرات سريعاً بالتلاميذ الذي يبرزون من كل الأبواب وقد بدأوا يتحدثون عن مواضيع لا علاقة لها بما تلقّوه من دروس قبل دقائق، هنا وهنالك أستاذ يحاول أن يمرّ متوارياً عن الأنظار وسط بحر هائج من الرؤوس يحيط به من كل الجهات، يراوغ ما استطاع ما يبرز أمامه من عوائق، ليتسلل نحو قاعة الأساتذة، ملاذه الطبيعي الآمن. اختصر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الطريق نحو البناية التي تضم مكتب المدير، توقف ليستمع إلى أستاذة الأدب التي وقفت في طريقه، **نحن** بحاجة إلى قاموس جيد للعبارات العاميّة، قالت وهي تشدّه من كمّ معطفه، **عموماً**، كل القواميس العامة تتضمّن عبارات عاميّة، ردّ عليها، **نعم**، لكن ليس بطريقة منتظمة وتحليلية ومن دون الطموح إلى استنفاد الموضوع، فلا يكفي، مثلاً، أن يشير القاموس إلى عبارة «اغتاظ بلا داع» ويشرحها؛ هذا ليس كافياً، ينبغي الذهاب أبعد من ذلك، يجب تحديد كل مكونات التشبيه في العبارة، المباشرة منها وغير المباشرة، وربطها بالحالة النفسية التي يرجى التعبير عنها، **أنتِ** محقّة، قال أستاذ التاريخ لأنه يريد أن يكون لطيفاً أكثر مما أن الموضوع يثير اهتمامه، والآن أستسمحكِ، عليَّ أن أذهب، لأن المدير استدعاني، **اذهبْ**، اذهب، أفظع خطيئة هي أن نجعل الرّب ينتظر. بعد ثلاث دقائق، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو

يطرق باب المكتب، دخل حين اشتعل الضوء الأخضر، قال صباح الخير وتلقّى مثلها، جلس بعد إشارة من المدير وانتظر. لم يشعر بأي حضور دخيل، كوكبياً كان أو من أي طبيعة أخرى. وضع المدير جانباً الوثائق التي كانت على الطاولة وقال، مبتسماً، **لقد** فكّرتُ ملياً في حديثنا الأخير، ذلك الحديث حول تدريس مادة التاريخ، وتوصلت إلى استنتاج، **ما** هو، سيدي المدير، **أطلبُ** منك أن تنجز لنا عملاً خلال العطلة، **أيُّ** عمل، **طبعاً** يمكن أن تقول لي إن العطلة وُجدت ليستريح المرء وإنه ليس من المعقول أن نطلب من أستاذ، بعد انتهاء الدروس، أن يستمر في الانشغال بشؤون المدرسة، **تعرفُ** تماماً، سيدي المدير، أنني لن أقول ذلك بهذه العبارات، **ستقولُ** لي ذلك بعبارات أخرى لها نفس المعنى، **نعم**، ولكني، إلى غاية هذه اللحظة، لم أنطق بأي عبارة، لا بهذه العبارات ولا بتلك، لذا أرجوك أن تعرض عليَّ فكرتكَ عن آخرها، **فكرتُ** أنه يمكن أن نقنع الوزارة، ليس بتغيير البرامج رأساً على عقب، لأن هذا طلب مفرط، والوزير ليس لديه حس ثوري، بل أن ندرُس، ننظم ونضع حيز التطبيق تجربة صغيرة رائدة، محدودة، في البداية، في مدرسة واحدة ومع عدد محدود من التلاميذ، من الأفضل أن يكونوا متطوّعين، يكون فيها تدريسُ مواضيع التاريخ انطلاقاً من الحاضر نحو الماضي بدل أن تكون من الماضي نحو الحاضر، على أيٍّ، تلك الفكرةُ التي طالما دافعتَ عنها وأقنعتْني بجدّتها، **أهذا** هو العمل الذي تريد أن تكلفني به، فيما يتمثّلُ بالضبط، سألهُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **في** أن تنجز اقتراحاً مبرراً بشكل صحيح نرفعه إلى الوزارة، **أنا**، سيدي المدير، **ليس** إطراء لك، ولكني في الحقيقة لم أجد في الثانوية شخصاً أكثر كفاءة منك للقيام بذلك، لقد أظهرت أنك فكرتَ ملياً في

الموضوع، لك أفكار واضحة عنه، صراحة سأكون راضياً جداً لو قبلتَ هذه المهمة، أقول لك ذلك بكل صدق، ولا داعي لأخبرك بأن هذا العمل سيكون مدفوع الأجر، فأكيد أنه من الممكن أن نجد في ميزانيتنا خانة ندرج فيها هذه التكاليف، **أشكُّ** فيما إذا كانت أفكاري، سواء في الكمّ، أو في الكيف، لأن الكمّ مهم أيضاً، كما تعرف، كافية لإقناع الوزارة، وأنت، سيدي المدير، تعرفهم أحسن مني، **مع** الأسف، أعرفهم أكثر من اللازم، **إذن**، **إذن**، اسمح لألح عليك، أظن أنها ستكون أحسن فرصة لنظهر أمامهم كأحسن مؤسسة قادرة على إنتاج أفكار مبتكرة، **حتى** لو صرفونا بكل خشونة، **ربما** يفعلون ذلك، ربما يضعون المقترح في الأرشيف من دون النظر فيه، لكنه سيكون هناك، وسيتذكره أحدهم في يوم من الأيام، **وسنظل** نحن في انتظار ذلك اليوم، **في** وقت لاحق، يمكن أن ندعو ثانويات أخرى للمشاركة في المشروع، ننظم نقاشات، محاضرات، ندرج ذلك في وسائل الإعلام، **إلى** أن يبعث لك المدير العام رسالة يطلب منا فيها أن نصمت، **آسف** لأن طلبي لا يثير حماسك، **أعترفُ** لك أن هناك أشياء قليلة في هذا العالم تثير حماسي، سيدي المدير، لكن المشكلة ليست هي هذه بقدر ما أنني لا أعرف ما تخبئه لي العطلة القادمة، **لا** أفهم، **سوف** أضطر لمواجهة بعض الأمور التي طرأت على حياتي في الآونة الأخيرة وأخشى ألا يتبقى لي الوقت وألا يسعفني استعدادي الذهني لأتفرغ لعمل يستوجب مني تفرغاً كاملاً، **إنْ** كان الأمر كذلك، لنعتبر هذا الموضوع منتهياً، **دعني** أفكر قليلاً، سيدي المدير، أمهلني بضعة أيام، ألتزم بأن أوافيك بجواب قبل نهاية هذا الأسبوع، **أتمنى** أن يكون رداً إيجابياً، **ربما**، سيدي المدير، لا أؤكد لك ذلك، **أراكَ** منشغلاً حقاً، أتمنى أن تحل مشاكلك تلك

بأحسن طريقة، **أتمنى** ذلك، **كيف** مرَّ الدرسُ، بكل سهولة، القسم يشتغل، **رائع**، **يوم** الخميس سيكون لنا فرض كتابي، **ويوم** الجمعة أعطِني الجواب، **نعم**، **فكّرْ** جيداً، **سأُفكّر**، **أظنُّ** أنه لا داعي لأخبرك في من أفكرُ فيه لإنجاز هذه التجربة الرائدة، **شكراً**، سيدي المدير. نزل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى قاعة الأساتذة، ليقرأ الجرائد ويزجي الوقت في انتظار وجبة الغداء. لكن، مع اقتراب موعد الأكل بدأ يدرك أنه لن يطيق الجلوس مع الناس، وأنه لن يتحمل حديثاً آخر مثل حديث هذا الصباح، حتى لو لم يكن يعنيه مباشرة، حتى لو أنه كان يدور، من البداية إلى النهاية، حول عبارات عاميّة بريئة مثل «اغتاظ بلا داعٍ» أو ما شابهها. قبل أن يرن الجرس، خرج وذهب ليتناول الغداء في أحد المطاعم. عاد إلى الثانوية ليعطي الدرس الثاني، لم يتحدث مع أحد، وقبل نهاية النهار كان قد عاد إلى البيت. استلقى فوق الأريكة، أغمض عينيه، حاول أن يُفرغ دماغه من الأفكار، أن ينام لو استطاع، أن يكون مثل حجرٍ يبقى حيث يرمونه، لكن حتى الجهد الذهني الذي بذله بعد ذلك ليركز على طلب المدير لم يستطع أن يبعد الشبح الذي سيضطر ليعيش معه إلى أن يصل جواب الرسالة التي كتبها ووقّعها باسم ماريّا دا بّاش.

انتظر مدة أسبوعين تقريباً. أثناء ذلك، أعطى دروساً، اتصل مرّتين بأمه، حضّر الفرض الكتابي ليوم الخميس ووضع خطاطة الفرض الذي سيقدمه لتلاميذ القسم الآخر، يوم الجمعة أخبر المدير بأنه يتقبل اقتراحه الجميل، في نهاية الأسبوع لم يغادر البيت، تحدث بالهاتف مع ماريّا دا بّاش ليعرف أحوالها وإن كانت قد تلقّت جواباً، ردّ على اتصال من زميله أستاذ الرياضيات الذي أراد أن يعرف إن كانت لديه مشاكل، انتهى من قراءة الفصل الخاص بالآموريين وانتقل

إلى الفصل الخاص بالآشوريين، شاهد فيلماً وثائقياً عن العصور الجليدية في أوروبا وآخر حول الأجداد القدماء للبشر، فكّر أن تلك اللحظة من حياته يمكن أن تكون رواية، لكنه فكّر أن ذلك قد يكون عناء ضائعاً لأن لا أحد قد يصدق حكاية كهذه، اتصل مرة أخرى بماريّا دا بّاش، لكنه فعل ذلك بصوت خافت جداً حتى أنها انشغلت وسألته إن كانت تستطيع أن تساعده في شيء ما، فقال لها أن تأتي وأتت، ثم ذهبا إلى السرير، وبعد ذلك ذهبا ليتناولا العشاء، وفي اليوم التالي كانت هي من اتصلت به لتخبره أن جواب الشركة المنتجة للأفلام قد وصل، **إنني** أتحدثُ معكَ من البنك، إنْ شئْت يمكن أن تأتي إلى هنا، أو أحمل لك الجواب لاحقاً، عندما أخرج. وهو يرتعش في دواخله، تهزّه العواطف، استطاع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أنْ يكبح في آخر لحظة السؤالَ الذي ما كان ينبغي له أن يطرحه بأي حال من الأحوال، **هل** فتحتِها، فحمله ذلك لينتظر مدّة ثانيتيْن الجواب النهائي الذي سيبدد كل شك ممكن حول مسألة معرفة ما إذا كان مستعداً أم لا كي يتقاسم معها فحوى الرسالة، **سأمُرُّ** عندكَ لأراك. لو أن ماريّا دا بّاش تخيلت مشهداً مؤثراً ترى فيه نفسها وهي تستمع إلى قراءة الرسالة بينما هي تحتسي الشاي الذي حضّرته بنفسها في مطبخ الرجل الذي تحبه، فيمكنها أن تنتظر إلى الأبد. ها نحنُ نراها الآن، جالسة إلى طاولتها الصغيرة كموظفة بنكية، يدها ما تزال فوق الهاتف الذي وضعت سماعته للتو، الظرف المستطيل الشكل أمامها وبداخله تلك الرسالة التي لن تسمح لها نزاهتُها بأن تقرأها لأنها ليست لها، رغم أنها جاءت موجّهة باسمها. ولم تمض ساعة واحدة حتى دخل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو على وجه السرعة إلى البنك يطلب أن يتحدث مع الموظفة ماريّا دا بّاش. لم يكن أحد

يعرفه هناك ولا أحد قد يظن أن أموراً عاطفية وأسراراً مظلمة تجمعه بالشابة التي تتجه نحو مكتب الاستقبال. كانت قد لمحتهُ من داخل القاعة الكبيرة حيث مكان عملها وهي تشتغل بالأرقام، لذلك كانت الرسالة في يدها، **خُذْ**، قالت، لم يتبادلا التحايا، لم يتمنّيا يوماً سعيداً أحدهما للآخر، لم يقولا سلاماً، ولا شيئاً من هذا كالعادة، كانت هناك رسالة يجب أن تُسلّم وها قد سُلِّمت، فقالت، **إلى اللقاء**، سأتصل بك، لاحقاً، وانتهت مهمتها فيما أوكل لها من عمليات توزيع البريد الحضري، ثم عادت إلى مكانها غير عابئة بالنظرات المريبة لزميلٍ يفوقها سناً، ذلك الذي كان يحاول استمالتها قبل مدة من دون جدوى، والذي ظل منذئذ يضعها نصب عينيه. في الشارع، مشى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بسرعة، وكاد يجري، لأنه ترك السيارة في مرأب تحت أرضي على بعد ثلاث بنايات سكنية، لم يضع الرسالة في المحفظة، بل في جيب داخلي من معطفه، خوفاً من أن يخطفَ منهُ المحفظةَ مشاغبٌ تائه، كما كانوا فيما مضى يسمّون الأطفال الذين يكبرون في فجور الشارع، فيصيرون ملائكة بوجوه متسخة، بعد ذلك متمرّدين من دون قضية، واليوم مجرمين لا يستفيدون من أي مَجاز ولا تورية. كان يقول في نفسه إنه لن يفتح الرسالة ما لم يدخل إلى البيت، إنه قد بلغ من العمر ما لا يسمح له بالتصرّف مثل مراهق قلق، لكنه في الوقت نفسه، يعرف أن نواياه الراشدة تلك ستتبخر ما إن يلج السيارة، في عتمة المرأب، والباب مغلق يحميه من نظرات الفضول المَرضيّة للعالم. تأخّر كثيراً في العثور على المكان الذي ترك فيه السيارة، مما زاد من حالة القلق العصبي التي كان عليها، فكان الرجل المسكين يبدو، إن سُمح بهذا التشبيه، مثل كلبٍ تائه وسط الصحراء، ينظر ضائعاً من جهة إلى

أخرى، لا يملك على الأقل ولو رائحة واحدة يعرفها تقوده إلى بيته، **هذا** هو الطابق، أنا متأكد من هذا الأمر، لكنه في الحقيقة لم يكن كذلك. وفي الأخير، وجد السيارة، كان لثلاث مرات على بعد ستّ خطوات منها ولم يرَها. ولَجها بسرعة كأن أحداً يطارده، أغلق الباب وأقفله، ثم أشعل الأضواء الداخلية. كان الظّرفُ بين يديه، أخيراً، وحانت لحظة معرفة ما بداخله، تماماً مثل قائد باخرة، حين يبلغ نقطة تتقاطع فيها الإحداثياتُ، فيفتح الرسالة المختومة ليعرف الطريق التي عليه أن يسلكها بعد ذلك. تخرجُ صورة وورقة من الظرف. الصورة هي لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، تحمل توقيع دانييل سانتا كلارا وتحتها عبارةُ **مع** أطيب التحيات. أما الورقة، فلا تفيدُ فقط أن دانييل سانتا كلارا هو الاسم الفني للمثل أنطونيو كلارو، بل إنها أكثر من ذلك وبشكل استثنائي، تقدم عنوان إقامته الخاصة، **اعتباراً** للتقدير الخاص الذي حظيت به رسالتُكم لدينا، كما كُتب. يتذكرُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو العبارات التي حرّرها بها ويهنئ نفسه على الفكرة اللامعة باقتراحه على الشركة المنتجة بأن تنجز دراسة حول أهمية الممثلين الثانويين، **جرّبتُ** حظي ونجح الأمر، همهم، وهو ينتبه، في الوقت ذاته، إلى أن فكره استعاد هدوءه السابق، وأن جسده صار مسترخياً، لا أثر لأيّ توتّر فيه، فقط انضم الرافد إلى النهر، فازداد صبيب هذا الأخير، أصبح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يعرف الآن أيّ وجهة يجب أن يأخذ. أخرج من الباب الجانبي للسيارة تصميماً للمدينة وبحث عن الشارع الذي يقطن فيه دانييل سانتا كلارا. إنه يقع في حي لا يعرفه، على الأقل لا يذكر أنه مر من هناك مرة، ثم إنه يقع بعيداً عن وسط المدينة، كما تأكّدَ من ذلك في الخريطة التي بسطها فوق المقود. لا يهم، لديه وقت، لديه كل وقت

الدنيا. خرج ليدفع ثمن الرَّكن، عاد إلى السيارة، أطفأ ضوء السقف وأقلع. هدفه، كما يمكن التكهن بذلك بكل سهولة، هو الشارع الذي يقطن فيه الممثل. يريد أن يرى البناية، ينظر من أسفل إلى الطابق الذي يسكن فيه، إلى النوافذ، أي نوع من الناس يسكنون الحي، أية أجواء، أي أسلوب، أية عادات. حركة السير كثيفة، والسيارات تتحرك ببطء يثير الأعصاب، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يقلق، ليس هناك من خطر في أن يُغيّر الشارعُ الذي يقصدُه مكانَه، إنه سجين شبكة طرق المدينة التي تحاصره من كل مكان، كما يمكن التأكد من ذلك تماماً في هذه الخارطة. أثناء لحظة انتظار عند إشارة الضوء الأحمر، بينما كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يتابعُ أغنية صامتة بنقرات من أصابعه على المقود، دخلَ الحسُّ السليم إلى السيارة. مساء الخير، قال، **لمْ** أُنادِكَ، أجابه السائق، **في** الحقيقة، لا أذكرُ أنك طلبتني يوماً لآتي، **قد** أقوم بذلك لو أنني لا أعرف مسبقاً خطابك، **مثل** اليوم، **نعم**، ستقول لي أن أفكر جيداً، ألا أّحشر نفسي في هذا الأمر، أنّ هذا تهوّر ما بعده تهوّر، وأنْ لا أحد يضمن لي أن الشيطان ليس خلف الباب، كلامُكَ المعتاد، **لكنك** مخطئ هذه المرة، لأن ما أنت مقبل عليه ليس تهوُّراً، بل عملٌ غبي، **عمل** غبي، **نعم**، سيدي، عمل غبي، ومن الحجم الكبير، **لا** أرى أين يكمن ذلك، **هذا** طبيعي، لأن واحداً من أشكال عمى الفكر الثانوية هو الغباء تحديداً، **اشرح** لي ذلك، **لا داعي** لتقول لي إنك تقصد الشارع حيث يسكن صاحبك هذا دانييل سانتا كلارا، غريب، فوراء الأكمة ما وراءها وأنت لم تنتبه، **أي** أكمة وأي تلّ، دعنا من الألغاز وتحدث مباشرة في الموضوع، **المسألة** بسيطة، فمن الاسم العائلي كلارو خُلق الاسم المستعار سانتا كلارا، **إنه** ليس اسماً

مستعاراً، إنه اسم فني، **سبق** للآخر أيضاً أن رفض ذلك الابتذال الشعبي الذي يميز الاسم المستعار، فسمّاهُ النّدّ، **وفيمَ** يفيدني أن أميز الأكمة من التّل، **ليس** كثيراً، أعترف لك، لكنْ كان عليك أن تبحث وأن تنقب عن اسم كلارو في دليل الهاتف، كنت ستنجح في ذلك، **لقد** حصلتُ على ما يهمّني، **والآن** أنت ذاهب إلى الشارع الذي يسكنه، ستذهب لترى البناية، تنظر من أسفل إلى الطابق الذي يسكن فيه، إلى النوافذ، أي نوع من الناس يسكنون الحي، أية أجواء، أي أسلوب، أية عادات، كانت هذه هي كلماتُكَ، إن لم أكن مخطئاً، **نعم**، **تصوَّر** الآن لو أنك تنظر إلى النوافذ فتظهر لك امرأةُ الممثل، على أيٍّ، لنتحدث باحترام، زوجةُ أنطونيو كلارو هذا، وتسألك لماذا لا تصعد، أو ما هو أفظع، تستغل الفرصة لتطلب منك أن تذهب إلى الصيدلية كي تشتري لها علبة مسكنات أو دواء السعال، **أمرٌ** سخيف، **إنْ** بدا لك سخيفاً، تصور أنه يمر أحد ويحيّيك، ليس بوصفكَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هذا الذي هو أنت، بل بوصفك أنطونيو كلارو الذي لن تكونهُ أبداً، **أمرٌ** سخيف آخر، **إذن**، إنْ كان هذا الاحتمال يبدو لك أمراً سخيفاً بدوره، فتصوّر أنك في الشارع تنظر إلى النوافذ أو تدرس أسلوب السكان فيبرز أمامك، بلحمه ودمه، دانييل سانتا كلارا، فتظلّان معاً مثل كلبيْن خزفيّيْن صغيريْن متشابهيْن، كل واحد كأنه انعكاس للآخر، لكنه انعكاس مختلف، لأنه، خلافاً لانعكاس المرآة، سيظهر على اليسار ما على اليسار وعلى اليمين ما على اليمين، فكيف سيكون ردُّ فعلك لو حدث هذا الأمر. لم يجبه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو على الفور، بل ظل صامتاً لمدة دقيقتين أو ثلاث، وبعد ذلك قال، **الحلُّ** هو أن لا أغادر السيارة، **ومع** ذلك، لو كنتُ مكانك لن أثق، ردّ

عليه الحسُّ السليم، قد تقف عند إشارة ضوء أحمر، يمكن أن يكون هناك اختناق مروري، شاحنةٌ تفرغ ما تنقله، سيارةُ إسعاف تنقل مريضاً، وأنت هناك، معروضاً مثل سمكة في حوض، تحت رحمة مُراهقةٍ من عشاق السينما في الطابق الأول حيث تسكن تسألك ما هو فيلمُك القادمُ، **ماذا** سأفعل، إذن، **هذا** لا أعرفُه، إنه أمر لا يدخل في اختصاصي، لأن دور الحسّ السليم في تاريخ نوعكم البشري لم يتجاوز قطّ حدود النصح بالحذر والتوصية بشرب حساء الدجاج، وخاصة في الحالات التي يكون فيه الغباء قد أخذ الكلمة ويهدد بالاستحواذ على زمام الفعل، **الحلُّ** هو أن أتنكّر، **في** أي هيئة، **لستُ** أدري، يجب أن أفكر في الأمر، **على** ما يبدو، حتى تكون من أنتَ، فإن الإمكانية الوحيدة المتبقية لديك هي أن تبدو شخصاً آخر، **يجب** أن أفكر في الأمر، **نعم**، لقد حان الوقتُ، **في** هذه الحالة، من الأفضل أن أذهب إلى البيت، **إنْ** كان الأمر لا يزعجك، خذني حتى الباب، بعد ذلك سأتدبر أمري، **ألا** تريد أن تصعد، **حتى** هذا اليوم، لم تدعُني قطّ، **إنني** أدعوك الآن، **شكراً**، لكنه لا ينبغي لي أن أقبل الدعوة، **لماذا**، **لأنه** ليس أمراً صحياً ألا ينفصل الفكرُ عن الحسّ السليم، يأكل معه على نفس المائدة، ينام معه على نفس السرير، يأخذه إلى العمل، يطلب نصيحته أو موافقته قبل القيام بأي محاولة، يجب أن يجازف كل واحد منكُم بشيء خاص به، **عمّن** تتحدثُ، **عنكم** جميعاً، عن النوع البشري، **جازفتُ** بالحصول على هذه الرسالة وها أنت الآن توبّخني، **ليس** ثمة ما يدعو للفخر في الطريقة التي حصلت بها عليها، إنّ المراهنة على شرف شخص ما كما فعلتَ يعتبر شكلاً من أشكال الابتزاز المثير للقرف، **هل** تتحدثُ عن ماريّا دا بّاش، **نعم**، أتحدث عن ماريّا دا بّاش، لو كنتُ مكانها

لفتحتُ الرسالة، قرأتُها ولطمتُ وجهكَ بها حتى تطلب العفو جاثياً على ركبتيكَ، **أهكذا** يتصرف الحسُّ السليم، **هكذا** ينبغي له أن يتصرّف، **وداعاً**، وإلى يوم آخر، سوف أفكر في تنكّري، **كُلّما** تنكّرتَ، كنتَ شبيهاً بنفسكَ. وجدَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مكاناً شاغراً عند باب العمارة التي يقطن فيها، ركَن السيارة، ثم جمع الخريطة والتصميم، وخرج. على الرصيف، في الجهة المقابلة من الشارع، كان هناك رجل يرفع رأسه وينظر إلى العمارات الشاهقة قبالته. لم يكن ثمة من شبه في وجهه أو شكله، كان حضوره هناك مجرد صدفة، لكنّ رعشةً سرت في العمود الفقري لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو حين خطر على باله، لم يستطع أن يتفاداه لأن خياله المرضي كان أقوى منه، أنّ دانييل سانتا كلارا ربما يكون قد خرج يبحث عنه، أنا أبحثُ عنك، أنتَ تبحثُ عني. لكنه سرعان ما طرد تلك الفكرة المزعجة من ذهنه. إنني أرى أشباحاً، هذا الرجل لا يعرف حتى بوجودي، لكن ركبتَيه كانتا ترتعشان عندما دخل إلى بيته وترك نفسه يسقط منهكاً على الأريكة. خلال بضع لحظات، ظلّ غارقاً فيما يشبه الخدر، غائباً عن ذاته، مثل عدّاء ماراتون استنفد كل قواه وهو يطأ خط الوصول. ومن تلك الطاقة الهادئة التي كانت تُحرّكه عندما غادر المرأب وعندما، بعد ذلك، كان يأخذ السيارة إلى الوجهة التي رآها محبطاً للتو، لم يتبقّ غير ذكرى غامضة، لشيء لم يعشه حقاً، أو أنه كان في ذلك الجزء الغائب الآن من ذاته. نهض بصعوبة، ساقاه تبدوان له غريبتين، كأنهما لشخص آخر، ثم ذهب إلى المطبخ ليُحضّر قهوة. احتساها في جرعات متثاقلة، واعياً بالدفء المريح الذي ينزل عبر حنجرته حتى المعدة، وبعد ذلك غسل الكأس والفنجان وعاد إلى الصالة. كانت كل حركاته قد صارت

متأمّلة، بطيئة، كما لو أنه يتحكم في مواد خطيرة داخل مختبر كيماوي، ومع ذلك لم يكن عليه سوى أن يفتح دليل الهاتف عند حرف الكاف ويتأكد من المعلومات الواردة في الرسالة. وماذا أفعلُ بعد ذلك، تساءل، وهو يقلب الصفحات حتى وجد الحرف. كانت هناك كثير من أسماء كلارو لكن أسماء أنطونيو لم تكن تتجاوز الستة. وأخيراً وجد ما كلّفه عناءً كبيراً، وكان أمراً سهلاً للغاية بإمكان أي شخص أن يفعله، اسم، عنوان، ورقم هاتف. دوّن المعطيات على قطعة من ورق أعاد طرح السؤال، **والآن**، ما العملُ. بحركة آلية، مدّ يده اليمنى نحو السمّاعة، تركها هناك بينما راح يقرأ ويعيد قراءة ما سجّله، بعد ذلك سحبها، نهض وقام بجولة في أرجاء البيت، يتحدث مع نفسه ويقول إنه ربما من الحكمة أن يترك بقية الموضوع لما بعد نهاية الامتحانات، هكذا يكون لديه انشغال أقل، لكنه، لسوء الحظ، كان قد التزم مع مدير الثانوية بتحرير مشروع مقترح تدريس التاريخ، ولم يكن بوسعه أن يفلت من هذا الواجب، **وفي** يوم ومن الأيام لن أجد بداً من أن أنجز عملاً لن يهتم به أحد، كانت غباوة كبيرة أن أقبل تلك المهمة، لكن، لم يكن هناك من داع للتظاهر بأنه كان يخادع نفسه، ويبدو كأنه يقبل فرضية أن يؤجل فقط إلى ما بعد عمل الثانوية الخطوةَ الأولى في الطريق التي ستأخُذه إلى أنطونيو كلارو، بما أن دانييل سانتا كلارا، بالمعنى الدقيق للاسم، لا يوجد، فهو شبح، كركوز، ظلّ مُتحوّل يتحرّكُ ويتكلّم داخل شريط فيديو سرعان ما يعود إلى الصمت والجمود ما إن ينتهي الدور الذي لقّنوه إياه، بينما الآخر، أنطونيو كلارو هذا، حقيقي، ملموس، وكثيف كثافة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أستاذ مادة التاريخ الذي يسكن في هذا البيت ويمكن العثور على اسمه في حرف ألف من

دليل الهاتف مهما أكد البعض أن أفونسو ليس اسما عائلياً، بل اسماً شخصياً. ها هو قد جلس مرة أخرى إلى طاولة المكتب، أمامه الورقة مع ما دوّنَ فيها من ملاحظات، يده اليمنى على السمّاعة، يعطي الانطباع بأنه قد اتخذ قراره أخيراً ليتصل، لكن كمْ يتأخر الرجل في اتخاذ القرار، وكم هو متردد، غير حاسم، ولا أحد قد يظن أنه نفس الشخص الذي انتزع قبل ساعات فقط الرسالة من يدي ماريّا دا بّاش. فجأة، من دون تفكير، كطريقة وحيدة لتجاوز الخوف الذي يشله، ركَّب الرقم. يسمع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو رنّة الهاتف، مرّة، مرّتيْن، ثلاث مرات، عدة مرات، ولحظة كان على وشك أن يضع السماعة، وهو يُفكّر، بشيء من الارتياح وشيء من الخيبة، أنه ما من أحد يردّ، جاءت امرأة، لاهثة كأنها قدمت تجري من الطرف الآخر من البيت، وقالت بكل بساطة، **ألو**. خنقَ تشنُّجٌ عضلي مفاجئ حنجرةَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، فتأخر الردُّ، وأمهل المرأة وقتاً لتردّد، في قلق، **ألو**، من معي، وحينئذ نجح أستاذ التاريخ في أن ينطق بثلاث كلمات، **مساء** الخير، سيدتي، لكن المرأة، بدل أن تجيبه بنبرة متحفظة كمن يتوجه إلى شخص لا يعرفه ولا يرى وجهه فوق ذلك، قالت بابتسامة تُستشفُّ من كل كلمة، **إنْ** كنتَ تريد أن تتنكّرَ، فلا تُتعب نفسك، **عفواً**، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو متلعثماً، كنتُ فقط أريد أن أطلب معلومة، **أيّةُ** معلومة يمكن أن يريدها شخصٌ يعرف كل شيء عن البيت الذي اتصل به، **ما** أرغب في معرفته هو إن كان يسكن هناك الممثل دانييل سانتا كلارا، **سيدي** العزيز، سأتكلّف بأن أبلغ الممثل دانييل سانتا كلارا، عندما يصل إلى البيت، أن أنطونيو كلارو اتصل يسأل إنْ كان الاثنان يعيشان معاً هنا، **لا** أفهمُ، بدأ يقول تيرتوليانو

ماكسيمو أفونسو كي يربح الوقت، لكن المرأة قاطعته فجأة، **إنني** لا أتعرَّفك، ليس من عاداتك أن تقوم بهذا النوع من المزاح، قل مرة واحدة ما تريد، هل تأخرتم في التصوير، أليس كذلك، **عفواً**، سيدتي، ثمة خطأ، أنا ليس اسمي أنطونيو كلارو، **ألستَ** زوجي، سألتهُ، **أنا** فقط شخص يريد أن يعرف إنْ كان الممثل دانييل سانتا كلارا يسكن في هذا البيت، **حسب** الجواب الذي قدّمتُه لك أنت تعلم أنه يسكن هنا، **أجل**، لكن الطريقة التي قلتِ لي بها ذلك تركتني مضطرباً وحائراً، **لم** يكن ذلك هو قصدي، ظننتُ أنها مزحة من زوجي، **كوني** على يقين أنني لستُ زوجَكِ، **يصعب** عليّ أن أصدق ذلك، **ألّا** أكون أنا زوجَك، **أعني** صوتكَ، إنّهُ يشبه تماماً صوتَه، **ذلك** من محض الصدفة، **هذا** النوع من الصدفة لا وجود له، فصوتان، مثل شخصيْن، يمكن أن يتشابها، لكن أن يكونا متطابقيْن إلى هذا الحدّ، لا، **ربما** هو مجرد انطباع لديكِ، **إنّ** كل كلمة تصل إلى هنا كأنها تخرج من فمه، **صراحة** يصعب عليَّ أن أصدق ذلك، **هل** تريد أن تعطيني اسمك حتى أخبره عندما يأتي، **اتركي** هذا الأمر، لا داعي لذلك، ثم إن زوجكِ لا يعرفُني حتى، **هل** أنتَ من المعجبين به، **ليس** كذلك تماماً، **ومع** ذلك، سوف يرغب في معرفة من تكون، **سأتصلُ** في يوم آخر، **لكن** اسمع. انقطعت المكالمة، وبتثاقل وضع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السّماعة.

مرّت الأيام ولم يتصل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. كان راضياً على الطريقة التي جرى بها الحديث مع زوجة أنطونيو كلارو، ويشعر أنه يملك ما يكفي من الثقة ليُعيد الكرّة، لكن، وهو يفكر جيداً، قرّر أن يختار الصمت. لسببين اثنين. الأوّلُ أنّه أدرك أنهُ تروقه فكرةُ تمديد ورفع حجم أجواء الغموض التي ربما تكون مكالمته قد خلقتها، بل كان يتسلى وهو يتخيل الحوار بين المرأة وزوجها، شكوك الزوج حول التطابق التام بين الصوتين، وإلحاح الزوجة على أنها ما كان يمكن أن تخلطهما لولا وجود ذلك التطابق، **أتمنى** أن تكون في البيت عندما سيتصل، ستحكم بنفسك، قد تقول، وسيرد عليها، **إنْ** كان سيتصل، لأنكِ أخبرته بما كان يريد أن يعرف، أنني أسكن هنا، **دون** أن ننسى أنه سأل عن دانييل سانتا كلارا، وليس عن أنطونيو كلارو، **وهذا** هو الغريب في الأمر. **أما** السبب الثاني والأقوى، فهو أنه اعتبر مُبرَّرَةً بشكل نهائي فكرتَهُ السابقة حول مزايا فسح المجال قبل الإقدام على الخطوة الثانية، أي، أن ينتظر انتهاء الدروس والامتحانات، وبعد ذلك، ببال هادئ، يرسم استراتيجيات جديدة من المقاربة والحصار. صحيحٌ أنّ في انتظاره تلك المُهمّةَ المضجرة التي كلفه بها المدير، لكن، خلال

ثلاثة أشهر من العطلة التي أمامه، لا بدّ أن يجد فسحة من الوقت وما يلزم من الاستعداد الذهني للقيام بهذا العمل الإضافي الشاق. تنفيذاً للوعد الذي التزم به، من المحتمل جداً أن يقرر قضاء بضعة أيام مع أمه، لكن شريطة أن يكتشف طريقة مضمونة ليؤكد شبه يقينه بأن الممثل وزوجته لن يخرجا في عطلة مبكراً جداً، يكفي أن نتذكّر السؤال الذي طرحتْهُ المرأة عندما ظنّت أنها تتحدث مع زوجها، **تأخّرَ** التصويرُ، وهذا يدفعنا لنستنتج بكل دقة، أن دانييل سانتا كلارا يشارك في فيلم جديد، وأنه، لو كان مسارُه يسير في خط تصاعدي، كما تبيّن مع فيلم «إلهة الخشبة»، فإن زمن اشتغاله المهني سيتجاوز كثيراً، بقوة الحاجة، زمن اشتغاله كممثل ثانوي كما كان في بداية مشواره. لذا فإنّ دوافع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لتأخير المكالمة، كما رأينا للتو، مُقْنعة وصلبة. لكنها، مع ذلك، لا تجبره على الخمول أو تحكم عليه بذلك. ولم يستبعد أيضاً فكرةَ الذهاب لرؤية الشارع الذي يسكن فيه دانييل سانتا كلارا، رغم الضربة التي تمثلت في ذلك السطل من الماء البارد الذي ألقاه عليه الحسُّ السليم. بل كان يعتبر أن ذلك الاستكشاف، التطلُّعي إن صح التعبير، قد يكون ضرورياً لنجاح العمليات الموالية، لأنه يشكل ما يشبه جساً للنبض، شيئاً يشبه، كما في الحروب الكلاسيكية أو العتيقة، إرسال دورية استكشاف تتحدّدُ مهمتها في تقييم قوى العدو. لحسن حظ سلامته، لم ينس التهكم المناسب للحسّ السليم حول الآثار الأكثر من محتملة لظهوره بوجه مكشوف. صحيحٌ أنه يستطيع أن يطلق لحيته وشاربيه، يضع نظارتين سوداوين فوق أنفه، يحشر رأسه في قبعة، لكن باستثناء القبعة والنظارتين، وهي أشياء يمكن أن يضعها ويخلعها، كان على يقين بأن المزينات ذات الشّعْر، من لحية

وشاربين، إمّا بقرار نزوي من الشركة المنتجة، إمّا بتغيير في السيناريو عند آخر لحظة، بدأت، في نفس تلك اللحظة، تكبر في وجه دانييل سانتا كلارا. وعليه، فإن التنكّر، الضروري لا محالة، يجبُ أن يتشكل من الشعر المستعار المستعمل في كل الحفلات التنكُريّة القديمة والحديثة، ولا تنفع مع هذه الضرورة التي لا يمكن ردُّها تلك المخاوفُ التي انتابته قبل أيام، لمّا بدأ يتخيل الكوارث التي قد تقع، لو أنه ذهب، متنكراً بذلك الشكل، إلى الشركة ليطلب معلومات عن الممثل سانتا كلارا. مثل كل الناس، كان يعرف بوجود محلات متخصصة في بيع وكراء الملابس، والأكسسوارات، وكل الأدوات الضرورية سواء للتظاهر المسرحي أو للمُتحوّلين الذي يمتهنون التّجسس. إنّ فرضية خلطه بدانييل سانتا كلارا أثناء عملية الاقتناء لا يمكن أن تُؤخذ على محمل الجد إلا إذا كان الممثلان نفساهما هما من يتجولان هناك لشراء لحى مستعارة، شوارب وحواجب، شعراً مستعاراً، عصابات لعيون تعاني من عمى كاذب، ثآليل وشامات، حشو داخلي لنفخ الخدود، توسيد من كل الأنواع لكلا الجنسين، دون الحديث عن المساحيق القادرة على خلق تنويعات لونية حسب رغبة الزبون. لم يكن ينقص غير هذا. فشركة إنتاج أفلام تحترم نفسها ينبغي لها أن تملك في مستودعاتها كل ما تحتاج إليه، وإن احتاجت إلى شيء ما تشتريه، وفي حالة ما واجهت صعوبات مالية، أو لأن الأمر لا يستحق العناء، فإنها تكتريه، ولن يتسبب لها هذا في الفقر المدقع. نساء شريفات من بيته كنّ يرهنَّ الأغطية والمعاطف مع حلول أول علامات الحرّ، ومع ذلك لم تكن حياتهن أقل جدارة باحترام المجتمع، الذي يجب أن يعرف ما هي الضروريات. ثمة شكوك فيما كُتب للتو، من كلمة شريفات حتى

كلمة الضروريات، إنْ كانت من فعل تفكير تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكن هذه الكلمات كما تلك التي يمكن أن نقرأها بينها تمثل أقدس وأطهر أشكال الحقيقة، وعليه فإنه سيكون من المؤسف المرور عليها من دون ذكرها. الآن، وبعد تجاوز كل المراحل، يمكن أن نكون مطمئنين ونحن على يقين من أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بوسعه أن يذهب إلى محل أدوات التنكر وسلع أخرى، يختار ويقتني نوع اللحية التي تناسب وجهه، في احترام تام للشرط الضروري الذي يقول بأن اللحية المعروفة باسم الحلقة العقديّة، حتى لو حولته إلى حكَمٍ في الأناقة، يجب أن تُرفض بحزم من دون مساومة ومن دون الخضوع لغواية تخفيض في الثمن، لأن تصميمها من أذن إلى أخرى، وشعرها المقصوص بشكل قصير جداً، من دون الحديث عن عري الشفة العليا، قد تتركُ الملامحَ التي من المفروض أن تخفيها عرضةً لضوء النهار القاسي. ولأسباب نقيضة تماماً، ينبغي استبعاد أي نوع من اللحى الطويلة، حتى تلك التي تنتمي إلى النوع البابوي. والأنسب هو أن تكون لحية كثة، تنحو إلى القصر أكثر ما تميل إلى الطول. سيقضي تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ساعات طوال يجرب أمام مرآة الحمام، يلصق ويقلع الشريط الدقيق حيث يوجدُ الشعر مغروساً، يعدله بعناية مع الفكّين، الأذنين والشفتين، وخاصة مع هاتين الأخيرتين، لأنهما تضطران للحركة من أجل الكلام بل وحتى من أجل الأكل أو أيضاً، من يدري، من أجل التّقبيل. عندما نظر لأول مرة إلى هيئته شعَرَ بتأثير داخلي قوي، بذلك الخفقان الحميمي والمُلحّ في ضفيرته الشمسية الذي يعرفه حقّ المعرفة، لكن الصدمة لم تكن من النتيجة، أن يرى نفسه مختلفاً عما كان من قبل، بكل بساطة، بل، وهذا هو الأكثر أهمية، لو أخذنا بعين الاعتبار

الوضعية التي عاشه في الآونة الأخيرة، وعياً بذاته مختلفاً أيضاً، كما لو أنه، أخيراً، اكتشف هويته الخاصة والحقيقية. كأنه، وهو يبدو مختلفاً، أصبح هو ذاته بشكل أكبر. كان انطباع الصدمة قوياً جداً، وبرّانياً جداً ذلك الإحساس بالقوة التي سيطرت عليه، وحماسياً للغاية ذلك السرور الذي غمره لدرجة أن حاجة مقلقة بالحديث مع الصورة جعلته يغادر البيت، متخذاً كل الحذر حتى لا يراه أحد، ويتوجه إلى محلّ تصوير بعيداً عن الحي الذي يقطنه، حتى يأخذ لنفسه صورة. لم يكن يرغب في أن يُخضع نفسه لضوء وآليات مصوّر أوتوماتيكي، بل يريد صورة مأخوذة بكل عناية، يحلو له أن يحتفظ بها ويستطيع أن يقول في نفسه، **هذا** أنا. أدى ثمن الخدمة السريعة وجلس ينتظر. اقترح عليه المستخدم أن يقوم بجولة، لتزجية الوقت، **قد** يستغرقُ ذلك بعض الوقت، فأجابه لا، إنه يفضل أن ينتظر هناك، ثم أضاف، من دون حاجة إلى ذلك، **إنها** هدية. من حين لآخر، كان يرفع يديه إلى لحيته، كأنه يُمسّدها، فيتأكد باللمس أن كل شيء يبدو في مكانه ثم يعود إلى مجلات الصور المعروضة فوق الطاولة. عندما غادر كان يحمل معه نصف دزّينة من الصور من الحجم المتوسط، التي كان قد قرر تمزيقها حتى لا يضطر ليرى نفسه مضاعفاً، وكان يحمل أيضاً صورة مكبّرة الحجم. دخل إلى مركز تجاري قريب، ولجَ المرحاض، وهناك، بعيداً عن العيون الفضولية، خلع لحيته المستعارة. لو أنّ أحدهم رأى رجلاً ملتحياً يلج المراحيض، فمن الصعب أن يقسّم بأن هو هذا، الذي خرج، بوجه أجْرد، خمس دقائق بعد ذلك. عموماً، لا يكون هناك تركيز على ما يرتديه رجلٌ ذو لحية من ملابس، وذلك الظرف الفاضح الذي دخل يحمله في يده، هو الآن مخبأ بين معطفه وقميصه. إنّ تيرتوليانو

ماكسيمو أفونسو، إلى غاية ذلك اليوم أستاذ مادة التاريخ المسالم في الثانوية، قد أبان عن موهبة كافية لممارسة أي واحدٍ من هذين النشاطيْن المهنييْن، إما مجرماً متنكراً، أو شرطياً مُحقّقاً. لنُهمل الوقتَ وقتاً، وسنرى أيّ موهبة ستكون لها الغلبة. عندما وصل إلى البيت بدأ يحرق في المغسلة النسخ الست الصغيرة من صورته المكبّرة، ثم أطلق الماء الذي سحبَ الرّمادَ إلى بالوعة صرْفِ المياه، ثم، بعد أن تأمل راضياً صورته السرية الجديدة، أعادها إلى الظرف الذي ذهب ليخبئه في رفّ من رفوف المكتبة، خلف كتاب «تاريخ الثورة الصناعية» الذي لم يقرأه قطّ.

مرّت عدة أيام أخرى، وانتهى الموسم الدراسي مع الامتحان النهائي ونشْر آخر ترتيب للتلاميذ، فودّعه زميله أستاذ الرياضيات، **سأذهبُ** في عطلة، لكن، بعد ذلك، إنْ احتجت إلى شيء ما، اتصل بي، وكن حذراً جداً، جداً، كما ذكّرهُ المديرُ، **لا تنس** ما اتفقنا عليه، عندما سأعود من العطلة، سأتصل بك لأعرف كيف يسير العمل، إذا قررتَ أن تغادر المدينة، لأنه من حقك أن ترتاح أيضاً، اترُكْ لي رقم هاتفك في المجيب الآلي. ذات يوم، دعا تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ماريّا دا بّاش إلى العشاء، لأنه كان يشعر بالذنب من الفظاظة التي عاملها بها، من دون أن يقدم لها ولو إشارة شكر شكلية، ولو تفسيراً حول نتائج الرسالة، حتى إن اضطر لابتكارها. التقيا في المطعم، وصلت متأخرة بعض الشيء، وألقت باللائمة على أمها، ولا أحد يستطيع أن يقول، وهو يراهما، إنهما عشيقان، أو يلاحظ أنهما كانا كذلك حتى وقت قريب وأنهما لم يستأنسا على وضعهما الجديد من اللامبالاة بينهما، أو يتظاهرا بأنهما كذلك. نطقا بعبارات ظرفية، كيف حالك، **ماذا** فعلت، **عمل** كثير، **أنا** أيضاً،

وعندما تردّد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مرة أخرى حول الوجهة التي يريد أن يدفع بالحديث نحوها، سبقته وقفزت إلى الموضوع، **هل** استجابت الرسالة لرغباتكَ، سألتهُ، هل زوّدتْكَ بكل ما كنتَ تحتاج إليه من معلومات، **نعم**، قال، واعياً تماماً أن جوابه كان حقيقياً وزائفاً، في الوقت ذاته، **أنا**، وقتئذ، لم يكن لديّ هذا الانطباع، **لماذا**، **قد** ننتظر أن تكون أكبر حجماً، **لا** أفهم، **إنْ** كنتُ أتذكر جيداً، كانت المعطيات التي تحتاجُ إليها كثيرة ودقيقة جداً حتى أن ورقة واحدة لا تتسع لها، وداخل الظرف لم يكن أكثر من هذا، **وأنتِ** كيف تعرفين ذلك، هل فتحته، سألها فجأة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بنبرة لاذعة وهو يعرف مسبقاً أي جواب سيتلقى على استفزازه المجاني. حدّقت ماريّا دا بّاش مباشرة في عينيه وقالت هادئة، **لا**، وعليك أن تعرف ذلك، **أرجوكِ** أن تسامحيني، خرجت من فمه من دون تفكير، **يمكن** أن أسامحكَ، إن كنت تلح على الأمر، لكني أخشى ألا أذهب أبعد من ذلك، **أبعد** من ذلك إلى أين، **مثلاً**، أنْ أنسى أنك اعتبرتني قادرة على فتح رسالة موجهة إليكَ، **في** قرارة نفسكِ، أنت تعرفين أن هذا ليس هو ما أفكر فيه، **في** قرارة نفسي، أعرف أنكَ لا تعرف شيئاً عني، **لو** كنتُ أتوجس منكِ، ما طلبتُ منكِ أن أبعث الرسالة باسمكِ، **على** فكرة، هناك لم يكن اسمي غير قناع، قناع لاسمكَ، قناع لكَ، **شرحتُ** لك الأسباب التي جعلتني أعتبر مناسباً ذلك الإجراء الذي اتخذناهُ، **شرحتَ** ذلك، **ووافقتِ** على الأمر، **نعم**، وافقتُ، **إذن**، **إذن**، انطلاقاً من الآن أنتظر أن تُطلعني على المعلومات التي تقول إنك توصلتَ بها، ليس لأنني مهتمة بها، بل لأنني أرى أنه من واجبك أن تطلعني عليها، بكل بساطة، **الآن** أنتِ من تتوجسين مني، **نعم**، لكني سأكفّ عن

التوجس إنْ قلتَ لي كيف يعقل أن تتسع ورقة بسيطة لكل ما طلبتَه من معلومات، **كلا** لم يُزوّدوني بكل المعلومات، **آه**، لم يزودوكَ بكل المعلومات، **هذا** ما قلتُ، **إذن**، يجب أن تطلعني على ما حصلت عليه. كان الطعام يبرد في الصحنيْن، ومرق اللحم يتخثّر، النبيذ ينام منسياً في الكأسيْن، وكانت ثمة دموع في عينيْ ماريّا دا بّاش. في لحظة ما، فكّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه قد يتنفّس الصعداء وهو يحكي لها القصة من البداية، تلك القضية الغريبة، الفريدة، المدهشة للرّجل المُكرّر، ما لا يمكنُ تصوره وقد صار حقيقة، العبث المتصالح مع العقل، البرهان الكامل على أنه لا شيء يستحيل على الرّب وأنّ علْم هذا القرن هو في الحقيقة، كما قال أحدهم، علمٌ غبيّ. لو فعل ذلك، لو تحلى بتلك الصراحة، فإن أفعاله المحيّرة السابقة قد تجد تفسيراً من ذاتها، بما فيها تلك الأفعال الخشنة تجاه ماريّا دا بّاش وتلك التي، باختصار كما بإطناب، كانت قد أهانت أكثر أشكال الحسّ السليم بساطةً، أي كل أفعاله تقريباً. وحينئذ سوف يسود الوفاق من جديد، وستُغتفرُ كل الأخطاء والزلّات من دون شروط ولا تحفّظات، وستَطلُبُ منه ماريّا دا بّاش، **لا** تستمر في هذا الجنون، لأنه يمكن أن يسفر عن نتائج سيئة، وقد يجيبها، **تبدينَ** مثل أُمّي وهي تتحدث، فتسأله هي، **هل** أخبرتَها، وسيقول لها **فقط** لمّحتُ لها بأنني أعاني من بعض المشاكل، **فتنهي** كلامها قائلة **الآن** وقد قلتَ لي كل ما كان يجثم على صدرك، سنحلّ ذلك معاً. كانت الموائد المشغولة قليلة، وكانا يجلسان في زاوية من المطعم لا يبالي بهما أحد، وكانت وضعية كهذه، لأزواج يأتون لحل خلافاتهم العاطفية أو المنزلية بين سمكٍ ولحمٍ أو، أسوأ من ذلك، لأن ذلك قد يستغرق وقتاً أطول، بين المقبلاتِ وأداء الحساب، تشكلُ جزءاً

لا يتجزأ من الحياة اليومية لهذا النوع المحلات، سواء تعلق الأمر بمطاعم فخمة أو حقيرة. فكرة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الحسنة تبخرت بالسرعة التي ظهرت بها، وجاء النادل يسأل إن كانا قد انتهيا ثم سحبَ الصحنيْن، وكانت عينا ماريّا دا بّاش شبه جافتيْن، وكما قيل من قبل ألف مرّة لا داعي للبكاء على اللبن المسكوب، والأفظع هو ما حلّ بالجرّة التي كانت تحويه، وهي الآن ألف شظية على الأرض. جاء النادل بالقهوة والحساب كما طلب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وبعد دقائق كانا معاً داخل السيارة. سآخذُكِ إلى البيت، قال، **حسناً**، نعم، أجابتهُ. لم يتحدثا حتى دخلا الشارع حيث تسكنُ ماريّا دا بّاش. قبل أن يصلا عند الباب الذي كان ينبغي لها أن تنزل قبالته، ركن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السيارة عند الرصيف وأطفأ المحرك. فاجأتها حركته غير المتوقعة، نظرت إليه بطرف العين، لكنها ظلت صامتة. من دون أن يدير وجهه، وبصوت حازم، لكنه متوتر، قال، **كُلُّ** ما سمعتِه على لساني في الأيام الأخيرة، بما في ذلك الحديث الذي دار بيننا في المطعم، كان كذباً، لكن لا تضيعي وقتاً في السؤال عن الحقيقة لأنني لن أكون قادراً على أن أجيبكِ، **إذن**، ما كنتَ تريدُه فعلاً من الشركة المنتجة لم يكن تفاصيل إحصائية، **تماماً**، **أظنُّ** أنه سيكون من دون جدوى من طرفي أن آمل أن تقول ماذا كان الدافع الحقيقي وراء اهتمامك، **نعم**، **ربما** يكون له علاقة بأشرطة الفيديو التي لديك في البيت، أتصورُ، **اكتفي** بما قلتُه ودعكِ من الأسئلة والتخمينات، **أسئلة**، أعدكَ بأنني لن أطرحها، لكني حرة لأقوم بما أرغب فيه من تخمينات، حتى وإن بدت لك حماقات، **غريب** أنكِ لم تندهشي، **أندهشُ** من أي شيء، **أنتِ** تعرفين ما أقصد، لا تجبريني على تكراره، **آجلاً** أم عاجلاً يجب

أن تخبرني بذلك، ما لم أكن أنتظره هو أن تقوله لي اليوم، **ولماذا** يجب أن أقول لك ذلك، **لأنكَ** أكثر نزاهة مما تعتقدُ، **على** أي حال، لستُ نزيهاً بما يكفي كي أقول لك الحقيقة، **لا** أظنُّ أن السبب هو غياب النزاهة، ما يُغلقُ فمكَ شيءٌ آخر، **ما** هو، **شكٌّ**، قلقٌ، خوفٌ، **ما** الذي يدفعكِ للتفكير بهذا الشكل، **قرأتُه** في وجهكَ، أدركتُه من كلماتكَ، **قلتُ** لكِ إنها تكذبُ، **الكلماتُ** تكذبُ لكن نبرتها لا تكذبُ، **حان** الوقتُ لاستعمال عبارة السياسيين، لا أؤكّدُ ولا أكذِّبُ، **هذه** من حيل البلاغة المنحطة التي لا تنطلي على أحد، **لماذا**، لأن أي شخص يرى بسرعة أن الجملة تميل إلى التأكيد أكثر ما تميل إلى التكذيب، **لم** أنتبه قط لذلك، **وأنا** كذلك، خطر لي ذلك الآن بالضبط، وكان بفضلكَ أنتَ، **لم** أؤكد الخوف، ولا القلق، ولا الشك، **نعم**، لكنك، لم تكذبها، **ليس** الوقت مناسباً كي نتسلى باللعب بالكلمات، **هذا** أحسن من الدموع في العيون على مائدة في مطعم، **سامحيني**، **هذه** المرة ليس لدي ما أسامحك عنه، لقد صرتُ أعرف نصف ما كان عليّ أن أعرف، لا يمكنني أن أشتكي، **لم** أعترف سوى بأن ما قلتُه كان كذباً، **وهذا** نصفُ ما أعرفُه، انطلاقاً من هذه اللحظة أتمنى أن أنام مرتاحة، **ربما** يهجرُكِ النوم لو عرفت النصف الآخر، **لا** تُخفني، من فضلك، **ليس** هناك من سبب لذلك، اطمئني، ليس ثمة هنا من موت إنسان، **لا** تُخفني، **اطمئني**، كما تقول أمي عادة، كل شيء يجد حلاً في النهاية، **عِدْني** أنكَ ستكون حذراً، **أعِدُكِ**، **كُنْ** حذراً جداً، **أجل**، **وأنْك**، متى وجدتَ في كل الأسرار التي لستُ قادرة على تصورها شيئاً يمكن أن تقوله لي، قلهُ لي، حتى لو بدا لك تافهاً، **أعدُكِ**، لكن، في هذه الحالة، ما لم يكن كل شيء، يكون لا شيء، **ورغم** ذلك، سوف أنتظرُ. انحنت ماريّا دا

بّاش، قبّلتْهُ قبلة سريعة على وجهه وقامت بحركة تهمُّ بالخروج. وضع يدهُ على ذراعها وأوقفها، **ابقي**، لنذهب إلى بيتي. انفكت منه بلطف وقالت، **اليوم** لا، لن تستطيع أن تعطيني أكثر مما أعطيتني، **إلّا** إذا حكيتُ لك ما تبقّى، **حتى** هذا، تصوّرْ ذلك. فتحت الباب، التفتت مودّعةً بابتسامة وخرجت. شغّلَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو المحرّك، انتظر أن تدخل إلى العمارة، وبعد ذلك، بحركة متعبة، حرّك السيارة وذهب إلى البيت، وهناك، صبورةً وواثقةً من قوتها، كانت الوحدةُ في انتظاره.

في اليوم التالي، عند منتصف الصباح، ذهب في أوّل استكشاف للمكان المجهول الذي كان يعيش فيه دانييل سانتا كلارا مع زوجته. كان يضع لحية مستعارة أُلصقت بعناية على وجهه، قبعة كان الهدف منها أن تمدّ ظلّاً حامياً على عينيه اللتين قرّر، في آخر لحظة، ألّا يخفيهما وراء نظارتيْن سوداويْن لأن ذلك يعطيه، كما بقية التنكر، هيئةَ شخصٍ خارجٍ عن القانون يستطيعُ أن يثير شكوك الجيران فيكون بذلك سبباً في مطاردة بوليسية كما ينبغي، مع ما يترتب عن ذلك من عواقب منتظرة، من قبضٍ، وتحقيقٍ للهوية وخزيٍ أمام الملأ. لم يكن ينتظر أن يستجمع معلومات ذات أهمية خاصة من تلك الغارة، بل على الأكثر سيعلم شيئاً عن ظاهر الأشياء، طوبوغرافيا المكان، الشارع، العمارة، وقليلاً من أمور الأخرى. وقد يكون من قمة الصدف أن يعاين دخولَ دانييل سانتا كلارا إلى بيته، وآثار الماكياج ما تزال على وجهه الذي يبدو حازماً، حائراً، كمن تأخر كثيراً في الخروج من جلد الشخصية التي كان يلعبُها قبل ساعة. إن الحياة الواقعية دائماً تبدو لنا أكثر شحاً بالصدف من الرواية وأشكال التخييل الأخرى، إلا إذا قبلنا بأن مبدأ

الصدفة هو المحدد الحقيقي والوحيد للعالَم، وفي هذه الحالة ينبغي أن تكون نفس القيمة لما يُعاشُ ولما يكتبُ، والعكس بالعكس. خلال نصف الساعة التي ظلَّ خلالها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هناك، يتوقف ليشاهد الواجهات الزجاجية ويشتري الجريدة، ثم يقرأ بعد ذلك الأخبار وهو جالس في ساحة قرب العمارة بالضبط، لم ير دانييل سانتا كلارا يدخل أو يخرج. ربما هو الآن يرتاحُ في هدوء البيت مع زوجته، وأبنائه، إذا ما كان له أبناء، ربما، مثل اليوم السابق، يكون منشغلاً بتصوير الأفلام، ربما لا يوجد أحدٌ في الشقة، الأبناء لأنهم ذهبوا في عطلة إلى بيت جدّيهما، والأمّ، كما في مرات أخرى كثيرة، تشتغل خارج البيت، إما لتدافع عن استقلاليتها الذاتية، وإما لأن ميزانية الزوجيْن لا يمكن أن تستغني عن مساهمتها، لأن مداخيل ممثل ثانوي، في الحقيقة، مهما انتقل جاهداً من دور صغير إلى دور صغير آخر، مهما فعلت الشركة المنتجة وأبرمت معه عقداً ضمنياً يقضي بحصرية توظيفه بانتظام، فإنها تخضع لمعايير العرض والطلب التي لا تحددها الحاجيات الضرورية للفاعل، بل فقط مواهبه ومهاراته المفترضة، تلك التي يتفضل الآخرون بالاعتراف له بها أو تلك التي تُنسبُ له بنيّة خفية وسلبية دائماً تقريباً، فتكون أقل حضوراً، وتستحق أن توضع تحت المحك. يعني هذا أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ربما يصبح فناناً كبيراً لو اختارهُ الحظُّ حتى تراه عينا مُنتجٍ ثاقبِ النظر يحبُّ المجازفة، من ذلك النوع الذي يعجبه أن يدمّر نجوم الدرجة الأولى، وليس من النادر أن يدفع بشكل رائع نحو الضوء بنجوم من الدرجة الثانية والثالثة. إنّ إمهال الوقتِ شيئاً من الوقت كان دائماً أحسن حلّ منذ كان العالَمُ عالماً، ودانييل سانتا كلارا رجل ما يزال

شاباً، بوجه لطيف، هيئة لائقة ومواهب تمثيل لا يمكن إنكارها، لن يكون من العدل أن يقضي بقية حياته في لعب أدوار موظفي استقبال في الفنادق أو أدوار أخرى من نفس الشاكلة. رأيناه في الآونة الأخيرة يلعبُ دور مقاول مسرحي في فيلم «إلهة الخشبة»، ثم ذُكر اسمه أخيراً كما ينبغي في مقدمة الفيلم، ربما يكون ذلك مؤشراً على أنهم بدأوا ينتبهون إليه. هناك، أينما كان، ينتظره المستقبل ولو أن هذه ليست ملاحظة أصيلة جداً. من لا يستطيعُ أن ينتظر أكثر، مخافة أن تُسجّلَ الذاكرةُ التصويرية لنُدل المقاهي السوادَ المقلق لهيئته، لأننا نسينا أن نذكر بأنه ارتدى بذلة سوداء والآن، بسبب ضوء الشمس القوي، لجأ لحماية النظارتيْن، هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. ترك النقود فوق المائدة حتى لا يضطر لمناداة النادل ثم توجّه نحو كشك هاتف في الرصيف المقابل. أخرج من الجيب العلوي لمعطفه ورقة بها رقم هاتف دانييل سانتا كلارا ثم ركّبه. لم يكن يريد أن يتكلّم، فقط يريد أن يعرف إن كان هناك أحد يجيب، ومن يكون. هذه المرة، لم تأت امرأة تركض من الطرف الآخر من البيت، ولم يقل طفلٌ **لا** أمي ليست في البيت، ولم يُسمع صوتٌ مطابق لصوت تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يسأل **من** معي. لا بدّ أنها في العمل، فكّر، وهو من دون شك منشغل بالتصوير، يقوم بدور شرطي المرور أو دور مقاول في الأشغال العمومية. خرج من الكشك وألقى نظرة على ساعته اليدوية. كانت تقترب ساعة الغداء، لن يأتي أي واحد منهما إلى البيت، قال، وفي تلك اللحظة مرّت امرأةٌ، لم يتمكن من رؤية وجهها، كانت تقطع الشارع وتتجه نحو المقهى، كأنها تريد بدورها أن تجلس في ساحة المقهى، لكنها لم تفعل، تابعت سيرها، مشت بضع خطوات أخرى ثم ولجت العمارة

حيث يسكن دانييل سانتا كلارا. علت وجْهَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو تكشيرةُ انزعاج لا يمكن ردعه، **إنها** هي من دون شك، همهم، إنّ أكبر عيب في هذا الرجل، على الأقل منذ عرفناه، هو الخيال المفرط، صراحة لا أحد قد يقول إنه أستاذ لمادة التاريخ لا ينبغي أن تهمه غير الوقائع، فقط لأنه رأى ظهر المرأة التي مرت للتو وها هو يتخيل هويتها، وفوق ذلك امرأة لا يعرفها، لم يرها قط، لا من الخلف، ولا من الأمام. لكن ينبغي إنصافُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لأنه، رغم ميوله إلى الاهتياج التخييلي، ما زال يستطيع، في لحظات حاسمة، أن يضع فوقها برودة تقدير قد يشحب لها من الحسد أكبر محترفي البورصة حنكةً. هناك، بالفعل، طريقة بسيطة، بدائية حتى، كما في كل الأمور، أن نعرف إن كانت وجهة المرأة التي ولجت العمارة هي بيتُ دانييل سانتا كلارا، يكفي انتظار بضع دقائق، نسمح للمصعد أن يصعد إلى الطابق الخامس حيث يسكن أنطونيو كلارو، ننتظر أيضاً أن تفتح الباب وتدخل، دقيتيْن أخريَيْن كي تضع حقيبتها فوق الأريكة، تأخذ راحتها، لا يصح أن نجبرها على أن تجري كما حدث في المرة السابقة، كما كان يظهر جلياً من تنفسها. رنّ الهاتفُ وظل يرنّ، ويرنّ، ويرنّ، لكن لا أحد ردّ عليه. في نهاية الأمر، لم تكن هي، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يضع السّماعة. لم يعد له ما يقوم به هنا، لقد انتهت أول عملية اقتراب تمهيدية يقوم بها، وكانت كثير من العمليات السابقة ضرورية تماماً لنجاح هذه العملية، لم يكن مجدياً أن يضيع وقته مع علميات أخرى، لكن هاته، على الأقل، كانت مفيدة في خداع شكوكه، قلقه، مخاوفه، كما سمحت له أن يتظاهر بأنه يفكر في أن التخبُّط يعادل التقدم وأن أحسن معنى لفعْلِ تراجعَ هو التفكير عميقاً. كان

قد ترك السيارة في شارع قريب ويتوجه إلى هناك. انتهت مهمته التجسسية، وهذا ما قد نظنه، لكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يستطيع أن يكف عن التحديق قوياً بعينيه في كل النساء اللواتي يصادفهن، ما الذي عساهن يفكرن فيه، لكنه لا يحدق فيهن جميعاً بالضبط، إذ توجد خارج مجال بصره المسنات كثيراً أو الشابات كثيراً لأنهن لا يمكن أن يتزوجن رجلاً في الثامنة والثلاثين من عمره، هذه هي سنّي، وعليه فلا بدّ أن تكون سنُّه أيضاً، وبهذا الخصوص، إنْ صح التعبير، تشعبت أفكار تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، بعضها تُشكّك في الفكرة التمييزية الكامنة في إشارته إلى الاختلافات العمرية في الزواج أو ما شابهه من عمليات القران، مما يضفي شرعية على الأحكام المسبقة للإجماع الاجتماعي التي أدت إلى مفاهيم متذبذبة، رغم أنها راسخة، حول ما هو لائق وما هو غير لائق، والباقي، نريد أن نتحدث عن الأفكار، للردّ على الفرضية المعبَّر عنها لاحقاً، والمبنية على أساس أن الواحد صورة مطابقة للآخر، حسب ما برهنت عليه دلائل الفيديو، بأن أستاذ التاريخ والممثل لهما نفس السّن بالضبط. بخصوص الفرع الأول من أفكاره، لم يجد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بُداً من الإقرار بأن كل إنسان، إلا في حالة عوائق أخلاقية ذات طبيعة خصوصية، له الحق في أن يقترن بمن يحلو له، أينما شاء وكيفما أراد، ما دام الطرف الآخر موافقاً على ذلك. وأما بخصوص الفرع الثاني من الأفكار، فكانت تفيد في أن تبعث فجأة في ذهن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الآن لأسباب أكثر قوة، السؤال المقلق المتمثل في تحديد من يكون نسخة للآخر، بعد أن استُبعدت، لأنها غير قابلة للتصديق، فرضيّةُ أنهما وُلدا ليس فقط في نفس اليوم، بل في نفس الساعة، في نفس

الدقيقة وفي نفس الجزء من الثانية، لأن هذا يعني أنهما، في نفس اللحظة التي رأيا فيها النور ربما يكونان قد عرفا فيها البكاء أيضاً. مصادفات، هذا صحيح، لكن شريطة أن تحترم الحد الأدنى من الاحتمال الذي يشترطه الحسُّ السليم. صارت إمكانية أن يكون هو أصغر الاثنين تقلقُ الآن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، كما يقلقه احتمال ألّا يكون هو الأصل وأنه مجرد تكرار محتقر سلفاً. كما هو واضح، لم تكن قدراته العديمة في التكهن تسمح له وسط ضباب المستقبل أن يرى إن كان سيكون لهذا الأمر تأثيرٌ ما على مُستقبلٍ لدينا كل الأسباب لنصفه بأنه منيع، لكن بما أنه اكتشف وحده تلك القدرة الخارقة التي نعرف أنها خلقت في نفسه، دون أن يعلم بذلك، ما يشبه وعياً بالبُكورة يتمرّدُ في هذه اللحظة ضد ما يهدده، كما لو أن أخاً طموحاً غير شرعي يصارع لتنحيته عن العرش. غارقاً في هذه الأفكار الجدية، تنخره هذه المخاوف المخاتلة، دخل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو ما يزالُ يضع اللحية إلى الشارع حيث يسكن ويعرفه كل الناس، مجازفاً بأن يشرع أحدهم في الصياح بأنهم يسرقون سيارة الأستاذ أو أن يقطع أحدُ الجيران طريقه مستعملاً سيارته. لكن التضامن فقد الكثير من مزاياه القديمة، ونستطيع أن نقول لحسن الحظ، في هذه الحالة، لأن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو تابع طريقه من دون عراقيل، دون أن يُظهرَ أحدٌ دليلاً على أنه تعرّفه أو تعرّفَ السيارة التي يقودها، فترك الحيَّ وما جاوره، لأنه، بما أن العادة جعلت منه زائراً يتردد بكثرة على المراكز التجارية، ولج أول مركز تجاري لاح له. بعد عشر دقائق، كان قد خرج من هناك حليق اللحية تماماً، إلّا من الشعر الدقيق الذي نبت فيها منذ الصباح. حين وصل إلى بيته، وجد مكالمة

لماريّا دا بّاش في المجيب الآلي، لا شيء ذا أهمية، فقط تريد أن تعرف حاله. أنا بخير، همهم، أنا بخير جداً. وعد نفسه أن يتصل بها تلك الليلة تحديداً، لكن من المحتمل جداً ألّا يفعل ذلك إنْ هو قرّر أن يقوم بالخطوة المتبقية، تلك التي لا يمكنُ أن تتأخّرَ ولو لصفحة واحدة أخرى، أن يتصل بدانييل سانتا كلارا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هل يمكن أن أتحدث إلى السيد دانييل سانتا كلارا، سأل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عندما ردّت زوجتُه على الهاتف، **أظنُّ** أنك نفس الشخص الذي اتصل في المرة الأخيرة، إنني أتعرّفُك من صوتكَ، **نعم**، إنه أنا، **اسمُكَ**، من فضلك، **لا** أظنُّ أن ذلك أمر مهم، زوجُكِ لا يعرفني، **كما** أنكَ لا تعرفُه أيضاً، ومع ذلك تعرف اسمهُ، **هذا** طبيعي، **فهو** ممثل وشخصية معروفة، **كلنا** تقريباً شخصيات معروفة، فقط يختلف عدد المتفرجين الذين يتابعون عروضنا، **اسمي** ماكسيمو أفونسو، **لحظة**. وُضعت السماعة على الطاولة، ثم رُفعت من جديد، وسيتكرّر صوتُ الاثنين مثل مرآة تتكرّر قبالة مرآة أخرى، **أنا** أنطونيو كلارو، ماذا تريد، **اسمي** تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وأنا أستاذ التاريخ في التعليم الثانوي، **قُلتَ** لزوجتي إن اسمك هو ماكسيمو أفونسو، **من** باب الاختصار، هذا هو اسمي الكامل، **حسناً**، ماذا تريد، **لا** بدّ أنك لاحظتَ أن صوتيْنا متطابقيْن، **أجل**، **إنهما متطابقان** تماماً، **هذا** ما يبدو، **كانت** لي فرص عديدة للتأكد من ذلك، **كيف**، **شاهدتُ** بعض الأفلام التي شاركتَ فيها خلال السنوات الأخيرة، كان أولها كوميديا قديمة تحمل عنوان «الإلحاحُ هو سرّ النجاح»، وآخرها بعنوان «إلهةُ الخشبة»، أقدّرُ أنني

شاهدتُ، في المجموع، حوالي ثمانية أو عشرة أفلام، **أعترفُ** أنني أشعر بالإطراء الكبير، ما كنتُ أتصوّرُ أن هذا النوع من الأفلام التي اضطررتُ للمشاركة فيها خلال بعض السنوات يمكن أن تثير اهتمام أستاذٍ لمادة التاريخ، يجبُ أن أقول، مع ذلك، إنّ الأدوار التي ألعبُها الآن مختلفة جداً، **لديّ** سبب وجيهٌ لمشاهدتها وعن هذا السبب أودُّ أن أتحدث معك شخصياً، **لماذا** شخصياً، **إننا** لا نتشابه في الصوت فقط، **ماذا** تقصد، **إنّ** أي شخص يرانا معاً قد يقسمُ بحياته الخاصة أننا توأمان، **توأمان**، أكثر من توأمين، متطابقان، متطابقان، **متطابقان**، كيف، **متطابقان**، بكل بساطة، **سيدي** العزيز، أنا لا أعرفُك، بل لست متأكداً حتى من أنّ اسمك هو هذا وأنك تزاول مهنة مؤرخ، **أنا** لستُ مؤرخاً، أنا فقط أستاذ لمادة التاريخ، أما بخصوص الاسم فلم يكن لي غيره قط، نحن لا نستعمل أسماء مستعارة في التعليم، بطريقة أو بأخرى، نُدرّسُ بوجه مكشوف، **ليس** هذا هو مكان مثل هذه الاعتبارات، لنترك حديثنا عند هذا الحد، لديّ ما أقوم به، **إذن**، أنت لا تصدقُني، **أنا** لا أصدّقُ المستحيل، **هل** لديك شامتيْن في ساعدك الأيمن، واحدة قرب الأخرى، بشكل طولي، **لديّ**، **أنا** أيضاً، **هل** لديك ندبة تحت ركبتك اليسرى، **نعم**، **أنا** أيضاً، **وكيف** تعرف كل هذا إنْ كنا لم نلتق قط، **كان** أمراً بسيطاً بالنسبة لي، رأيتُكَ في مشهد على الشاطئ، لا أذكر الآن في أيّ فيلم، كانت لقطة كبيرة، **وكيف** لي أن أعرف أن لك نفس العلامات التي عندي، ونفس الندبة، **إنَّ** معرفة ذلك تتوقف فقط عليك أنت، **إنّ** الأمور غير الممكنة في صدفة ما لامتناهية، **والأمور** الممكنة أيضاً، صحيح أن العلامات في الواحد وفي الآخر يمكنُ أن تكون خلقية أو تظهر بعد ذلك، مع الزمن، لكن ندبة تكون دائماً نتيجة حادثة أصابت

جزءاً من الجسم، وقد تعرّضنا معاً لهذا الحادث، وفي نفس المناسبة، بكل ترجيح، **مع** التسليم بوجود هذا التشابه المطلق، لاحظْ أنني لا أسلّم به إلا كفرضية، لا أرى أي سبب كي نلتقي، ولا أفهم لماذا اتصلتَ بي، **من** باب الفضول، من باب الفضول لا غير، إننا لا نصادف شخصين متطابقيْن كل يوم، **عشتُ** حياتي بكاملها من دون معرفة هذا الأمر، ولا حاجة لي به، **لكنكَ** تعرفهُ انطلاقاً من الآن، **سأتظاهرُ** بأنني لا أعرفه، **سيحدثُ** لك ما حدثَ لي، كلما نظرتَ إلى وجهك في المرآة لن تكون متأكداً إن كان ما تراهُ هو صورتك الافتراضية، أو صورتي الحقيقية، **بدأتُ** أعتقد أنني أتحدث مع مجنون، **تذكَّر** الندبة، لو كنتُ مجنوناً، فمن المحتمل أن نكون مجنونين معاً، **سأتصل** بالشرطة، **أشكُّ** في أن تهتم السلطات الأمنية بهذا الموضوع، أنا قمتُ فقط بإجراء مكالمتيْن هاتفيتيْن أسأل عن الممثل دانييل سانتا كلارا الذي لم أوجّه له تهديداً، لم أشتمه، ولم أُصبه بأذى بأي حال من الأحوال، أتساءل أين هي جريمتي، **لقد** أزعجتنا، أنا وزوجتي، لذا لنضع حداً لهذا الأمر، سأضع السماعة، **هل** أنت متأكد من أنك لا تريد أن تلتقي بي، ألا تشعر بشيء من الفضول، **لا** أشعرُ بالفضول، ولا أريد أن ألتقي بك، **هل** هذه هي كلمتُك الأخيرة، **الأولى** والأخيرة، **إنْ** كان الأمر كذلك، أرجو أن تسامحني، لم يكن قصدي شيئاً أكثر من هذا، **تعنُني** أنك لن تتصل مرة أخرى، **أعدُكَ**، **لدينا** الحق في الراحة، في خصوصية البيت، **هو** كذلك، **يسعدُني** أن تكون موافقاً، **في** كل هذا الأمر، اسمح لي أن أقول لك أيضاً هذا، لديّ شكّ وحيد، **ما** هو، **إنْ** كنا متطابقين فسنموت في نفس اللحظة، **كل** يوم يموت في نفس اللحظة أشخاصٌ ليسوا متطابقين ولا يعيشون في نفس المدينة، **في** مثل هذه الحالات

يتعلق الأمر بمجرد صدفة، صدفة تافهة وبسيطة، **انتهى** كلامُنا، لم يعد لدينا ما نقول، الآن أتمنى أن تتحلى بشيء من اللياقة وتفي بوعدكَ، **وعدتُك** ألا أتصل ببيتك مرة أخرى ولن أفعل، **حسناً**، **أطلبُ** منك مرة أخرى أن تسامحني، **سامحتُك**، **مساء** سعيداً، **مساء** سعيداً. كان هدوء تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو غريباً، بينما كان من الطبيعي، المنطقي، والإنساني، في مثل هذا الصنف من الحركات، أن يضع السماعة بعنف، أن يوجّه لكمة إلى الطاولة حتى يُفجّر غضبه المبرر وبعد ذلك يصيح بمرارة **كلُّ** هذا العناء من أجل لا شيء. أسبوعاً بعد آخر وهو يرسم خططاً، يطور أشكالاً من التكتيك، يحسب كل خطوة جديدة، يقدر آثار الخطوة السابقة، يحرك الأشرعة ليستفيد من الرياح المناسبة، لا يهمّ من أي جهة تهبُّ، وكل هذا ليصلَ إلى النهاية ويطلبَ بكل تواضع المسامحة ويعدَ، مثل طفل ضُبِط متلبساً في حجرة المؤن، ألّا يعود إلى فعلته. لكن، عكس كل توقع عقلاني، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو راضياً. أولاً، لأنه يرى أنه خلال الحوار بكامله كان في مستوى ما يتطلبه الوضع، لا يترك أبداً الخوف ليتسلل إليه، يقدم الحجج نداً للند، إن صح التعبير، بل كان، من حين لآخر، ينتقل بكل أناقة إلى الهجوم. ثانياً، على اعتبار أنه لا يمكن تصور أن الأمور تقف عند هذا الحد، وهو سبب ذاتي بكل تأكيد، لكنه مؤكد بتجربة العديد والعديد من الأفعال، التي رغم حدة الفضول الذي تنشأ عنه، سرعان ما تتأخر إلى درجة أنها تبدو منسية في بعض الأحيان. حتى في حالة ما إذا لم يكن لهذا الاكتشاف أثرٌ مباشر على دانييل سانتا كلارا كما كان على تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، فمن المستحيل ألّا يقوم أنطونيو كلارو، في يوم من الأيام، بخطوة، صريحة أم متخفية، ليقارن وجهاً بوجهٍ آخر وندبةً بندبةٍ

أخرى. في الحقيقة، لا أعرفُ ماذا أفعل، قال لزوجته بعد أن أخبرها بذلك الجزء من الحديث الذي لم تتمكن من سماعه، هذا الرجل يتحدث بثقة كبيرة حتى أننا نشعر بالرغبة في معرفة إن كانت الحكاية التي يرويها حقيقية فعلاً، **لو** كنتُ مكانكَ لكنستُ الموضوع من ذهني، ولقُلْتُ مئة مرة في اليوم إنه لا يمكن أن يوجد في العالَم شخصان متطابقان، إلى أن أقتنع وأنسى، **ولن** تقومي بأي محاولة للتواصل معهُ، **لا** أظن ذلك، **لماذا**، **لا** أعرف، أعتقد بسبب الخوف، **طبعاً**، المسألة ليست عادية، لكني لا أرى سبباً لكل هذا الخوف، **قبل** بضعة أيام، شعرتُ بما يشبه الدوار وأنا أدرك أنه لم تكن أنت من يحدثني في الهاتف، **أفهمُ** ذلك، حين أسمعُه كأنني أسمعُ نفسي، **هذا** ما فكرتُ فيه، كلّا، لم أفكر فيه، شعرتُ به، كأنه موجةُ رعب تحبس أنفاسي، يقشعرّ لها جلدي، شعرتُ أنه لو كان صوته مطابقاً لصوتك، فإن كل الأمور الأخرى هي كذلك، **ليس** بالضرورة، ربما لا يكون التطابق مطلقاً، **هو** يقول إن الأمر كذلك، **ينبغي** أن نتأكد من ذلك، **وكيف** سنتأكد من ذلك، ندعوه إلى هنا، تخلع ملابسكَ عن آخرها، ويخلعُ هو ملابسه عن آخرها، وأنا، قاضيةً بينكما، أنطقُ بالحكم، أو لا أنطق به إن كان التشابه مطلقاً، وإنْ أنا انسحبتُ من المكان حيث نكون وعُدتُ فلم أتعرّف من هو كلٌّ واحد منكما، ولو خرج أحدكما وغادر هذا المكان، فأيّ منكما سأبقى معه، هل معك أنتَ، هل معه هو، **ستُميّزيننا** بالملابس، **نعم**، شريطة ألا تغيّراها، **هدئي** من روعك، إننا نتحدث، لن يحدث شيء من هذا، **تصوّرْ**، أن نقرر وفق المظهر الخارجي وليس وفق الباطن، **كوني** مطمئنة، **والآن** أتساءل ماذا كان قصده وهو يقول إنه بما أنكما متطابقان ستموتان في نفس اللحظة، **لم** يؤكد ذلك، فقط عبّر عن شكّ، عن فرضيّة، كأنه

يسأل نفسه، **على** أي، لا أفهم لماذا اعتبر أنه من الضروري أن يقول ذلك، من دون سبب وجيه، **ربما** ليؤثر فيَّ، **منْ** يكون هذا الرجل، ما الذي يريده منا، **أعرف** ما تعرفين، لا أعرف من يكون ولا أعرف ما يريده، **قال** إنه أستاذ لمادة التاريخ، **قد** يكون ذلك صحيحاً، لن يختلق ذلك، على الأقل بداً لي شخصاً مثقفاً، أما بخصوص اتصاله الهاتفي، فأظنُّ أنني كنتُ أتصرف مثله لو كنتُ أنا من اكتشف التشابه، **وكيف** سنشعر نحن من الآن فصاعداً، وهذا الشيء الذي يشبه الشبح يحوم في شقتنا، سيكون لي الانطباع بأنني أراه هو كلما نظرتُ إليك، **إننا** ما نزال تحت تأثير الصدمة، والمفاجأة، غداً سيبدو لنا كل شيء بسيطاً، شيئاً غريباً مثل عدة أشياء غريبة أخرى، لن يكون قطاً برأسيْن ولا عِجلاً بقائمة زائدة، فقط زوج من السياميين ولدا منفصليْن، **قبل** قليل تحدثتُ عن الخوف، عن الرعب، لكني الآن أشعر بشيء آخر، **ما** هو، **لا** أعرف كيف أشرح ذلك، ربما يكون إحساساً قبلياً، **سيّئ**، أم جيد، **إنه** مجرد إحساس قبلي، كأنه باب مغلق خلف باب مغلق آخر، **إنكِ** ترتعشين، **يبدو** أن الأمر كذلك. هيلينا، **لأ**نه هذا هو اسمهما ولم نكن نعرفه بعد، ردّت ساهية على عناق زوجها، بعد ذلك انكمشت في ركن الأريكة التي جلست عليها وأغمضت عينيها. أراد أنطونيو كلارو أن يسليها، ويروّح عنها بمزحة، إنْ صرتُ يوماً ممثلاً من الدرجة الأولى، يمكن أن يكون تيرتوليانو هذا ممثلاً بديلاً عني، آمره أن يقوم بالمَشاهد الخطيرة أو المُملّة، وأبقى أنا في البيت، ولا ينتبه أحد للتغيير. فتحت عينيها، ابتسمت بوجه شاحب، وأجابته، أستاذ لمادة التاريخ يلعب دور ممثل بديل لا بدّ أنه شيء يستحق المشاهدة، مع فارق أن الممثلين البدلاء في السينما لا يحضرون إلا بعد استدعائهم، وهذا احتلَّ بيتنا، **لا**

تفكري في هذا الأمر بعد، اقرئي كتاباً، شاهدي التلفاز، تسلّيْ، **لا أرغب** في القراءة، ولا أريد مشاهدة التلفاز، سوف أنامُ. عندما ذهب أنطونيو كلارو إلى السرير، ساعةً بعد ذلك، كانت هيلينا تبدو نائمة. تظاهر بأنه يصدقها وأطفأ الضوء، وهو يعلم مسبقاً أنه سيستغرق وقتاً طويلاً لينام. كان يتذكر الحوار المقلق الذي جمعه بالدخيل، يبحث عن النوايا الخفية في الجمل التي سمعها، إلى أن جاءت لحظة صارت فيها الكلمات، وهي متعبة مثله، محايدة، بدأت تفقد معانيها كما لو أن لا علاقة لها بالعالَم الذهني لمن ظلّ ينطقُ بها في صمت ويأس، **الاحتمالات** اللانهائية للصدفة، **يموتُ** المتطابقان معاً، كان قد قال، الصورة الافتراضية لذلك الذي ينظر إلى نفسه في المرآة، **الصورة** الحقيقية لذلكَ الذي يَنظرُ إليه مِنَ المرآة. بعد ذلك الحديث مع الزوجة، هواجسها، خوفها، اتخذ قراراً مع نفسه، في وقت متأخر من الليل، بحسم الأمر نحو الأحسن أو نحو الأسوأ، مهما كان، وعلى وجه السرعة، **سأذهبُ** لأتحدث معه. خدع القرارُ فكرَهُ، أوهم توتُّرات جسده، فوجد النوم الطريق معبّداً فتقدم في هدوء واستلقى لينام. متعبةً من إجبار نفسها على جمودٍ تتمرد عليه كلُّ أعصابها، نامت هيلينا أخيراً، وخلال ساعتين نجحت في أن تستريح قرب زوجها أنطونيو كلارو كما لو أن أيّ رجُلٍ لم يأت ليعترض بينهما، وربما كانت ستستمر كذلك لو لم يوقظها حلمُها في فزع. فتحت عينيها على غرفة غارقة في عتمة تشبه الظلام، سمعت تنفُّس زوجها البطيء والمتقطع، وفجأة شعرت أن هناك تنفُّساً آخر داخل البيت، شخصاً ما قد دخل، كان يتحرك هناك في الخارج، ربما في الصالة ربما في المطبخ، الآن وراء ذلك الباب المؤدي إلى الممر، في أي مكان، هنا بالضبط. وهي ترتعش من الخوف، مدّت هيلينا

يدها لتوقظ الزوج، لكن الصواب أوقفها في آخر لحظة. ليس هناك من أحد، فكّرت، لا يمكن أن يكون أحد ما هناك في الخارج، إنها تخيلاتي، يحدث أحياناً أن تخرج الأحلام من الدماغ الذي يحلُمُها، فنُسمّي ذلك رؤى، أوهاماً، هواجس، تحذيرات، تنبيهات من العالم الآخر، من يتنفّس ويتسكع في البيت، من جلس قبل قليل على أريكتي، من يختبئ وراء ستار النافذة، ليس هو ذلك الرجُل، إنه الخيال الذي داخل ذهني، هذا الوجه الذي يتوجه مباشرة نحوي، يلمسُني بيدين تشبهان تماماً يدي الرّجُل الذي ينام إلى جانبي، ينظر إليَّ بنفس العينيْن، قد يُقبّلني بنفس الشفتيْن، وبنفس الصوت قد يقول لي نفس الكلمات اليومية، وتلك الكلمات الأخرى، القريبة، الحميمة، كلمات الجسد، هو خيال، مجرد خيال مجنون، كابوسٌ ليلي تَولّدَ عن الخوف والقلق، غداً ستعود كل الأمور إلى نصابها، لن يكون ضرورياً ليصيح ديكٌ كي يطرد الأحلام الخبيثة، يكفي أن يرنّ المنبه، الجميع يعرفون أنّ رجلاً لا يمكن أن يكون مطابقاً تماماً لرجُلٍ آخر في عالمٍ تُصنع فيه آلاتٌ لتوقظ الناس. كان الاستنتاجُ متعسّفاً، يُهين الحسّ السليم، والاحترام البسيط للمنطق، لكن هذه المرأة، التي ظلت تائهة طوال الليل بين تشتُّت أفكارها السوداء المُشكّلة من أسمال ضبابية تُغيّرُ شكلها واتجاهها في كل لحظة، بدت له مُقْنِعةً لا تقبل الدّحض. ينبغي لنا أن نشكر حتى التفكير العبثي إن كان يعيد لنا شيئاً من الهدوء وسط ليل مرير، لو كان ذلك الهدوء واهماً مثل هذا الهدوء، وإنْ هي زوّدتنا بالمفتاح الذي يسمح لنا بأن نتجاوز باب النوم من دون تردّد. فتحت هيلينا عينيها قبل أن يرنّ المنبه، أوقفته حتى لا يوقظَ زوجَها، وظلت مستلقية على السرير، تحدق بعينيها في السقف، فتركت أفكارها المشوشة لتنتظم شيئاً فشيئاً وتأخذ طريقها

إلى حيث تجتمع في تفكير عقلاني، منسجم، خال من أشباح لا تفسير لها وتخيلات لها تفسير مفرط في البساطة. كانت تجد صعوبة في أن تُصدّق أنه من بين حيوانات الخيمر، الحقيقية، الخرافية، تلك التي تنفث لهيب النّار ولها رأس أسد، ذيل تنين وجسد عنزة، لأن هذه أيضاً ربما هكذا كانت تبدو مخلوقات الأرق الرخوة، وكانت تجد صعوبة في أن تُصدّق أنها أرّقتها، مثل غواية غير مناسبة، حتى لا نقول وقحة، صورةُ رجُلٍ آخر لم يكن من الضروري أن تجرّده من ملابسه لتعرف كيف سيكون جسدياً، من رأسه إلى أخمص قدميه، كاملاً، لأن رجُلاً مطابقاً له ينام إلى جانبها. لم تلم نفسها لأن هذه الأفكار في الحقيقة، ليست أفكارها، بل نتيجة خاطئة لتخييل شوّش عليه إحساسٌ عنيف وغير مألوف زاغ عن سكته، ما يهم هو أنها صاحية متيقظة في هذه اللحظة، سيدة أفكارها وإرادتها، أما هواجس الليل، هواجس الجسد كما هواجس الفكر، فقد تلاشت في الهواء مع أولى بوادر الفجر، ذلك الضوء الذي يعيد النظام إلى العالَم، ويضعه من جديد في مداره المعتاد، ليعيد في كل لحظة كتابة قانون الألواح. حان الوقت لتستيقظ، لأن وكالة الأسفار حيث تشتغل تقع في الطرف الآخر من المدينة، قد يكون أمرا رائعا، تُفكّر كل صباح وهي في الطريق، لو حصلت على انتقالها إلى مكتب من مكاتب وسط المدينة، فحركة السير اللعينة، في ساعة الذروة هذه، تستحق تماماً نعتها بالجهنّمية كما وصفها أحدهم في لحظةِ إلهام، لا نعرف متى ولا في أي بلد. سيبقى زوجها مضطجعاً لمدة ساعة أو ساعتين، فاليوم لا يطلبه أي تصوير، وعمليات التصوير الحالية توشك على نهايتها، على ما يبدو. انزلقت هيلينا خارج السرير بخفة طبيعية لديها، بل صارت أكثر رشاقة بعد عشر سنوات وهي زوجة متيقظة ومتفانية، تحركت

دون أن تُحدث ضجيجاً عبر الغرفة وهي تأخذ الرّوب لترتديه، وتخرج بعد ذلك إلى الممر. هنا كان يتسكع ذلك الزائر الليلي، كان قد تنفّسَ قرب شق الباب قبل أن يدخل ويختبئ وراء الستار، كلا، ليس هناك ما تخشاه، لا يتعلق الأمر بهجومٍ ثانٍ أثيم من هجومات خيال هيلينا، هي نفسها تسخر من إغراءاتها، التي لا قيمة لها الآن وهي تحللها تحت أشعة ذلك الضوء الوردي الذي يخترق نافذة الصالة حيث كانت أمسِ خائفة مثل بنت الكونت الصغيرة التي تخلّوا عنها في الغابة. ها هنا الأريكة التي جلس عليها الزائر، ولم يفعل ذلك بمحض الصدفة، لأنه من بين كل الأماكن التي كان بوسعه أن يجلس فيها اختار أريكة هيلينا، كأنه يتشاركها معها أو يستحوذ عليها. لا تنقص الأسباب التي تجعلنا نعتقد أنه كلما حاولنا أن نقمع خيالنا، وجد هذا الأخير متعة في أن يهاجم نقط الدرع التي تركناها عارية بشكل واعٍ أو غير واعٍ. يوماً ما، هيلينا هذه، المستعجلة ولها توقيت مهني يجب أن تحترمه، سوف تقول لنا لأي سبب ذهبت وجلست هي أيضاً على الأريكة، ولأي سبب ظلت منكمشة هناك لمدة دقيقة طويلة، ثم استيقظت حازمةً جداً، والآن تتصرف كأن النوم يحضنها من جديد بين ذراعيه ويُهدهدُها برقّة. ولماذا أيضاً، بعد أن ارتدت ملابسها مستعدة للخروج، فتحت دليل الهاتف وسجلت في ورقة عنوان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. وارَبَت بابَ الغُرفة، وكان الزوج ما زال يبدو نائماً، لكن نومه لم يكن سوى آخر عتبة منتشرة من اليقظة، لذا يمكنها أن تقترب من السرير ثم تطبع قبلة على جبينه وتقول، **ها** أنا ذاهبة إلى هناك، وبعد أن تتلقى منه قبلة وتتلقى شفتَي الآخر، يا إلهي، لا بدّ أن هذه المرأة مجنونة، لما تقوم به من أشياء، وما يخطر على بالها من أمور. هل تأخرتِ، يسألُها أنطونيو كلارو وهو يفرك عينيه، **ما** زالت

أمامي دقيقتان، أجابتْهُ، وجلست على حافة السرير، **ما** الذي سنفعله مع ذلك الرّجل، **ما** الذي تنوي القيام به، **هذه** الليلة، وأنا أنتظرُ النوم، فكرتُ أنه يجب أن أذهب لأتحدث معه، لكني الآن لا أعرف إن كان هذا هو الفعل المناسب، **إمّا** أن نفتح له الباب، وإما أن نغلقه في وجهه، لا أرى من حل آخر، بطريقة أو بأخرى لقد تغيرت حياتُنا، لن تعود إلى سابق عهدها، **إنّ** القرار بين أيدينا، **لكنه** ليس بين أيدينا، ولا بين يدي أي كان أن نُجبر ما كان على أن يكف عن ذلك، فظهور هذا الرّجل واقع لا يمكن أن نمحوه أو أن نزيله، حتى لو منعناه من الدخول، حتى لو أغلقنا الباب في وجهه، سيظل ينتظر هناك في الخارج حتى تنفد طاقتنا على التحمل، **إنّكِ** ترين الأشياء سوداوية جداً، ربما، في نهاية المطاف، كل شيء يمكن أن يُحلّ من خلال لقاء بسيط، سيثبتُ لي أنه مطابقٌ لي، سأقول له، نعم يا سيدي، أنت على حق، وبعد القيام بهذا، وداعاً إلى الأبد، من فضلك لا تعد لتزعجني مرة أخرى، **وسيظلُّ** ينتظر في الخارج وراء الباب، **لن** نفتح له، **ها** قد دخل، إنه داخل ذهنك وداخل ذهني أنا أيضاً، **سننسى** في النهاية، **هذا** ممكن، لكنه ليس أكيداً. نهضت هيلينا، نظرت إلى ساعتها وقالت، **يجب** أن أذهب، إنني أتأخّرُ، مشت ثلاث خطوات لتخرج، لكنها سألت أيضاً، **هل** ستتصلُ به، هل ستُحدّد موعداً لتلتقي به، **ليس** اليوم، قال الزوج وهو يتكئ على مرفقه، ولا حتى يوم غد، سوف أنتظر بضعة أيام، ربما لن تكون فكرة سيئة المراهنة على اللامبالاة، على الصمت، نمهلُ الموضوع شيئاً من الوقت حتى يتعفن من ذاته، **أنتَ** أدرى بذلك، إلى اللقاء. فُتح البابُ وأُغلق، ولن يُخبرنا أحد إنْ كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو جالساً على درج من أدراج السلالم، ينتظرُ. تمدّد أنطونيو كلارو من جديد على السرير،

لوْ أن حياتهُما لم تتغير حقاً كما قالت زوجته، يبدو صحيحاً ما يؤكده الحاسدون بأن الممثلين بحاجة إلى كثير من النوم، قد يكون ذلك نتيجة للحياة غير المنتظمة التي يعيشونها، حتى إنْ كانوا لا يخرجون إلا قليلاً جداً كما هو شأن دانييل سانتا كلارا. بعد خمس دقائق، كان أنطونيو كلارو قد نهض، في ساعة لم يعتد عليها، حتى لو أن الحق يلزمُنا أن نقول إنه لو كانت واجبات مهنته تتطلب ذلك فإن هذا الممثل، الكسول بشكل واضح، قادر على النهوض باكراً جداً مثل أكبر قُبّرة مُبكّرة. تطلّع إلى السماء من نافذة الغرفة، فلم يجد صعوبة في أنْ يتوقع أن اليوم سيكون حاراً، ثم ذهب إلى المطبخ ليُحضّر الفطور. كان يفكّرُ فيما قالته الزوجة، **إنه في ذهننا**، ذلك هو طبعها، حاسمة، ليست حاسمة بالضبط، ما يميزها هو موهبة الجمل القصيرة، المكثفة، البرهانية، تستعمل أربع كلمات لتقول ما لا يستطيع الآخرون أن يعبّروا عنه ولو في أربعين كلمة، ولا يقولون حتى نصف ما يعنون. لم يكن واثقاً من أنّ أحسن حلٍّ هو ما اقترحه، أن ينتظرا بعض الوقت قبل المرور إلى الهجوم، وأن يكون ذلك عبارة عن لقاء شخصي وسرّي، من دون شهود يمكن أن يطلقوا لسانهم للأقاويل، أو عبر مكالمة هاتفية خشنة، من ذلك النوع الذي يترك المخاطَب مشدوهاً، من دون تنفُّسٍ ولا ردّ. لكنه كان يشك في فعالية قُدرته الديالكتيكية في أن يجتث من الجذور، ومن دون مماطلة، من تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو اللعين هذا، أيّ رغبة، حاضرة أو مستقبلية، في أن يلقي في حياة شخصين يعيشان في هذا البيت عوامل تشويش نفساني أو زوْجي تبلغُ من الانحراف ما بلغتْهُ تلك التي أبان عنها وتلك التي كان سبباً فيها بكل وضوح، مثلاً، ما تجرأت هيلينا عليه البارحة وهي تقول سيكون لي انطباع بأنني أراه كُلّما نظرتُ

إليك. في الحقيقة، وحدها امرأة تعرضت مبادئها الأخلاقية لهزّة يمكن أن تقول كلاماً كهذا في وجه زوجها نفسه من دون التفكير فيما قد ينطوي عليه ذلك من كلامٍ ينمُّ عن الخيانة الزوجية، بين السطور طبعاً، لكنه واضح بما يكفي. في انتظار ذلك، هناك فكرة جنينيّة ترقص في ذهن أنطونيو كلارو، وهو ما قد ينكره غاضباً إن نحن نبّهناهُ إلى ذلك، فكرةٌ وحدهُ الاحترازُ يمنعُنا من وضعها في مصاف أفكار ماكيافيلي، على الأقل ما لم تظهر عواقبها الممكنة، والسلبية على أكبر احتمال. إنّ فكرةً كهذه، لم تتعدَّ لحد الآن مرحلة التصور الذهني، تتمثلُ، مهما بدا لنا ذلك مخزياً، في أن يفحص نفسَه، بكل مهارة ودهاء، إن كان ذلك ممكناً، فينتزع منها كل تشابه، تطابق مطلق، إن تأكد ذلك، أي امتياز شخصي، أي إن كان أنطونيو كلارو أو دانييل سانتا كلارا يجدان وسيلة مربحة للخروج من أمر لا يبدو أنه يخدم مصالحهما لحدّ الساعة. إنْ كُنّا لحد الساعة لا نستطيع أن نتوقع من صاحب الفكرة أن يكشف لنا عن الدروب الملتوية بكل تأكيد التي يتصور بشكل غير واضح أنه سيحقق من خلالها أهدافه، فلا يُعوّلْ علينا، ونحن مجرد نُسّاخ لأفكار الغير وناقلين أوفياء لأفعالهم، بأن نستشرف ما سيتلو من خطواتِ موكبٍ لم يبرح بعد حوش الكنيسية.

ومع ذلك، نستطيع منذ الآن أن نستبعد من هذا المشروع الجنيني فرضية أنه يمكن لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يكون ممثلاً بديلاً لدانييل سانتا كلارا، نتوافق على أنه قد يكون من عدم الاحترام الفكري أن نطلب من أستاذ لمادة التاريخ أن يقبل أن يشارك في بعض التفاهات الشّعْريّة للفنّ السابع. كان أنطونيو كلارو يحتسي آخر جرعة قهوة حين خطرت على ذهنه فكرة أخرى، أن يركب السيارة ويلقي نظرة على الشارع والعمارة حيث يسكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو.

إنّ أفعال الكائنات البشرية، رغم أن ما يوجهها هي غرائز متوارثة لا يمكن مقاومتها، تحترم بعضها بعضاً بانتظام مثير جداً للدهشة لدرجة أننا نظن أنه من المشروع، من دون مبالغة، أن نتقبل فرضيّة تشكُّلٍ بطيء لكنه مستمرّ لتنوع جديد من الغريزة، نعتقد أنّ سوسيوثقافي قد يكون هو النعت المناسب، ناجمة عن تنويعات مكتسبة من الانتحاءات المتكررة، وبما أنها تستجيب لحوافز مطابقة، فقد تجعل من الفكرة التي تخطر على بال شخص ما تخطر بالضرورة على بال شخص آخر. في البداية، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو من ذهب إلى ذلك الشارع، متنكّراً بشكل لافت، يرتدي ملابس سوداء بالكامل في صباح مشمس من أيام الصيف، والآن هو أنطونيو كلارو من يستعدُّ للخروج إلى الشارع دون أن يهتم بما قد يطرأ من تعقيدات جراء تواجده في تلك الأماكن بوجه مكشوف، إلا إذا حدث، وهو يحلق لحيته، يأخذ دشاً أو يرتّب نفسه، وجاء إصبع الإلهام ليلمس جبينه ليُذكّره أنه احتفظ في جارور تحت ملابسه، داخل علبة سجائر فارغة، على سبيل تذكار مهني مشحون بالعواطف، بذلك الشارب الذي لعب به دانييل سانتا كلارا قبل خمس سنوات دور مستخدم في مكتب استقبال في فندق في فيلم «الإلحاحُ هو سرّ النجاح». وكما تقول الحكمة القديمة، ستجد ما تحتاجُ إليه إنْ احتفظتَ بما لم يعد صالحاً. لن يتأخر أنطونيو كلارو في معرفة أين يسكن أستاذ مادة التاريخ ذاك بفضل دليل الهاتف الخدوم، وهو يميل اليوم منحرفاً فوق الرّف حيث كان يضعه على الدوام، كما لو أنّ يداً متوتّرة وضعتْهُ هناك على عجلٍ بعد الاطلاع عليه. كان قد سجل العنوان في أجندة الجيب، كما سجّل رقم الهاتف، رغم أن استعماله لم يكن ضمن ما ينوي القيام به اليوم، لو اتّصلَ يوماً ما ببيت تيرتوليانو ماكسيمو

أفونسو بودّه أن يستطيع القيام بذلك من حيث هو الآن في هذه اللحظة، من دون حاجة ليعول على دليلِ هاتفٍ لم يُعَد إلى مكانه ولا يوجدُ حين يكون المرء بحاجة إليه. إنه على وشك أن يخرج، الشارب ملصق في مكانه، غير ثابت جداً لأنه فقد شيئاً من التصاقه بسبب السنوات، على أي لا يُخشى عليه أن يسقط في اللحظة الحاسمة، ولم تعد تفصله سوى ثوانٍ قليلة ليمُرّ أمام العمارة ويلقي عليها نظرة. حين وضع الشارب وهو يستعين بالمرآة، تذكّر أنه قبل خمس سنوات، كان عليه أن يحلق شاربه الطبيعي الذي كان يزيّن وقتئذ ما بين أنفه وشفته العليا، فقط لأن مخرج الفيلم لم يبدُ له قصّ الشارب ولا شكله مناسبين لطبيعة الدور. بوصولنا إلى هذه النقطة، لنكن مستعدين أن قارئاً متيقظاً، يتحدّرُ مباشرة من أولئك الأطفال الأبرياء لكن الأذكياء الذين كانوا في سينما الزمن القديم يصيحون من دكّة الجمهور في وجه البطل إنّ تصميم منجم الذهب كان مخبأ في شريط قبعة العدو الساخر والشرير الذي سقط عند قدميه، لنكن على استعداد بأنهم سيسترعوننا للنظام وأنهم سيشُون بنا، لو اتَّهمنا بالإهمال الذي لا يُغتفر الفرق في التصرف بين شخصية تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وشخصية أنطونيو كلارو، لأنه، في حالات متساوية تماماً، يضطر الأول إلى ولوج مركز تجاري حتى يتمكن من وضع أو إزالة لحيته وشاربه المستعارين، بينما يتأهّبُ الثاني للخروج من بيته بإرادة قويّة وفي واضحة النهار يحمل في وجهه شارباً ليس شاربَه مع أنه من حقّه فعلاً. إنّ هذا القارئ المتيقظ ينسى ما أُشير إليه عدة مرات خلال هذا السرد وهو أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو آخَرُ دانييل سانتا كلارا بكل وضوح، كما أن دانييل سانتا كلارا هو آخَرُ أنطونيو كلارو، وإن اختلفت الأسباب. لن تستغرب أيّ جارة من

السكان وهي ترى من يخرج من العمارة الآن بشارب دخلَها أمسِ من دونه، وأقصى ما قد تقوله، إن انتبهت لفرق، **ها** هو مستعد لتصوير فيلم من الأفلام. جالساً داخل السيارة، وقد فتح نافذتها، كان أنطونيو كلارو ينظر إلى التصميم والخريطة، يأخذ منهما ما كنا نعرفُ، أنّ الشارع الذي يقطنه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يوجد في أقصى المدينة، ثم أقلع بعد أن ردّ بلطف على تحية أحد الجيران. سوف يستغرق نصف ساعة تقريباً ليصل إلى وجهته، محاولاً إن أسعفه الحظ للمرور ثلاث مرات أمام العمارة بفارق عشر دقائق كما لو أنه يبحث عن مكان شاغر يركُن فيه السيارة، ربما تشاء صدفة سعيدة أن ينزل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى الشارع، لكن أولئك الذين يعلمون واجبات أستاذٍ لمادة التاريخ يعرفون جيداً أنه يجلس الآن في مكتبه، يشتغل مجتهداً على المقترح الذي كلفه به مدير الثانوية، كما لو أن مستقبله يتوقف على ذلك الجهد، بينما الحقيقة، وهذا يمكن أن نتوقعه منذ الآن، هو أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لن تطأ قدمُه مرة أخرى قاعة درسٍ، سواء في الثانوية حيث رافقناه عدة مرات أو في أي ثانوية أخرى. سنعرفُ لماذا في حينه. رأى أنطونيو كلارو ما كان عليه أن يرى، رأى شارعاً لا أهمية له، عمارة مثل عدة عمارات أخرى، ولا أحد يمكنه أن يتصور أنّ هناك في الطابق الثاني على اليمين، خلف تلك الستائر البريئة، يعيش واحد من الظواهر الطبيعية التي لا تقل روعة عن الهِدْرَة ذات السبعة رؤوس أو ما شابهها من العجائب. إنْ كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يستحقُّ نعتاً يخرجه من دائرة العادي عند البشر مسألةٌ ما زالت بحاجة إلى توضيح، ما دمنا لا نعرفُ بعد أي هذين الرّجُليْن وُلد الأوّل. لو كان من وُلد أولاً هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، فإن أنطونيو كلارو هو من يستحق نعْتَ

الظاهرة الطبيعة، بما أنه ظهر في مرحلة لاحقة ومع ذلك شغل هذا العالَم بشكل كبير، وهو مكان لا يستحقه، مثل الهِدْرَة ذات السبعة رؤوس، لذلك قتلَها هرقل. ما كان لتوازن الكون أن يتغير في شيء لو أن أنطونيو كلارو وُلدَ وصار ممثلاً سينمائياً في أي نظام شمسي آخر، لكن هنا، في نفس هذه المدينة، إنْ صح التعبير، بالنسبة لملاحظ ينظر إلينا من القمر، فإن كل أنواع الخلل والفوضى واردة، لاسيما تلك الفظيعة، وخاصة تلك الشنيعة منها. وحتى لا يُظن أنه بسبب معرفتنا له منذ وقت طويل، لدينا ميل خاص نحو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، نسارع لنُذكّر أنه، حسابياً، تحوم حول رأسه من الاحتمالات الممكنة لو أنه وُلدَ هو الثاني مثل أنطونيو كلارو. لذلك، فإنه مهما بدا غريباً هذا التركيب النحوي لعدة عيون وآذان، فإنه من المشروع قولُ ما كان يجب قولُه، ولم يبق سوى كتابته. لم يمرّ أنطونيو كلارو من جديد في الشارع، على بعد أربع كتل من البيوت، متنكراً، خوفاً من أن يكشف مواطنٌ ما أمره ويطلب الشرطة، فنزعَ شاربَ دانييل سانتا كلارا، وبما أنه لم يجد من شيء آخر يقوم به أخذَ الطريق نحو بيته حيث كان ينتظره سيناريو الفيلم القادم الذي يجب أن يدرُسَه ويُدوّن حوله بعض الملاحظات. سيعود ليخرج كي يتناول الغداء في مطعم قريب من هناك، ثم سيرتاح قيلولة قصيرة ويعود للعمل إلى أن تصل زوجتُه. لم يكن بعد هو الشخصية الرئيسة، لكن اسمه سوف يظهر في الملصقات التي ستوضع في وقتها في نقاط استراتيجية بالمدينة، وهو شبه واثق من أنّ النقاد لن يمروا دون أن يكتبوا تعليقاً مُطرياً، ولو كان قصيراً، عن أدائه لدور المحامي الذي أُسندَ له. كانت صعوبته الوحيدة تتمثل في الكم الهائل من المحامين من كل الأشكال والهيئات الذين شاهدهم في السينما وعلى شاشة التلفزيون، مُدّعون عامّون وخاصّون

يستخدمون أساليب مختلفة من اللغة القانونية، منهم اللطيف ومنهم العنيف، مدافعون يتقنون نوعاً ما فنّ الكلام ولا تُمثّلُ لهم براءةُ المُوكّل أهمّ شيء دائما. بودّه أن يخلق نوعاً جديداً من المحامي، شخصية قادرة على إذهال القاضي وإدهاش الحضور بفضل دقة أجوبته، قوة تفكيره المنطقي، وذكائه الذي يفوق قدرة البشر. صحيحٌ أنْ لا شيء من هذا يوجد في السيناريو، لكن ربما يقتنعُ كاتب السيناريو بتوجيه السيناريو في هذا الاتجاه لو همسَ المخرج له بكلمة في أذنه. كان لا بدّ من التفكير في ذلك. وبما أنه همهم مع نفسه أنه لا بدّ من التفكير في ذلك فقد أخذَهُ تفكيره إلى أماكن أخرى، إلى أستاذ مادة التاريخ، إلى شارعه، إلى عمارته، إلى النوافذ من دون ستائر، ومن هناك، بأثر رجعي، إلى مكالمة البارحة، إلى الحديث مع هيلينا، إلى القرارات التي يجب اتخاذها عاجلاً أم آجلاً، الآن لم يعد واثقاً جداً من أنه يستطيع أن يربح شيئاً مفيداً من تلك الحكاية، لكن، كما قال ذلك من قبل، كان لا بدّ من التفكير في ذلك. وصلت الزوجةُ متأخرة شيئاً ما على غير عادتها، كلا، لم تذهب لتتبضّع، كان السبب هو حركة السير، مع حركة السير هذه لا يُعرف ما يمكن أن يحدث، وكان أنطونيو كلارو يعرف ذلك أكثر من اللازم، هو الذي استغرق ساعة كاملة ليصل إلى الشارع حيث يسكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكنه لا ينبغي الحديث عن ذلك اليوم، أنا واثق من أنها لن تفهم لماذا قمتُ بذلك. هيلينا بدورها سوف تلزم الصمت، لأنها واثقة أيضا أنّ زوجها لن يفهم لماذا تصرّفت بتلك الطريقة التي تصرّفت بها.

بعد ثلاثة أيام، عند منتصف الصباح، رنَّ الهاتفُ في بيت تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. لم تكن الأُمّ بسبب الشّوق، لم تكن ماريا بسبب الحُبّ، لم يكن أستاذ الرياضيات بسبب الصّداقة، كما أنه لم يكن مدير الثانوية وهو يرغب في معرفة كيف يسير العمل. معكَ أنطونيو كلارو، قال المتحدث في الجهة الأخرى من الخط، **صباح** الخير، **ربما** أتصل بك مبكراً جداً، **لا** تشغل بالك، لقد استيقظتُ وأنا أشتغلُ، **إنْ** كنتُ أقاطعُك، فسأتصل لاحقاً، **ما** كنتُ أقوم به يمكن أن ينتظر ساعة، ليس هناك من خطر أن أفقد خيط استرساله، **سأخوض** مباشرة في الموضوع، لقد فكّرتُ بجد خلال هذه الأيام ووصلت إلى نتيجة بأنه يجب أن نلتقي، **هذا** هو رأيي أيضاً، لا معنى لشخصين في وضعيتنا أن يرفضا أن يتعارفا، **كانت** بعض الشكوك تراود زوجتي، لكنها في النهاية اعترفت بأن الأمور لا يمكن أن تبقى هكذا، **هذا** يسعدني، المشكلة أن ظهورنا معاً أمام العموم أمرٌ مستبعد، لن نربح شيئاً ونحن نصنع الخبر، نظهر في التلفزيون وفي الصحافة، وخاصة أنا، لأن ذلك قد يكون مضراً بمساري الفني إنْ عُلم أن لدي شبيهاً يشبهني حتى في الصوت، **أكثر** من شبيه، **أو** توأم، **أكثر** من توأم، **هذا** ما أريد أن أتأكد منه، رغم

أنني أعترف لك بأنني أجد صعوبة في أن أُصدّق أن هناك هذا التطابق المطلق الذي تقول، **إنّ** توضيح هذا الأمر بين يديكَ، **يجب** أن نلتقي، إذن، **نعم**، لكن أين، **هل** لديك فكرة، **هناك** إمكانيّة أن تأتي إلى بيتي، لكن هناك مشكلة الجيران، السيدة التي تقطن في الطابق العلوي، مثلاً، تعرفُ أنني لم أخرج، تصور ردّة فعلها وهي تراني أدخل حيث أنا، **عندي** شَعْر مستعار، يمكنني أن أتنكر، **أيّ** شعر مستعار، شارب، **لن** يكون كافياً، قد تسألُكَ، أو قد تسألُني أنا، لأنها ستظن أنها تحدثُني أنا، إن كنتُ أريد أن أهرب من الشرطة، **وهل** بينكما كل هذه الثقة، **هي** من تنظف بيتي وترتبه، **فهمتُ**، فعلاً لن يكون أمراً محترزاً، ثم هناك بقية الجيران، **بالفعل**، **لذلك** أظن أن لقاءنا يجب أن يكون بعيداً عن هنا، في مكان نستطيع أن نتحدث فيه على راحتنا، **يبدو** لي هذا جيداً، **أعرفُ** مكاناً يصلح لذلك، على بُعد ثلاثين كيلومتراً خارج المدينة، **في** أي اتجاه، **من** الصعب أن أشرح لك ذلك عبر الهاتف، سأبعث لك اليوم بالضبط تصميماً به كل التعليمات، نلتقي بعد أربعة أيام حتى نترك الوقت لوصول الرسالة، **بعد** أربعة أيام سيكون يوم أحد، **يوم** جيد مثل أي يوم آخر، ولماذا على بُعد ثلاثين كيلومتراً، **أنت** تعرف كيف هي هذه المدن، أولاً يتطلب الخروج منها وقتاً طويلاً، حيث تنتهي الشوارع، تبدأ المعامل، وحيث تنتهي المعامل تبدأ الأكواخ، من دون الحديث عن التكتلات السكنية التي ابتلعتْها المدينةُ ولا تعلم ذلك بعد، **إنّك** تصف ذلك جيداً، **شكراً**، **سوف** أتصل بك يوم السبت لتأكيد الموعد، **جيد** جداً، **هناك** أمر آخر أريدك أن تعرفه، **ما** هو، **سأكون** مُسلّحاً، **لماذا**، **لأنني** لا أعرفُكَ، لا أعرف ما هي نواياك السرية، **إنْ** كنت تخشى أن أختطفك، مثلاً، أو أن أصفّيك كي أبقى وحدي في هذا

العالم بهذا الوجه الذي نملكه معاً، أقول لك إنني لن أحمل معي أي سلاح، بل ولا حتى أي مطواة بسيطة، **لا** أشك فيك إلى هذا الحد، **لكنك** ستأتي مُسلّحاً، **على** سبيل الاحتياط، لا غير، **نيتي** الوحيدة هي أن أثبت لك أنني على حق، أما بخصوص ما تقول، بأنك لا تعرفُني، أسمح لنفسي بأن أعترض وأقول إننا في نفس الوضع، صحيح أنك لم ترني قط، لكني، إلى حد الآن، رأيتُك بوصفك أنّك لست أنت، تلعب أدوار شخصيات في السينما، لذلك فهناك تعادل بيننا، **دعنا** لا نجادل في الأمر، علينا أن نذهب هادئيْن إلى لقائنا، من دون إعلان حروب مسبقة، **أنا** لن أحمل سلاحاً، **لن** يكون السلاح محشوّاً، **فما** الفائدة من أن تحمله إذن، إن كان غير مشحون، **اعْتبرْ** أنني سأؤدي دوراً آخر من أدواري، دور شخصية تُستدرجُ إلى كمين تعرف أنها لن تخرج منه حية لأنه سبق لها أن قرأت السيناريو، في السينما، على أي حال، **في** التاريخ، يقع العكس، لا نعرف الأمور إلا لاحقاً، **ملاحظة** مهمة، لم يسبق لي أن فكرتُ في ذلك، **ولا** أنا، انتبهتُ إلى ذلك للتو، **إذن**، اتفقنا، نلتقي يوم الأحد، **أنتظرُ** مكالمتك، لن أنسى ذلك، استمتعتُ بالحديث معك، **أقول** نفس الشيء، **يوماً** سعيداً، **يوماً** سعيداً، أبْلغْ زوجتَكَ تحياتي. مثل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، كان أنطونيو كلارو وحيداً في بيته. أخبر هيلينا أنه سيتصل بأستاذ التاريخ، لكنه كان يفضل ألّا تكون حاضرة، وسيحكي لها ما دار بينهما من حديث لاحقاً. لم تعترض زوجته على الأمر، قالت إنّ ذلك يبدو لها جيداً، وتفهم جيداً أنه يريد أن يكون على راحته في حديث لن يكون سهلاً بكل تأكيد، لكنه لن يعرف أبداً أنّ هيلينا قامت بإجراء اتصاليْن من وكالة السياحة التي تشتغلُ فيها، الأول برقم زوجها، والثاني برقم تيرتوليانو

ماكسيمو أفونسو. وشاء القدر أن يكون ذلك في الوقت الذي كان فيه الزوج وتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يتحدثان أحدهما مع الآخر في الهاتف، لذلك أيقنت أن الأمر قد تقدم كثيراً، وهنا أيضاً لم تكن قادرة لتقول لماذا اتصلت بهما. أصبح أكثر فأكثر وضوحاً أنه بعد عدة محاولات فاشلة نوعاً ما، قد نصل في الأخير إلى تفسير أفعالنا تفسيراً تاماً إن كنا نحرص على أن نقول لماذا قمنا بهذا الشيء الذي ندّعي أننا لا نعرف لماذا قمنا به. قد يكون من باب التحلي بفكر واثق أكثر من اللازم أن نفترض أنه لو أن زوجة أنطونيو كلارو وجدت خطّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مشغولاً، لوضعت السماعة دون أن تنتظر جواباً، ولن تعلن بكل تأكيد **أنا** هيلينا، زوجة أنطونيو كلارو، ولن تقول بكل تأكيد **اتّصلُ** بك لأطلع على أحوالك، لأن هذه الكلمات، في وضع كهذا، لن تكون مناسبة جداً، حتى لا نقول إنها في غير محلها تماماً، بما أن هذين الشخصين لم يتكلما سوى في مناسبتيْن وليس بينهما ما يكفي من الحميمية حتى يصبح من الطبيعي أن يهتم أحدهما بصحة الآخر وأحوال روحه، ولا يمكن أن نقبل سبباً لهذا الإفراط الواضح في الثقة أنّ الأمر يتعلق بعبارات معاملة مبتذلة، عادية، من ذلك النوع الذي لا يجبر على شيء ولا يلزم بشيء، إلّا إذا أردنا أن نُهذب سمعنا وندربه على التقاط مجموعة من النبرات المضمرة في هذه النوع من العبارات، كما برهنّا على ذلك في مقطع آخر من هذا السرد حتى نُنيرَ القُرّاء الذين يهتمون بما يختفي أكثر مما يهتمون بما ينكشفُ. أما تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، فما إن انتهى حديثُه مع أنطونيو كلارو حتى اتكأ على الكرسي، شعر بارتياح واضح وتنهّد بعمق. لو سأله أحدٌ مَنْ منهما، في رأيه، إلى غاية تلك اللحظة، كان يقود اللعبة، سيقول **أنا**، وإنْ

كان لا يشك في أنّ الآخر قد يعتقد أنه يملك ما يكفي من الأسباب ليقدم نفس الجواب إنْ طُرح عليه السؤال. لم يكن يشغله أن يكون مكان اللقاء بعيداً جداً عن المدينة، لم يكن يقلقه أن أنطونيو كلارو سيذهب مسلحاً، رغم أنه كان مقتنعاً، عكس ما أكده هذا الأخير، بأن المسدس، لأنه من المحتمل جداً أن يكون السلاح مسدساً، سيكون محشوّاً. هكذا، كان يرى نفسه مجرداً من أي منطق، من أي عقلانية، من أي حسّ سليم، يعتقد أن اللحية المستعارة التي سيضعها ستحميه ما دام يغطي بها وجهه، ويبني هذه القناعة السخيفة على فكرة راسخة بأنه لن يزيلها في اللحظة الأولى من لقائهما، بل لاحقاً فقط، عندما يكون التطابق التام بين اليديْن، والعينيْن، والحاجبيْن، والجبينيْن، والأذنيْن، والأنفيْن، قد حظي بالاعتراف الذي لا يقبل الخلاف بينهما. سيأخذ معه مرآةً بحجم كافٍ بحيث إنه حين ينزع لحيته يستطيعان معاً أن يقارنا وجهيْهما الواحد قرب الآخر، وأن تمُرّ عينا كليهما من الوجه الذي تقعان فيه إلى الوجه الذي كان بإمكانهما أن تكونا فيه، مرآةٌ تنطق بالحكم النهائي، إنْ كان ما يبدو للعيان متطابقاً، فإنّ ما بقي متطابق بكل تأكيد، لا أظنُّ أن من الضروري أن نتعرى نهائياً لنواصل المقارنة، فهذا ليس شاطئاً خاصاً بالعراة ولا مسابقة في حمل الأثقال واستعراض القياسات.
هادئاً، واثقاً من نفسه، كما لو أنّ مباراة الشطرنج هذه كانت متوقعة منذ البداية، عاد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى عمله، وهو يفكر أنه، كما كان اقتراحُه الجريء بخصوص طريقة تدريس التاريخ، فإن حياة الناس أيضاً يمكن سردُها من الأمام إلى الخلف، ننتظر أن تصل إلى نهايتها كي نصعد عكس مجرى النهر، شيئاً فشيئاً، حتى نصل إلى المنبع، ونحدد أثناء الطريق الروافد التي نسبح فيها نحو الأعلى،

نفهم كل واحد منها، وندرك أن كل واحد منها، مهما كان متواضعاً بصبيبه الضعيف، كان، بالنسبة لنفسه، نهراً رئيسياً، وبهذه الطريقة البطيئة، الهادئة، المتيقظة لكل وميض من الماء، لكل فقاعة تنبع من الأعماق، لكل سرعة ناتجة عن الانحدار، لكل توقف في المستنقعات، حتى ندرك إيقاع السرد ونضع في كل اللحظات الأولى النقطة النهائية الأخيرة، ونستغرق في ذلك، بالفعل، ما تستغرقه الحيواتُ المرْوِيّة. لا ينبغي أن نتسرع، لدينا الكثير مما نقوله حين نصمتُ، همهم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وتابع عمله. بعد الظهر، اتصل بماريّا دا بّاش يسألها إن كانت تستطيع أن تمر إلى بيته بعد خروجها من البنك، فقالت له نعم، ولكنها لن تتأخر كثيراً عنده لأن أمها ليست بخير، فأجابها أنْ لا داعي إذن لتأتي، لأن الواجبات الأسرية تسبق كل شيء، لكنها ألحّت، **على الأقل** لأراكَ، فوافق، قائلاً، **على الأقل** لنرى بعضنا بعضاً، كما لو أنها الزوجة المحبوبة، ونحن نعرف أنها ليست كذلك، أو ربما تكون كذلك لكنه لا يعلم ذلك، أو ربما، وتوقف عند هذه الكلمة لأنه لم يكن يعرف صراحة كيف يكمل جملته، أي كذبة أو أي حقيقة زائفة سيقول لنفسه، صحيح أن التأثر يغشي عينيه قليلاً، كانت تريد أن تراه، هذا أكيد، أحياناً يكون أمراً مريحاً أن يريد أحد ما أن يرانا ويقول لنا ذلك، لكن الدمعة الواشية، التي كفكفها بظهر اليد، كانت قد ظهرت لأنه كان وحده وفجأة نزلت عليه الوحدة بثقل يفوق أفظع الأوقات. جاءت ماريّا دا بّاش، تبادلا قبلتيْن على الوجه، ثم جلسا بعد ذلك ليتحدثا، سألها إن كان مرضُ أمها خطيراً، فقالت إنه ليس كذلك لحسن الحظ، إنها مشاكل مرتبطة بالتقدم في السن، تأتي وتذهب، إلى أن تستقر نهائياً. سألها متى ستبدأ عطلتها، فقالت بعد أسبوعين،

لكن المُرجّح هو أنها هي وأمها لن تتمكنا من السفر، لأن ذلك يتوقف على حالتها الصحية. كان يريد أن يعرف كيف كانت ظروف عملها في البنك، فقالت إنّ ذلك كان كالعادة، بعض الأيام أحسن من أيام أخرى. بعد ذلك، سألته إنْ لم يكن يشعر كثيراً بالضجر، الآن وقد انتهت الدروس، فقال لها لا، خصوصاً أن المدير قد كلّفه بمهمة تحرير مقترح موجّه إلى الوزارة حول طُرق تدريس مادة التاريخ. قالت، **هذا** مهم جداً، وبعد ذلك ظلّا صامتيْن، إلى أن سألتْهُ إن لم يكن لديه من شيء يقوله لها، فأجابها إنّ الوقت لم يحن بعد، وإن عليها أن تصبر قليلاً. قالت إنها ستنتظر كل ما سيلزم من الوقت، وإن الحديث الذي جرى بينهما في السيارة بعد ذلك العشاء، عندما اعترف لها بأنه كذب، كان مثل باب فُتح لحظة كي يُغلق على الفور، لكنها على الأقل علمت أن ما يفصلهما كان باباً فقط، وليس سوراً. لم يجبها، اكتفى بإيماءة تأكيد من رأسه، بينما كان يفكر في أنّ أفظعَ الأسوارِ بابٌ لا نملك مفتاحه، وهو لا يعرف أين يجده، ولا يعرف إن كان ذلك المفتاح موجوداً. حينئذ، بما أنه لم يتكلم، فقد قالت، **الوقت** متأخر، سأذهبُ حالاً، فقال لها، **لا** تذهبي الآن، **يجب** أن أذهب، أُمّي تنتظرُني، **سامحيني**. نهضتْ، فنهضَ بدوره، نظرا أحدهما إلى الآخر، تبادلا قُبلاً على الوجه كما فعلا عند وصولها، **إذن**، وداعاً، قال، اتصلي بي عندما تصلين إلى البيت، **نعم**، نظرا أحدهما إلى الآخر مرة أخرى، ثم أمسكتْهُ من يده التي كان سيلمس بها كتفها على سبيل التوديع، وبلطف، كأنها تقود طفلاً صغيراً، أخذتْهُ إلى الغرفة.

وصلت رسالةُ أنطونيو كلارو يوم الجمعة. رفقة التصميم كانت هناك ملاحظة بخطّ اليد، لا تحمل توقيعاً، من دون صيغة منادى،

تقول، **نلتقي** على الساعة السادسة مساء، أتمنى أن تجد المكان من دون عناء. الخط ليس هو خطي تماماً، لكن الفرق قليل جداً، ويُلاحظ خاصة في الحروف البارزة، همهم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. كان التصميم يبين مَخْرج المدينة، ويشيرُ إلى بلدتيْن تفصلُ بينهما ثماني كيلومترات، واحدة على كل جانب من المدخل، وبينهما طريق نحو اليمين يتوغّل في الحقول حتى يصل إلى بلدة أخرى، أقلّ أهمية من الأخريْن حسب التصميم. ومن هناك، كانت طريق أخرى، أكثر ضيقاً، تتوقف عند أحد المنازل، على بُعد كيلومتر واحد تقريباً. كان يُشار إليه بكلمة «منزل»، وليس عن طريق رسم بدائي، مجرد رسم أولي يمكن أن تنجزهُ أخْرقُ يدٍ، سقفٌ مع مدخنة، واجهة يتوسطها باب، ونافذة على كل جانب. فوق الكلمة سهم أحمر يقصي أي إمكانية للخطأ، **لا** تذهب أبعد من هذه النقطة. فتح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أحدَ الجوارير وأخرج منه خارطة المدينة والمناطق المجاورة، بحث عن المَخْرج المناسب وحدّد موقعه، هنا توجد البلدة الأولى، الطريق التي تسير يميناً قبل الوصول إلى البلدة الثانية التي تقع بعيداً بعض الشيء، لا ينقص سوى نقطة الولوج الأخيرة. نظر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مرة أخرى إلى التصميم، **إنْ** كان منزلاً، فكّرَ، فلا داعي لأذهب مثقلاً بالمرآة، فالمرايا توجد في كل المنازل. كان يتصوّر أن اللقاء سيكون في أرض خلاء، بعيداً عن أنظار الفضوليين، بل ربما تحت حماية شجرة وارفة الظلال، لكنه في النهاية قد يكون تحت سقف، شيء يشبه لقاءً بين أشخاصٍ يعرفون بعضهم بعضاً، يحملون كؤوساً في أياديهم وفواكه جافة في متناولهم. تساءل إنْ كانت زوجة أنطونيو كلارو ستذهب أيضاً، إنْ كانت ستكون هناك لتتأكد من حجم وشكل

الندوب في الركبة اليسرى، لتقيس حجم الشامتيْن في الذراع اليمنى والمسافة الفاصلة بينهما، واحدة في النتوء العضدي والأخرى فوق الرسغ، ثم بعد ذلك تقول، **لا** تخرجا من مجال رؤيتي حتى لا أخلط بينكما. فكّرَ أنها لن تأتي، وأنه لا معنى ليأتي رجلٌ محترم جدير بهذا الاسم إلى لقاء يهدد بأن يتحوّل إلى صراع، إنْ لم نقل إلى خطر، فيكفي أن نتذكر أن أنطونيو كلارو، بكل نبل، كان قد حذر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من أنه سيأتي مُسلّحاً، وزوجته تسير من ورائه، كأنه سيختبئ تحت تنورتها عند أول إشارة خطر. سيذهبُ وحده، وأنا أيضاً لن آخذ معي ماريّا دا بّاش. نطق تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بهذه الكلمات المحيرة دون أن يأخذ بعين الاعتبار البون الشاسع بين زوجة شرعية، تتباهى بكل ما يمت إلى وضعها من حقوق وواجبات، وعلاقة عاطفية عابرة، مهما بدا لنا قوياً تعلُّقُ ماريّا دا بّاش التي أتيْنا على ذكرها، لأنه، من حق الطرف الآخر، إن لم يكن من واجبه، أن يشُكّ. احتفظ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بالخريطة والتصميم في الجارور، لكنه لم يحتفظ بالورقة المكتوبة بخطّ اليد. وضعها أمامه، أخذ القلم وكتب الجملة كاملة على ورقة، بخط يسعى بأحسن طريقة ممكنة إلى تقليد الخط الآخر، خصوصاً فيما يتعلق بالحروف البارزة، حيث كان الفرق واضحاً. استمر في الكتابة، وكرّر الجملة حتى غطّى الورقة بكاملها، وفي المحاولة الأخيرة لم يكن بوسع أكبر خبير في مجال الخِطاطَة أنْ يكتشف أقل مؤشر عن التزييف، فما أحرزه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في ذلك النّسخ السريع لتوقيع ماريّا دا بّاش لا يمكن أن يقارن بهذا العمل الفني الرائع الذي أنتجه للتو. انطلاقاً من هذه اللحظة، ما عليه إلا أن يتأكد من طريقة أنطونيو كلارو في كتابة الحروف البارزة من الألف إلى الدال ومن الفاء إلى

الزّاي ويتعلم كيف يقلدها. لكن هذا لا يعني أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يُفكّر في مشاريع مستقبلية تشمل شخص الممثل دانييل سانتا كلارا، يتعلق الأمر فقط بتلبية رغبته في الدراسة التي قادته وهو ما يزال شاباً إلى مزاولة مهنة التدريس المحمودة. وتماماً كما أنه من الممكن أن يكون أمراً نافعاً معرفةُ كيف يمكن الحفاظ على البيضة واقفة، كذلك لا يمكن استبعاد أنّ تقليدَ كتابة الحروف البارزة من اسم أنطونيو كلارو بشكل صحيح يمكن أن يكون مفيداً في شيء في حياة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. وكما قال القدماء، لا تقل أبداً لنْ أشرب من هذه المياه، ونحن نضيف إنْ لم يكن هناك من مياه غيرها. بما أن هذه الأفكار لم تكن من صياغة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ليس بوسعنا أن نشرح العلاقة التي من الممكن أنها ما تزال قائمة بينها وبين القرار الذي اتخذه للتو والذي قاده إليه تفكيرٌ شخصي لم ندركه بكل تأكيد. ويدل هذا القرار على الطابع الحتمي، إن شئنا، لأمر بديهي، بما أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يتوفر على التصميم الذي سيقوده إلى مكان لقائهما، فمن الطبيعي أن تخطر له فكرة تفتيش المكان مسبقاً، ليدرُس مداخله ومخارجه، ليأخذ قياساته، إنْ سُمح بهذا التعبير، مع امتياز إضافي لا يستهان به وهو أنه، بالقيام بذلك، يتحاشى المجازفة بإضاعة يوم الأحد. إنّ إمكانية قدرة هذه الرحلة الصغيرة على إعفائه لبضع ساعات من عملٍ مُملٍّ يتمثل في تحرير الاقتراح الموجه إلى الوزارة أعادت له الهدوء وأطلقت أسارير وجهه بشكل مفاجئ. ليس تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من ذلك النوع من الأشخاص الرائعين، القادرين على أن يبتسموا عندما يكونون وحدهم، بل إنه ينحو، عكس ذلك، إلى الكآبة، وإلى الانغلاق على الذات، مع وعي مفرط بالطابع العابر

للحياة، يعاني من حيرة لا شفاء منها أمام متاهات جزيرة كريت الحقيقية المتمثلة في العلاقات الإنسانية. لا يفهم جيداً الأسباب الكامنة وراء الاشتغال الملغز لخليّة نحْلٍ، وما الذي يجعل غصنَ شجرةٍ يبرعمُ وكيف وأين برْعَمَ، وأنه ليس عالياً بشكل مفرط ولا منخفضاً بشكل مبالغ فيه، لا سميكاً أكثر من اللازم ولا رقيقاً جداً، لكنه عزا هذه الصعوبة في الفهم إلى جهله بشفرات التواصل الجيني والتواصل بالإشارة السارية بين النّحْل، بل يجهل أيضاً تدفق المعلومات التي تتحرك بطريقة عشوائية نوعاً ما عبر شبكة الطرق النباتية السيّارة التي تربط الجذور المغروسة في أعماق الأرض بالأوراق التي تغطي الشجرة والتي تستريح في الجو الهادئ وتتهدهدُ مع الريح. ومهما حاول أن يُعمِل دماغه، فإنه لا يفهم كيف تغيرت تقنياتُ التواصل التي تشكلت وفق تطوّر هندسي، من حسن إلى أحسن، فيما التواصل الآخر، بالمعنى الدقيق للكلمة، من أنا إلى أنتَ، من نحنُ إلى أنتُم، ما زال يتشكل من تعقيدات من الطرق المسدودة، تعد بفُرجٍ واهمة، مخادعة سواء حين تعبّرُ أو حين تحاول أن تُخفي. ربما لا يهم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يكون شجرة، لكنه لن يتمكن أبداً من ذلك، فحياته، مثل حياة كل البشر الذي عاشوا أو سيعيشون، لن تعرف أبداً التجربة الأسمى لعالَم النبات. وهي الأسمى، كما نتصورها، لأنه لا أحد إلى حد اليوم استطاع أن يقرأ سيرة أو مُذكّرات شجرة بلّوط، كتبتْها بنفسها. وما على تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو سوى أن يهتمّ بأمور عالَمِه، ذلك المشكّل من رجال ونساء يُتعبون رئاتهم ويستعرضون أنفسهم بكل الوسائل الطبيعية والاصطناعية، وليترك الأشجار وشأنها، هي التي لها ما يكفي من الأعداء من أمراض نباتية، مناشير كهربائية وحرائق غابات.

وليهتم أيضاً بقيادة السيارة التي تحمله إلى الريف، وتنقله خارج مدينة تعتبر نموذجاً تاماً للصعوبات الحديثة في التواصل، فيما يتعلق بحركة السير والراجلين، وخصوصاً في أيام مثل هذا اليوم، يوم الجمعة مساء، وكل الناس يخرجون في عطلة نهاية الأسبوع. يخرج تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكنه سرعان ما سيعود. لقد ترك وراءه أصعب مرحلة في حركة السير، والطريق التي سيسلكها تعرفُ حركة سير أقل، وبعد قليل سيكون أمام منزل أنطونيو كلارو الذي سيكون في انتظاره بعد غد. كان يضع اللحية بشكل جيد، ربما يصادفُه، وهو يعبر البلدة الأخيرة، شخصٌ فيناديه باسم دانييل سانتا كلارا، ويدعوه لشرب جعة، إذا كان المنزل الذي جاء لفحصه، كما يمكن أن نفترض، هو في ملكيّة أنطونيو كلارو أو هو من يكتريه، منزلٌ في الريف، إقامة ثانوية، لأن الممثلين الثانويين في السينما يتبعون نمط حياة راقية فيها من وسائل الراحة ما كان إلى عهد قريب يعتبر امتيازاً لا يحظى به إلا القلّة. لكن ما يخشاه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو أن ذلك الطريق الضيق الذي يقوده إلى المنزل والذي ظهر للتو لن تكون له من فائدة سوى هذه وأنه، لو ذهب أبعد من ذلك ولم تكن هناك من مساكن أخرى، فإنّ المرأة التي ستظهر في المنزل سوف تتساءل أو تنادي جارتها لتسألها، إلى أين تتجه تلك السيارة، حسب علمي ليس هناك من أحد في بيت السيد أنطونيو كلارو، ووجهُ هذا الرجل لا يعجبُني في شيء، من يستعملُ لحيةً فلديْه ما يخفيه، لحسن الحظ أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يسمعها، لأن ذلك سيكون سبباً وجيهاً ليقلق. قد يصعب على عربتيْن أن تلتقيا في هذا الطريق الأسفلتي، ولا بدّ أن حركة السير ليست كثيفة هنا. على الجهة اليسرى، ينزل مسلكٌ كثير الحصى بتدرج نحو وادٍ حيث صفٌّ طويل

لا ينقطع من الأشجار السامقة، يبدو من هذه المسافة أنه يتشكل من أشجار الدردار والحور وربما يشيرُ إلى ضفّةِ نهرٍ. حتى بسرعة محترزة كتلك التي يتقدم بها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في حالة ما إذا برزت سيارة أمامه، فإن كيلومتراً واحداً يُقطع في رمشة عين، وها قد قطعَهُ ولا بُدّ أن المنزل هو ذاك الذي يظهر أمامه. يستمر الطريق، يتعرّج عبر المنحدر بين تلّيْن يتداخلان ثم يختفي في الجهة الأخرى، من المرجح أنه يفضي إلى منازل أخرى لا يمكن رؤيتُها من هنا، في النهاية، يبدو أن المرأة المرتابة لا يشغلها غير ما يجري بالقرب من البلدة التي تسكن فيها، ولا يهمها ما يحدث وراء حدودها. ومن الأرض المستوية الممتدة أمام المنزل ينزلُ باتجاه الوادي طريقٌ آخر أكثر ضيقاً من الأول، أرضيّتُه في حالة أسوأ، **هل** تكون طريقة أخرى للوصول إلى هنا، فكّرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. يعي جيداً أنه لا ينبغي له أن يقترب كثيراً من المنزل، ربما يقوم أحد المارة، أو أيّ راعٍ من رعاة الماعز، لأن الأرض تلائمها، فيطلق عنان صوته صائحاً، **تعالوْا** إنه لصّ، وفي رمشة عين يظهر رجال الشرطة، أو تحضر كتيبة من الجيران المُدجّجين بالعصي والمناجل، على الطريقة القديمة. عليه أن يتصرّف مثل مسافرٍ عابر توقّف لحظة ليتأمل المنظر العام، وما دام هناك، يلقي نظرةَ إعجابٍ بمنزل يستمتع أهله، الغائبون الآن، بمنظرٍ رائع. المنزل بسيط، يتكون من طابق واحد، وهو إقامة ريفية نموذجية يبدو أنه استفاد من عملية ترميم ذكية، لكنه بدأ يرسلُ بعض إشارات الإهمال، كما لو أن مالكيه نادراً ما يأتون إليه ويمكثون فيه لمدة قصيرة أكثر فأكثر. غالباً ما ننتظر من منزل ريفي أن تكون نباتات أمام بابه وعند نوافذه، لكن هذا ليس هو حال هذا المنزل الذي لا يقدم للناظر غير بعض السيقان اليابسة، زهرةٌ

تتعرى، ونبات غرنوقي شجاع ما زال يصارع الإهمال. سورٌ قصير يفصلُ المنزل عن الطريق، وخلفه، ترفع شجرَتان من أشجار كستناء أغصانَهما فوق السطح، وبالنظر إلى حجمهما وعمرهما فإنهما أقدم من البناية بكثير. مكان موحش، مثالي للأشخاص المُتأمّلين، ممن يعشقون الطبيعة كما هي، لا يميزون بين الشمس والمطر، بين الحرّ والقرّ، بين الريح والهدوء، الذين يرضون بما تجلبه لنا بعضها من راحة وما ترفض أن تمنحنا إياه أخرى. قام تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بجولة خلف المنزل، في حديقة ربما كانت تستحق هذا الاسم فيما مضى، لكنها لا تعدو أن تكون اليوم فضاء مُسوّراً بشكل غير جيد، تغزوه الأشواك وشبكة من النباتات البرّية تخنقُ شجرةً توقفت عن النمو وشجرةَ خوخ تغطي الأشنة جذعها، وبعض نباتات الداتورة السامة أو «Stramonium» حسب التسمية العلمية باللغة اللاتينية. بالنسبة لأنطونيو كلارو، وربما أيضاً بالنسبة لزوجته، لا بُدّ أنّ المنزل الريفي كان حباً عابراً، واحدة من تلك النزوات البدوية التي تستحوذ على أهل المدينة أحياناً، ومثل قشة تبْن سائبة تشعل حالما يدنو منها عود ثقاب، ثم سرعان ما تصبح مجرد رماد أسود.
لم يعد أمام تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو سوى أن يعود إلى بيته في الطابق الثاني المطل على الجهة الأخرى من الشارع وينتظر تلك المكاملة الهاتفية التي ستعود به إلى هنا يوم الأحد. ركبَ سيّارتَهُ، عاد أدراجه عبر الطريق وحتى يُظهرَ للمرأة المنتصبة في النافذة أنه لا يُثقل ضميرَه بأي جريمة ضدّ ملكية الغير، عبَرَ البلدة بتثاقل وهدوء، كأنه يشق لنفسه طريقاً وسط قطيع من العنزات المعتادة على استعمال الشوارع بنفس الهدوء الذي تذهب به للرّعي في الحقول، وسط نباتات الوزّال والصّعتر. فكّرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إنْ كان أمراً

يستحق العناء، فقط لإرضاء فضوله، أنْ يحاول اختصارَ المسافة ويمرَّ أمام المنزل عبر الطريق التي يبدو أنها تنزل نحو النهر، لكنه غيّر رأيه في الوقت المناسب، فكُلما قلَّ عدد الأشخاص الذين يرونه في هذه الأماكن يكون الأمر أفضل. وصحيح أيضاً أنه لن يعود إلى هنا بعد يوم الأحد، لكن من الأفضل دائماً ألّا يتذكر أحدٌ الرجل ذا اللحية. عند نهاية البلدة، أسرع الخطى، في دقائق معدودات كان في الطريق الرئيسية، وفي أقل من ساعة، بعد ذلك، كان في بيته. أخذَ حمّاماً ليُخفّف من حرارة الرحلة، غيّرَ ملابسه، ثم جلس إلى طاولة مكتبه رفقة مُنعش ليمون أخْرجَهُ من الثلاجة. لن يواصل العمل في المقترح الموجه إلى الوزارة، لكنه، كابنٍ بارّ، سيتّصلُ بأُمّه. سيسألها عن حالها، فتقول له **جيد**، وأنت كيف حالك، **بخير** كالعادة، ما من أسباب تدعو للشكوى، سامحيني، كنتُ منشغلاً جداً. من المفروض أن هذه الكلمات، عند البشر، تعادل ما تقوم به النملات من خفقات تعرُّف سريعة بعضها مع بعض بتحريك قرونها عندما تلتقي في الطريق، ولسان حالها يقول، **أنت** من أهلنا، الآن يمكن التحدث عن أمور جدية. وكيف هي مشاكلُكَ، تسأله الأُمّ، **في** طريقها إلى الحلّ، **يا** لها من فكرة، كأنْ ليس لي ما أقوم به في هذه الحياة غير أن أنشغل، **لحسن** الحظ أنّكِ لا تأخذين الموضوع على محمل الجد، **لأنكَ** لا ترى وجهي، **هيا**، يا أُمّي، اطمئني، **أتمنى** أن أطمئن حين تكونُ هنا، **لم** يعد هناك وقت طويل، **وعلاقتُكَ** مع ماريّا دا بّاش، إلى أين وصلت الآن، **من** الصعب أن أشرح لك ذلك، **على** الأقل، يمكن أن تحاول، **صحيح** أنني أُحبّها وأنا بحاجة إليها، **هناك** آخرون تزوجوا لأسباب أقل من هذه، **أجل**، لكني أرى أن الحاجة هي فقط أمر ظرفي، لا أقل ولا أكثر، إنْ توقفتُ عن الشعور بها،

ماذا أفعل، **وماذا** عن الحب، **الحبُّ** من طبيعة رجل كان يعيش وحده ولحسن حظه تعرّف على امرأة لطيفة، جميلة المظهر، حسنة الوجه، وكما يقال عادة، لديها مشاعر طيبة، **إذن**، هذا قليل، **لا** أقول إنه قليل، **لكني** أقول إنه لا يكفي، **هل** أحببتَ زوجتكَ، **لا** أعرف، لا أتذكّرُ، مرت على ذلك ستّ سنوات، **ستٌّ** سنوات لا تكفي للنسيان بهذا الشكل، **ظننتُ** أنني كنتُ أحبها، ولا بدّ أنها ظنّت نفس الأمر تجاهي، على أيٍّ كنا مخطئين معاً، أمرٌ جد شائع، **ولا** تريد أن يحدث مع ماريّا دا بّاش خطأ مثل هذا، **لا**، لا أريد ذلك، **لنفسكَ** أم لها، **لكليْنا** معاً، **لنفسكَ** أكثر من لها هي، على أي حال، **أنا** لستُ إنساناً من دون عيوب، يكفي أن أجنبها ما لا أريد أن يصيبني من شرّ، وأنانيّتي، في هذه الحالة، لا تذهب إلى حد أن أدافع عنها أيضاً، **ربما** لا يهم ماريّا دا بّاش أن تجازف، **طلاقٌ** آخر، طلاقي الثاني، الأول بالنسبة لها، لا، يا أُمّي، لا تفكري في ذلك حتى، **على** أيٍّ، يمكن أن ينجح، لا نعرف ما ينتظرنا وراء ما نأتي من أفعال، **هو** كذلك، **ولماذا** تقول ذلك بهذه الطريقة، **أية** طريقة، **كأننا** في الظلام وأنت أشعلت الضوء وأطفأته فجأة، **كان** ذلك انطباعَكِ، **أعِدْ** ذلك، **أعيدُ**، ماذا، **ما قُلتَهُ**، **لماذا**، **أعِدْ**، أطلبُ منكَ، **ليكن** كما تشائين، هكذا إذنْ، **قُل** الكلمتين فقط، **هكذا** إذنْ، **لم** يكن نفس الشيء، **كيف** أنه لم يكن نفس الشيء، **لم** يكن نفس الشيء، **هيا**، يا أُمّي، دعكِ من التوهم، من فضلك، إن التوهم الكثير ليس هو أفضل طريق نحو راحة البال، فالكلماتُ التي قلتُها لا تعني شيئاً آخر غير الموافقة، والانسجام، **إلى** الآن أنا أفهمُكَ، وحين كنتُ شابة، كنتُ أعود إلى القواميس، **لا** تغضبي، **متى** ستأتي، **لقد** قلتُ لكِ، قريباً جداً، **نحن** بحاجة إلى حديث، **سيكون** لنا ما تشائين من

الأحاديث، **أريدُ** حديثاً واحداً فقط، **ما هو، لا** تتظاهرْ بأنكَ لم تفهم، أريد أن أعرف ما يجري ومن فضلك لا تأتني بخطب مهيأة سلفاً، أنتظر منك أن تكون صريحاً معي وتضعَ كل الأوراق على الطاولة، **هذه** الكلمات لا تبدو أنها لكِ، **كان** والدُكَ كثيراً ما يستعملها، تذكّرْ ذلك، **سأضعُ** كل أوراقي على الطاولة، **وتعدُني** أن تكون صريحاً معي، من دون غشّ، **سأكون** صريحاً، لن يكون هناك غشّ، **هكذا** أحب ابني، **سنرى** ما لديك لتقولي لي عندما أضع أمامك أول ورقة من هذه اللعبة، **أظنُّ** أنني رأيتُ كل ما ينبغي رؤيتُه في هذه الحياة، **حافظي** على هذا الوهم ما دمنا لم نتحدث بعد، **هل** الأمر خطير إلى هذا الحدّ، **سيخبرنا** المستقبل بذلك في اللحظة المناسبة، **لا** تتأخر، من فضلك، **ربما** أكون هناك منتصف الأسبوع القادم، **أتمنى** ذلك، **قبلاتي** لكِ، يا أُمّي، **قبلاتي** لكَ، يا بني. وضع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السمّاعة، وبعد ذلك ترك فكره يتسكع على هواه، كأنه ما زال يتحدث مع أمه، **الكلماتُ** هي الشيطانُ، نحن نعتقد أننا لا نترك لتخرج من فمنا غير تلك التي تناسبُنا، وفجأة، تظهر كلمة تندسُّ وسط الأخريات، لم نر من أين برزت، لم نستدعها وبسببها، لأننا غالباً ما نواجه صعوبة في تذكّرها، يتغير فجأة مجرى الحديث، فنشرع في تأكيد ما نفيناهُ سابقاً، أو العكس، وما حدث للتو خير مثال على ذلك، لم أكن أقصدُ أن أُحدّث أُمّي مبكراً جداً عن حكاية المجانين تلك، إن كنتُ أفكر في القيام بذلك في يوم من الأيام، وبين لحظة وأخرى، دون أن أدرك كيف، حصلت مني على وعدٍ رسمي بأن أحكيها لها، ولا بُدّ أنها في هذه الدقيقة بالضبط تضع علامة على اليومية، تشير إلى يوم الاثنين من الأسبوع القادم، خوفاً من أن أصل إلى هناك دون أن

تكون في انتظاري، فكل يوم تشير إليه بهذه الطريق هو اليوم الذي ينبغي لي أن أصل فيه، من واجبي أن أصل والذنب ليس ذنبها. إنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليس مستاء، بل إنه، على العكس من ذلك، يستمتع بشعور عارم من الارتياح، كأنهم فجأة أزاحوا ثقلاً عن كتفيه، يتساءل ما الذي جناهُ، في النهاية، وهو يلزم الصمت خلال كل تلك الأيام فلا يجد جواباً مناسباً واحداً، ربما يستطيع بعد قليل أن يقدم ألف تفسير، كل تفسيرٍ أكثر عقلانية من التفاسير الأخرى، والآن لا يفكر سوى في أنه بحاجة لينفّس عن قلبه على أسرع وجه ممكن، سيكون له لقاء مع أنطونيو كلارو يوم الأحد، بعد يومين، إلّا إذا لم يشأ وأخذ السيارة يوم الاثنين صباحاً ليذهب ويعرض على أُمّه كل الأوراق التي تشكل اللغز، كل الأوراق فعلاً، لأنه كان عليه أن يخبرها بكل شيء منذ مدة طويلة، **هناك** رجل يشبهني كثيراً جداً لدرجة أنه حتى أنتِ، يا أُمّي، قد تخلطين بيننا، وهناك شيء آخر مختلف تماماً، هو أن يقول لها، **كنتُ** معه، والآن لا أعرفُ من أكونُ. في تلك اللحظة بالضبط، تبخر ذلك العزاءُ العابر الذي كان يُهَدْهدُه، ومكانَه، مثل ألمٍ ذكَّر بنفسه فجأة، ظهرَ الخوفُ من جديد. إننا لا نعرف كل ما ينتظرنا وراء كل فعل من أفعالنا، كانت أمه قد قالت، وهذه الحقيقة المبتذلة، في متناول ربّة بيت بسيطة من سكان الأقاليم، هذه الحقيقة التي تشكل جزءاً من سلسلة لامتناهية من الحقائق التي لا داعي لإضاعة الوقت في التلفُّظ بها لأنها لم تعد تَحْرِمُ أحداً من النوم، هذه الحقيقة التي تنطبق على الجميع والمتساوية للجميع يمكنها، في بعض المواقف، أن تثير كثيراً جداً من الكرب والخوف مثل أفظع تهديد. كل ثانية تمرُّ هي مثل باب يُفتحُ ليسمح بالدخول لما لم يحدث بعد، وها هو ما نطلقُ عليه اسم

المستقبل، لكن، في تحدّ للتناقض مع ما قيلَ للتو، ربما تكون الفكرة الصحيحة هي أن المستقبل ليس سوى فراغ هائل، وأن المستقبل ما هو إلا الزمن الذي يتغذى عليه الحاضرُ الأبدي. إنْ كان المستقبل فارغاً، فكّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، فإنه لا وجود لشيء اسمهُ يوم الأحد، فوجودُه المحتمل يتوقّفُ على وجودي، لو متُّ في هذه اللحظة فإن جزءاً من المستقبل أو أشكال المستقبل الممكنة ستُلغى إلى الأبد. هذا الاستنتاج الذي كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو على وشك أن يصل إليه، حتى يوجد يوم الأحد في الواقع لا بدّ أن أستمر أنا في الوجود، قُطعَ فجأةً بواسطة رنين الهاتف. كان أنطونيو كلارو يسأله، **هل** تسلّمت التصميم، **تسلَّمتُه**، **هل** لديك من سؤال تريدُ أن تطرحهُ، **ليس** لدي أي سؤال، **أخبرتُكَ** أنني سأتصل بك غداً، لكنني فكّرتُ في أن رسالتي ربما تكون قد وصلتكَ، ولذلك أؤكد لك موعد لقائنا، **حسناً**، سأكون هناك على الساعة السادسة، **لا** تنشغل بمسألة عبور البلدة، سوف آخذُ طريقاً مختصراً يقودني مباشرة إلى المنزل، وهكذا لن يستغرب أحدٌ مرورَ شخصيْن بوجهيْن متطابقين، **والسيارة**، **أية** سيارة، **سيارتي**، **لا** أهمية لذلك، إنْ كان هناك أحد يخلط بينك وبيني، سيظن أنني قد غيرت السيارة، ثم إنني، في الآونة الأخيرة، ذهبتُ قليلاً إلى المنزل، **حسناً**، إلى بعد غد، **إلى** يوم الأحد. بعد وضع السماعة، فكّرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه كان بوسعه أن يقول له إنه سيضع لحيةً مستعارة. وهذا أيضاً أمر لا أهمية له، سينزعُها بسرعة. كان يوم الأحد يقترب بسرعة كبيرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت الساعة تشير إلى السادسة وخمس دقائق عندما ركنَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو سيارته أمام المنزل، في الجهة الأخرى من الطريق. كانت سيارة أنطونيو كلارو هناك تقف عند المدخل، قرب الحائط. بين سيارة وأخرى هناك فرقُ جيلٍ ميكانيكي، لم يكن دانييل سانتا كلارا ليستبدل سياراته بشيء يشبه سيارة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. البوابة مفتوحة، وباب المنزل أيضاً، لكن النوافذ مغلقة. في الداخل، كان يظهرُ ظلٌّ لا يمكن تمييزه تقريباً من الخارج، لكن الصوت الذي يخرج من هناك لا بدّ أنه صوت فنان مسرحي، **ادخُل**، اعتبرْ هذا البيت بيتَكَ. صعد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أدراج سلَّم الولوج الأربعة وتوقف عند العتبة. ادخُل، ادخُل، ردّد الصوتُ، لا تكن مُتكلّفاً، لا تبدو لي أنك الشخص الذي كنتُ أنتظره، كنتُ أظن أنني أنا المُمثّل لكني أخطأتُ. دون أن ينبس ببنت شفة، متخذاً كل الاحترازات، نزعَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو اللحية ودخل. هذا هو ما نسمّيه الحس المسرحي، إنك تذكّرني بتلك الشخصيات التي تظهر فجأة وهي تصيح **ها أنا ذا**، كما لو أن لهذا الأمر أهمية، قال أنطونيو كلارو، بينما كان يبرزُ من العتمة ويظهرُ في الضوء الساطع الذي يدخل من الباب المفتوح. ظلّا واقفيْن ينظران أحدهما إلى الآخر.

بتثاقل، كما لو أنها تجد صعوبة في أن تنفصل عن أعمق نقطة في المستحيل، ارتسمت الدهشةُ على وجه أنطونيو كلارو، ولكنها لم تظهر على محيا تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذي كان يعرف ما ينتظرُه. أنا الشخصُ الذي اتصل بك، وأنا هنا لتتأكد بأمّ عينيك أنني لم أكن أريد أن أتسلى على حسابك وأنا أقول لك إننا متطابقان، **فعلاً**، همهم أنطونيو كلارو بصوت لم يعد يشبه صوت دانييل سانتا كلارا، بسبب إلحاحكَ تصورتُ أنّ بيننا تشابهاً كبيراً، لكني أعترف لك أنني لم أكن مستعداً لأرى أمامي صورتي نفسها، **الآن**، وقد صار الدليل بين يديك، يمكنني أن أنسحب، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **لا**، لا تفعل ذلك، طلبتُ منك أن تدخل، وأطلب منك الآن أن نجلس لنتحدث، المنزل غير مرتب، لكنْ هاتان الأريكتان في حالة جيدة ولا بدّ أن لدي بعض المشروبات، ما ليس لدي هو قطع الثلج، **لا** أريد أن أزعجك، **هيا**، كانت الخدمة ستكون أحسن لو أن زوجتي جاءت، لكن ليس من الصعب تصوُّر ما تشعر به في هذه اللحظة، أكثر اضطراباً وقلقاً، هذا أكيد، **بالنظر** إلى ما أشعر به شخصياً، ليس لدي أدنى شك، ما اضطررت لأعيشه خلال الأسابيع الأخيرة لا أتمناه حتى لألدّ أعدائي، **اجلس**، من فضلك، ماذا تريد أن تشرب، ويسكي أو كونياك، **أنا** لا أشربُ كثيراً، ولكن مع ذلك أفضّل الكونياك، قطرة واحدة لا أكثر. جلب أنطونيو كلارو القناني والكؤوس، قدم كأساً للضيف، صبّ لنفسه ثلاثة أصابع من الويسكي من دون ماء، وجلس بعد ذلك قرب الطاولة الصغيرة التي تفصلهما. لا أُصدّق من فرط الدهشة، قال أنطونيو كلارو، **سبقَ** لي أن مررتُ بهذه المرحلة، أجابه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الآن أتساءل فقط ما الذي سيحدث بعد هذا، **كيف** اكتشفت الأمر، **قلتُ** لك ذلك عندما

اتصلتُ بك، رأيتُكَ في فيلم، **نعم**، أتذكر الآن، ذلك الفيلم الذي لعبتُ فيه دور موظف استقبال في فندق، **تماماً**، **وبعد** ذلك رأيتَني في أفلام أخرى، **تماماً**، **وكيف** تمكنت من الوصول إليّ، إذا كان اسم دانييل سانتا كلارا لا يرِدُ في دليل الهاتف، **قبل** ذلك كان عليّ أن أجد طريقة لأتعرف عليك من بين عدة ممثلين ثانويين يظهرون في مقدمة الأفلام من دون إشارة إلى الأدوار التي يؤدونها، **أنتَ** محقّ، **استغرق** ذلك وقتاً طويلاً، لكني بلغتُ مرادي، **ولماذا** كلفت نفسك كل هذا العناء، **أظنّ** أن أي شخص في مكاني كان سيفعل الشيء نفسه، **أعتقدُ** ذلك، فالقضية مدهشة جداً كي لا نعيرها أي أهمية، **اتصلتُ** بالأشخاص الذي يحملون اسم سانتا كلارا في دليل الهاتف، **قالوا** لك إنهم لا يعرفونني، بطبيعة الحال، **أجل**، لكن واحداً منهم تذكّر أنها المرة الثانية التي يتصل به شخص يسأل عن دانييل سانتا كلارا، **أي** شخص آخر، قبلك، سأل عني، **نعم**، قد تكون إحدى المعجبات، **لا**، كان رجلاً، **هذا** غريب، **والأغرب** من ذلك أن الرّجل يبدو أنه كان يريد أن يخفي صوته، **لا** أفهم، لماذا قد يخفي صوته، **ليست** لدي أدنى فكرة، **ربما** يكون ذلك انطباع الشخص الذي تحدّثَ معه، **ربما**، **وكيف** اكتشفتَني في نهاية الأمر، **راسلتُ** الشركة المنتجة، **يدهشني** أنهم زوّدوك بعنواني، **كما** أنهم أعطوني اسمك الحقيقي، **ظننتُ** أنك لم تعرفهُ إلا بعد اتصالك الأول مع زوجتي، **الشركة** هي التي زوّدتني به، **على** حدّ علمي، هذه أول مرة يقومون بذلك، **وضعتُ** في الرسالة فقرة أتحدث فيها عن أهمية الممثلين الثانويين، أظن أن هذا أقنعهم، **الأمر** الطبيعي هو أن يكون عكس ذلك تماماً، **ومع** ذلك، نجحتُ في بلوغ أهدافي، **وها** نحن هنا، **نعم**، ها نحن هنا. شرب أنطونيو كلارو جرعة ويسكي، وبلّل تيرتوليانو ماكسيمو

أفونسو شفتيْه بالكونياك، بعد ذلك نظرا أحدهما إلى الآخر، ثم حوّلا نظرهما في نفس اللحظة. من الباب الذي ظلّ مفتوحاً، كان يتسلل ضوء المساء الخافت. أزاح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو جسده جانباً ونشر كلتا يديه على سطح الطاولة، ممدداً أصابعه، على شكل نجمة، **لنقارن**، قال. احتسى أنطونيو كلارو جرعة ويسكي أخرى ووضع يديه في تناظر مع يديْ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وهو يضغط عليهما مع الطاولة حتى لا يظهر أنهما ترتعشان. وكان يبدو أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يقوم بالشيء نفسه. كانت الأيادي متشابهة في كل شيء، في كل عرْق، في كل شعْرة، في كل ظفْر من الأظافر، كل شيء يتكرّر كما لو أنه خرج من قالب واحد. الفرق الوحيد هو خاتم الزواج الذي كان يضعه أنطونيو كلارو في بنصره الأيسر. لنرَ الآن العلامات التي تظهر في ساعدنا الأيمن، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. نهض، خلع معطفه الذي تركه ليسقط على الأريكة، ثم شمّر كُمّ قميصه حتى المرفق. نهض أنطونيو كلارو بدوره، لكنه ذهب أوّلاً ليغلق الباب ويشعل أضواء الصالة. وهو يضع المعطف على مسند كرسي، لم يستطع أن يتحاشى صوتاً أصمّ. هل هو المسدس، سأله تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **نعم**، **ظننتُ** أنك لن تجلبه، **إنه** ليس محشوّاً، **إنه** ليس محشوّاً، هي فقط ثلاث كلمات تقول إنه ليس محشوّاً، **هل** تريد أن أريك إياه، إذ يبدو أنك لا تصدقني، **افعل** ما تشاء. دسّ أنطونيو كلارو يده في جيب داخلي من معطفه وأخرج السلاح، **ها** هو المسدس. بحركات سريعة وفعالة، أخرج المخزن الفارغ، أرجع مؤخرة المسدس وعرَضَ مكان الرّصاص فارغاً أيضاً. هل اقتنعتَ، سأله، **اقتنعتُ**، **ولا** تشكُّ في أنني أحمل مسدساً آخر في الحقيبة الأخرى، **قد** تكون مسدسات زائدة عن الحاجة، **قد** تكون

ضرورية لو خططتُ للتخلص منك، **ولماذا** يضطر الممثل دانييل سانتا كلارا للتخلص من أستاذ مادة التاريخ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **أنتَ** نفسك من وضعت الإصبع على الجرح حين تساءلت ما الذي سيحدث بعد هذا، **كنتُ** مستعداً للذهاب إلى حال سبيلي، أنت الذي ألححت عليَّ لأبقى، **صحيح**، لكن انسحابك ما كان ليحلّ أي شيء، لا هنا، لا في بيتك، ولا حتى وأنت تعطي دروساً في القسم، أو تنام مع زوجتكَ، **أنا** لستُ متزوجاً، **أنتَ** ستكون دائماً نُسختي، ضِعْفي، صورةً دائمة عن نفسي في مرآةٍ لا أنظر فيها إلى ذاتي، وهذا شيء ربما لا يُحتملُ، **رصاصتان** قد تحلان المشكلة قبل أن يُطرح، **هذا** صحيح، لكن المسدس غير محشو، **تماماً**، **وليس** هناك مسدس آخر في الحقيبة الأخرى، **بالضبط**، هكذا نعود إلى البداية، لا نعرف ما سيحدث بعد هذا. كان أنطونيو كلارو قد شمّر كمّ قميصه إلى أعلى، ومن المسافة التي كان يوجد عليها كل واحد منهما من الآخر لم تكن تظهر الإشارات على جلديهما، لكنهما حين اقتربا من ضوءٍ، ظهرت بكل وضوح، دقيقةً، متطابقةً. يبدو هذا مثل فيلم من الخيال العلمي، كتبه، أخرجه وأدّاه مُستنسَخان يشتغلان تحت أوامر عالم مجنون، قال أنطونيو كلارو، **يجب** أن نرى أيضاً ندبة الركبة، ذكّرهُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **لا** أظنُّ أن ذلك يستحق العناء، فالدليل أكثر من شاف، أيادٍ، أذرع، وجهان، صوتان، كل شيء يتطابق، لا ينقص سوى أن نتعرى بالكامل. أخذ لنفسه مرة أخرى شيئاً من الويسكي، نظر إلى السائل كما لو أنه ينتظر أن تبرز من هناك فكرة ما، وفجأة سأل، **ولِمَ** لا، نعم، ولِمَ لا، **قد** يكون ذلك مثيراً للضحك، أنت نفسك قلت للتو إن الدليل شاف، **مثير** للضحك، لماذا، نحن الممثلين السينمائيين، وممثلي المسرح كذلك، لا نقوم تقريباً سوى

بالتعري، **أنا** لستُ ممثلاً، **لا** تتعرّ إنْ لم تكن ترغب في ذلك، لكني سأفعل ذلك، هذا أمر لا يكلفني شيئاً، أنا أكثر من معتاد على ذلك، وإذا ما تكرر التطابق في الجسم بكامله، سوف ترى نفسك وأنت تنظر إليّ، قال أنطونيو كلارو. خلع قميصه بحركة واحدة، خلع حذاءه، تجرّد من سرواله، ثم خلع ملابسه الداخلية وجوربيْه في النهاية. كان عارياً من رأسه إلى أخمص قدميه، ومن أخمص قدميه حتى رأسه كان هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أستاذ مادة التاريخ. حينئذ، فكّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه لا يمكن أن يتوارى، وأن عليه أن يرفعَ التحدّي، نهض عن الأريكة وراح يتعرى هو أيضاً، بتحفظ أكبر في حركاته بسبب الاحتشام وقلة العادة، لكنه حين انتهى، بوجه منقبض بعض الشيء بسبب الخجل، كان قد تحوّل إلى دانييل سانتا كلارا، الممثل السينمائي، مع استثناء وحيد ظاهر على مستوى القدميْن لأنه لم ينجح في أن يخلع الجوربيْن. نظرا أحدهما إلى الآخر في صمت، واعييْن بعدم الجدوى التام لأي كلمة ينطقان بها، يتملّكهما إحساس غامض من الإذلال والضياع يُبعدُ الدهشة التي ربما كانت هي ردّ الفعل الطبيعي، كما لو أن التطابق الصادم لكل واحد قد اختلس شيئاً من الهوية الخاصة للآخر. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو أول من انتهى من ارتداء ملابسه من جديد. ظل واقفاً، في هيئة من يفكر أنه حان وقت الانسحاب، لكن أنطونيو كلارو قال، **أطلبُ** منك أن تتفضل وتجلس، ما تزال هناك نقطة أخيرة أريد أن أوضحها معك، لن أُبقيك طويلاً، **بماذا** يتعلق الأمر، سأله تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بينما كان، متردداً، يعود ليجلس من جديد، **يتعلق** الأمر بتاريخيْ ميلادنا وساعتيْ قدومنا إلى الحياة، قال أنطونيو كلارو، وهو يُخرج محفظته من جيب المعطف، ومن داخلها أخرج وثيقة هوية مدّها إلى

تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من فوق الطاولة. ألقى عليها هذا الأخير نظرة خاطفة، ثم أعادها إليه وقال، ولدتُ في نفس التاريخ، نفس السنة، نفس الشهر ونفس اليوم، لن تشعر بالإهانة لو طلبتُ منك أن تُريني بطاقة هويتكَ، **لا**، على الإطلاق. مرّت بطاقةُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بين يدي أنطونيو كلارو، حيث تأخرت مدة عشر ثوان، ثم عادت إلى صاحبها الذي سأل، **هل** اقتنعتَ، **كلا**، لم أقتنع بعد، بقي أن عرف ساعتيْ الميلاد، فكرتي هي أن نكتبهُما على ورقة، كل واحد من جهته، **لماذا**، **حتى** لا يقوم من يتحدث في المرحلة الثانية، إنْ اتفقنا على اختيار هذه الطريقة، وهو يخضع للغواية، بحذف خمس عشرة دقيقة من الساعة التي صرح بها الأول، **ولماذا لا** يضيف هذه الدقائق الخمس عشرة، **لأن** أي إضافة ستكون ضد مصالح من يتحدث في المرحلة الثانية، **الورقةُ** لا تضمن جدية الطريقة، لا أحد يستطيع أن يمنعني من الكتابة، هذا مجرد مثال، أنني ولدتُ في أول دقيقة من اليوم، بينما هذا ليس صحيحاً، **ستكون** كذبتَ، **فعلاً** سأكون كذبتُ، لكنّ أي واحد منا، إنْ هو رغب في ذلك، يمكنُ أن يجانبَ الحقيقة حتى لو اكتفى فقط بأن يصرح بصوت مرتفع بالساعة التي وُلد فيها، **أنتَ** على حق، إنها مسألة استقامة وحسن نية. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يرتعش في دواخله، فقد كان متأكداً منذ البداية أن هذه اللحظة سوف تأتي، فقط لم يتصور أنه سيكون هو نفسه من سيدعوها لتتجلى، يمزق الحاجب الأخير، ويكشف عن الفرق الوحيد. كان يعرف مسبقاً ماذا سيكون جواب أنطونيو كلارو، ولكنه سأل رغم ذلك، **أي** أهمية أن نقول أحدنا للآخر في أي ساعة جئنا إلى هذا العالم، **أهميةُ** ذلك هو أننا سنعرف من منّا، أنت أم أنا، هو نسخةُ الآخر، **وما** الذي سيحدث للأول أو الثاني لو عرفنا،

ليست لديّ أدنى فكرة عن ذلك، لكن خيالي، والممثلون لا ينقصهم الخيال، يقول لي إنه على الأقل لن يكون من السهل على المرء أن يعيش وهو يعلم أنه نسخة لشخص آخر، **وهل** أنت مستعد، من جهتك، لتخاطر، **أكثر** من مستعد، **دون** أن تكذب، **أتمنى** ألّا يكون ذلك ضرورياً، أجابه أنطونيو كلارو بابتسامة مدروسة، كانت تشكيلة فنية من الشفتين والأسنان، بمقادير متساوية يتعذر تمييزها، تلتقي فيها الصراحة بالشر، والبراءة بالوقاحة. بعد ذلك، أضاف، **طبعاً**، إنْ كنت تفضل ذلك، يمكن أن نسحب قرعة لمعرفة من يتكلم أولاً، **ليس** ذلك ضرورياً، سأبدأ أنا، وقد قلت أنت بنفسك إنها مسألة استقامة وحسن نية، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **إذن**، في أي ساعة ولدتَ، **على** الساعة الثانية ظهراً. عبس أنطونيو كلارو بوجهه وقال، ولدتُ نصف ساعة قبل ذلك، أو، حتى أتحدث بدقة زمنية مطلقة، أخرجتُ رأسي على الساعة الواحدة وتسع وعشرين دقيقة، آسفٌ، يا عزيزي، ولكني كنتُ هنا قبل أن تولدَ، وأنت هو النسخة. عبَّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بجرعة واحدة ما بقي من الكونياك، ثم نهض وقال، **إنَّ** الفضول هو ما جلبني إلى هذا اللقاء، وها قد أشبعت رغبتهُ، لذا أنسحب، **يا** رجل، لا تذهب هكذا بسرعة، دعنا نتحدث قليلاً، الوقت ليس متأخراً بعد، بل إنك لست ملتزماً بأي موعد، يمكن أن نتناول العشاء معاً، فبالقرب من هنا ثمة مطعم جيد، ومع لحيتك لن يكون هناك من خطر، **شكراً** على الدعوة، لكني لا أقبلها، لأنه قليل ما لدينا لنقول أحدنا للآخر، فأنت لا أظن أنك تهتم بالتاريخ، وأنا شفيتُ من السينما لما سيأتي من سنوات، **هل** أنت منزعج لأنك لم تولد أنتَ أولاً وأن أكون أنا هو الأصلُ وأنت النسخةُ، **ليس** الانزعاج هو الكلمة المناسبة، فقط كنتُ أفضل ألا

تحدُث الأمور بهذا الشكل، لكن لا تسألني لماذا، لأنه، مهما يكن، أنا لم أخسر كل شيء، بل إنني ربحتُ تعويضاً صغيراً، **أي** تعويض، **أنّكَ** لن تربح شيئاً وأنت تجول في العالم وتتبجّح بأنك أنت الأصلُ منا معاً لو أن النسخة التي هي أنا لم تكن حاضرةً للقيام بالتأكد الضروري، **لا أنوي** أن أنشر فوق أسطح المنازل هذه الحكاية التي لا تُصدّق، أنا فنان سينمائي، ولستُ ظاهرةَ معرضٍ، **وأنا** أستاذ لمادة التاريخ، ولست عالم مساحة، **اتفقنا**، **إذن**، ليس هناك من سبب لنلتقي مرة أخرى، **وأنا** أيضاً أظن ذلك، **لم** يتبق لي، إذن، سوى أن أتمنى لك كل التوفيق والنجاح في لعب دورٍ لن تستفيد منه أي شيء لأنه لن يكون هناك من جمهور ليصفق، وأعدكَ أن هذه النسخة ستبقى بعيداً عن الفضول العلمي، الأكثر من مشروع، وبعيداً عن نميمة الصحفيين، التي لا تقل مشروعية، بما أنهم يعيشون عليها، وأتصور أنك سمعت الناس يقولون إن العادة لها قوة القانون، وإن لم يكن كذلك يمكنني أن أؤكد لك أنّ قانون حمّورابي ما كان له أن يُكتب، **سنحتفظُ** بمسافة بيننا، **في** مدينة كبيرة كهذه التي نعيش فيها لن يكون ذلك أمراً صعباً، وعلاوة على ذلك، حياتنا المهنية مختلفة تماماً حتى أنه ما كان لي أن أعرف بوجودك لولا ذلك الفيلم اللعين، أما إمكانية أن يهتم ممثل سينمائي بأستاذ لمادة التاريخ، فهذا أمر لا يمكن حتى التعبير عنه رياضياً، **وما** يدريك، كان احتمال وجودنا كما نحن يعادل صفراً، ومع ذلك ها نحن هنا، **سأحاولُ** أن أتخيل أنني لم أر الفيلم، ذلك الفيلم الأول وما تلاه، أو أن أتذكر فقط أنني تحملتُ كابوساً طويلاً ومؤلماً، لأدرك في النهاية أن ذلك لم يكن مفزعاً إلى ذلك الحدّ، رجُلٌ مطابق لرجُلٍ آخر، ما أهمية ذلك، إن كنت تريد أن أتحدث معك بصراحة، الشيء الوحيد الذي يشغلني حقاً في هذه

اللحظة هو أنه، لو وُلدنا في نفس اليوم فإننا سنموت في نفس اليوم أيضاً، **لا** أرى سبب الانشغال بأمرٍ كهذا، **الموتُ** دائماً يأتي بسبب ما، **أنتَ** تعطي الانطباع بأنك تعاني من هاجس مرضي، عندما اتصلتَ بي قلتَ نفس الكلمات، وأيضاً من دون سبب، **في** ذلك الوقت خرجت من فمي دون أن أفكر فيها، كانت جملة من تلك الجُمل خارج المكان والسياق التي تحشر نفسها في الحديث دون أن نستدعيها، **ألم** يكن الأمر كذلك الآن، **هل** يزعجك ذلك، **لا** يزعجني في شيء، **ربما** سيزعجك لو تقاسمت معك فكرة خطرت ببالي للتو، **أي** فكرة هذه، **أنّهُ** لو كنا متطابقيْن كما تأكّدنا من ذلك اليوم، فإن منطق التطابق الذي يبدو أنه يجمعنا سيقرر أنه يجب عليك أن تموت قبلي، وتحديداً واحدة وثلاثين دقيقة قبل أن أموت أنا، وخلال هذه المدة من واحدة وثلاثين دقيقة ستشغلُ النسخة فضاءَ الأصل، ستكون هي نفسها أصلاً، **أتمنى** لك أن تعيش جيداً هذه الواحدة وثلاثين دقيقة من الهوية الشخصية، المطلقة والحصرية، لأنه انطلاقاً من الآن لن تكون لك هويات شخصية أخرى، **هذا** لطف منك، شكرهُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. وضع اللحية بكل عناية، ضغط عليها بلطف بأطراف أصابعه، ولم تعد يداه ترتعشان، قال مساء الخير وتوجّه نحو الباب. وهناك توقف فجأة، التفت وقال، **آه**، نسيت الأهم، لقد قُدّمت كل الدلائل، إلّا واحدة، **ما هي**، سأله أنطونيو كلارو، **دليل** الحمض النووي، تحليل سَنَن معلوماتنا الجينية، أو، بتعبير أكثر بساطة، في متناول أي ذكاء، الحُجة الحاسمة، حجّةُ الحُجج، **هذا** غير وارد تماماً، **أنتَ** محق، قد نضطر لنذهب معاً إلى مختبر التحليلات الجينية، يداً في يد، كي يقطعوا ظفريْن من أظافرنا أو أن يستقطروا قطرتيْن من دمنا، وحينها، فعلاً، سنعرف إن كان هذا

التطابق لا يعدو أن يكون مجرد صدفة في الألوان والأشكال الخارجية، أم أننا البرهان المضاعف، أصلاً ونسخة، أعني أن المستحيل كان هو آخر وهْمٍ تبقى لنا، قد يعتبروننا حالةً من حالات المسخ الجيني، **أو** ظاهرة من ظواهر المعرض، **وقد** يكون ذلك أمراً لا يُحتمل بالنسبة لكلينا، **تماماً**، **لحسن** الحظ أننا متفقان، **كان** لا بدّ أن نتفق على شيء ما، **مساء** الخير، **مساء** الخير.

كانت الشمس قد اختفت وراء الجبال التي تحجب الأفق في الجهة الأخرى من النهر، لكن ضوء السماء من دون غيوم لم ينقص تقريباً، وحدها حدة الأزرق النيئة هي التي عدّلتها درجاتٌ شاحبة من اللون الوردي التي كانت تنتشر ببطء. شغّل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السيارة وأدار المقود كي يلج الطريق التي تعبر البلدة. وهو ينظر جهة المنزل، رأى أنطونيو كلارو عند العتبة، لكنه تابع طريقه. لم تكن هناك من إشارات وداع، لا من هذا الجانب ولا من ذاك. عُدتَ لتضعَ هذه اللحية السخيفة، قال الحسُّ السليم، **سأنزعُها** حالما نصل إلى الطريق، ستكون آخر مرة تفاجئُني وأنا أضعها، من الآن فصاعداً سأتجول بوجه مكشوف، وليتنكّر من شاء ذلك، **كيف** تعرف ذلك، **أعرفه**، أن أعرفه حقاً، لا أدري، هي فكرة فقط، افتراض، حدس، **يجب** أن أعترف أنني لم أكن أنتظر منك كل هذا، تصرّفتَ بشكل جيد جداً، مثل رجُلٍ، **أنا** رجل، **لا** أنكر ذلك، لكن من عادتك أنّ الضعف يغلب القوة، **وعليه**، فالرجل هو كل من لا يخضع لأي ضعف، **وهو** أيضاً من ينجح في السيطرة على ضعفه، **في** هذه الحالة، فالمرأة التي تستطيع أن تتجاوز ضعفها الأنثوي تُعتبر رجُلاً، هي مثل رجل، **بالمعنى** المجازي، نعم، يمكن أن نقول ذلك، **إذن** أنا أقول لك إنَّ الحسّ السليم يتكلم مثل رجل ذُكوري

بالمعنى الحقيقي للكلمة، **الذنبُ** ليس ذنبي، هكذا صنعوني، **هذا** ليس عذراً وجيهاً بالنسبة لمن لم يفعل في حياته غير إسداء النصح والتعبير وإعطاء الرأي، **أنا** لا أخطئ دائماً، **يناسبكَ** جيداً هذا التواضع المفاجئ، **قد** أكون أحسن حالاً مما أنا عليه، أكثر فعالية، أكثر فائدة، لو أنكم ساعدتموني، **منْ، كُلُّكم**، رجالاً، نساء، الحسّ السليم لا يعدو أن يكون مُعدّلاً حسابياً قد يرتفع أو ينخفض وفق هوى المدّ والجزْر، **وبذلك**، يمكن التنبؤ به، **فعلاً**، أنا أكثر ما يمكن التنبؤ به من بين كل الأشياء في هذا العالم، **لذلك** كنتَ تنتظرُني في السيارة، **كان** قد حان وقت ظهوري من جديد، بل كان بالإمكان اتهامي بأنني قد تأخرتُ أكثر من اللازم، **هل سمعتَ** كل شيء، **من** البداية إلى النهاية، **هل** تعتقد أنني أخطأت لمّا جئتُ لأتحدث معه، **يتعلق** الأمر بما تقصد بالخطأ أو الصواب، ثم إن هذا الأمر لا أهمية له لأنه نظراً للوضع الذي وصلتَ إليه لم يكن هناك من بديل آخر، **كانت** هذه هي الطريقة الوحيدة لإنهاء هذا الموضوع، **أي** إنهاء، **قررنا** معاً ألا نلتقي أبداً، **هل** تعني أن كل هذه الجلبة التي تسببت فيها ستنتهي هكذا، أنك ستعود إلى عملك وهو إلى عمله، أنت إلى ماريّا دا بّاش، ما دامت العلاقة بينكما مستمرّة، وهو إلى هيلينا، أو لا أدري كيف اسمها، وانطلاقاً من الآن ما رأيتُك قطّ ولا عرفتُكَ، أهذا ما تقولُه لي، **ليس** هناك من سبب يمنعُ من أن يكون بطريقة مختلفة، **هناك** كل الأسباب ليكون بطريقة مختلفة، وعدٌ من الحسّ السليم، **يكفي** ألّا نرغب في ذلك، **إنْ** أطفأت المحرك، فستواصل السيارة السير، **لأننا** في طريق منحدر، **لكنها** قد تستمر في السير، لوقت أقل، هذا صحيح، لو كنا في طريق منبسط، وهذا ما يسمى المقاومة السلبيّة، كما لا بد وأنك تعرف، رغم أنه موضوع لا

ينتمي إلى حقل التاريخ، أو ربما يكون كذلك، الآن وأنا أفكر في الأمر، أعتقد أن المقاومة السلبيّة تُلاحظُ بشكل أكبر، **لا** تُدْلِ بآراء في أمرٍ لا تخبره، فمباراة في لعبة الشطرنج يمكن أن تتوقف في أي لحظة، **كنتُ** أتحدث عن التاريخ، **وأنا** كنتُ أتحدث عن الشطرنج، **حسناً**، إن الأمور تُنجزُ وفق رغبة من يعطي الأوامر كما يقال، يمكن لأحد اللاعبيْن أن يستمر في اللعب لو شاء ذلك، وهذا اللاعب نفسه، من دون حاجة للغش، سيفوز بالمباراة في كل الأحوال، سواء لعب بالقطع البيضاء أو استعمل القطع السوداء، لأنه يلعب بها كلها في الوقت ذاته، **أنا** نهضتُ عن الطاولة، غادرتُ الصالة، لم أعد هناك، **ما** زال هناك ثلاثة لاعبين، **افترضُ** أنكَ تعني أنه قد بقي أنطونيو كلارو ذلك، **وزوجتُه** أيضاً، وأيضاً ماريّا دا بّاش، **ما** علاقة ماريّا دا بّاش بكل هذا، **يا** لضعف ذاكرتكَ، يا عزيزي، يبدو أنك نسيت أنك استعملت اسمها للقيام بتحرّياتك، فعاجلاً أم آجلاً، سواء أخبرتها أنت أم غيرك، ستعلمُ ماريّا دا بّاش بهذه المغامرة التي تورطتْ فيها من دون أن تعلم، أما زوجة الممثل، أظن أنها لم تحرك أي قطعة بعد، وربما تكون غداً هي الملكة المنتصرة، **بالنسبة** لحسّ سليم أنت تتمتع بخيال خصب، **تذكّرْ** ما قلتُه لك قبل أسبوعيْن، فقط حسّ سليم يتمتع بخيالِ شاعرٍ هو من يكون قد اخترع العجلة، **لم** يكن هذا ما قلتَه بالضبط، **لا يهمّ**، ها أنا أقولُه الآن، **قد** تكون رفقتك جيدة لو أنك لا ترغب في أن تكون دائماً على حق، **لم** أدّع قط أنني دائماً على حق، عندما أرتكبُ خطأً أكون أنا أوّل من يعترف بأخطائي، **ربما**، لكنك تظهر بوجه من وقع للتو ضحية خطأ قضائي صارخ، **وحدوة** الحصان، **ماذا**، **حدوة** الحصان، **أنا**، الحسّ السليم، اخترعتُ أيضاً حدوة الحصان، **بخيالِ** شاعرٍ، **قد** تكون

الخيْلُ مستعدة لتقسم أن ذلك صحيح، **يا إلهي**، يا إلهي، ها قد ركبنا أجنحة الخيال، **ما الذي** تنوي القيام به الآن، **سأُجري** مكالمتيْن هاتفيّتيْن، واحدة مع أُمّي لأقول لها إنني سأذهب لزيارتها بعد يوم غد وأخرى مع ماريّا دا بّاش لأخبرها بأنني بعد يوم غد سأذهب لزيارة أُمّي وأنني سأبقى هناك لمدة أسبوع، وكما ترى، لا شيء أكثر بساطة من هذا، ولا أكثر براءة منه، أمرٌ عائلي ومنزلي جداً. في تلك اللحظة، تجاوزتهُما سيارةٌ تسير بسرعة كبيرة، ولوَّح السائق لهما بحركة من يده. هل تعرفُ ذلك الرجل، هل تعرف من يكون، سأله الحسُّ السليم، **إنّهُ** الرجل الذي كنتُ أتحدث معه، أنطونيو كلارو، دانييل سانتا كلارا، الأصلُ الذي أنا نسختُه، ظننتُ أنك قد تعرّفتَه، **كلا**، لا أستطيع أن أتعرّف شخصاً لم يسبق لي أن رأيته من قبل، **أنْ** تراني أنا كأنكَ تراهُ هو، **لكن** ليس خلف لحية كهذه، **ونحن** نتحدث نسيت أن أخلعها، حسناً، ها قد خلعتُها، كيف تجدُني الآن، **سيارتُه** أقوى من سيارتك، **أقوى** منها بكثير، **اختفت** في رمشة عين، **إنه** يجري ليحكي لزوجته عن لقائنا، **هذا** ممكن، لكنه ليس أمراً مؤكداً، **إنك** شكّاك سيّئ، **كلا**، أنا فقط ما تسمّونه الحسّ السليم لأنكم لم تجدوا اسماً أحسن من ذلك تسمّونه به، **مخترعُ** العجلة وحدوة الحصان، **في** أوقاتي الشِّعْريّة، فقط في أوقاتي الشِّعْريّة، **ليتها** كانت أوقاتاً كثيرة فقط، **حين** نصلُ هل ستتركني أدخل إلى شارعِكَ، إن كان الأمر لا يضايقك، **ألا** تريدُ أن تصعد لتستريح بعض الشيء، **لا**، أفضل أن أطلق العنان لخيالي، سنكون بحاجة إليه.

مكتبة سُر مَن قرأ

عندما استيقظ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في اليوم التالي، عرف لماذا قال للحسِّ السّليم، ما إن ولج هذا الأخير السيارة، إنها كانت المرة الأخيرة التي يراه فيها بلحية مستعارة وإنه من الآن فصاعداً سيتجول بوجه مكشوف، أمام عيون كل الناس. وليتنكّر من يشاء ذلك، قال بكلمات ذات نبرة حاسمة. وما قد يبدو لشخص غير عارف إعلان نوايا مفاجئة يحرّكها نفاد صبر مبرر لمن ظل يخضع لسلسلة من المحن الصعبة، كان في النهاية، من دون أن نشك في ذلك، بذرة فعل يعجُّ بنتائج مستقبلية، مثل إرسال بطاقة تحدٍّ للعدو مع العلم مسبقاً أن الأمور لن تقف عند ذلك الحد. لكن، قبل أن نواصل، يستحسن من أجل انسجام السرد أن نخصص بعض السطور لتحليل أي تناقض يمكن أن يكون بين الفعل الذي سنخبر عنه لاحقاً والقرارات التي أَعلن عنها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. إنّ جولةً قصيرة في الصفحات الأخيرة من الفصل السابق ستكشف بسرعة وجود تناقض أساسي يتجلى من خلال تعابير مختلفة، مثلما عبّر عنه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أمام الشك المحترز للحسّ السليم، أولاً، أنه وضع نهاية لموضوع الرجُليْن المتطابقين، ثانياً، أنه تم الاتفاق بينه وبين أنطونيو كلارو ألّا يلتقيا أبداً مرة أخرى، وثالثاً،

ببلاغة ساذجة عند نهاية الفصل، أنه نهض عن طاولة اللعب، غادر الصالة ولم يعد حاضراً. هنا يكمنُ التناقض. كيف يمكن لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يؤكد أنه لم يعد حاضراً، أنه خرج، غادر الطاولة، إنْ كنا رأيناه، بعد أن ابتلع بالكاد الفطور، وهو يسرع إلى أقرب مكتبة ورّاقة سوف يبعث منها، عن طريق البريد، لا أقل ولا أكثر من نفس تلك اللحية التي رأيناه متنكراً فيها في الآونة الأخيرة. إذا افترضنا أن أنطونيو كلارو سيستعمل ذلك التنكر في يوم من الأيام، فذلك شأنه، ولا علاقة له برؤية تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يخرج وهو يخبط الباب ويقول إنه لن يعود أبداً. عندما سيفتح أنطونيو كلارو العلبة، بعد يومين أو ثلاثة أيام، في بيته ويجد نفسه أمام لحية مستعارة سيتعرّفُها على الفور، فإنه من المحتوم أن يقول لزوجته، **هذا** الذي ترينه هنا، ويبدو أنه لحية، هو بطاقة تحدٍّ، فتسأله الزوجة، **لكن** كيف يكون هذا ممكناً، وأنت لا أعداء لك. لن يضيع أنطونيو كلارو وقتاً ليجيبها إنه يستحيل ألا يكون للمرء أعداء، وأن الأعداء لا ينشأون من رغبتنا في أن يكون لنا أعداء، بل من رغبتهم الفظيعة في أن نكون لهم أعداء. وسط هيئة الممثلين، مثلاً، تثير الأدوار من عشرة سطور بوتيرة فظيعة حسد من يؤدون أدواراً من خمسة أسطر، ومن هناك يبدأ كل شيء، من الحسد، وإذا ما انتقلت أدوار عشر أسطر إلى عشرين سطراً، واكتفى أصحاب الأدوار من خمسة أسطر بسبعة، فإن الطريق يكون معبّداً كي تتطور عداوة قوية، مزدهرة ودائمة. وهذه اللحية، ستسأله هيلينا، ما دورها في كل هذا، **هذه** اللحية، نسيتُ أن أقول لك ذلك من قبل، هي التي كان يستعملها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عندما جاء ليلتقي بي، من الواضح جداً أنه أخذها بل وأنا ممتن له بهذه الفكرة، تصوري التعقيدات التي يمكن أن

تحدث لو صادفه أحدهم وهو يعبر البلدة فيخلطه بي، **ما** الذي ستفعله بها، **يمكن** أن أرسلها وأعيدها إليه مع ورقة جافة تضع هذا الدّخيل في مكانه، لكن هذا يعني الدخول في سلسلة من أقولُ لك وتقولُ لي بعواقب غير منتظرة، نعرف كيف تبدأ، لكننا لا نعرف كيف تنتهي، وأنا لديّ مسار يجب أن أدافع عنه، الآن وقد صارت أدواري من خمسين سطراً، مع إمكانية أن تزيد على ذلك إن مرّ كل شيء على أحسن ما يرام، كما يعد بذلك السيناريو الذي ترينه هناك، **لو** كنتُ مكانكَ، لمزّقت تلك اللحية ولرميتُها في الخارج أو لأحرقتها، ومع موت الأفعى ينتهي السّم، **لا** يبدو أن الأمر يتعلق بمسألة حياة أو موت، ثم إنّ لدي انطباعاً بأن اللحية لن توافقك، **لا** تمزح، كانت تلك طريقة في التعبير، أعرف أنها تشوش على ذهني، بل إنه يثير قلق جسدي أن يكون في هذه المدينة رجل يشبهكَ تماماً، رغم أنني ما زلتُ أرفض أن يبلغ الشبه كل هذا الحد، **أكرّرُ** لكِ أن الشبه تام، مطلق، بل حتى بصمات أصابعنا على بطاقة الهوية متطابقة، وقد أتيحت لي الفرصة لأتأكد من ذلك، **أشعرُ** بالدوار لمجرد التفكير في ذلك، **لا** تتركي هذا الهاجس يسيطر عليك، خذي مهدئاً، **لقد** أخذتُه، بدأتُ أتناول مهدئات منذ اتصل ذلك الرجل بهذا المنزل، **لم** أنتبه لذلك، **لأنك** لا تنتبه لي كثيراً، **هذا** ليس صحيحاً، كيف لي أن أعرف أنك تتناولين أقراصاً، إن كنت تقومين بذلك خلسة، **سامحْني**، أنا متوترة بعض الشيء، **لكن** هذا لا أهمية له، سوف يمر، سيأتي يوم لن نتذكر فيها هذه القصة اللعينة، **وفي** انتظار ذلك اليوم عليكَ أن تقرر ما تفعله بهذا الشَّعْر المقرف، **سأضعه** مع الشارب الذي استعملتُه في ذلك الفيلم، **أي** مصلحة لك في أن تحتفظَ بلحية وضعَها شخص آخر على وجهه، **إنَّ** المسألة تكمن في هذا الأمر بالضبط، في أنّ الشخص

شخصٌ آخر، لكن الوجه ليس كذلك، الوجه هو نفس الوجه، **إنّه** ليس نفس الوجه، **إنه** نفسه، **إذا** أردْتَني أن أجنّ، استمرّ في القول إنّ وجهكَ هو وجهه بالضبط، **من** فضلكِ، اهدئي، **وفوق** ذلك، كيف تضع في نفس المقام نيتك في الاحتفاظ بهذه اللحية، كما لو أن الأمر يتعلق بذخيرة مقدسة، وتسمّيه بطاقة تحدٍّ، لا أقل ولا أكثر، أرسلتْها لك يدٌ عدوة، وهذا ما قلتَهُ حين فتحتَ العلبة، **لم** أقل إنها جاءت من عدوٍّ، **لكنكَ** فكرت في ذلك، **ربما** يكون ذلك ممكناً، وأن أكون قد فكرتُ فيه، لكني غير واثق من أن تكون تلك هي الكلمة المناسبة، لأن هذا الرجل لم يصبني قط بأي أذى، **هل** هو موجود، **إنه** موجود بالنسبة لي كما أنا موجود بالنسبة إليه، **لم** تكن أنت من بحثَ عنه، أعتقد، **لو** كنتُ مكانَهُ، ما كنتُ لأتصرف بشكل مختلف، **أقسمُ** لك أنك كنت ستفعل ذلك لو طلبتَ نصيحتي، **أنا** على وعي بأن المسألة ليست جميلة، وليست كذلك بالنسبة لأي واحد منا، لكني لا أستطيع أن أفهم لماذا تتأجّجين إلى هذا الحد، **إنني** لا أتأجّج، **قليلاً** وستنطلقُ الشرارات من عينيكِ. لم تنطلق الشرارات من عينيْ هيلينا، بل انفجرت منهما الدموع، فجأة. أدارت ظهرها للزوج ثم هرولت لتغلق على نفسها في الغرفة، ثم أغلقت الباب بقوة تزيد عن الحاجة. لو أن شخصاً يؤمن بالشعوذة عاين هذا الشجار الزوجي الذي وصفناهُ للتو، ربما لن يُضيع الفرصة ليعزو سبب الخلاف إلى تأثير شرير يمارسه ذلك الملحق المستعار الذي يصرّ أنطونيو كلارو على الاحتفاظ به قرب الشارب الذي بدأ به مشواره في التمثيل تقريباً. ومن المؤكد أن ذلك الشخص سيحرك رأسه في حركة شفقة زائفة، ثم ينطق بهذا الوحي، **منْ** أدخل بيديه العدو إلى بيته، فلا يأت ليشتكي بعد ذلك، فقد أُنذر ولم يعبأ بالإنذار.

على بعد أربعمئة كيلومتر من هنا، في غرفة شبابه القديمة، يستعدُّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لينام. بعد أن غادر المدينة، يوم الثلاثاء صباحاً، ظل طوال الطريق يتساءل إنْ كان ينبغي له أن يحكي لأُمّه شيئاً مما كان يجري أو أنه، على العكس من ذلك، قد يكون من الحكمة أن يُبقي فمه مختوماً بشكل مطلق. بعد خمسين كيلومتراً قرّر أنه من الأفضل أن يُفرغ كل ما في جعبته، وعند الكيلومتر مئة وعشرين غضب من نفسه لأنه كان قادراً على التفكير في شيء كهذا، وعند الكيلومتر مئتين وعشرة تخيّلَ أن تفسيراً خفيفاً بنبرة حكائية ربما يكون كافياً لإرضاء فضول أُمّه، وعند الكيلومتر ثلاثمئة وأربعة عشر نعتَ نفسَه بالبليد وقال إنه لا يعرفها حقاً، وعند الكيلومتر أربعمئة وسبعة وأربعين، عندما توقف أمام باب البيت العائلي، لم يكن يعرف ماذا يفعل. الآن، وهو يلبس المنامة، يظنُّ أن تلك الرحلة كانت خطأ فادحاً، يستحق العقاب، وأنه كان من الأفضل ألّا يغادر البيت، ويظل يغلق عليه في قوقعته الحامية، ينتظر. صحيحٌ أنه هنا بعيد عن المتناول، دون أن يقصد إهانة السيدة كارولينا التي لا يبررُ مظهرُها الجسدي ولا طبعُها مثل هذه المقارنات، لديه الانطباع بأنه قد ألقى بنفسه في فم الذئب مثل عصفور متهور حلّق نحو الفخ من دون الاكتراث للعواقب. أُمّه لا تطرح عليه أسئلة وتكتفي بالنظر إليه بتعبير ينمُّ عن الترقب لتُحوّلَ عنه عينيها بتثاقل كأنها تقول له، **لا** أريد أن أكون متطفلة، ولكن الرسالة واضحة، إذا كنت تظن أنك ستعود من دون أن تتكلم، فإنك مخطئ أيما خطأ. مستلقياً على السرير، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يقلّب الموضوع في ذهنه فلا يجد له حلّاً. فأمُّه ليست من طينة ماريّا دا بّاش، فهذه تقتنع، أو تدفع لاعتقاد ذلك، ولا يهمها أن تنتظر لحظة الكشف طوال الحياة بكاملها، إن

كان ذلك ضرورياً. أما أمُّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ففي كل هيئة، في كل حركة، عندما تضع أمامه صحناً، عندما تساعده ليرتدي المعطف، عندما تسلمه قميصاً نظيفاً، فهي تقول له، **لا** أطلبُ منك أن تقول لي كل شيء، لك الحق في الاحتفاظ بأسرارك، لكن مقابل شرط واحد ووحيد، وهو أن الأسرار التي تتعلّقُ بها حياتُكَ، مستقبلُكَ، سعادتُكَ، فإنني أريد أن أعرفها، ذلك من حقي ولا تستطيع أن تمنعني منه. أطفأ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ضوء منضدة السرير، كان قد جلب بعض الكتب، لكن ذهنه، هذه الليلة، لا يطالبه بالقراءة، أما حضارات بلاد الرافدين، التي قد تأخذه بلطف حتى عتبات النوم الشفافة، فقد بقيت في بيته، على منضدة السرير أيضاً، ومؤشر القراءة يشير إلى الفصل المفيد المتعلق بالملك توكولتي نينورتا الأول، الذي ازدهر، كما يُقال عن الشخصيات التاريخية، بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر قبل الميلاد. كان باب الغرفة بالكاد موارباً، فانفتح بهدوء في العتمة. توماركتوس، كلبُ المنزل، كان قد دخل. جاء ليعرف إن كان هذ السيد، الذي لا يظهر إلا من حين لآخر، ما يزال هنا. بقامته المتوسطة، فإنه يظهر مثل بقعة مداد سوداء، ليس مثل كلاب أخرى تميل نحو اللون الرمادي حين ننظر إليها عن كثب. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو من أطلق عليه ذلك الاسم الغريب، وهذا ما يحدث حين يكون السيد إنساناً موسوعياً، وبدل أن يسمّي الحيوان باسم يسهل عليه أن يلتقطه عن طريق الجينات المباشرة، كما قد تطلق على الكلاب أسماء مثل «وفيّ»، «قائد»، «سلطان» أو «أميرال»، الموروثة والمتناقلة تباعاً من جيل إلى جيل، أطلق عليه اسم فصيلة من الكلاب، توماركتوس، يُقال إنها عاشت قبل خمسة عشر مليون سنة وكما يؤكد علماء

الحفريات القديمة، يعتبر هو أقدم حفرية لهذه الحيوانات ذات الأربع قوائم التي تجري، تشم الروائح، وتحكُّ القراد، وتعض أحياناً كما هو طبيعي بين الأصدقاء. لم يأت توماركتوس إلى هنا ليبقى وقتاً طويلاً، سينام بضع دقائق متكوراً عند قدم السرير، بعد ذلك سينهض ليقوم بجولة في أرجاء البيت، حتى يرى إن كان كل شيء على ما يرام، وفي الأخير، خلال ما تبقى من الليل، سيكون حارساً مرافقاً لسيدته طوال الوقت، إلا إذا اضطر ليخرج كي ينبح في الفناء، يشرب في الطريق ماء من صحنه ثم يرفع قائمته عند ركن نبات الجيرانيوم أو باقة إكليل الجبل. سوف يعود إلى غرفة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مع أول ضوء الفجر، سيتأكد من أن هذه الجهة من الأرض لم تُغيّر مكانها، وهذا أعزّ ما تُقدّره الكلاب، ألّا يغادر أحد. وحين يستيقظ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، سيكون الباب مغلقاً، مما يدل على أن أمه قد استيقظت وأن توماركتوس خرج ليرافقها. ينظرُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى الساعة المنبهة، ويقول في نفسه، **الوقتُ** ما يزال باكراً، يمكن للمشاغل أن تنتظر ما دام مُستمراً هذا النومُ الأخير الغامض.

كان سيستيقظ مفزوعاً لو أن عفريتاً ماكراً جاء وهمس في أذنه أن شيئاً في غاية الخطورة كان يتولّدُ لحظتها بالضبط في بيت أنطونيو كلارو، أو، توخّياً للدقة، داخل ذهنه. ساعدت المهدئاتُ هيلينا كثيراً، والدليل هو كيف تنام، بتنفس صحيح، وجه مطمئن وشارد مثل طفلة، لكننا لا نستطيع قول الشيء نفسه عن الزوج، فهذا الأخير لم يستفد من لياليه، يُفكّر دائماً في موضوع اللحية المستعارة، يتساءل بأية نوايا أرسلها إليه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، يحلم باللقاء في المنزل الريفي، يستيقظ بائساً، يتصبّب عرقاً أحياناً. لم يكن الأمر

كذلك هذا اليوم. كان الليل عدوّه، كما في الليالي السابقة، لكن الفجر كان هو المنقذ، كما يجب أن تكون كل لحظات الفجر. فتح عينيه وانتظر، مندهشاً وهو يشعر أنه ينظر خلسة إلى شيء على وشك أن يفقس، وميض برق غمر بالضوء الغرفة بكاملها، فقد تذكّر أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد قال له في بداية حديثهما، **راسلتُ** شركة الإنتاج، وهو يجيب عن السؤال الذي طرحه عليه، **وكيف** وجدتني في نهاية الأمر. ابتسم من المتعة الخالصة، كما يجب أن يبتسم كل البحارة الذين يرون الجزيرة المجهولة، لكن متعة الاكتشاف الحماسي لم تدم طويلاً، لأن هذه الأفكار الصباحية غالباً ما يشوبها خلل في الصنع، إذ يكون هناك لدينا انطباع باختراع الحركة الدائمة ولكن ما إنْ نُدير ظهرنا حتى تتعطل الآلة. فالرسائل التي تطلُب صور الفنانين وتوقيعاتهم من الأمور العادية في شركات الإنتاج السينمائي، لأن النجوم الكبار يتلقّون منها الآلاف كل أسبوع، ما دامت هناك حظوة الجمهور، وحين نقول يتلقّون، فإنهم لا يتلقّونها حقاً بل ولا يضيعون وقتاً في قراءتها، لأنه لهذا الغرض يوجد مستخدمو الشركة المنتجة الذين يهبّون ليبحثوا في الرفّ عن الصورة المرغوب فيها، يضعونها في ظرف، مع إهداء مطبوع سلفاً، هو نفسه للجميع، ثم إلى الشخص التالي، فالوقت متأخر. من الواضح أن دانييل سانتا كلارا ليس نجماً من نجوم السينما، لذلك لو وصلت ثلاث رسائل كاملة تطلب حظوة الفوز بصورة من صوره، فسيكون هناك ما يدعو للفرح الكثير وإعلان اليوم عيداً وطنياً، من دون نسيان أن مثل هذه الرسائل لا يُحتفظ بها، فجميعها، من دون استثناء، تمرُّ عبر آلة تمزيق الورق، فيصير كل ذلك القلق وكل تلك الأحاسيس كومة من القطع الدقيقة التي يصعب فكّ شفراتها. لكن،

مع افتراض أن أمناء أرشيف شركة الإنتاج تلقّوا تعليمات ليسجلوا، يصفّفوا ويرتبوا وفق معايير مضبوطة هذه الشهادات من الإعجاب الموجّهة إلى الفنانين فلا تضيع منه ولا شهادة واحدة، فإنه من الضروري أن نتساءل في ماذا ستُفيد أنطونيو كلارو رسالةٌ كتبَها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أو، بالتحديد، فيما يمكن أن تساهم به هذه الرسالة في الكشف عن مَخْرج، إنْ كان هناك من مَخْرج، من هذه الحالة المعقدة، الغريبة، غير المسبوقة بين رجليْن متطابقيْن. يجبُ القول إن هذا الأمل المبالغ فيه، الذي سرعان ما يتحول فتاتاً بسبب منطق الأحداث، هو ما بعث حماساً كبيراً في أنطونيو كلارو وهو يستيقظ، وإن كان ما يزال هناك أثر من تلك الرسالة، فهو ذلك الجزء الذي يقول فيه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إنه أولى أهمية للممثلين الثانويين الذين يرى أنهم يستحقون شرف الحظوة بمكان في الأرشيف، بل، من يدري، باهتمام مُتخصّصٍ في مجال التسويق لا تكون العوامل الإنسانية غريبة عنه. في الحقيقة، إن ما نكتشفه هنا هو فقط الحاجة إلى الرضا البسيط الذي يمكن أن يوفرهُ لأَنا دانييل سانتا كلارا عن طريق ريشة أستاذ لمادة التاريخ، الاعترافُ بأهمية صبايا المقصورات في إبحار حاملات الطائرات، وإنْ لم يقوموا بشيء آخر أثناء الرحلة سوى تلميع النحاس. أن يكون هذا كافياً كي يقصد أنطونيو كلارو الشركة هذا الصباح ليتحقق من وجود رسالة كتبها المدعو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أمرٌ مشكوك فيه، نظراً لعدم يقينه أنه سيجد هناك ما توهّمه كثيراً، لكن ثمة لحظات في الحياة تكون فيها الحاجة الملحّة للخروج من مستنقع التردد، والقيام بشيء ما، مهما كان، ولو غير ذي فائدة، ولو كان شيئاً سطحياً، هو آخر إشارة على ما تبقى لنا من قدرة الإرادة، كالنظر خلسة عبر ثقب باب مُنعنا

من الدخول عبره. كان أنطونيو كلارو قد نهض من السرير، وفعل ذلك بكل حذر حتى لا يوقظ زوجته، هو الآن ممدّد على الأريكة الكبيرة في الصالة، وسيناريو الفيلم القادم مفتوح بين ركبتيْه، سيكون مبررهُ ليذهب إلى شركة الإنتاج، هو الذي لم يحتج قطّ إلى مبرر ولم يطلب منه أحد ذلك في هذا البيت، وهذا ما يحدث للمرء حين لا يكون ضميره مرتاحاً بالكامل. ثمة أمور لا بدّ من توضيحها في هذا السيناريو، سيقول عندما تظهر هيلينا، على الأقل ينقص جواب من الحوار لأن المقطع لا معنى له هكذا. في النهاية، سيكون نائماً عندما تدخل زوجته إلى الصالة، لكن الأثر لم يزل بالكامل، ستظن أنه قد استيقظ ليدرس دورَهُ، فهناك أشخاص من هذا النوع لهم حسٌّ حادّ بالمسؤولية يجعلهم قلقين طوال الوقت، كما لو أنهم في كل لحظة يقصرون في واجبهم ويتهمون أنفسهم بذلك. استيقظ مفزوعاً، شرح، متلعثماً، أنه قضى ليلة سيئة، فسألته لماذا لم يعد إلى السرير، فشرح لها حينئذ أنه قد وجد خطأً في السيناريو وأنه لا يمكن تصحيحه إلا في الشركة المنتجة، فقالت له، إن هذا لا يجبره على أن يذهب إلى هناك مهرولاً، أن يذهب بعد الغداء وما عليه سوى أن ينام الآن. ألحّ على الأمر فتخلت عن رأيها، فقط قالت إنها، عكس ذلك، تشعر برغبة كبيرة في أن تنام من جديد، **ستبدأ** العطلة بعد أسبوعين، ثم إنه بفضل هذه الأقراص سيكون ذلك جنة، **لن** تقضي العطلة كلها في السرير، قال لها، **سريري** هو قلعتي، أجابته، وخلف أسواره أشعر بالأمان، **عليكِ** أن تستشيري طبيباً، لم تكوني هكذا قط، **شيء** مفهوم، أنا لم أكن أفكر قطُّ في رجُليْن إلى غاية هذا اليوم، **أفترضُ** أنكِ لا تقولين هذا بجدّ، **ليس** بالمعنى الذي تظن، طبعاً لا، ثم إنني أعترف أنه من السخيف أن تشعر بالغيرة من رجُلٍ لا أعرفُه حتى ولنْ

أعرفَهُ إنْ كان الأمر يتعلق بإرادتي أنا وحدي. قد تكون تلك أحسن لحظة لأنطونيو كلارو ليعترف بأنه لن يذهب إلى شركة الإنتاج بسبب أخطاء مفترضة في السيناريو، بل ليقرأ، إن كان ذلك ممكناً، رسالةً كتبها بالضبط الرّجلُ الثاني من الرجُليْن اللذين يشغلان فكر زوجته، ولو أنه من المشروع، بالنظر إلى الطريقة التي يشتغل بها دماغ الإنسان عادة، المستعد على الدوام لينزلق في أي شكل من أشكال الهذيان، أنه، على الأقل في هذه الأيام المضطربة، سيكون هذا الرجل الثاني تقدّم على الرجل الأول. ولنُقرّ، مع ذلك، أن تفسيراً كهذا، بالإضافة إلى أنه تطلّب جهداً جباراً من دماغ مشوش كدماغ أنطونيو كلارو، لن يفيد سوى في تعقيد الوضع، ومن المحتمل جداً أنّ هيلينا لن تستقبلهُ بما يكفي من تعاطف. اكتفى أنطونيو كلارو بالإجابة إنه لا يشعر بالغيرة، ومن السخيف أن يشعر بها، وأن ما يشغله هو صحتها، **علينا** أن نستغل إجازتكَ ونذهب بعيداً عن هنا، قالت، أفضّلُ أن أبقى في البيت، ثم إنه ينتظرك هذا الفيلم، **ليس** مستعجلاً، لدي وقت، **يمكن** أن نذهب إلى المنزل الريفي، سأطلبُ من أحد في القرية أن يذهب وينظف الحديقة، **إنني** أختنقُ في تلك الوحدة، **إذن** لنذهب إلى مكان آخر، **لقد** قلتُ لكِ إنني أفضّل أن أبقى في البيت، **ستكونُ** وحدة من نوع آخر، **لكني** أشعر أنني بخير في هذه الوحدة، **إنْ** كان هذا فعلاً هو ما تريدهُ، **نعم**، هذا ما أريده فعلاً. لم يعد هناك من شيء يمكن قوله. تناولا الفطور في صمت، وبعد نصف ساعة كانت هيلينا في الشارع، في طريقها إلى العمل. لم يكن أنطونيو كلارو مستعجلاً مثلها، لكنه لم يتأخر في الخروج بدوره. ولج السيارة وهو يفكّر أنه سينتقل إلى الهجوم. فقط لم يكن يعرف لماذا.

لا يحدث كثيراً أن يظهر ممثلون في مكاتب شركة الإنتاج، ولا بدّ أن هذه هي أول مرة يأتي فيها ممثل ليسأل عن رسالة من أحد المعجبين، رغم أنها تبدو مختلفة عن الرسائل الأخرى بخاصية غير مألوفة تتمثل في أن كاتبها لا يطلب صورة ولا توقيعاً، فقط عنوان الممثل. لا يعرف أنطونيو كلارو فحوى الرسالة، يفترض أنها لا تنطوي سوى على طلب عنوان المنزل الذي يسكنُ فيه. على الأرجح ما كانت مهمة أنطونيو كلارو لتكون بالسهلة لو لم يحظ بصُدفة معرفةِ رئيس أحد المصالح الذي كان زميلاً له أيام الدراسة فاستقبله بالأحضان، بالعبارة المألوفة، **ما** الذي جاء بك إلى هنا إذن، **أعرفُ** أنّ شخصاً ما كتب رسالة يطلب فيها عنواني، أودُّ أن أقرأها، قال، **أنا** لست مكلفاً بهذه الأمور، لكني سأطلب من أحدهم أن يقوم بخدمتك. اتّصلَ بواسطة جهاز الاتصال الداخلي، شرح الأمر بإيجاز، وما هي إلا لحظات حتى جاءت امرأة تبتسمُ، وقد أعدّت ما ستقول من كلمات، **صباح** الخير، أعجبني كثيراً مشاهدة فيلمكَ الأخير، **هذا** لطفٌ منكِ، **ما** الذي تريد أن تعرفه، **يتعلق** الأمر برسالة كتبها لي شخصٌ يُدعى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **إنْ** كان الأمر يتعلق بطلب صورة، لم تعد لدينا صور، ولا نحتفظ بهذا النوع من الرسائل، لأن أرشيفنا قد ينهار إنْ احتفظنا بها، **حسب** ما أعتقد أنني أعرف، تتضمن الرسالة طلَب عنواني وتعليقاً حول موضوع يهمّني، هذا هو السبب الذي جاء بي إلى هنا، **ما** اسم هذا الشخص، **تيرتوليانو** ماكسيمو أفونسو، أستاذ لمادة التاريخ، **هل** تعرفه، **نعم** ولا، أعني أنهم حدثوني عنه، **منذ** متى كُتبت الرسالة، **ربما** منذ أسبوعين، لكني لستُ متأكداً، **سأبدأ** بمراجعة سجلّ المراسلات الوافدة، رغم أن هذا الاسم، في الحقيقة، لا يعني لي

شيئاً، **وهل** أنتِ المسؤولة عن سجلّ المراسلات، **لا**، بل زميلة لي توجد في عطلة، لكن إنْ كان اسما كهذا لن تكون هناك تعليقات قليلة، فقليلون هم من يحملون اسم تيرتوليانو في الوقت الراهن، **أظنُّ** ذلك، **تعال** معي، من فضلك، قالت المرأةُ. ودّع أنطونيو كلارو صديقه وتبعها، لم تكن امرأة قبيحة، كانت جميلة الوجه وتستعمل عطراً جيداً. عبَرا قاعة كان يشتغل فيها عدة أشخاص، ابتسم اثنان منهما ابتسامة خفيفة وهما يريانهما يمُرّان، مما يبرهن، رغم وجود آراء تخالف ذلك بسبب أحكام طبقية مسبقة، أنه ما يزال هناك أشخاص ينتبهون إلى الممثلين الثانويين. دخلا إلى مكتب تحيط به رفوف مملوءة كلها تقريباً بسجلّات من الحجم الكبير. كان سجلٌّ منها مفتوحاً على الطاولة الوحيدة هناك. يبدو كل هذا مثل إعادة تمثيل حدث تاريخي، قال أنطونيو كلارو، كأنه أرشيف مكتب من مكاتب الحالة المدنية، **إنه** أرشيف، لكنه مؤقت، عندما يمتلئ السّجل فوق الطاولة عن آخره، فإن أقدم سجلٍّ يذهب إلى المزبلة، وهذا لا يحدث مع أرشيف مكتب الحالة المدنية، حيث يُحتفظ بكل شيء، حياً كان أم ميتاً، **بالمقارنة** مع القاعة التي جئنا منها يبدو هذا عالماً آخر، **أتصوّر** أنه حتى في المكاتب الأكثر حداثة توجد أماكن تشبه هذا المكان، بمرساة صدئة مشدودة إلى الماضي وخارج الخدمة. حدجها أنطونيو كلارو بنظرة متفحصة وقال، **منذ** ولجتُ هذا المكان سمعتُكِ تقولين عدداً كبيراً من الأفكار المهمة، **أتظنُّ** ذلك، **هذا** ما أعتقد، **ربما** يكون شيئاً ما مثل عصفور بدأ يغني فجأة كأنه كناري، **وهذه** أيضاً فكرة تعجبني. لم تجبه المرأة، قلّبت بضع صفحات، عادت ثلاثة أسابيع إلى الوراء، وبسبّابة يدها اليمنى، راحت تنتقل بين الأسماء واحداً تلو الآخر. مرّ الأسبوع الثالث، كما

مرّ الأسبوع الثاني، وها نحن في الأول، وصلنا للتو إلى تاريخ هذا اليوم، ولم يظهر اسم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. لا بدّ أنهم زوّدوكَ بمعلومة خاطئة، قالت المرأةُ، فهذا الاسم لا يظهر هنا، مما يعني أن تلك الرسالة، إنْ كُتبت، فهي لم تدخل إلى هذا المكان، أو ربما تكون قد ضاعت في الطريق، **إنني** أتعبُك معي أكثر من اللازم، أستغلُّ وقتكِ، لكن، قال أنطونيو كلارو ملمحاً، ربما لو رجعنا أسبوعاً آخر إلى الوراء، **حسناً**، ولِمَ لا. قلّبت المرأةُ الصفحات مرة أخرى وتنهّدت. كان الأسبوع الرابع يزخرُ بطلبات الصور، وستتأخر وقتاً طويلاً قبل أن تبلغ يوم السبت، ونرفع أيدينا لنرجو من الرّب أن تكون الطلبات الخاصة بالممثلين المهمين قد عُولجَت في مصلحة تتوفر على نظام معلوماتي، لا علاقة له بهذا التقليد القديم الذي يشبه الطباعة القديمة مع هذا الجبل من الأوراق المخصص للغوغاء.
استغرق وعي أنطونيو كلارو وقتاً طويلاً ليدرك أن عمل البحث الذي كانت تنجزه المرأة اللطيفة بوسعه أن يقوم به هو أيضاً، بل من واجبه أن يعرض نفسه ليُعوّضها، خصوصاً أن المعطيات المسجلة هناك، بالنظر إلى طابعها الأولي، مجرّدُ لائحة من الأسماء وعناوين الإقامة، تماماً كما يجد أي شخص في دليل هاتف تافه، لا تنطوي على أي درجة من الخصوصية، ولا تستوجب أي شكل من أشكال التحفظ تفرض إبقاءها بعيداً عن نميمة الغرباء عن تلك المصلحة.
شكرتْهُ المرأةُ عن عرضه بابتسامة من محياها، لكنها لم تقبل منه ذلك العرض، فهي لن تبقى هناك تنظر إليه يعمل وهي مكتوفة اليدين، قالت. مرت الدقائق وتوالت الأوراق، ها قد جاء اليوم الخامس وتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لم يظهر بعد. بدأ أنطونيو كلارو يشعر بالتوتّر، يلعن الفكرة التي خطرت له، يتساءل إن كانت تلك الرسالة

اللعينة ستفيدهُ إن ظهرت، **فلا** يجد جواباً يرقى إلى مستوى ما ينتابه من إزعاج ناتج عن الوضعية، بل حتى أناهُ، كأنها قطٌّ شرِهٌ، كانت تتحول بسرعة إلى شعور بالخزي. أغلقت المرأة السجل، **آسفة** جداً، لكن الرسالة ليست هنا، **وأنا** أطلب منك أن تسامحيني على ما تسببت لك فيه من تعب بسبب شيء تافه، **إنْ** كنتَ حريصاً على رؤية الرسالة، فلا يمكن أن تكون شيئاً تافهاً، قالت المرأة بنبرة تخفيف سخية، **أخبروني** أن بها مقطعاً يمكن أن يهمّني، **أيُّ** مقطع، **لستُ** متأكداً، أظنُّ أنه يتحدث عن أهمية الممثلين الثانويين في نجاح الفيلم، شيء من هذا القبيل. قامت المرأة بحركة مفاجئة، كأن الذاكرة قد رجّتها من الداخل، فسألتهُ، **حول** الممثلين الثانويين، أهذا ما قلتَ، **نعم**، أجابها أنطونيو كلارو من دون أن يرغب في أنه يمكن أن يأتي من هناك وميض أمل، **لكن** هذه الرسالة كتبتْها امرأة، **كتبتْها** امرأة كرّر أنطونيو كلارو، وهو يشعر أن رأسه بدأ يدور، **نعم**، كتبتْها امرأة، **وماذا** حدث لها، أعني الرسالة، طبعاً، **رأى** أول شخص قرأ ذلك أن الأمر يخرج عن المألوف وذهب ليخبر الرئيس السابق للمصلحة الذي عرضها بدوره على الإدارة، **وماذا** بعد ذلك، **لم تعُد** قطّ إلى مصلحتنا، أو ربما يكونون قد وضعوها في الخزْنة، أو مزّقوها في آلة تمزيق الورق في مكتب رئيس الإدارة، **لكن** لماذا، لماذا، **لقد** طرحتَ سؤالَيْن، وكلاهما على صلة بالموضوع، ربما بسبب ذلك المقطع، ربما لأن الإدارة لم تر بعين الرضا إمكانية أن ينتشر، داخل الشركة وخارجها، وعبر كل أرجاء البلاد، بيانٌ يطالب بالإنصاف والعدالة للممثلين الثانويين، قد يكون ذلك ثورة في قطاعنا، وتصور ما قد يحدث لو أنه تبنّت هذا المطلب الطبقات السفلى، وكل الثانويين في الشركة بصفة عامة، **لقد** تحدثتِ عن رئيس

مصلحة قديم، لماذا هو قديم، **لأنه** ترقّى بسرعة بفضل حدسه العبقري، **إذن**، اختفت الرسالة، تبخرت، همهم أنطونيو كلارو، محبطاً، **اختفى** الأصل، نعم، لكني احتفظتُ بنسخة منها للاستعمال الشخصي، احتفظتُ بضِعْفها، **احتفظتِ** بنسخة، كرّر أنطونيو كلارو، وهو يشعر في الوقت ذاته برعشة سرت للتو في جسده ولم يكن ذلك بسبب الكلمة الأولى بل بسبب الثانية، **بدت** لي الفكرة رائعة جداً فقررتُ أن أقترف مخالفة بسيطة لقانون الوظيفة الداخلي، **وهل** هذه الرسالة معكِ، **إنها** عندي في البيت، **آه**، عندكِ في البيت، **إنْ** كنتَ تريد منها نسخة، ليس عندي أي مانع لأزوّدك بها، في نهاية المطاف، فمستلمُ الرسالة الحقيقي هو الممثل دانييل سانتا كلارا، الممثَّل قانونياً هنا، **لا** أعرفُ كيف أشكركِ، واسمحي لي أن أكرّر ما قلتُه من قبل، أنني تشرفت بمعرفتكِ وبالحديث معكِ، **هناك** أيام جيدة، اليوم وجدتني في حالة جيدة، أو ربما لأنني شعرت أنني أتقمّص دور شخصية روائية، **أي** رواية وأية شخصية، **لا أهمية** لذلك، لنعد إلى الحياة الحقيقية، ودَعْنا من الأوهام والخيال، غداً سوف أصور لك نسخة من الرسالة وأبعث بها إليك في بتيك، **لا** تتعبي نفسكِ، سوف أمرُّ من هنا، **لا**، على الإطلاق، تصور ما الذي قد يظنونه في هذه الشركة لو رآني أحدهم أسلّمكَ ورقةً، **هل** سيشكل ذلك خطراً على سمعتكِ، سألها أنطونيو كلارو، وهو يرسم بداية ابتسامة خبيثة محتشمة على شفتيه، **أفظعُ** من ذلك، قاطعتْه، قد أجازفُ بوظيفتي، **سامحيني**، ربما أبدو لك وقحاً، ولكني لم أكن أقصد أن أضرّ بك، **أظنُّ** ذلك، ربما أخطأتَ بخصوص معنى الكلمات، هذا أمر يحدث دائماً، ما يهم هي المصافُّ التي ينسجُها الزمن والعادة بيننا، **أيّ** مصافٍّ هذه، **إنها** مثل غرابيل الصوت، حين

تمر منها الكلمات دائماً ما تترك فيها بقايا، ولمعرفة ما تريد بالفعل أن تُبلغنا لا بدّ من تحليل تلك البقايا تحليلاً دقيقاً، **يبدو** هذا أمراً معقداً، **على** العكس من ذلك، العمليات الضرورية تُنجزُ في الحال، مثل حاسوب، لكنها لا تدهس بعضها بعضاً، كل شيء يتم بنظام، بشكل صحيح حتى النهاية، إنها مسألة تدرُّب، **إنْ** لم يكن ذلك موهبة طبيعية، مثل امتلاك سمع مطلق، **في هذه** الحالة لا يحتاج الأمر إلى كل هذا، يكفي سماع الكلمة، أما حدّة الحاسة فتوجد في مكان آخر، لكن لا تظن أن الطريق مفروشة بالورود، أحياناً، وأتحدث عن نفسي، لا أعرف ما يحدث لأشخاص آخرين، أصل إلى البيت وكأن مصافي مسدودة، مؤسف أن ما نأخذه من حمامات دُشّ تنهمرُ على خارج أجسادنا لا تستطيع أن تنظفنا من الداخل، **إنني** أصل إلى استنتاج يقول إنّ العصفور لا يغني مثل طائر الكناري، بل مثل العندليب، **يا إلهي**، كم من البقايا هناك في الداخل، صاحت المرأة، **أودُّ** أن أراكِ مرة أخرى، **أعتقدُ** ذلك، أخبرتني مصفاتي بذلك للتو، **إنني** أتحدث بجدّ، **لكنكَ** لست جاداً، **بل** إنني لا أعرف حتى اسمكِ، **لماذا** تريد أن تعرفه، **لا** تغضبي، **جرت** العادة أن يقدم الناس أنفسهم بعضهم لبعض، **إنْ** كان هناك من سبب يدعو لذلك، **أوَلَيْسَ** هناك من سبب في هذه الحالة، سألها أنطونيو كلارو، **صراحةً**، لا أرى هناك من سبب، **تصوّري** أنني أحتاج إلى مساعدتكِ مرة أخرى، **المسألة** بسيطة، اطلُب من رئيسي أن ينادي تلك الموظفة التي ساعدتْكَ هذه المرة، مع أنه من المحتمل جداً أن تقوم بخدمتك زميلتي التي هي الآن في عطلة، **إذن** لن أراكِ ثانية، **سأفي** بوعدي، ستتوصل برسالة الشخص الذي رغب في الحصول على عنوان إقامتكَ، **لا** شيء غير هذا، **لا** شيء غير هذا، أجابتهُ

المرأة. ذهب أنطونيو كلارو ليشكر زميله السابق، تحادثا قليلاً، وفي الأخير سأله، ما اسم تلك الموظفة التي قامت بخدمتي، **ماريّا**، لماذا، **في** الحقيقة، بالتفكير ملياً، ليس هناك من سبب، لا أعرف الآن أكثر مما كنتُ أعرف من قبل، **وماذا** كنتَ تعرفُ من قبل، **لا شيء**.

كان الحسابُ سهل الإنجاز. إنْ أكّد لنا أحدُهم أنّه كتَبَ رسالةً وظهرت هذه بعد ذلك تحمل توقيع شخص آخر، يجب أن نختار بين فرضيّتيْن، إما أن هذا الشخص الثاني كتبها بطلب من الشخص الأول، أو أن ذلك الشخص الأول، لأسباب لا يعرفها أنطونيو كلارو، زوّر اسم الشخص الثاني. يستحيل الخروج عن هاتين الفرضيّتيْن. كيفما كان الأمر، وبالنظر إلى أن عنوان المُرسِلِ ليس هو عنوان الشخص الأول، بل عنوان الشخص الثاني، الذي يجب أن يُبعث إليه بجواب الشركة المنتجة، مع العلم أن كل الخطوات الناتجة عن معرفة محتواها كانت من فعل الشخص الأول ولم ينجز الشخص الثاني ولا واحدة منها، فإن الاستنتاجات التي ينبغي الخروج بها من هذه القضية أكثر من منطقية، إنها شفافة. أوّلاً، من البديهي، الواضح والجلي أنّ الطرفيْن اتفقا على التلاعب بالمراسلات؛ ثانياً، لأسباب يجهلها أيضاً أنطونيو كلارو، كان هدف الشخص الأول هو أن يبقى في الظِّلّ حتى آخر لحظة، ونجح في ذلك. ظَلَّ أنطونيو كلارو يُفكّر في هذه الاستنتاجات الأولية خلال الأيام الثلاثة التي استغرقتها الرسالة التي بعثتها ماريّا الغامضة كي تصل وتعود. كانت الرسالة مرفقة بورقة مكتوبة بخطّ اليد، لكنها لا تحمل توقيعاً، **أرجو**

أن تفيدَكَ في شيء ما. كان ذلك تحديداً هو السؤال الذي يطرحه أنطونيو كلارو على نفسه، **وبعد** هذا، ما الذي أفعلهُ أنا. لكن، ينبغي أن نقول، إنه لو طبّقنا على هذا الوضع نظرية المصافي أو غرابيل الكلمات، سنلاحظ أن هناك ترسّباً، حثالة، رواسب، أو بقايا بكل بساطة، كما تُفضّل أن تسمّي ذلك ماريّا التي تجرّأَ أنطونيو كلارو أن يسمّيها، ووحده يعرف بأي نية من النوايا، كناري، في البداية، ثم عندليب؛ هذه البقايا، كنا نقول، الآن وقد علمنا بمسلسل التحليل، تشي بوجود غاية، ربما ما تزال غير واضحة، فضفاضة، لكننا نضع رأسنا ليُقطع أنها ما كان لتظهر لو لم تكن الرسالة تحمل توقيع رجل، وليس توقيع امرأة. وهذا يعني أنه لو أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كان له، مثلاً، صديق ثقة، اتفق معه على هذا الخداع الملتوي، لقام دانييل سانتا كلارا بتمزيق الرسالة بكل بساطة لأنه قد يعتبرها تفصيلاً لا أهمية له فيما يتعلق بجوهر المسألة، أي ذلك التطابق التام الذي يجمعُهما والذي سيفرّقهما لا محالة إذا ما استمرت الأمور على هذه الوتيرة. لكن، مع الأسف، الرسالة تحمل توقيع امرأة اسمها ماريّا دا بّاش وأنطونيو كلارو أثناء ممارسة مهنة التمثيل لم يسبق أن أُسند له دور الرّجل الغاوي، ولو من الدرجة الثانية، يعمل كل ما في جهده للحصول على تعويضات متوازنة في الحياة العملية، ولو أنه لا يصل دائماً إلى نتائج مُرضية، كما لاحظنا ذلك خلال واقعة لقائه بموظفة شركة الإنتاج. ينبغي أن نوضح من الآن أنه إنْ لم نُشر من قبل إلى ميولاته الغرامية، فإن ذلك يرجع فقط إلى أنه لم تسنح الفرصة بذلك خلال سردنا للأحداث. لكن، وبما أن أفعال البشر، عموماً، محددة بتضافر مجموعة من الدوافع المنبعثة من الجهات الأربع والجهات الجانبية لذلك الكائن الغرائزي الذي لم

نكف قط على أن نكونه إلى اليوم، مع قسط قليل من العقل نقحمه، رغم كل الصعوبات، في شبكة حوافزنا، وبما أنه تتدخل في هذه الأفعال أطهر الأشياء وأقذرها، وتتساوى النزاهة بالتحايل، فإننا قد نظلمُ أنطونيو كلارو إنْ لم نقبل، ولو مؤقتاً، أن ذلك التفسير الذي سيقدّمها لنا من دون شك حول اهتمامه بتوقيع الرسالة، أي فضول طبيعي، وإنساني أيضاً، لمعرفة أي علاقة تجمع بين تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، المدبّر الفكري للرسالة، ومنفّذها المادي، كما يُفكّر، وتلك المدعوة ماريّا دا بّاش. لقد أتيحت لنا عديدٌ من الفرص لندرك أن أنطونيو كلارو لا تنقصه البصيرة ولا القدرة، لكنْ لا يستطيعُ أكبرُ باحث في علم الجريمة أن يتصوّر أنه في هذه القضية غير العادية، وضد كل القرائن، وخاصة الموثقة منها، يمكن أن يكون مُدبّر الخدعة ومُنفّذها شخصاً واحداً هو نفس الشخص. هناك فرضيتان تفرضان نفسيهما في ترتيب من الأقل إلى الأكثر، إما أنهما صديقان فقط، أو أنهما عشيقان بكل بساطة. يميل أنطونيو كلارو إلى هذه الفرضية الأخيرة، أوّلاً لأنها تناسب دوّامة الأحاسيس التي يعاينها في الأفلام التي يشارك فيها، ثانياً، ونتيجة لذلك، لأنه يجد نفسه في مجال يعرفه وأمام سيناريو يحفظه عن ظهر قلب. حان الوقت لنتساءل إنْ كانت هيلينا على علم بما يجري هنا، إنْ كان أنطونيو كلارو قد أخبرها في يوم من الأيام عن نيّته في الذهاب إلى الشركة المنتجة، عن البحث في السجل وعن الحوار الذي أجراه مع تلك الموظفة ماريّا، الذكية والعطرة، إنْ كانت قد عرضت عليه الرسالة التي تحمل توقيع ماريّا دا بّاش، وفي الأخير، إنْ كان سيتقاسم معها، بوصفها زوجته، التقلبات الخطيرة للأفكار التي تعبر ذهنه. الجواب هو لا، وثلاث مرّات لا. وصلت الرسالة أمسِ

صباحاً، وكان الانشغال الوحيد لأنطونيو كلارو في تلك اللحظة هو أن يبحث عن مكان يضعها فيه ولا يستطيع أحد أن يكتشفه. لقد دُسّت، منسحقة بين صفحات كتاب «تاريخ السينما» الذي لم يعد يُثير اهتمام هيلينا بعد أن قرأته وهي تقفز على كثير من مقاطعه خلال الأيام الأولى على زواجهما. واحتراماً للحقيقة، ينبغي القول إنه إلى غاية الآن ورغم أنه فكر في الأمر ملياً، لم يفلح أنطونيو كلارو في رسم خطة عمل مُرْضية بشكل معقول، وتستحق هذا الاسم. لكن الامتياز الذي نتمتع به، أي معرفتنا بكل ما سيحدث إلى غاية الصفحة الأخيرة من هذا السرد، عدا ما سنضطر لابتكاره في المستقبل، يسمحُ لنا بالإعلان مسبقاً أنّ دانييل سانتا كلاراً سيُجري اتّصالاً هاتفياً بمنزل ماريّا دا بّاش، فقط ليعرف إنْ كان هناك أحد، إذ لا ننسى أننا في فصل الصيف، زمن العطلة، لكنه لن ينطق ببنت شفة، لن يَخرُج من فمه ولا صوتٌ واحد، صمت مطلق، حتى لا يحدث تشوش للشخص في الجهة الأخرى من الخط، ويخلط بين صوته وصوت تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، في حالة ما إذا لم يبق له من حلّ آخر سوى أن يتحمل هوية هذا الأخير مع ما يترتب عن ذلك من عواقب، بالنظر إلى الوضع الحالي. ومهما بدا ذلك غير متوقع، بعد دقائق، قبل أن تعود هيلينا من العمل، وأيضاً ليعرف إن كان غائباً، سيتّصلُ ببيت أستاذ مادة التاريخ، لكنه لن يظل صامتاً هذه المرة، لأنه أعدّ خطابه مسبقاً، سواء كان من سيسمعه في الجهة الأخرى من الخط أو اضطر للحديث مع آلة تسجيل المكالمات. هذا ما سيقوله، وهذا ما يقوله، **مساء** الخير، معكَ أنطونيو كلارو، أتصوّر أنّكَ لم تكن تنتظر مكالمتي، والحقيقة أن عكس ذلك قد يفاجئني، أظن أنك لست في البيت، ربما تستمتع بعطلة في الأقاليم، هذا طبيعي، نحن

في عطلة، ومهما يكن، غائباً كنت أم لا، أتصلُ بكَ لأطلب منك خدمة كبيرة، أنْ تتصل بي ما إن تعود، فصراحة أظن أنه ما زال لدينا كثير من الأشياء لنقولها أحدنا للآخر، أظن أنه ينبغي أن نلتقي، لكن ليس في منزلي الريفي، البعيد بكل صراحة، ولكن في مكان آخر، في مكان بعيد عن الأنظار والعيون الفضولية التي لا تفيد في شيء، أرجو أن توافق على ذلك، وأحسن الأوقات للاتصال بي هي بين العاشرة صباحاً والسادسة مساء، في أي يوم من الأيام عدا السبت والأحد، لكن، لاحظ جيداً، فقط حتى نهاية الأسبوع القادم. لم يضف شيئاً آخر، **لأن** هيلينا، وهذا هو اسم زوجتي، لا أدري إن كنتُ قد قلتُ لك ذلك، ستكون في البيت، ستكون في عطلة، ورغم أنني لا أشارك في التصوير فلن نغادر المدينة. قد يعادل هذا الاعتراف بأنها ليست على علم بما يجري، ونظراً للثقة المنعدمة في الظروف الحالية، فإن رجلاً عاقلاً ومتزناً لن يكشف تفاصيل حياته الزوجية خصوصاً في قضية حسّاسة مثل هذه. أنطونيو كلارو، الذي لا يقل تبصراً عن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، كما استطعنا أن نلاحظ ذلك، يدركُ أن الدوريْن اللذين لعبهُما كلاهما إلى غاية تلك اللحظة قد صارا معكوسيْن الآن، ومن الآن فصاعداً، هو من عليه أن يتنكّر وأنّ ما بدأ مثل استفزاز مجاني متأخر من أستاذ التاريخ، حين أرسل إليه، كأنه يصفعه، لحية مستعارة، كان وراءه قصد في نهاية الأمر، لأنه نشأ عن علم مسبق، وكان ينذر بمعنى. إنّ المكان الذي سيلتقي أنطونيو كلارو بتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أينما كان، أنطونيو كلارو هو من عليه أن يذهب إليه متنكراً، وليس تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. وبما أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو جاء إلى هذا الشارع يضع لحية مستعارة ليحاول أن يرى أنطونيو كلارو وزوجته، فإنّ أنطونيو كلارو

بدروه سيذهب بلحية مستعارة إلى الشارع الذي تقطن فيه ماريّا دا بّاش ليكتشف أي نوع من النساء هي ويتبعها حتى إلى البنك وفي بعض الأحيان حتى بالقرب من منزل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وسيكون بذلك ظلّها طوال الوقت الضروري لذلك وحتى تقضي بغير ذلك قُوّةُ ما كُتب التي لا يمكن مقاومتُها. بعد ما قيلَ للتو، فإن ما يُفهم هو أنّ أنطونيو كلارو قد توجّه إلى الصوان حيث العلبة التي تحوي الشارب الذي زَيّنَ فيما مضى وجه دانييل سانتا كلارا، وهو تنكّرٌ غير كافٍ في الظروف الحالية، وعلبة السجائر الفارغة التي تحوي منذ أيام أيضاً اللحية المستعارة التي سيستعملها أنطونيو كلارو. وقد كان في قديم الزمان ملكٌ حكيم جداً أكّدَ، في لحظة إلهام فلسفي، بكل ما يمتّ إلى عرشه من وقار، إنه لا جديد تحت الشمس. لا ينبغي أبداً أن تُؤخذ مثل هذه الجُمل على محمل الجدّ، لأنه من المحتمل أن يستمر أحدهم في النطق بها حين سيكون كل شيء قد تغيّر ولم تعد الشمس على ما كانت عليه من قبل. وعكس ذلك، فإن حركات الناس وإشاراتهم لم تتغير كثيراً، ليس فقط منذ المَلِك الثالث لبني إسرائيل بل أيضاً منذ ذلك اليوم الخالد الذي رأى فيه وجهٌ بشري نفسه على صفحة الماء الهادئ وفكّر، **هذا** هو أنا. الآن، حيث نوجد، هنا، حيث نكون، بعد مرور أربعة أو خمسة ملايين سنة، ما زالت الحركات البدائية تُكرّر نفسها برتابة، غير عابئة بالشمس وبالعالم الذي تضيئه، وإن كُنّا بحاجة إلى شيء ما كي نتأكد من أن الأمر كذلك، يكفي أن نلاحظ كيف أن أنطونيو كلارو، أمام سطح المرآة الناعمة في الحمام، يعدّل اللحية التي كانت في حوزة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بنفس العناية، بنفس التركيز الفكري، وربما بنفس الرعشة التي رسم بها قبل عدة أسابيع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، في

حمام آخر وأمام مرآة أخرى، شارب أنطونيو كلارو في وجهه الشخصي. لكنهما كانا أقل ثقة من جدّهما الفظّ المشترك، لم يسقطا في الغواية الساذجة ليقولا، **هذا** هو أنا، لأنه منذئذ أصبحت المخاوف مختلفة وصارت الشكوك أكثر اختلافاً، الآن، الآن، بدل تأكيد واثق، الشيء الوحيد الذي يخرج من الفم هو السؤال، **مَنْ** يكون هذا، وهذا السؤال هو الذي ربما لن تستطيعَ أكثر من أربعة أو خمسة ملايين سنة أنْ تُقدّمَ له جواباً. نزع أنطونيو كلارو اللحية وذهب ليحتفظ بها في العلبة، وهيلينا، متعبة بالعمل، وأكثر صمتاً مما جرت العادة، لن تتأخر في الوصول، وستبدو أنها تتحرك في الشقة كما لو أنها ليست شقتها، كما لو أن قطع الأثاث غريبة عنها، كما لو أن زواياها وحوافها لا تعرفُها، فتزمجر كأنها كلاب حراسة عند مرورها. ربما تستطيع كلمة من زوجها أن تغير الأمور، لكننا نعرفُ أنه لن يستطيع أن ينطق بها لا أنطونيو كلارو ولا دانييل سانتا كلارا. ربما لا يرغبان في ذلك، ربما لا يستطيعان ذلك، فكل أسباب القدر بشرية، بشرية فقط، ومن اعتمد على دروس الماضي وفضّل أن يقول عكس هذا، سواء نثراً أم شِعْراً، لا يعرف عن أي شيء يتحدث، مع الاستسماح عن هذا الرأي المتهور.

في اليوم التالي، بعد أن غادرت هيلينا البيت، اتصل أنطونيو كلارو بمنزل ماريّا دا بّاش. لم يكن يشعر أنه متوتّر أو متحمّس بشكل خاص، لأن الصمت سيكون هو درعه الحامي. الصوتُ الذي ردّ عليه كان بهيماً، بهشاشة متردّدة لمن يمرُّ بفترة نقاهة بعد وعكة صحية، وبما أنّ من مؤشراته صوت امرأة في سن متقدمة، لم يكن هشاً مثل صوت مُسنّة، أو شخص من كبار السن، لمن يُفضّل استعمال التَّوْرية في الحديث. لم تكن كثيرة الكلام، **ألو**، ألو، من

معي على الخط، أجِبْ من فضلك، ألو، ألو، يا لها من قلة احترام، لا يمكن للمرء أن ينعم بالراحة حتى في بيته، ثم وضعت السماعة. لكن دانييل سانتا كلارا، رغم أنه لا يدور في فلك النظام الشمسي للممثلين الكبار، كان يتمتع بسمع مرهف، وخصوصاً لتمييز القرابة كما هي الحال هنا، لذلك لم يجد عناء في استنتاج أن السيدة المسنّة، إن لم تكن هي الأُم فهي الجدّة، وإن لم تكن الجدّة فهي العمّة، بما أنه استبعد تماماً الصورة المبتذلة والمطروقة في المواضيع الأدبية التي تصور خادمة عجوزاً لم تتزوج قطّ حُباً في مُشغّليها. طبعاً، فقط لسبب منهجي، ما زال عليه أن يتأكد إن كان هناك رجال في البيت، أبٌ، جدٌّ، عمٌّ، أخٌ، لكن أنطونيو كلارو لن يتعين عليه أن يشغل باله كثيراً بهذا الاحتمال، ما دام أنه، في كل شيء ولكل شيء، في الصحة كما في المرض، في الحياة كما في الموت، لن يظهر أمام ماريّا دا بّاش بوصفه دانييل سانتا كلارا، بل بوصفه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، سواء كصديق، أو كعشيق، وإذا لم يُفتحُ له البابُ على مصراعيه، فإنه، على الأقل، سيستمتع بوضع قرابة معترف به ضمنياً. لو سألنا أنطونيو كلارو عمّا يفضله فيما يصبو له من أهداف، بخصوص طبيعة العلاقة بين تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وماريّا دا بّاش، إن كانت علاقة عشيقيْن، علاقة صديقيْن، فلا نشك في أنه سيجيبُنا إنَّ هذه العلاقة، لو كانت علاقة صداقة فقط، فإنها لن تكون حتى بنصف الأهمية لو كانا عشيقيْن. كما يمكن أن نرى، كانت خطة العمل التي رسمها أنطونيو كلارو قد قطعت أشواطاً كبيرة فيما يتعلق بتحديد الأهداف وتثبيت الدوافع، رغم أن هذا الثبات، إلا إذا كان هناك سوء تأويل من طرفنا، يبدو أنه تحقق بفضل أفكار انتقامية ذاتية لم تكن الوضعية، كما بدت لنا، تعِدُ بها ولا تبرّرها بأي

شكل من الأشكال. صحيحٌ أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو تحدّى دانييل سانتا كلارا تحدّياً مفتوحاً وهو يبعث إليه باللحية المستعارة، والأفظع من ذلك، من دون أي كلمة، لكن مع شيء من الحسّ السليم كانت الأمور ستقف عند هذا الحد، وكان بوسع أنطونيو كلارو أن يهز كتفيْه ويقول لزوجته، **هذا** الرجل وقح، إنْ كان يظن أنني سأنساق وراء الاستفزاز، فإنه مخطئ تماماً، أَلقِ بهذه القذارة في صندوق القمامة، ولو أنه أصرّ على حماقات من هذا النوع، نطلب الشرطة ونضع حداً نهائياً لهذه الحكاية، مهما كانت العواقب. لسوء الحظ، لا يظهر الحسّ السّليم عندما تكون الحاجة إليه، فغيابه الظرفي غالباً ما يؤدي إلى أفظع المآسي والكوارث. إنَّ الدليل على أن الكون لم يتم التفكير فيه بشكل جيد كما يجب هو أن الخالق أمر بأن تُسمّى «شمس» تلك النجمة التي تضيئُنا. لو أن النجم العظيم كان يحمل اسم «الحسّ السّليم» لكان الفكرُ البشري أكثر نوراً في الوقت الراهن، ليلاً ونهاراً، لأنه لا أحد يجهل ما نعنيه حين نقول إن ضوء القمر لا يأتي من القمر، بل دائماً وحصرياً، من ضوء الشمس. هناك كل الأسباب للتفكير في أن كل نظريات نشأة الكون الكثيرة التي وُضعت منذ ظهور الكلام واللغة، قد فشلت، الواحدة تلو الأخرى، فشلاً ذريعاً، وهذا انتظام لا يَعدُ بأي شيء جيد، مع بعض التنويعات، في قيادتنا بالتراضي. لكن، لنعُد إلى أنطونيو كلارو. واضحٌ ما يريده، وهو أن يتعرف في أقرب وقت ممكن على ماريّا دا بّاش، ولأسباب متعددة التصقت بذهنه هذه الفكرة العقابية، وكما لاحظنا لم تكن هناك من قوة في الأرض ولا في السماء بقادرة على أن تثنيه عنها. طبعاً، لن يستطيع أن يذهب ليتسمر أمام باب العمارة التي تسكن فيها ويسأل كل امرأة تدخلها أو تخرج منها، **هل** أنتِ

ماريّا دا بّاش، ولا يستطيع أيضاً أن يسلّم قدره لنزوات الصدفة، كأن يتجوّلُ، مثلاً، مرة، مرّتيْن، ثلاث مرات في الشارع الذي تسكنه، وفي المرة الثالثة يقول لأول امرأة يصادفها، **لكِ** وجهُ ماريّا دا بّاش، لن تتصوري ما أشعر به من فرحة كبيرة وأنا أتعرف عليك، أنا ممثل سينمائي واسمي دانييل سانتا كلارا، اسمحي لي بأن أدعوك إلى فنجان قهوة، يكفي أن نعبر الشارع، أنا مقتنع بأنه سيكون لنا كثير من الأشياء التي نقولها أحدنا للآخر، اللحية، آه، اللحية، أهنئك على ذكائكِ لأنكِ لم تنخدعي، لكن أرجوك لا تخشي شيئاً، كوني مطمئنة، حين نكون في مكان بعيد عن الأنظار حيث أستطيع أن أخلعها من دون خطر، سترِيْنَ أنه يظهر أمامك شخص تعرفينَه جيداً، بل تعرفينه معرفة حميمة، أظن، وقد أهنئه من دون أدنى حسد لو كان هنا، إنني أتحدث عن صاحبنا تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. ستظل المرأة المسكينة مشوشة بشكل فظيع أمام هذا التحول العجيب، الذي ليس له أي تفسير في هذه المرحلة من السرد؛ يجب ألا ننسى أبداً الخيط الرابط الأساسي الذي يستوجب أن تنتظر الأشياء لحظتَها في صبر، ألا تتدافع عن الباب وتمر قبل تلك التي وصلت قبله، وألا تصيح، **ها** أنا ذي، كما أنه لا يجب أن نستبعد تماماً فرضية أنه لو تركناها أحياناً تمرُّ إلى الأمام، فإن بعض المصائب التي نتكهن بها يمكن أن تفقد شيئاً من ضراوتها أو أن تتلاشى كالدخان في الهواء، بكل غباء لأنها أضاعت دورها. إنّ هذا الفيض من الأفكار والتحليل، هذا الطوفان المتساهل من التأملات والاستنتاجات التي استوقفتْنا مؤخراً وجعلتنا نتأخر كثيراً، لا يمكنها أن تُغيّب عن ناظرنا الحقيقة التافهة التي هي، في الحقيقة، في الحقيقة، أنّ أنطونيو كلارو يريد أن يعرف إنْ كانت ماريّا دا بّاش تستحقّ العناء، إنْ كانت

تستحقّ فعلاً ما تسببت له فيه من عناء. لو كانت امرأة شنيعة، كيساً من العظام أو، عكس ذلك، متسقة القدّ والقوام، وفي كلتا الحالتيْن، كما نستعجل قوله، يمثّلُ ذلك أمراً لا يشكل عائقاً كبيراً لو أن الحب أدلى بدلوه، سنرى أن دانييل سانتا كلارا يتراجع بسرعة نحو الخلف، كما حدث عدة مرات في الماضي، في تلك اللقاءات التي كانت تُنظّمُ عن طريق المراسلات، باستراتيجياتها المثيرة للضحك، عملياتها الساذجة في تحديد الهوية، سأحملُ شمسيةً زرقاء في يدي اليمنى، وسأضع أنا زهرة بيضاء في عروة معطفي، وفي النهاية لم تكن هناك لا شمسية ولا زهرة، ربما كان أحدهما ينتظر من دون جدوى في المكان المتفق عليه، أو ربما لا هذا ولا ذلك، بعد أن أُلقيت الزهرة على عجل في البالوعة، وكانت الشمسية تغطي وجهاً لم يكن يرغب في أن يراه أحد في نهاية الأمر. لكن، ليطمئن دانييل سانتا كلارا، فماريّا دا بّاش امرأة شابة، جميلة وأنيقة، لها جسم حسن القوام، ومزاج جيد، وإن كانت هذه الميزة غير حاسمة في القضية التي تشغلنا، لأن الميزان الذي حدد فيما مضى مصير الزهرة وقدر الشمسية ليس ذا حساسية خاصة فيما يتعلق باعتبارات من هذه النوع. لكن أنطونيو كلارو ما زالت تنتظره مسألة مهمة يجب أن يحلها إن أراد ألا يظل متسمراً لساعات طوال في الرصيف المقابل لعمارة ماريّا دا بّاش وهو ينتظرها أن تظهر، مع ما يترتب على ذلك من عواقب خطيرة ناتجة عن التوجُّس الطبيعي للجيران الذين لن يتأخروا في الاتصال برجال الشرطة ليخطروهم بوجود رجل مشبوه له لحية ومن الأكيد أنه لم يأت إلى هنا ليدعم العمارة بظهره. إذن، يجب اللجوء إلى التفكير العقلاني والمنطق. الشيء الأكثر احتمالاً، بطبيعة الحال، هو أنّ ماريّا دا بّاش تشتغل، وتمارس عملاً قاراً وفقَ

ساعات دخول وخروج منتظمة. مثل هيلينا. أنطونيو كلارو لا يريد أن يفكر في هيلينا، ومع نفسه كان يكرّر أن الواحدة لا علاقة لها بالأخرى، وأنّ ما سيقع مع ماريّا دا بّاش لن يُعرّض زواجه للخطر، بل يمكن أن نسمّي هذا نزوة بسيطة، من تلك النزوات التي يُقال إن الرجال يميلون إليها بسهولة أكبر، إن لم يكن يجب أن نتحدث هنا عن ثأرٍ، انتقام، ردّ بالمثل، نزاع دموي، جبر إهانة، أعمال انتقامية، ضغينة، قصاص، وربما أفظع من ذلك، بغضاء. يا إلهي، يا لها من مبالغة، إلى أي حد يمكن أن نذهب، قد يقول الناس السعداء الذين لم يجدوا قط أنفسهم في مواجهة نسخة من ذواتهم، ولم يتلقّوا قطّ إهانةَ لحيةٍ مستعارة أُرسلت إليهم في علبة من دون أدنى ورقة تحوي كلمة رقيقة أو ساخرة تخفف من الصدمة. ما خَطَر لحظَتَها بذهن أنطونيو كلارو سوف يُوضّح إلى أيّ مدى، ضداً على أيّ أدنى منطق سليم، يمكن لفكْرٍ تسيطرُ عليه الأحاسيس الدنيئة أن يجبر وعيه الخاص على أن يتواطأ معها، فتضطرّهُ أنْ يجعل أفظع الأفعال تنسج مع أحسن الأسباب ويبرر الواحدة بالأخرى، فيما يشبه لعباً متقاطعاً حيث الرابحون والخاسرون هم أنفسهم دائماً. ومهما بدا ما فكّر فيه أنطونيو كلارو للتو أمراً لا يُصدّق، أي أنْ يأخذ عشيقةَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو غدراً إلى سريره، قد يرُدُّ ليس فقط على الصفعة بصفعة أقوى منها، بل قد يكون، لنتصور الغاية العبثية، أكثر الطرق جذرية في الانتقام للكرامة المهانة لهيلينا، زوجته. ومهما توسلنا إليه راكعين على ركبتيْنا، لن يستطيع أنطونيو كلارو أن يشرح لنا أين تكمن تلك الإهانة الخاصة التي لا يمكن الانتقام لها عبر إهانة جديدة لا تقل إهانة وصدمة. كانت هذه الفكرة الثابتة تسيطر عليه، ولا أحد يستطيع ضدها شيئاً في الوقت الحالي. وليس بالشيء الهين أنه نجح

في استئناف تفكيره المتوقف، ذلك الذي جعله يتذكّر أن هيلينا تشبه كثيراً ماريّا دا بّاش فيما يجمعُهما من واجبات الوظيفة، من عمل منتظم وأوقات دخول وخروج في ساعات محددة. بدل أن يذرع الشارع صعوداً ونزولاً، على أمل حدوث لقاء عرضي بعيد الاحتمال، فإن ما يجب عليه القيام به هو أن يذهب إلى هناك باكراً جداً، يتخذ لنفسه موقعاً لا يراه فيه أحد، ينتظر أن تخرج ماريّا دا بّاش وبعد ذلك يتبعُها إلى مقر العمل. لا شيء أسهل من هذا، قد يقول قائل، لكنه خطأ فادح. إنّ الصعوبة الأولى تتمثل في أنه يجهل إنْ كانت ماريّا دا بّاش، حين تغادر البيت، ستنحرفُ يساراً أم ستنعطفُ يميناً، وعليه إلى أي حد يستطيع هو من نقطة المراقبة التي يتواجد فيها، سواء بالنسبة للوجهة التي ستختارها أو بالنسبة للمكان الذي سيترك فيه السيارة، ستُسهّل أم ستعقّد عليه مهمّة تعقّبها، دون أن ننسى، وهنا يتمثل التعقيد الثاني الذي لا يقل أهمية، وهو أنه يمكن أن تكون سيارتُها مركونة عند الباب، فلا تمنحه وقتاً ليجري ويلجَ سيارتَهُ ثم ينساق في حركة السيرة دون أن تغيب عن ناظريه. إن الأمر الأكثر احتمالاً هو أن يفشل على كل المستويات في اليوم الأول، ثم يعود في اليوم التالي ليفشل هنا وينجح هناك، ثم يأمل أن يقوم القديس حامي المحققين، متأثراً بمثابرته، بأن يأخذ على عاتقه أن يجعل من اليوم الثالث نصراً تاماً ونهائياً في فنّ تعقُّب الأثَر. وستكون أمام أنطونيو كلارو مشكلة أخرى يجب عليه أن يحلّها، صحيحٌ أنه أقل أهمية نسبياً بالمقارنة مع الصعوبات الضخمة التي تجاوزها من قبل، لكنه يتطلب مهارة وعفوية ثابتة. وكما يمكن أننا قد لاحظنا، فإن دانييل سانتا كلارا ميّال إلى البقاء في دفء السرير ساعة أو ساعتيْن بعد أن تخرج هيلينا إلى العمل، إلا إذا كانت هناك

واجبات مهنية، مثل تصوير فيلم أو السفر إلى مكانٍ بعيد عن المدينة، تمنعه من ذلك، وتجبره على أن ينتزع نفسه من راحة الأغطية. لذا عليه أن يختلق تفسيراً مناسباً للحدث غير المعتاد لأنه ينوي أن يستيقظ باكراً، ليس يوماً واحداً فحسب، بل يومين، وربما ثلاثة أيام، بينما، كما نعرف، هو يوجد في حالة راحة مهنية، في انتظار الضوء الأخضر للمشاركة في فيلم «محاكمة اللّص الظريف» حيث سيلعب دور مساعد محامٍ. أن يقول لهيلينا إنّ لديه موعداً مع المنتجين قد لا تكون فكرةً سيئة لو أن تحرياته حول ماريّا دا بّاش يمكن أن تنتهي في يوم واحد، لكن، بالنظر إلى الظروف الحالية، تبدو هذه الإمكانية أكثر من بعيدة. من جهة أخرى، الأيام التي تتطلبها تحرياته لا ينبغي أن تكون متتالية بالضرورة، بل إن ذلك لن يكون مناسباً بالنظر إلى الهدف الذي وضعه نصب عينيه. إنّ ظهور شخصٍ بلحية ثلاثة أيام متتالية في الشارع الذي تسكن فيه ماريّا دا بّاش قد يثير شكوك الجيران وذعرهم، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، وقد يتسبب في استيقاظ كوابيس طفولية توجد تاريخياً خارج الزمن، ولذلك فهي مؤلمة مرّتيْن، بعد أن أصبحنا على يقين بأن ظهور التلفزة قد محا إلى الأبد من مخيلات الأطفال المعاصرين ذلك التهديد الفظيع الذي كانت تمثله اللحى بالنسبة لأجيال وأجيال من الأطفال الأبرياء. بعد أن سار على هذا الطريق من التفكير، استنتج أنطونيو كلارو بسرعة أنه لا معنى إطلاقاً أن ينشغل بأيام ثانية أو ثالثة مفترضة قبل أن يعرف ما يجود به عليه اليومُ الأوّل. إذن، سيقول لهيلينا إنه سيشارك غداً في اجتماع عمل مع المنتجين، **يجب** أن أكون هناك على الساعة الثامنة صباحاً، **مبكراً** جداً، قد تقولُ مستغربةً، من دون تشديد مبالغ، **لا يمكنُ** عقد الاجتماع إلا في هذا الوقت، لأن

المخرج سيتوجّه إلى المطار عند منتصف النهار، **حسناً**، قالت، ثم دخلت إلى المطبخ، وأغلقت الباب لتقرر ما تُحضّره للعشاء. كان أمامها كثير من الوقت، لكنها كانت ترغب أن تبقى وحدها. كانت قد قالت قبل أيام إن سريرها هو قلعتها، وكان بوسعها أيضاً أن تقول إن مطبخها كان هو حصنها. رشيقاً وصموتاً مثل اللّص الظريف، ذهب أنطونيو كلارو ليفتح جارور الأثاث الذي احتفظ فيه بأدوات التّنكُّر، فأخرج منه اللحية، ودائماً بنفس الرشاقة والظرف، خبأها تحت وسادة من وسائد الأريكة في غرفة الجلوس، في الجهة التي لا يجلس فيها أحد أبداً. حتى لا تنكمش كثيراً، فكّرَ.

كانت قد مرّت بضع دقائق على الساعة الثامنة صباحاً من اليوم التالي عندما ركَنَ السيارة تقريباً قبالة الباب الذي كان ينتظر أن تخرج منه ماريّا دا بّاش، في الجهة الأخرى من الشارع. يبدو أن القديس حامي المحققين قد ظلَّ هناك طوال الليل، ليحتفظ له بالمكان. كانت معظم المحلات التجارية ما تزال مغلقة، بعضها بسبب عطلة المستخدمين كما تشير إلى ذلك اللافتات، المارة قليلون، وطابور قصير ينتظر حافلة النقل. لم يتأخر أنطونيو كلارو في أن يدرك أن تأملاته الصعبة حول كيف وأين ينبغي أن يتخذ لنفسه موقعاً كي يتجسّس على ماريّا دا بّاش لم تكن سوى مضيعة للوقت واستنزافاً من دون جدوى لطاقته الذهنية. عليه أن يقرأ الجريدة داخل سيارته، فهناك حيث يخاطر أقل بلفت الأنظار إليه، سيبدو كأنه في انتظار أحد ما، وهذه حقيقة لا غبار عليها، لكنه لا يمكن أن يقولها بصوت مرتفع. ومن البناية التي تخضع لمراقبته، شيئاً فشيئاً، خرج بعض الأشخاص، كلهم رجال تقريباً، لكن من النساء ولا امرأة واحدة تناسب تلك الصورة التي كان قد كوّنها أنطونيو كلارو في ذهنه، دون

أن يعي ذلك، بمساعدة بعض الوجوه النسائية في الأفلام التي شارك فيها. كانت الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحاً بالضبط، حين فُتح بابُ العمارة ومنه خرجت امرأة شابة وجميلة، تسرُّ الناظر من أخمص قدميها إلى قمة رأسها، رفقة سيدة مُسنّة. إنهما السّيدتان، فكّرَ. ترك الجريدة، أشعل محرك السيارة وانتظر، قلقاً مثل حصان أمام حاجز الاصطبل، ينتظر طلقة المغادرة. بتثاقل، مشت المرأتان على الجانب الأيمن من الرصيف، تعطي أصغرهما ذراعها للكبرى، لا شيء آخر يجب معرفته بهذا الخصوص، إنهما أمٌّ وابنتُها، ومن المرجح أنهما تعيشان وحدهما، **العجوز** هي التي ردّت بالأمس على الهاتف، ومن طريقة مشيتها لا بدّ أنها مريضة، أما الأخرى، أقدّمُ رأسي ليُقطع إنْ لم تكن هي ماريّا دا بّاش المعروفة، التي لا ينقصها جسدٌ جميل، كلا، فأستاذ التاريخ صاحب ذوق رفيع. كانت الاثنتان قد ابتعدتا وأنطونيو كلارو لا يعرف ماذا يفعل. يمكنه أن يتبعهما ويعود أدراجه عندما تصعدان إلى سيارتهما، لكنه قد يجازف بفقدانهما. ما العمل، هل أبقى، لا أبقى، أين يمكن أن تذهب هاتان المثيرتان. ينبغي أن يُنسب هذا التعبير غير اللائق إلى توتُّره. فليس من عادة أنطونيو كلارو أن يستعمل هذا النوع من التعابير، وقد صدر عنه من دون رغبته. مستعداً لكل شيء، قفز خارج سيارته، ثم أسرع الخطى وراح يمشي وراء المرأتين. حين كانتا على بُعد ثلاثين متراً تقريباً منه خفف من سرعته وضبط خطواته على خطواتهما. وحتى لا يقترب منهما كثيراً، لأن ماريّا دا بّاش وأمها كانتا تمشيان بتثاقل كبير، اضطرَّ ليتوقف من حين لآخر ويتظاهر بالتفرج على واجهات المحلّات التجارية. اندهش وهو يكتشف أن البطء بدأ يثير غضبه، كأنه يتكهّن من خلاله عائقاً يقف أمام أفعاله المستقبلية التي،

وإن لم تكتمل صورتها بعد في ذهنه، لا يمكن أن تتحمل أدنى عائق، على أي حال. كانت اللحية تثير الحكة في جلده، والطريق يبدو أنه لا ينتهي أبداً، صحيح أنه لم يمش قط بهذا الشكل، ثلاثمئة متر في المجموع، وزاوية الشارع القادم تمثل نهاية الرحلة. ماريّا دا بّاش تساعدُ أمها في صعود سلالم الكنيسة، تودّعها بقبلة، وهي تعود الآن عبر نفس الطريق، بتلك الخطوات الخفيفة التي تمشي بها بعض النساء كأنهن يرقصن. عبَر أنطونيو كلارو إلى الجهة الأخرى من الشارع، ثم توقف مرة أخرى أمام واجهة محل تجاري ستمر قريباً في زجاجها ماريّا دا بّاش بجسدها الأهيف. الآن عليه أن يكون متيقظاً أكثر من أي وقت مضى، فأي تردّد قد يقوّض كل شيء، إن هي ولجت واحدة من تلك السيارات ولم يستطع هو أن يصل إلى سيارته في الوقت المناسب، يمكنه أن يقول وداعاً لكل خططه وسيحتاج إلى يوم ثانٍ. ما لا يعرفه أنطونيو كلارو هو أنّ ماريّا دا بّاش لا تملك سيارة، وأنها ستنتظر في هدوء حافلة النقل التي ستأخذها إلى البنك الذي تشتغل فيه، وهذا هو، في النهاية، موجز المحقق المثالي، المُحيّن فيما يتعلق بالتكنولوجيا المتقدمة، الذي نسي أنه من بين خمسة ملايين نسمة من سكان المدينة، هناك البعض منهم لم يقتنوا وسائل نقل خاصة. لم يتمدّد كثيراً صفُّ انتظار الحافلة. أخذت ماريّا دا بّاش لنفسها مكاناً فيه، وحتى لا يكون قريباً جداً منها ترك أنطونيو كلارو ثلاثة أشخاص ليمروا قبله. صحيحٌ أن اللحية المستعارة تخبئ وجهه، لكنها لا تخبئ العينين، ولا الأنف، ولا الحاجبيْن، ولا الجبهة، ولا الشَّعْر، ولا الأذنيْن. وربما قد يستغل الفرصة شخصٌ مولع بالعلوم الخفية ليضيف الروح إلى هذه القائمة من الأشياء التي لا تخبئها لحيةٌ مستعارة، لكننا سنلزم الصمت

بخصوص هذا الموضوع، ولن تكون بسببنا نحن بدايةُ نقاش بدأ منذ فجر التاريخ ولن ينتهي قريباً. وصلت الحافلةُ، وتمكنت ماريّا دا بّاش من أن تجد لنفسها مقعداً شاغراً جلست فيه، بينما ظلَّ أنطونيو كلارو واقفاً في الممر، بعيداً في الخلف. هكذا أحسن، فكّرَ، سنُسافر معاً.

حكى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لأُمّه أنه تعرّف على شخصٍ، على رجُلٍ كان يشبهه كثيراً لدرجة أنّ مَن لا يعرفهما جيداً قد يخلط بينهما، وأنه قد التقى به وهو نادم على تلك الخطوة، لأنه يمكن أن نرى شخصا مُكرَّراً، عند توأمين، مع اختلافات طفيفة، فيكون ذلك أمراً مقبول، بما أنهما من نفس الأسرة، لكن أن يجد المرءُ نفسه أمام غريبٍ لم يره من قبل فيشكّ لمدة لحظة واحدة من هو الأوّلُ ومن هو الآخر، **أنا** مقتنع، يا أُمّي أنكِ، على الأقل عند أول نظرة، قد لا تكونين قادرة على أن تميزي ابنكِ من الاثنين، ولو أفلحت سيكون ذلك مُجرّد صدفة، **حتى** لو جاؤوا إليّ بعشرة يشبهونَك، يرتدون نفس الملابس، وأنت بينهم، لن أشير سوى إلى ابني، فحدس الأُمّ لا يخطئ، **ليس** هناك في العالم ما يمكن أن نسمّيه حدس الأُمّ، لو أنهم فرقونا عندما ولدتُ ثم التقينا بعد عشرين عاماً، فكوني على يقين أنّكِ لن تتعرّفيني، **اتعرّفُك**، ربما لا، لأن وجه رضيع مغضن وُلد للتو ليس هو وجه رجُلٍ في العشرين من عمره، لكني أُراهن بكل ما تريد على أن شيئاً بداخلي سيجعلني أنظر إليك مرتيْن، **وفي** المرة الثالثة، ربما تشيحين عني بنظرك نحو جهة أخرى، **هذا** ممكن، لكن مع قلب منقبض منذ تلك اللحظة، **وأنا**، هل سأنظر

إليك مرّتيْن، سألها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **الأكيدُ** أنّكَ لن تفعل، قالت الأُمُّ، لأن كل الأبناء ينكرون الجميل. ضحكا معاً، فسألته، **وهل** هذا هو ما كان يشغلك كثيراً، **نعم**، كانت الصدمة قوية جداً، لا أصدق أنه يمكن أن تكون قد وقعت حالة مشابهة، أعتقد أن ذلك يتنافى مع علم الوراثة، في الليالي الأولى بدأتُ أرى كوابيس، كان مثل هاجس، **والآن**، أين وصلت الأمور، **لحسن** الحظ، جاء الحسُّ السليم ليقدم شيئاً من المساعدة، فجعلنا ندرك أنه بما أننا عشنا إلى غاية تلك اللحظة لا يعلم الواحد منا بوجود الآخر، فإنّ ذلك أكبر من سببٍ وجيه كي نستمر في العيش بعيديْن بعد أن تعرّفنا أحدنا على الآخر، تصوّري أنه لا يمكن أن نكون معاً، أنه لا يمكننا أن نكون صديقيْن، **لكن** ربما تكونان عدُوّيْن، **في** لحظة ما، وصل بي التفكير إلى أن هذا يمكن أن يقع، لكن مرّت الأيام وعادت المياه إلى مجاريها، وما تبقّى من كل ذلك ذكرى حلم سيّئ سيتكفل الزمن بمحوه من الذاكرة شيئاً فشيئاً، **نتمنى** أن يكون الأمر كذلك هذه المرة. كان توماركتوس مستلقياً عند قدمَي السيدة كارولينا يمدُّ عنقه ويرخي رأسه فوق قائمتيْه المشبكتيْن، كأنه ينام. نظر إليه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لحظة وقال، أتساءل ما الذي قد يفعله هذا الحيوان إنْ هو وجد نفسه أمام ذلك الرّجُل وأمامي، في أيّ واحدٍ منا سيرى سيّدَهُ، **سيتعرّف** عليك بالرائحة، **هذا** لو افترضنا أنه ليست لنا نفس الرائحة، وهذا يقين لا أملكه، **لا** بد أن يكون هناك فرق ما، **هذا** ممكن، **قد** تتشابه وجوه الناس، لكن أجسادهم لا تتشابه، أعتقد أنكما لم تتعريا تماماً أمام مرآة، لتقارنا كل شيء، حتى أظافر الأقدام، **لا**، طبعاً، يا أُمّي، أجابها بسرعة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ولم تكن تلك كذبة على وجه التحديد، لأنه لم يقف حقاً

أمام مرآة رفقة أنطونيو كلارو. فتحَ الكلبُ عينيْه، أغمضها من جديد، فتحهما مرة أخرى، لا بدّ أنه فكّرَ أن الوقت قد حان لينهض ويذهب إلى الفناء ليرى إن كانت نباتات الجيرانيوم وإكليل الجبل قد كبرت منذ المرة الأخيرة. تمطّى، مدّد أوّلاً قائمتيْه الأماميتيْن ثم الخلفيتيْن، بعد ذلك مدّد عموده الفقري إلى أقصى حد، ثم توجّه نحو الباب. أين تذهب، يا توماركتوس، سأله ذلك السيد الذي لا يظهر إلا من حين لآخر. توقف الكلبُ عند العتبة، التفت ينتظر أمراً مفهوماً، وبما أن هذا الأمر لم يأت، فقد خرج. وهل أخبرتَ ماريّا دا بّاش بما كان يجري، سألتهُ السيدة كارولينا، **لا**، لم أرغب في أن أثقل عليها بانشغالاتٍ كنتُ أجد عناء كبيراً في تحمُّلها، **أتفهَمُ** ذلك، لكني أتفهّم أيضاً لو أنك أخبرتها، **رأيتُ** أنّ من الأفضل ألّا أحدثها عن الأمر، **والآن**، بعد أن مرّ كل شيء، ألن تُخْبرها، **لا** جدوى من ذلك، ذات يوم رأتني قلقاً فوعدتُها أن أقوم بذلك، أن أُخْبرها بما يجري لي، أنني لا أستطيع في تلك اللحظة، لكني سوف أقول لها كل شيء في يوم من الأيام، **وهذا** اليوم لن يأتي أبداً على ما يبدو، **من** الأفضل تركُ الأمور على ما هي عليه، **هناك** حالات أفظع ما يمكن أن نقوم به فيها هو أن نترك الأمور على ما هي عليه، لأن ذلك لا يزيدها إلا قوة، **لكنه** أيضاً يمكن أن يتعبها فتتركنا وشأننا، **إنْ** كنت تُحبّ ماريّا دا بّاش، فستُخبرها بذلك، **أنا** أحبُّها، **ربما** تحبُّها، لكنك لا تحبُّها بما يكفي، إنْ كنت تنام مع نفس المرأة التي تحبّكَ ولا تفتح لها صدرك، أسألك ما الذي تفعله هناك، **إنّكِ** تدافعين عنها كما لو أنك تعرفينها، **لم** أرها قطّ، لكني أعرفُها، **فقط** بما علمتِه مني، ولا يمكن أن يكون شيئاً كثيراً، **مِنْ** خلال الرسالتيْن اللتيْن حدثتني فيهما عنها، بعض التعاليق في الهاتف، لم أكن بحاجة إلى أكثر من ذلك،

لتعرفي أنها هي المرأة التي تناسبني، **وقد يكون** بوسعي أن أقول بنفس هذه الكلمات إنك الرّجُل الذي يناسبها، **وهل** تعتقدين أن الأمر ليس كذلك، أم أنه كذلك، **ربما** لا، **وعليه** فإن الحلّ الأفضل والأبسط هو وضع حد لهذه العلاقة التي تجمعنا، **أنتَ** من تقول ذلك، لست أنا، **يجب** أن نكون منْطقيّين، يا أُمّي، إنْ كانت تناسبني وأنا لا أناسبها، لماذا كل هذه الرغبة في أن نتزوج، **لكي** تكون هي دائماً هناك حين ستستيقظُ أنتَ، **ولكني** لستُ نائماً، لا أمشي وأنا نائم، لي حياتي، لي عملي، **ثمة** جزء في ذاتكَ ينام منذ ولدتَ، وخوفي أنه سيضطر يوماً ما ليستيقظ بعنف، **إنّكِ**، يا أمي، تملكين موهبة لتكوني كاساندرا، **وما** هذا، **السؤال** ليس ما هذا، بل من تكون هذه، **هيا** علّمني ذلك، فأنا دائماً كنتُ أسمع أن تعليم شيء ما لمن يجهله عملٌ من أعمال الرحمة، **كانت** كاساندرا هذه ابنة ملك مدينة طروادة، المدعو بريام، وحين وضع الإغريق حصانهم الخشبي عند أبواب المدينة، أخذت تبكي وتقول إن المدينة سيلحقها الدمار لو حُمل الحصان إلى داخلها، وكل هذا مشروح بكل تفصيل في إلياذة هوميروس، والإلياذة قصيدة، **نعم**، سمعتُ عنها، وماذا حدث بعد ذلك، **اعتبرَها** أهلُ طروادة مجنونة ولم يعْبأوا بتنبؤاتها، **وبعد** ذلك، **بعد** ذلك تعرّضت المدينة للهجوم، فنُهبت، وتحولت إلى رماد، **إذن**، كاساندرا هذه التي تتحدث عنها، كانت على حق، **لقد** علّمني التاريخ أن كاساندرا كانت دائماً على حق، **وأنتَ** قلتَ إنني أملكُ موهبةً لأكون كاساندرا، **قلتُ** ذلك وأكرّره، بكل الحبّ الذي يكنّه ابنٌ لأُمّه الساحرة، **إذن**، أنت واحد من أهل طروادة الذين لم يصدقوها، ولذلك حُرقت المدينة، **في** هذه الحالة ليس هناك مِنْ طروادةٍ لتُحرقَ، **كم** مِنْ طروادةٍ بأسماء أخرى وفي أماكن مختلفة

حُرقت بعد هذه، **عديدة** لا تحصى، **ألا** تريدين أنتِ أن تكوني طروادة أخرى، **ليس** هناك أيّ حصانٍ خشبي عند باب بيتي، **وإذا** ما كان هناك حصان، اسمَعْ صوتَ العجوز كاساندرا هذه، ولا تتركه يدخل، **سأكون** منتبهاً لصهيل الخيل، **فقط** أطلب منكَ ألا تلتقي مرة أخرى بهذه الرجل، هل تعدُني، **أعدُكِ**. ارتأى الكلب توماركتوس أنه حان الوقت ليعود، كان قد ذهب ليتشمم نباتات الجيرانيوم في الفناء، لكنه لم يكن يعود من هناك الآن. كان قد مرّ في نهاية جولته بغرفة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، فرأى الحقيبة مفتوحة على السرير، وكان قد عاش كلباً لما يكفي من السنوات حتى يعرف ما يعنيه ذلك، لذا لم يذهب هذه المرة ليستلقي عند قدمَي سيدته الدائمة، بل عند قدمَي ذلك السيد الآخر الذي هو على وشك أن يغادر البيت.

بعد كل الشكوك التي خامرته بخصوص الطريقة الأكثر تعقلاً لإخبار أُمّه بالقضية الشائكة المتعلقة بالتوأم المطلق، أو، باستعمال واحدة من تلك العبارات الشعبية القوية، ذلك اللّئيم، شديد الشبه به، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مقتنعاً إلى حد معقول بأنه سوف يفلح في الالتفاف على الصعوبة دون أن يترك وراءه كثيراً من الانشغالات. لم يستطع أن يَحُول دون بُروز قضية ماريّا دا بّاش على السطح، لكنه اندهش وهو يتذكر أمراً طرأ أثناء الحديث، لحظة قال إنه من الأفضل أن يضع حداً لتلك العلاقة، لأنه شعر في نفس تلك اللحظة، ما إن نطق بتلك الجملة بلا هوادة في الظاهر، ما يشبه ضجراً باطنياً، رغبة شبه واعية في الاستسلام، كما لو أن صوتاً داخل رأسه يشتغل حريصاً على أن يثبت له أن عناده ليس سوى آخر معقل ما زال يحاول خلفه أن يخنق رغبته في رفع راية الاستسلام من دون شروط. لو كان الأمر كذلك، فكّرَ، فمِن واجبي الصارم أن

أفكر بجد في الموضوع، أن أُحلّل مخاوف وترددات ربما كانت إرثاً من زواجي الأول، وأن أحلّ بصفة نهائية، لعلمي الخاص، ما معنى أن نحب شخصاً ما لدرجة أننا نريد أن نعيش معه، لأنّ الحقيقة تُجبرني على أن أعترف بأنني لم أفكر في شيء كهذا عندما تزوجتُ، ونفس الحقيقة، الآن، تأمرني أن أعترف أن ما يخيفني، في الحقيقة، هو احتمال أن أفشل مرة أخرى. هذه الأفكار المثيرة للإعجاب جعلت سفر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مُسلّياً، وكانت تتناوب مع صور عابرة لأنطونيو كلارو كان ذهنُه، بشكل غريب، يرفض أن يتصوّرها في تشابه تامّ كما يناسبها، كما لو أنه، ضد بداهة الأمور، كان يرفض وجودهُ. كان يتذكر أيضاً مقاطع أحاديث كان قد أجراها معه، وخصوصاً ذلك الحديث في المنزل الريفي، لكن مع انطباع فريد من البعد والغرابة، كما لو أن لا شيء من ذلك يمتُّ إليه بصلة، كما لو أن الأمر يتعلق بحكاية قرأها قديماً في كتابٍ لم يتبق منه سوى بضع صفحات متناثرة. لقد وعد أمه أنه لن يلتقي مرة أخرى بأنطونيو كلارو وكذلك سيكون، ولن يستطيع أي واحد غداً أن يتهمه بأنه خطا خطوة واحدة في هذه الاتجاه. سوف تتغير حياته. سيتصل بماريّا دا بّاش ما إن يصل إلى البيت، **كان** عليّ أن أتصل بها من هناك، فكّرَ، كانت قلة أدب لا تُغتفر، على الأقل أسألها عن صحّة أُمّها، خصوصاً أنه من المحتمل جداً أن تصبح حماتي. ابتسم تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من احتمالٍ ربما كان سيثير أعصابه قبل أربع وعشرين ساعة، وواضح أن العطلة كانت مفيدة لجسده ولذهنه، وخصوصاً أنها جعلت أفكاره جلية، لقد صار رجلاً آخر. وصل عند نهاية بعد الظهر، ركَن السيارة أمام الباب، وبخفة ورشاقة، بمزاج رائق، كما لو أنه لم يقطع للتو أكثر من أربعمئة كيلومتر، صعد

السلالم بخفة صبي مراهق، لا يبالي بثقل حقيبة كان وزنها هو نفسه عند الذهاب كما عند العودة، بطبيعة الحال، بل كاد يدخل راقصاً إلى بيته. وفقاً للأعراف التقليدية الخاصة بالجنس الأدبي الذي أُطلق عليه اسمُ رواية والذي سيستمرُّ في حمل هذا الاسم ما لم تُبتكر تسميةٌ توافق خصائصه الحالية، فإن هذا الوصف البهيج، المنظم على شكل متوالية بسيطة من المعطيات السردية التي لم يُسمح فيها، عن قصد، بإقحام أي عنصر ذي محتوى سلبي، قد تكونُ هناك، بشكل ماكر، تُحضّرُ عملية تناقض يمكنها، حسب أغراض كاتب الخيال، أن تكون درامية كما قد تكون عنيفة أو مرعبة، مثلاً، إذا ما كانت هناك جثة قتيل على الأرض مدرجة بدمائها، اجتماع مجلس كنيسي لأرواح من عالم آخر، سرب من النحل الطنان الهائج في موسم التزاوج يحسبون أستاذ مادة التاريخ ملكتهم، أو، أفظع من ذلك، كل هذا مجتمعاً في كابوس واحد بما أنه أصبح ثابتاً حتى التخمة أن خيال الروائيّين الغرْبيّين لا حدود له، على الأقل منذ هوميروس، الذي تمَّت الإشارةُ إليه أعلاه، والذي يعتبر إجمالاً أولهم أجمعين. فَتحت دارُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ذراعيْها لساكنها مثل أمّ أخرى، وبصوت أثيري همست، **تعالَ**، يا بنيّ، أنا في انتظاركَ، أنا قلعتُكَ وأنا حِصْنُكَ، لا قوة تؤثر فيَّ، لأنني في ملكِكَ ولو كنتَ غائباً، بل وحتى مُهدّمةً سأكون دائماً المكان الذي كنتَ تملكُه. وضع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الحقيبة على الأرض وأشعل أضواء السقف. كانت الصالة مرتّبة، لم تكن أدنى ذرة غبار فوق الأثاث. هناك حقيقةٌ كبيرة ومهيبة وهي أن الرّجال، حتى وهم يعيشون وحدهم، لا يستطيعون أبداً أن ينفصلوا تماماً عن النساء، ونحن لا نفكر الآن في ماريّا دا بّاش، التي لأسباب شخصية ومريبة قد تؤكد ذلك رغم كل شيء، بل

في جارة الطابق العلوي، التي قضت هنا بالأمس كل الصبيحة وهي تنظف، بكثير من العناية والانتباه كما لو أن البيت بيتها، أو أكثر من ذلك بكثير. كان ضوء المجيب الآلي مشتعلاً، فجلس تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليستمع للمكالمات المُسجّلة. كانت أوّل مكالمة تقفز من ذلك الجهاز لمدير الثانوية الذي يتمنى له عطلة سعيدة ويرغب في معرفة مدى تقدم تحرير ذلك المقترح الموجّه إلى الوزارة، **دون** الضرر، لا حاجة لقول ذلك، بحقّك المشروع في الراحة بعد موسم دراسي مُضن. وفي المكالمة الثانية، سُمع ذلك الصوت الفاتر والأبوي لزميله أستاذ الرياضيات، لا شيء ذا أهمية، فقط يسأله كيف حاله، وهل خرج من مستنقعه، وليقترح عليه أن رحلة طويلة عبر أرجاء البلاد، من دون استعجال ومع رفقة جيدة، ربما تكون هي أحسن علاج لما يعانيه. أما المكالمة الثالثة، فقد تركها أنطونيو كلارو قبل أيام، وتبدأ كما يلي، **مساء** الخير، معك أنطونيو كلارو، أعتقدُ أنك كنتَ تنتظرُ مكالمتي. كان يكفي أن يتردّد صدى صوته في تلك الصالة الهادئة إلى غاية تلك اللحظة حتى يصير من البديهي أن الأعراف التقليدية المشار إليها سابقاً ليست في نهاية الأمر مجرد وسيلة يلجأ إليها السُّراد الذين يعانون من شُحّ الخيال، بل هي نتيجة أدبية عن التوازن الكوني العظيم، بما أن الكون، الذي يعاني منذ نشأته من غياب أي ذكاء ينظمه، يتوفر على وقت أكثر من كاف ليستخلص دروساً من تجاربه الخاصة حتى يخلص، كما تبرهن على ذلك مسرحية الحياة التي لا تنتهي، إلى آليّةِ تعويضٍ معصومة من الخطأ لن تحتاج بدورها سوى إلى قليل من الوقت كي تثبت أن تأخراً بسيطاً في آليّاتها ليس له أي تأثير على الجوهر ولا يهم إنْ كان يجب انتظار دقيقة أو ساعة، سنة أو قرن. **لنتذكّرْ** ذلك المزاج الجيد الذي

دخل به صاحبُنا تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى البيت، لنتذكّر مرة أخرى أنه، وفق الأعراف التقليدية للرواية، المعززة بالوجود الفعلي لآليّة التعويض الكونية التي أشرنا إليها للتو، لا بدّ أنه واجه شيئاً قد يُدمّر في الحال فرحه ويغرقه في غمرات اليأس، القلق، الخوف، في كل ما نعرف أنه من الممكن أن نجده عند منعطف شارعٍ أو عندما نُدخلُ مفتاحاً في قفلٍ. إنّ الأهوال الفظيعة التي نصفها ليست سوى أمثلة بسيطة، كان يمكن أن تكون هذه، كان يمكن أن تكون أفظع، وفي الأخير لا هذه ولا تلك، فتحت الدّارُ ذراعيْها لصاحبها بطريقة أمومية، قالت له بعض الكلمات اللطيفة، من تلك التي تعرف كل الدّيار كيف تقولها، لكن في معظم الحالات لم يتعلم سُكّانُها كيف يصغون إليها، على أي، حتى لا نطنب في الكلام، يبدو أنه لم يكن هناك من شيء يفسد عودة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السعيدة إلى بيته. خطأٌ خالص، خلطٌ خالص، وهمٌ خالص. إنّ دواليب آليّة الكون كانت قد انتقلت إلى أمعاء المجيب الآلي، في انتظار أن يأتي إصبع ويضغط على الزّر الذي سيفتحُ باب القفص أمام آخر وحشٍ من الوحوش وأكثرها إثارة للخوف، لكنه ليس الجثة المضرجة بدمائها على الأرض، ولا اجتماع الأشباح غير المتناسق، ولا غيمة الزنابير الطنانة الشبقة، بل الصوت المدروس والملحّ لأنطونيو كلارو، طلباته الملحّة، من فضلك، ينبغي أن نلتقي مرة أخرى، من فضلك، لدينا كثير من الأمور التي ينبغي أن نتحدث فيها معاً، بينما نحن، الذين نوجد في هذه الجهة، كنا شاهدين بالأمس، في هذه الساعة بالضبط، على أنّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كان يعد أُمّه أنه لن يتعامل مرة أخرى مع ذلك الرّجل، سواء ليلتقي به شخصياً، أو حتى ليتصل به هاتفياً ليخبره أنّ ما انتهى قد انتهى فعلاً، وأنْ يتركه وشأنه

في أمن وسلام، من فضلك. لنُصفّق بحرارة لهذا القرار، لكن، ولهذا يكفي أن نضع أنفسنا في مكانه، لنُشفق لحظة على الحالة العصبية التي تركت فيها تلك المكالمةُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. كان جبينه يتصبّب عرقاً، يداه ترتعشان من جديد، وينتابهُ إحساس غير معروف لديه لحدّ الساعة، كأن السقف سيسقط على رأسه بين الفينة والأخرى. ظل ضوء المجيب الآلي مشتعلاً، وهو ما يشير إلى أنه ما زالت بداخله مكالمة أو مكالمتان أخريان. تحت وقع الصدمة التي أصابته بها مكالمة أنطونيو كلارو، أوقف تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو آلية القراءة وها هو الآن يرتعش خوفاً من الاستماع إلى ما تبقى، ربما يظهر له ذلك الصوت نفسه، يتحداه غير عابئ بموافقته، يحدّد موعد اللقاء على ساعة كذا، من يوم كذا، في المكان كذا. نهض عن الكرسي وخرج من حالة الإحباط التي كان فيها، ثم توجّه إلى الغرفة ليغير ملابسه، لكنه هناك غيّر أفكارَه، وأكثر ما يحتاج إليه دشّ ماء بارد يرجّه ويُنعشُه، ويحمل في قنوات الصرف تلك السحب السوداء التي تُلبّد ذهنَه وتُرهّل تفكيرَه لدرجة أنه لم يفكّر في أن الرسالة الأخرى، أو على الأقل واحدة من الرسائل الأخرى، إن كانت هناك رسائل أخرى، هي رسالة ماريّا دا بّاش. خطرت هذه الفكرة على باله للتو، فكانت كأنها مباركةٌ متأخرة سقطت عليه من قمْع الدُّش، كما لو أن حماماً طهوراً، ليس حمام أولئك النساء الثلاث العاريات هناك في الشرفة، بل حمام هذا الرجل الوحيد الذي يغلق على نفسه في أمانِ بيته، رحيماً، وسط سيل من الماء والزبد، يحرره من قذارة الجسد ومخاوف الروح. فكّرَ في ماريّا دا بّاش فيما يشبه سكينة يشوبها الحنين، كما قد يُفكّر في ميناء خرجت منه باخرة لتقوم بجولة حول العالم. بعد أن اغتسل ونشف جسده، انتعش

وارتدى ملابس جديدة، عاد إلى القاعة ليستمع إلى بقية الرسائل. بدأ بحذف رسائل مدير الثانوية وأستاذ الرياضيات، التي لم تكن تستحق أن يحتفظ بها، وبحاجب مُقطّب استمع من جديد إلى رسالة أنطونيو كلارو التي حذفها بضربة حادة على المفتاح المناسب، واستعدَّ لينتبه إلى ما سيلي ذلك. كانت الرسالة الرابعة لشخص لا يريد أن يتكلّم، استمرت المكالمة لثلاثين ثانية طويلة مثل الأبد، لكنه لم يصدر ولا همسٌ واحد من الجهة الأخرى من الخط، لم تُسمع ولا أيُّ موسيقى في الخلفيّة، بل لم تُلتقط عن طريق الخطأ ولا أدنى حركة تنفُّس واحدة، كما جرت العادة في السينما حين يريدون رفع التوتر الدرامي إلى درجة القلق. لا تقولوا لي إنه ذلك الرجل مرة أخرى، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، غاضبا، وهو ينتظر أن يضع مَن يتّصلُ السماعةَ. لم يكن هو، لا يمكن أن يكون هو، فمن ترك من قبل خطاباً متكاملاً لن يتصل مرّة أخرى ليظل صامتاً بكل تأكيد. كان الاتصال الخامس والأخير من ماريّا دا بّاش، **هذه** أنا، قالت، كما لو أنه لا يوجد في العالم شخص آخر يمكن أن يقول، **هذه** أنا، مع العلم مسبقاً أنه يمكن التعرف عليها، **أتصوّر** أنك ستعود قريباً، أتمنى أن تكون قد ارتحت بما يكفي، ظننتُ أنكَ ستتصلُ بي من بيت والدتكَ، بيد أنّه كان عليّ أن أعرف أنه لا يمكن أن يُعوّل عليك في مثل هذه الأمور، على أيّ، لا يهمُّ، تجد رفقته كلمات ترحيب من صديقةٍ، اتصل بي متى يحلو لك، عندما ترغب في ذلك، لكن ليس مثل من يشعر أنه مجبر على القيام بذلك، قد يكون ذلك أمراً سيئاً لي ولك، أحياناً أفاجئ نفسي وأنا أتخيل كم سيكون رائعاً لو أنك اتصلت بي هكذا، فقط مثل من يشعر بالعطش فيذهب ليشرب كوبَ ماءٍ، لكن لا أعرفُ إن كان هذا طلباً يفوق طاقتك، فلا تتظاهر معي

أبداً بعطشٍ لا تشعرُ به، عفواً، ليس هذا ما كنتُ أريد أن أقول لك، فقط أتمنى أن تعود إلى البيت في صحة جيدة، آه، وعلى ذكر الصحّة، لقد تحسنت حالة أُمّي كثيراً، بدأت تخرج لتذهب إلى القداس وتشتري حاجياتها، وفي غضون أيام قليلة ستكون في حالة جيدة كما كانت من قبل، إليك قبلة، قبلة ثانية، وثالثة. حرّكَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو شريط التسجيل نحو الخلف وأعاد الاستماع، في البداية بابتسامة مقتنعة لمن يصغي لإطراء ومديح يبدو أنه لا يشك في استحقاقه، وشيئاً فشيئاً صارت تعابير وجهه متجهّمة، ثم متأملة فقلقة، كان قد تذكّر كلمات أمه، **أتمنى** أن تكون هي هناك حين تستيقظُ أنتَ، وكان صدى هذه الكلمات يتردّد الآن في ذهنه كأنه آخر إنذار تقوله كاساندرا التي ملّت لأن لا أحد يصغي إليها. نظر إلى ساعته، لا بدّ أن ماريّا دا بّاش قد عادت من البنك. أمهلها ربع ساعة آخر ثم اتصل. **ألو**، من معي على الخط، سألتهُ، **أنا**، أجاب، **وأخيراً**، **وصلتُ** منذ ساعة فقط، أخذتُ دُشّا وانتظرتُ لأتأكد من أنْ أجدكِ في البيت، **هل** استمعتَ إلى الرسالة التي تركتُها لكَ، **نعم**، لديّ انطباع بأنني قلتُ أشياء كان عليَّ أن أسكت عنها، **مثل** ماذا، **لستُ** قادرة على أن أتذكّرها بالضبط، ولكن كأنني كنتُ أطلب منك للمرة الألف أن تنتبه إليّ، أقسم دائماً، ذلك لن يتكرّر مرة أخرى ولكني دائماً أعود لأسقط في نفس الإهانة، **لا تنطقي** بهذه الكلمة، لأنها لا تنصفكِ، ولا تنصفُني أنا أيضاً، **سمِّها** كما شئتَ، ما أراه بكل وضوح هو أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمرّ، أو أنني سأفقد في نهاية المطاف ما تبقى لي من احترام أحتفظ به لذاتي، **سيستمرُّ**، **ماذا**، هل تعني أن خلافاتنا ستستمرّ كما هي عليه إلى غاية الآن، وأن هذا الخطاب البئيس، الذي أردّده على حائط ولا

يعيد إليَّ حتى الصدى على الأقل، لن ينتهي أبداً، **أقول** لكِ إنني أُحبّكِ، **سبق** أن سمعتُك تقول لي هذه الكلمات، خصوصاً في الفراش، قبل، خلال، لكن ليس بعد ذلك أبداً، **ومع ذلك**، هذه حقيقة، أُحبّكِ. **من** فضلكَ، من فضلكَ، لا تعذبني أكثر من هذا، **اسمعيني**، **ها** أنا أسمعُكَ، لم أرغب في شيء آخر أكثر مما رغبتُ في سماعكَ، **إنّ** حياتنا ستتغير، **لا** أصدق ذلك، **صدّقيه**، يجب أن تُصدّقي، **وأنتَ** انتبه لما تقوله لي، لا تعطني اليوم أملاً لن تستطيع بعد ذلك أو لا تريد أن تفي به، **لا** أنتِ ولا أنا نستطيع أن نعرف ما يخبئه لنا المستقبل، لذلك أرجوكِ أن تمنحيني ثقتك اليوم، **ولماذا** جئت اليوم تطلب مني شيئاً كان دوماً في متناولك، **لأعيش** معكِ، كي نعيش معاً، **لا** بدّ أنني أحلم، يستحيل أن يكون صحيحاً ما سمعتُ للتو، **لن** أتردّد في أن أكرّره إنْ شئتِ ذلك، **شرط** أن يكون ذلك بنفس الكلمات، **لأعيش** معكِ، كي نعيش معاً، **وأنا** أكرّر إنّ ذلك مستحيل، فالناس لا يتغيّرون هكذا بين عشية وضحاها، ما الذي حدث في ذهنكَ أو في قلبك حتى تطلب مني أن أعيش معكَ بينما كنتَ منشغلاً لحدّ الساعة بأن تجعلني أدرك أن فكرة كهذه لم تكن ضمن خططك وأنه لا ينبغي لي أن أعلّق آمالاً على ذلك، **يمكن** للناس أن يتغيروا بين عشية وضحاها ويظلون هم أنفسهم مع ذلك، **هل** تريد حقاً أن نعيش معاً، **نعم**، **هل** تحبُّ ماريّا دا بّاش بما يكفي كي تعيش معها، **نعم**، أعِدْ ذلك على مسامعي، **نعم**، نعم، نعم، **كفى**، لا تخنقني، أكاد أنفجرُ، **حذار**، أريدُكِ كاملة، **هل** يزعجكَ لو أخبرتُ أُمّي بذلك، هي التي انتظرت هذه الفرحة طوال حياتها، **طبعاً**، هذا لا يزعجني، رغم أنها لا تموت حباً من أجلي، **كانت** لها أسبابها، المسكينة، أنت كنت تتلكأ، لا تحسمُ شيئاً، كانت تريد

أن ترى ابنتها سعيدة، وأنا لا أُريها كثيراً من إشارات السعادة، كل الأمهات سواسية، **هل** تريدين أن تعرفي ما قالته لي أمي بالأمس، لحظة كنا نتحدث عنكِ، **ما** الذي قالتهُ، **أتمنى** أن تكون هي هناك عندما تستيقظُ أنتَ، **أفترضُ** أنها هي الكلمات التي كنتَ بحاجة إلى سماعها، **تماماً**، **استيقظتَ** وأنا كنتُ ما أزال هناك، لا أعرف لكم مزيدٍ من الوقت، ولكني كنتُ هناك، **أخبري** أُمّكِ أنه من الآن فصاعداً يمكنها أن تنام مرتاحة البال، **أنا** التي لن أذهب لأنام، **متى** سنلتقي، غداً، ما إن أخرج من البنك حتى آخذ سيارة أجرة وأصلُ إلى هناك، **تأتين** مسرعة، **لألقي** بنفسي في حضنكَ. وضع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السماعة، أغمض عينيه فسمع ماريّا دا بّاش تضحك وتصيح، **أمي** الحبيبة، أمي الحبيبة، ثم رآهما معاً تتعانقان، وبدل الصياح، تتبادلان الهمس، وبدل الضحك، تبكيان، أحياناً نتساءل لماذا تأخرت السعادة كل هذا الوقت لتصل، لماذا لم تصل قبل ذلك، لكنها لو ظهرت على حين غرة، كما هي الحال الآن، حين لم نعد ننتظرها، فإنه من المحتمل ألا نعرف ماذا نفعل، لأن المسألة ليست أن نختار بين الضحك والبكاء، بل ما يُكبّلنا هو أننا فريسة للقلق الخفي بأننا لن نكون في المستوى المطلوب. كأنه يستأنفُ عاداتٍ نسيها، ذهب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى المطبخ ليرى إن وجد ما يأكله. معلبات التصبير الأبدية، فكّرَ. وعلى الثلاجة أُلصقت ورقةٌ تقول بحروف بارزة، حمراء حتى تُرى بشكل أحسن، **هناك حساءٌ في الثلاجة**، كتبتها جارةُ الطابق العلوي، هذا جيد، ستنتظرُ معلبات التصبير هذه المرة. منهكاً من السفر، متعباً من فرط المشاعر، ذهب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لينام وعقارب الساعة لم تشر بعد إلى الحادية عشرة ليلاً. حاول أن يقرأ صفحة من حضارات

بلاد ما بين الرافدين، وانفلت الكتاب مرتيْن من بين يديه، فأطفأ الضوء في النهاية واستعدّ لينام. كان ينزلق نحو نومه بهدوء حين جاءت ماريّا دا بّاش لتهمس في أذنه، **كم** سيكون رائعاً أن تتصل بي فقط هكذا. ربما كانت ستقول بقية الجملة، لكنه كان قد نهض، ارتدى عباءة النوم فوق المنامة، وراح يركّب رقم هاتفها. سألت ماريّا دا بّاش، **أهذا** أنتَ، فأجابها، **هذا** أنا، شعرتُ بالعطش، فجئتُ أطلُبُ ماءً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عكْسَ الاعتقاد السائد عموماً، فإنّ اتخاذ قرارٍ يُعتبرُ من أسهل القرارات في هذا العالم، والدليل على ذلك أننا نقضي سحابة يومنا في مضاعفتها، لكن، هنا تكمن المشكلة، لأنها تأتي لاحقاً رفقة مشاكلها الخاصة الصغيرة، أو، كي نتفاهم بشكل أسهل، رفقة أذيال ينبغي سلخها، تتمثل أولها في درجة عجزنا عن الالتزام بقراراتنا، وتتجلى الثانية في درجة إرادتنا في إنجازها. ولا يعني هذا أن هذه أو تلك تغيب عن العلاقة العاطفية لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مع ماريّا دا بّاش، فقد عاينا ما عرفته هذه العلاقة في الساعات الأخيرة من تغيرات نوعية، كما صار من العادة أن يُقال. قرّر أن يذهب ليعيش معها وظلّ ثابتاً على قراره، وإذا لم يتحقق بعد هذا القرار، أو لم يُترجم على أرض الواقع، كما يقال عادة أيضاً، فلأن المرور من القول إلى الفعل ينطوي أيضاً على بعض الصعوبات، وله من الأذيال ما يستوجب السلخ، فمن الضروري، مثلاً، أن يتسلح الفكرُ بما يكفي من القوة كي يدفع بالجسم المتراخي ليلتزم بالوفاء بواجبه، من دون الحديث عن أمور اللوجستيك المبتذلة التي لا يمكن حلُّها بسرعة، مثل تحديد مَنْ سيذهب عند مَنْ، هل ستذهب ماريّا دا بّاش لتعيش في الشقة الصغيرة لحبيبها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، هل

سيذهب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليعيش في المنزل الفسيح لحبيبته. مستلقييْن على هذه الأريكة أو مضطجعيْن على ذلك السرير، كانت آخرُ أفكار الخطيبيْن، رغم مقاومتهما الطبيعية للخروج من القوقعة المنزلية التي اعتاد عليها كل واحد منهما، تميل نحو البديل الثاني، ما دام أنه في منزل ماريّا دا بّاش هناك فضاء كاف لكُتب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وفي شقة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لن يكون هناك فضاء لأُمّ ماريّا دا بّاش. على هذا المستوى، ما كان للأمور أن تكون أحسن مما هي عليه. المشكلة أنه بعد أن تردّدَ كثيراً بين المزايا والعيوب، حكى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لأُمّه، بعد أن خفف من الزوايا الحادة والنتوءات البارزة، تلك الحكاية العجيبة للرّجليْن المكرّريْن، ولا نرى بعد متى سيقرر الوفاء بذلك الوعد الذي أعطاه لماريّا دا بّاش في تلك المناسبة، يوم اعترف لها أنه كذب عليها بخصوص دوافع تلك الرسالة التي كتبها إلى شركة الإنتاج السينمائي، والذي أجّله إلى مناسبة أخرى وهذا يعني أن نصف اعترافه ظلَّ ينتظرُ ليكون كاملاً، صادقاً وحاسماً. هو لم يقل لها شيئاً، وهي لم تسأله عن ذلك، والكلمات القليلة التي كان بوُسعِها أنْ تفتحَ هذا الباب الأخير، **هل** تذكرين، يا حبيبتي، يوم كذبتُ عليكِ، **هل** تذكرُ، يا حبيبي، يوم كذبتَ عليّ، لم يُكتب أن يُنطق بها، ولو وجدَ هذا الرجلُ أو تلك المرأةُ الوقت للذهاب إلى أقصى حدّ في هذا الأمر المؤلم، لربما برّرا صمتَهُما وادّعَيا أنهما لم يرغبا في تقويض تلك الساعات السعيدة بحكايةِ شرٍّ ذات انحرافٍ ورائي. لن نتأخّرَ كثيراً في معرفة العواقب الوخيمة لقنبلة من الحرب العالمية الثانية تركناها مدفونة، لأننا ظنَنّا أن ساعتها قد مرّت، وأنها لن تنفجر أبداً. لقد حذّرت كاساندرا وأنذرت، سيحرقُ الإغريقُ مدينةَ طروادة.

منذ يومين، قرّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن ينهي، أخيراً، العمل الذي طلب منه المدير أن ينجزه لفائدة وزارة التعليم، وبالكاد كان يرفع رأسه عن الملف. رغم أن تاريخ انتقاله إلى منزل ماريّا دا بّاش لم يُحدّد بعد، فقد كان يرغب أنْ يتحرّر من تلك المهمة في أقرب وقت ممكن حتى لا تكون هناك تعقيدات في بيته الجديد، يكفيه أن يرتّب وثائقه الخاصة، بالإضافة إلى كتبه العديدة التي يجب أن يضعها بشكل منظّم. وحتى لا تلهيه عن هذا الأمر، لم تتصل به ماريّا دا بّاش، وهو يفضل ذلك، إذ كان، بطريقة ما، كأنه يُودّع حياته السابقة، حياة الوحدة، الهدوء، والانزواء في البيت حيث صوت الآلة الكاتبة لم يكن يزعجه، بشكل غريب. ذهب لتناول الغداء في المطعم وعاد بسرعة، وبعد يومين أو ثلاثة أيام أخرى سينجح في إنهاء مهمته، بعد ذلك لن يتبقّى له سوى أن يصحح العمل وينقّحه، يكتب كل شيء من جديد، والأكيد أنّ عليه، عاجلاً أم آجلاً، أن يقتني حاسوباً وطابعة كما فعل كل زملائه تقريباً، فمن المُخجل أن يستمر في حفر الأرض بمعول بينما صار استعمال محاريث من آخر جيل أمراً عادياً. سوف تعلّمه ماريّا دا بّاش مبادئ المعلوماتية، فهي درستها، تعرف الموضوع جيداً، وفي البنك حيث تشتغل هناك حواسيب فوق كل المكاتب، وليس كما في المكاتب القديمة لمصالح الحالة المدنية. دقّ أحدهم جرس الباب. من يكون في هذه الساعة، تساءل، إنها ليست جارة الطابق العلوي، ساعي البريد يترك المراسلات في علبة الرسائل، وقبل أيام قليلة مرّ مراقبو عدادات الماء والكهرباء والغاز لقراءتها، ربما يكون واحداً من أولئك الشباب الذين يقومون بالدعاية لموسوعات تصف عادات سمك عفريت البحر. رنّ الجرس مرة أخرى. ذهب تيرتوليانو

ماكسيمو أفونسو ليفتح الباب، وأمامه كان هناك رجل ذو لحية، فقال الرجل، **إنني** أنا، ولو كنتُ لا أبدو كذلك، **ما** الذي تريده مني، سأله تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بصوت خفيض ومتوتر، **فقط** لأتحدث معك، أجابه أنطونيو كلارو، طلبتُ منكَ أن تتصل بي حين تعود من عطلتك، ولم تفعل، **ما** كان يجب أن نقوله أثناء لقائنا، قلناه، **ربما**، لكن بقي ما يجب أن أقوله أنا لك، **لا** أفهم، **هذا** أمر طبيعي، لكن لا تنتظر مني أن أقول لك ذلك هنا عند عتبة الباب، مع خطر أن يسمعنا الجيران، **على** أي حال، هذا لا يهمّني، **على** العكس من ذلك، أنا متأكد أنه سيهمّك بشكل كبير، يتعلق الأمر بصديقتك، أظن أن اسمها هو ماريّا دا بّاش، **ما** الذي حدث، **لا** شيء، لحد الساعة، وحول هذا تحديداً يجب أن نتحدث، **إنْ** لم يحدث أي شيء، فليس هناك ما نتحدث عنه، **قلتُ** لحد الساعة. فتح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الباب أكثر قليلاً ثم تنحى جانباً، **ادخُل**، قال. دخل أنطونيو كلارو، وبما أن الآخر لم يبدُ مستعداً ليتحرك من هناك، قال، أليس لديك كرسي تقدمه لي، لأنني أظن أننا سنتحدث بشكل أفضل ونحن جالسان. وجد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو صعوبة في احتواء حركة غضب، ودون أن ينبس ببنت شفة، ولج الغرفة التي يستعملُها مكتباً. تبعه أنطونيو كلارو، جال بنظره من حوله كما لو أنه يختار أحسن مكان ثم استقر قراره على الكرسي المبطّن، وبعد ذلك قال، وهو في الوقت ذاته ينزع بعناية اللحية عن وجهه، **أتصوّرُ** أنك كنت جالساً في هذا المكان عندما رأيْتَني لأول مرة. لم يجبه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. ظلّ واقفاً، وهيئة جسده المتشنج كانت احتجاجاً صارخاً، **قل** ما لديك واغرب عن وجهي، لكن أنطونيو كلارو لم يكن على عجل، **إنْ** لم تجلس، فستجبرُني على الوقوف،

وهذا لا يعجبُني. جال بعينيه من حوله في هدوء، متوقفاً عند الكتب، المنقوشات المعلقة على الجدران، الآلة الكاتبة، الأوراق المتناثرة فوق المكتب، الهاتف، وبعد ذلك قال، **أرى** أنك كنت تعمل، وأنني اخترت ساعة غير مناسبة لآتي وأتحدث معك، لكن، نظراً لاستعجال الأمر الذي حملني إلى هنا، لم يكن لديّ من حلّ آخر، **وما** الذي حملكَ إلى بيتي، **قلتُ** لك ذلك عند الباب، يتعلق الأمر بصديقتكَ، **وما** شأنُكَ أنت بماريّا دا بّاش، **أكثر** مما يمكن أن تتصورهُ، لكن قبل أن أشرح لك كيف، لماذا وإلى أي حد، اسمح لي أن أريكَ هذا. ومن جيب معطفه أخرج ورقة مطوية، بسطها ومدّها على أطراف أصابعه كأنه مستعد ليتركها تسقط، **أنصحُكَ** أن تأخذ هذه الرسالة وتقرأها، قال، إنْ كنت لا تريد أن تجبرني على أن أكون قليل الأدب وأرميها على الأرض، ثم إنها ليست أي أمر مستجد عليك، لا بدّ أنك تتذكر أنك حدثتني عنها حين التقينا في منزلي الريفي، الفرق الوحيد أنك قلت لي يومئذ أنك أنت من كتبَها، بينما هي تحملُ توقيع صديقتكَ. ألقى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو نظرة خاطفة على الورقة وأعادها إليه، **كيف** وصل هذا بين يديك، سأله، **وجدتُ** بعض الصعوبة في الحصول عليها، لكن ذلك كان يستحق العناء، أجابه أنطونيو كلارو، ثم أضاف، **على** كل المستويات، **لماذا، يجب** أن أعترف أولاً أنّ إحساساً دنيئاً هو ما حملني لأذهب إلى أرشيف شركة الإنتاج، شيء من الغرور، والنرجسية، أظن أنه يسمى هكذا، على أيٍّ، أردتُ أن أطلع على ما كتبتَهُ عن الممثلين الثانويين في رسالة تتحدث عني، **كانت** ذريعة، عذراً لمعرفة اسمكَ الحقيقي، ليس إلّا، **وقد** أفلحتَ في ذلك، **كان** من الأحسن ألّا يجيبوني، **فات** الأوان، يا عزيزي، لقد فتحتَ علبة باندُورا، والآن

يجب أن تواجه العواقب، ليس لديك من خيار، **ليس** هناك من عواقب، صار الموضوع في طيّ النسيان، **هذا** ما يبدو لك، لماذا، **إنك** نسيت توقيع صديقتكَ، **له** تفسير، **ما** هو، **رأيتُ** أنه من المناسب أن أظل أنا بعيداً عن الأنظار، **وجاء** دوري لأسألك لماذا، **كنتُ** أريد أن أبقى في الظّل حتى آخر لحظة، وأظهر بشكل مفاجئ، **نعم**، يا سيدي، رغم أن هيلينا لم تعد هي نفسها منذ ذلك اليوم المعلوم، لأن الصدمة التي تسبب لها فيها ذلك كانت فظيعة، فحين علمت أن هناك في هذه المدينة رجلاً مطابقاً لزوجها اهتزّت أعصابها، الآن، بعد تناول عدة مهدئات، تحسّنت حالها، لكن قليلاً فقط، **آسف**، لم أكن أتوقع حدوث كل هذه الأضرار، **ما** كان ذلك ليكون صعباً عليك، كان يكفي أن تضع نفسك مكاني، **لم** أكن أعرف أنك متزوج، **ومع** ذلك، تصور، إنه مثال فقط، أن أخرج من هنا وأذهب لأقول لصديقتكَ ماريّا دا بّاش أنك أنت، تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وأنا، متطابقان، نتشابه في كل شيء، حتى في حجم القضيب، فكّرْ في الصدمة التي ستشعر بها هذه السيدة المسكينة، **أمنعُكَ** من القيام بذلك، **هدئ** من روعك، أنا لم أُخبرْها بذلك ولن أُخبرَها. نهض تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو فجأة، **ماذا** يعني كل هذا، لم أخبرها بذلك، ولن أخبرها، ما الذي تعنيه هذه الكلمات، **هذا** سؤال أجوف، بلاغي، وضع لربح بعض الوقت، لأننا لا نعرف كيف نتصرّف، **كفاك** حماقة وأجب عن سؤالي، **احتفظ** برغبتك في العنف إلى ما بعد، لكن، ليكن في علمك أنَّ لديّ ما يكفي من دراية برياضة الكاراتيه لأسقطك في خمس ثوان، صحيحٌ أنني أهملتُ التداريب في الآونة الأخيرة، لكن بالنسبة لشخص مثلك سأكون كافياً وافياً، فليس لأننا نتساوى في حجم القضيب يعني أننا نتساوى في القوة أيضاً،

اخرُجْ من هنا الآن وإلا استدعيتُ الشرطة، **يمكنك** أن تستدعي أيضاً قنوات التلفزيون، والمصورين، والصحافة، وفي غضون دقائق قليلة سنصبح حدثاً دولياً، **أذكّرُكَ** أنه لو عُرفت هذه القضية سيلحقُ بمسارك ضررٌ كبير، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مدافعاً عن نفسه، **أعتقدُ** ذلك، مع أن مسار ممثل ثانوي لا يهم أحداً، سوى هو نفسه، **وهذا** سبب كافٍ لننهي هذا الأمر، أنت تذهب لحالك، وتنسى ما حدث، وسأحاول من جهتي أن أقوم بنفس الشيء، **اتفقنا**، لكن هذه العملية يمكن أن نسمّيها «عملية نسيان»، ولن تبدأ إلّا بعد أربع وعشرين ساعة، **لماذا**، **السببُ** اسمه ماريّا دا بّاش، تلك ماريّا دا بّاش نفسها التي كانت سبباً في أنّك غضبتَ كثيراً قبل قليل وتحاول الآن أن تخفيها حتى لا يكون أي حديث عنها بعد الآن، **إنّ** ماريّا دا بّاش لا علاقة لها بهذا الموضوع، **نعم**، لا علاقة لها بالموضوع حتى أنني أراهن برأسي على أنها لا تعلم بوجودي، **كيف** تعرفُ ذلك، **لستُ** متيقناً من ذلك، إنه افتراض، لكنك لا تنكره، **حسبتُ** الأمر أفضل هكذا، لم أكن أرغب في أنه يمكن أن يقع نفس الأمر لزوجتكَ، **يا** لعظمة قلبك، وبيدك يتعلق حدوث هذا الأمر، **لا** أفهمُ، **لنكُفّ** عن اللّف والدّوران، طرحتَ عليّ سؤالاً ومنذ ذلك الحين وأنت تلفّ وتدور كي لا تسمع الجواب الذي يجب أن أقدّمه لك، **اذهبْ** إلى حال سبيلك، **لا** أنوي البقاء هنا، **اذهبْ** إلى حال سبيلك فوراً، **حسناً**، سأذهبُ لأقدّم نفسي لحماً ودماً لصديقتكَ، وأحكي لها ما خبأته عنها بسبب قلة شجاعتك أو لأي سبب آخر أنت الوحيد الذي تعرفُه، **لو** كان معي سلاح لقتلتُكَ، **هذا** ممكن، لكننا لسنا في السينما، يا عزيزي، في الحياة الأمور أكثر بساطة، حتى عندما يكون هناك قاتلون وقتلى، **أفرغْ** كل ما في جعبتك، هل تحدثتَ معها،

تحدثتُ معها، نعم، **وماذا** قلتَ لها، **دعوتُها** لترافقني اليوم كي نذهب لزيارة منزل ريفي معروض للكراء، **منزلُكَ** الريفي، **تماماً**، منزلي الريفي، لكن، كن مطمئناً، من اتصل بصديقتكَ ماريّا دا بّاش لم يكن أنطونيو كلارو، بل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **إنكَ** مجنون، ما هذه الخدعة الشيطانية، ما الذي تسعى إليه، **هل** تريد أن أقول لك ذلك، **أطالبُك** به، **أريدُ** أن أقضي معها هذه الليلة، ليس إلّا. نهض تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بعنف وتقدّم نحو أنطونيو كلارو يشدّ قبضتيْ يديْه، لكنه تعثر بالطاولة الصغيرة التي تفصلهما وكاد يسقط على الأرض لو لم يمسكه الآخرُ في اللحظة الأخيرة. حرّك ذراعيه، قاوم، لكن أنطونيو كلارو، بخفة، سيطر عليه بقبضة سريعة من ذراعه شلّت حركته، **ادخِلْ** هذا في رأسك قبل أن أصيبه بأذى، لا تُحاولْ أن تقارن نفسك بي. دفعه نحو الأريكة وعاد ليجلس. نظر إليه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بامتعاض، وهو يفرك ذراعه المتألمة في الوقت ذاته. لم أقصد أن أصيبك بأذى، قال أنطونيو كلارو، لكنها كانت الطريقة الوحيدة كي لا نكرّر هنا مشهد ذلك الشجار المُضحك بين ذكريْن يتصارعان من أجل أنثى، **أنا** وماريّا دا بّاش سنتزوج، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، كما لو أن الأمر يتعلق بحجة دامغة لا تُرد، **هذا** لا يفاجئُني، عندما تحدثتُ معها كان لدي إحساس بأن علاقتكُما جدية فعلاً وكان عليَّ أن أستعين بكل تجربتي في التمثيل كي أجد النبرة المناسبة، أستطيع أن أؤكد لك أنها لم تشكّ ولا لحظة واحدة في أنها كانت تتحدثُ معك، بل أكثر من هذا أفهمُ أحسن الآن ذلك الفرح الذي تلقّت به دعوتي لزيارة المنزل، فقد كانت ترى نفسها وهي تسكن فيه، **كانت** أمُّها مريضة، ولا أظن أنها ستتركها وحدها، **فعلاً**، حدثتني عن ذلك، لكنها لم تتأخر في أن تقتنع، فليْلةٌ

واحدة تنقضي بسرعة. تململ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في الأريكة، غاضباً من نفسه لأنه بدا كأنه قَبِلَ من خلال كلماته الأخيرة إمكانية أن يُنفّذ أنطونيو كلارو نواياهُ. لماذا تتصرّف بهذا الشكل، سألهُ وهو يدرك، بعد فوات الأوان مرة أخرى، أنه قد خطا خطوة أخرى على طريق الخنوع، **ليس** من السهل شرحُ ذلك، لكني سأحاول، أجابه أنطونيو كلارو، ربما لأنتقم من الإزعاج الذي أقحمه ظهورك في علاقتي الزوجية، والذي لا يمكن أن تتصوره، ربما بسبب نزوةِ زيرٍ مهْووسٍ بالإطاحة بالنساء، ربما يكون ذلك، وهذا بكل تأكيد هو الأرجح، بسبب ضغينة بسيطة وخالصة، **بغيضة**، **نعم**، بغيضة، لقد قلتَ قبل دقائق قليلة إنه لو كان معك سلاح لقتلتَني، كانت تلك طريقتك الخاصة في قول إنّ واحداً منا يزيد عن الحاجة في هذا العالم، وأنا أتفق معك تماماً، إن واحداً منا يزيد عن الحاجة في هذا العالم ومن المؤسف أنه لا يمكن قول هذا الأمر بحروف بارزة، كانت المسألة ستكون محسومة لو أن المسدس الذي أخذتُه معي حين التقينا كان محشوّاً ولو تحلّيتُ بما يكفي من الشجاعة لإطلاق الرصاص، لكننا نعرف، نحن أناس طيبون، نخاف من السجن، وعليه، بما أنني لست قادراً على قتلكَ، أقتلُكَ بطريقة أخرى، أضاجعُ زوجتَك، الفظيع في الأمر أنها لن تعلم أبداً بذلك، ستظُنُّ طوال الوقت أنها تضاجعُكَ أنت، وكل ما ستقوله لي من كلمات حلوة وغرامية سيكون موجّهاً إلى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وهي تقول ذلك أو لا تقوله لأنطونيو كلارو، وليكن هذا على الأقل عزاء لك. لم يجبه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، خفضَ عينيْه بسرعة كأنه يمنع أن تُقرأ فيهما تلك الفكرةُ التي اخترقت ذهنَه من طرف إلى طرف آخر. وفجأة شعَرَ كأنه سيخوض مباراة شطرنج ينتظر الحركة التالية

من أنطونيو كلارو. يبدو أن كتفَيه انهارتا، مهزوماً، حين قال الآخر، بعد أن نظر إلى ساعته اليدوية، **حان** الوقت لأذهب، يجب أن أمرّ على منزل ماريّا دا بّاش لآخذها معي، لكنه سرعان ما وقف بحماس متجدد عندما سمعه يضيف، **طبعاً**، لا أستطيع أن أذهب كما أنا الآن، أنا بحاجة إلى ملابسك وسيارتك، إنْ كان يجب أن أظهر بوجهك، عليّ أيضاً أن آخذ ما تبقى، **أنا** لا أفهم، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وملامح الحيرة تعلو وجهه، ثم سرعان ما أضاف، **آه**، نعم، هذا بديهي، لن تجازف أنت بأن تستغرب هي البدلة التي ترتديها فتسألك من أين لك ذلك المال لشراء سيارةٍ مثل سيارتِكَ، **تماماً**، **ولذلك** تريد أن أعيرك ملابسي وسيارتي، **هذا** تماماً هو ما طلبتُ منك، **وماذا** ستفعل لو رفضتُ، **المسألة** بسيطة، أمسك ذلك الهاتف وأحكي كل شيء لماريّا دا بّاش، وإن عنّت لك الفكرة السيئة لمنعي من ذلك، كن على يقين أنني سأتركك نائماً في أقل مما يتطلبه قول ذلك، كن حذراً، إلى حد الآن نجحنا في تجنب العنف، لكن لو كان ضرورياً لن أتردد في استعماله، **حسناً**، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وإلى أيّ نوع من الملابس ستحتاج، بدلة كاملة مع ربطة عنق، أو ملابس صيفية كهذه التي أراك ترتديها، **إلى** لباس خفيف، من هذا النوع. خرج تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ذهب إلى غرفته، فتح الدولاب، فتح الجوارير، وفي أقل من خمس دقائق عاد بكل ما هو ضروري، قميص، سروال، سترة، جوارب، وحذاء. ارْتَدِ الملابس في الحمام، قال. لما عاد أنطونيو كلارو، رأى فوق الطاولة الوسطى ساعة يدوية، ومحفظة مع أوراق الهوية، **وثائق** السيارة توجد في علبة القفازات، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وها هي المفاتيح أيضاً، ثم مفاتيح هذا البيت في حالة ما عدت لتغير

ملابسك وأنا لستُ هنا، أظن أنكَ ستأتي لتُغيّر الملابس، **سآتي** عند منتصف الصباح، وعدتُ زوجتي بأنني لن أصل قبل منتصف النهار، أجابه أنطونيو كلارو، **أتصوّرُ** أنك قد أعطيتها سبباً مقنعاً كي تقضي الليلة خارج البيت، **أمور** لها علاقة بالعمل، ليست هذه هي المرة الأولى، ثم راح أنطونيو كلارو، مضطرباً، يتساءل مع نفسه، لماذا بحق الجحيم كان يقدم كل تلك التفسيرات بينما كانت السلطة والسيطرة على الوضع إلى جانبه منذ دخل إلى هنا. قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **لا** ينبغي أن تحمل معك أوراق هويتك، ولا ساعتك اليدوية، ولا مفاتيح سيارتك، لا ينبغي أن تحمل معك أي غرض شخصي، لا شيء يمكن أن يكشف هويتك، فالنساء، بالإضافة إلى فضولهن الطبيعي، على الأقل هذا ما يقال دائماً، يلاحظن كثيراً التفاصيل، **ومفاتيحكَ**، لا بدّ أنك ستحتاج إليها، **يمكنكَ** أن تأخذها، لا تشغل بالك، فجارة الطابق العلوي لديها منها أضعاف أو نُسخ، إنْ كنتَ تفضّل هذه العبارة، هي من تتكلف بتنظيف البيت، **آه**، هذا أمر جيد. لم يفلح أنطونيو كلارو في التخلص من إحساس بالاضطراب الذي حلَّ مكان ذلك الحزْم البارد الذي أدار به من قبل ذلك الحوارَ الملتوي نحو هدفه المنشود. كان قد بلغه، لكن يبدو له الآن أنه قد انحرف قليلاً عن النقاش أو أنه دُفع دفعاً إلى خارج الطريق بلمسة مسرحية خفية لم يشعر بها في حينها. كانت تقترب الساعة التي سيذهبَ ليأخذ فيها ماريّا دا بّاش، لكن، بالإضافة إلى هذا الاستعجال، المحدد سلفاً في ساعة معينة، كان هناك استعجال آخر، داخلي، أكثر إلحاحاً، يتعقّبُه، **اذهب**، اخرج من هنا، تذكّر أنه يجب أن نعرف كيف ننسحب في الوقت المناسب حتى في أكبر الانتصارات. أسْرعَ ليضع فوق الطاولة الصغيرة، جنباً

إلى جنب، وثائق الهوية، مفاتيح المنزل، مفاتيح السيارة، الساعة اليدوية، مشط جيب، وقال دون فائدة إن أوراق السيارة توجد في علبة القفازات، ثم سأل، **هل** تعرفُ سيارتي، تركتُها قريباً من باب الدخول، فأجابه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مؤكداً، **نعم**، رأيتُها أمام منزلك الريفي عندما وصلتُ إلى هناك، **وسيارتُك** أنت، أين هي، **ستجدُها** عند زاوية الشارع بالضبط، عرِّج يساراً عندما تغادر العمارة، إنها زرقاء ولها بابان، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وحتى لا يكون هناك أي لبس، أضاف ماركة السيارة ورقم لوحتها. كانت اللحية المستعارة فوق ذراع الأريكة التي يجلسُ عليها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. ألنْ تأخذها، سأل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **أنتَ** من اشتريتَها، احتفظ بها، إنّ الوجه الذي سأخرج به الآن هو نفسه الذي سأدخل به إلى هنا غداً عندما سآتي لأغيّر ملابسي، أجابه أنطونيو كلارو، وهو يستعيد شيئاً من هيبته السابقة، ثم أضاف، بنبرة ساخرة، **إلى** حين ذلك، سأكون أنا أستاذ مادة التاريخ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. نظر أحدهما إلى الآخر مدة بضع ثوان، والآن، نعم، تلك الكلمات التي قالها الآخرُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يستقبل أنطونيو كلارو عند وصوله كانت حقيقية إلى الأبد. فتح تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو باب السلالم دون أن يُحدث ضجة، تنحّى ليترك الزائر يخرج، وبتثاقل، بنفس العناية، أغلقه مرة أخرى. قد يكون من الطبيعي التفكير أنه تصرّف كذلك حتى لا يثير فضول الجيران الخبيث، لكن كاساندار، لو كانت هنا، لن تكف عن تذكيرنا أنه بهذه الطريقة تحديداً يتم تنزيل غطاء تابوت. عاد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى الصالة، جلس على الأريكة ثم أغمض عينيه وأسند ظهره إلى الخلف. لم يتحرك خلال ساعة بكاملها، لكن،

عكس ما قد يُعتقد، لم ينَم، كان فقط يترك الوقت لسيارته القديمة كي تخرج من المدينة. فكّرَ في ماريّا دا بّاش من دون كرب، فقط بوصفها شخصاً يختفي شيئاً فشيئاً هناك بعيداً، فكّرَ في أنطونيو كلارو بوصفه عدواً انتصر في المعركة الأولى، لكنه سيخسر المعركة الثانية إنْ كان ما يزال شيء من العدل في هذا العالم. كان ضوء المساء يتلاشى، لا بدّ أن سيارته قد غادرت الطريق الرئيسية، ربما تكون قد أخذت المختصر الذي يجنبها أن تعبر البلدة، وهي تتوقف في هذه اللحظة أمام البيت الريفي. أخرج أنطونيو كلارو مفتاحاً من جيبه، ذلك المفتاح الذي لم يكن بوسعه أن يتركه في بيت تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وسيقول لماريّا دا بّاش إنّ صاحب المنزل هو من سلّمه إياه، لكنه، طبعاً، لا يعرف أننا سنقضي هذا الليلة هنا، **كان** صديقاً لي في المدرسة، شخص ثقة، لكن ليس لدرجة أن أُطلعه على أمور حياتي الخاصة، والآن انتظريني لحظة هنا، سأذهب لأرى إنْ كان كل شيء على ما يرام في الداخل. كانت ماريّا دا بّاش على وشك أن تسأل نفسها أية أشياء هذه التي يمكن أن تكون على ما يرام في منزل ريفي للكراء، لكنّ قُبلةً من تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، من تلك القُبَل العميقة التي تفتن النساء، صرفت انتباهها، وبعد ذلك، خلال دقائق كان فيها غائباً، جذبها جمال المنظر الطبيعي، الوادي، الخطّ الداكن من أشجار الحور والدردار التي ترافق مجرى النهر، الجبال في الخلف، والشمس التي تكاد تلامس أعلى قمة. تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، هذا الذي نهض للتو عن الأريكة، يتكهّنُ بما يقوم به أنطونيو كلارو هناك في الداخل، يستعرض بكل برودة كل ما قد يشي به، بعض ملصقات الأفلام، لكن الخطر لن يأتي من هذه، سيتركها حيث هي، فأستاذٌ قد يكون واحداً من عشاق السينما، أفظع ما في

الأمر هو صورته، إلى جانب هيلينا، التي توجد فوق في الصالة على طاولة عند الباب. وأخيراً، ظهرت عند الباب، ناداها، **يمكنكِ** أن تأتي الآن، كانت هناك بعض الستائر المتراكمة على الأرض تجعل المنزل يبدو قبيحاً جداً. ترجلت من السيارة، مسرورة، ثم ارتقت أدراج المدخل، انغلق الباب محدثاً ضجيجاً، وقد يبدو هذا لأول وهلة قلة احترام تستحق الشجب، لكن يجب ألّا ننسى أن المنزل معزول، وليس هناك من جيران، قريباً أو بعيداً من هناك، وفوق ذلك، من واجبنا أن نكون متفهّمين، لأن الشخصيْن اللذين دخلا للتو تنتظرهما أمور أهم من ذلك ينبغي أن يجدا لها حلاً بدل الانشغال بضجيجِ بابٍ يُغلقُ.

التقط تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من الأرض، حيث سقطت، نسخةً من الرسالة التي جلبها أنطونيو كلارو، ثم فتح جارور المكتب حيث احتفظ بجواب شركة الإنتاج، وهو يحمل الورقتين في يده، بالإضافة إلى الصورة التي أخذها لنفسه مرتدياً اللحية المستعارة، وتوجّه إلى المطبخ. وضعها في الغسّالة، قرّب منها عودَ ثقابٍ مُشتعلٍ وراح يتأمّل عملَ النّار السريع، اللهيب الذي كان يقضم ويبتلع الأوراق ثم يتقيأها رماداً، الوميضَ الذي يصرُّ على عضّها حين يبدو اللهيب، هناك وهنالك، أنه ينطفئ. حرّك ما تبقى منها حتى يحترق وبعد ذلك فقط أطلق عليها خيطَ ماءٍ رقيق من الصنبور حتى اختفت آخر ذرة رماد في أنابيب الماء. بعد ذلك، توجّه إلى الغرفة، أخرج أشرطة الفيديو من الدولاب حيث خبأها وعاد إلى الصالة. كانت ملابس أنطونيو كلارو، التي جلبها من الحمام، متراكمة فوق كرسي مبطّن. قطب أنفه متقززاً وهو يرتدي الملابس الداخلية التي استعملها الآخرُ، لكن لم يكن لديه اختيار، فذلك ما كانت تمليه

عليه الضرورة، التي هي الاسم الذي يتّخذُه القدرُ حين يناسبُه أن يتنكّر. الآن وقد تحوّل إلى آخرِ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لم يعد أمامه سوى أن يتحوّل إلى أنطونيو كلارو الذي تخلى عنه أنطونيو كلارو نفسُه. من جهته، لن يستطيع أنطونيو كلارو أن يخرج إلى الشارع إلّا بوصفه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ويجب أن يكون تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ما دامت ملابسه الخاصة، هذه التي تركها هنا وأخرى، لم تُعِد لهُ هويّةَ أنطونيو كلارو. شئْنا ذلك أم أبيْنا، المظهرُ هو ما يصنع الماهية. اقترب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من الطاولة التي ترك عليها أنطونيو كلارو أغراضه الشخصية، وبطريقة منهجية أكمل عمل تحوُّله. بدأ بالساعة اليدوية، أدخل خاتم الزواج في البنصر الأيسر، دسّ في جيب من سرواله المشط والمنديل الذي يحمل الحرفين الأولين «أ.ك»، في جيب الجهة الأخرى وضع مفاتيح الشقة والسيارة، وفي الجيب الخلفي وثائق الهوية التي تثبتُ في حالة شك أنه هو فعلاً أنطونيو كلارو. إنه مستعدّ ليخرج، لا تنقصه سوى اللمسة الأخيرة، اللحية المستعارة التي كان يضعها أنطونيو كلارو حين دخل إلى هنا، كأنه تكهن بأنها ستكون ضرورية، لكن لا، فقد ظلت اللحية فقط تنتظر صدفة من الصدف، إن كانت الصدف تستغرق أعواماً لتصل، وأحياناً تأتي مسرعة، كلها تتسابق مزدحمة في صفّ، الواحدة تلو الأخرى. ذهب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى الحمام ليُتمّ تنكُّره، فاللّحية، من فرط وضعها ونزعها ومن كثرة انتقالها من وجه إلى آخر، لم تعد تلتصق جيداً، وأصبحت مشبوهة عند أول نظرة وشَقٍ لرجُلٍ من رجال الأمن أو أمام توجُّس تلقائي من مواطنٍ وجِل. في الأخير، التصقت بالجلد، وما عليها الآن سوى أن تصمد لبعض الوقت ريثما يجد تيرتوليانو ماكسيمو

أفونسو صندوق قمامة في مكان لا يرتاده كثير من الناس. وهناك ستُنهي اللحية المستعارة حكايَتَها القصيرة لكن المضطربة، وهناك ستنتهي أشرطة الفيديو، وسط نفايات نتنة في الظلام. عاد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى الصالة، جال بعينيه من حوله ليرى إنْ كان قد نسي شيئاً هو بحاجة إليه، بعد ذلك دخل إلى غرفته، وعلى طاولة السرير كان هناك كتاب الحضارات القديمة لبلاد الرافدين، لم يعد هناك من سبب ليأخذه معه، لكن مع ذلك سيأخذه، في الحقيقة لا أحد يفهم العقل البشري، هل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بحاجة حقاً إلى رفقة الساميين الآموريين والآشوريين، إنْ كان سيعود إلى بيته في أقل من أربع وعشرين ساعة. لقد قُضي الأمرُ، همهم مع نفسه، ليس هناك ما يدعو للجدل، وما يجب أن يقع، سيقع، لا يمكنه أن يفلت من نفسه. فنهر الرُّوبيكون هو هذا الباب الذي يغلق، هذه السلالم التي يجب أن ننزل عبرها، هذه الخطوات التي تؤدي إلى السيارة، هذا المفتاح الذي يفتحها، ذلك المحرك الذي يجعلها تنزلق بهدوء عبر الشارع، لقد رُمي النّردُ، ولتُقرّر الآلهةُ ما تريد. إنه شهر آب، يوم الجمعة مساء، وقليل من السيارات والمارّة يتحركون، كان الشارع الذي يقصده بعيداً جداً وسرعان ما أصبح قريباً. لقد حل الليل منذ ما يزيد عن نصف ساعة. ركنَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السيّارةَ أمام العمارة. قبل أن يخرجَ نظرَ إلى النوافذ فلم ير الضوء في أي واحدة منها. تردّد، تساءل، **والآن**، ماذا أفعل، وهو ما ردَّ عليه العقلُ، **هيا**، دعنا نرى، إنني لا أفهم هذا التردُّد، إنْ كنتَ حقاً أنطونيو كلارو كما تريدُ أن تبدو، فما عليك أن تقوم به هو أن تصعد بهدوء إلى بيتكَ، وإنْ كانت الأضواء مطفأة فلا بدّ أن هناك من تفسيرٍ لذلك، ولاحِظْ أنها ليست هي الوحيدة في العمارة، وبما أنك لست

قطّاً لتستطيع أن ترى في الظلام فيجب عليك أن تُشعلها، هذا إنْ افترضنا أنه ليس هناك من سبب نجهله كي يكون شخصٌ ما في انتظارِكَ أو بالأحرى نحن جميعاً نعرف لماذا، تذكّرْ ما قلتَه لزوجتك، إنه بسبب عملك قد تضطر لقضاء الليلة خارج البيت، فعليك أن تواجه العواقب الآن. عبَرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الشارعَ وهو يتأبط كتاب حضارات بلاد الرافدين، فتحَ باب العمارة، ولج المصعد ولاحظ أنه ليس وحده، **مساء** الخير، قال له الحسُّ السليم، كنتُ في انتظارك، **كان** أمراً محتوما أن تظهر، **ما** الذي دفعك لتأتي إلى هنا، **لا** تتظاهر بالسذاجة، أنت تعرف ذلك جيداً كما أعرفه، **جئتَ** لتنتقم، لتأخذ ثأرك وتنام مع زوجة عدوّك، لأن زوجتكَ معه في السرير، **تماماً**، **وماذا** بعد، **بعد**، لا شيء، لن يخطر على بال ماريّا دا بّاش أبداً أنها نامت مع الرجل الخاطئ، **وهؤلاء** هنا، **هؤلاء** لا بدّ أنهم سيعيشون أسوأ جزء من التراجيديا الكوميدية، **لماذا**، **إنْ** كنتَ أنت هو الحسّ السليم فينبغي لك أن تعرف ذلك، **أفقدُ** بعضاً من مؤهلاتي حين آخذ المصعد، **عندما** سيعود أنطونيو كلارو إلى بيته سيواجه صعوبة كبيرة في أن يشرح لزوجته كيف نجح في أنْ ينام معها وهو في الوقت ذاته يشتغل خارج المدينة، **لم** أتصوّر قطّ أنك قادر على خطة شيطانية كهذه، **إنها** خطة بشرية، يا عزيزي، بشرية فقط، فالشيطان لا يضع خططاً، ثم إنه لو كان بنو البشر طيبين لما وُجد الشيطان، **وغَداً**، **سأجد** ذريعة لأخرج مبكراً، **وهذا** الكتاب، **لست** أدري، ربما أتركه هنا تذكاراً. توقّفَ المصعدُ عند الطابق الخامس، فسأله تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **هل** تأتي معي، **أنا** الحسّ السليم، لا مكان لي هناك بالداخل، **إذن**، إلى اللقاء، **أشكُّ** في ذلك.

أَلْصَقَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أذنه على الباب. لم يكن يأتي أي صوت من الداخل. ينبغي له أن يتصرّف بشكل طبيعي، كما لو أنه صاحب البيت، لكن يبدو أن دقات قلبه، من فرط قوّتها، كانت ترجّ جسده بكامله. لن يملك الشجاعة ليتقدم. فجأة، بدأ المصعد ينزل، **من** يكون، فكّر فزعاً، ومن دون مزيد من التردّد أدخل المفتاح في قفل الباب ودخل. كانت الشقة غارقة في الظلام، لكن ضوءاً غامضاً، متدرجاً، ربما كان يأتي من النوافذ، بدأ، شيئاً فشيئاً، يرسمُ ملامِحَ ويُبرزُ أشكالاً. تحسّس تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الجدار قرب الباب حتى عثر على مفتاح كهربائي. لم يتحرك أي شيء في الشقة، **ليس** هناك من أحد، فكّرَ، يمكنني أن أفتش كل شيء، **نعم**، يمكنني أن أرى كل شيء، من الضروري أن أتعرف بسرعة على الشقة التي ستكون لهُ لمدّة ليلة كاملة، أو ربما له وحده فقط، حيث سيكون وحيداً فيها، لنتصوّر، مثلاً، أنّ هيلينا، التي لها أسرة في المدينة، تغتنم فرصة غياب الزوج، فتذهب لزيارتها، ولنتصوّر أنها لن تعود إلّا يوم الغد صباحاً، حينئذٍ فإن تلك الخطة التي وصفها الحسُّ السليم بالشيطانية ستفشل فشلاً ذريعاً مثل أي خدعة تافهة من الخدع الذهنية، مثل قلعة من ورق تُسقطها نفخةُ طفلٍ صغير. إنّ الحياة لها سخريتها، كما يُقال، بينما الحقيقة أنها أكثر انفراجاً من بين كل الأشياء المعروفة، لا بدّ أنه كان في يوم من الأيام أحدٌ ليقول لها، **امْضي** قُدُماً، لا تحيدي عن الطريق، ومنذئذ، خرقاء، عاجزة عن استخلاص نتائج من الدروس التي تتبجح بتلقينها لنا، لم تفعل سوى أنها تنفّذ بطريقة عمياء أوامر تلقّتْها، تسحَقُ كل شيء في طريقها، دون أن تتوقف لتقييم الخسائر، لتطلب منا العفو، ولو مرة واحدة على الأقل. جال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في كل أرجاء الشقة،

أشعل الأضواء وأطفأها، فتح وأغلق الأبواب، والدواليب، والجوارير، رأى ملابس رجلٍ، رأى ملابس امرأةٍ، حميمية ومقلقة، رأى مسدساً، لكنه لم يلمس أي شيء، فقط كان يريد أن يعرف أين زجّ بنفسه، أيّ علاقة هناك بين فضاءات الشقة وما يظهر من قاطنيها، تماماً كما تفعل الخرائط، التي تقول لك أين ينبغي أن تذهب لكنها لا تضمن لك الوصول. عندما اعتبر أن عملية التفتيش قد انتهت، عندما أصبح بوسعه أن يتجول في الشقة بعينيْن مغمضتيْن، ذهبَ ليجلس على الأريكة التي لا بدّ أنها أريكة أنطونيو كلارو وبدأ ينتظر. لتأتي هيلينا، هذا كل ما يريده، لتدخل عبر ذلك الباب هناك وتراني، وليشهد أحدهم أنني تجرأتُ وجئتُ إلى هنا، في الحقيقة هذا كل ما يريدُه، يريدُ شاهداً. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً حين وصلتْ. فزعةً وهي ترى الأضواء مشعلة، سألتْ وهي ما تزال عند الباب، **أهذا** أنتَ، **نعم** أنا، أجابَها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بحلقٍ جاف. في اللحظة التالية، دخلت إلى الصالة، **ماذا** حدث، كنتُ أنتظرك فقط غداً، تبادلا قبلتيْن سريعتيْن بين سؤال وجواب، **أُجّلَ** العملُ، وفورا اضطر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليجلس لأنّ رجليْه كانتا ترتعشان، ربما بسبب التوتّر، ربما بسبب أثر القُبلة. بالكاد سمع ما قالته له المرأة، ذهبتُ لأرى والديّ، **كيف** حالهما، استطاع أن يسألها، **بخير**، كان هو الجواب، ثم، **هل** تناولتَ العشاء، **أجل**، لا تشغلي بالك، **أنا** متعبة، سأذهب لأنام، أيُّ كتاب هذا، **اشتريتُه** بسبب فيلم تاريخي سألعب فيه دوراً، **إنه** كتاب مستعمل، مليء بالهوامش، **وجدتُه** عند بائع كتب مستعملة. خرجت هيلينا، وما هي إلا دقائق معدودة حتى خيّم الصمتُ من جديد. كان الوقت متأخراً عندما دخل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى الغرفة.

كانت هيلينا تغطّ في النوم، والمنامةُ التي من المفروض أن يرتديها هو فوق الوسادة. ساعتيْن بعد ذلك، كان الرّجل ما يزال مستيقظاً. كان قضيبُه جامداً. بعد ذلك، فتحت المرأة عينيها، **ألا** تنامُ سألتْهُ، **لا**، **لماذا**، **لستُ** أدري. وحينئذ التفتت نحوه وعانقتهُ.

كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو أوّل من استيقظَ. كان عارياً. كان غطاء السرير والملاءة قد انزلقا على الأرض، تاركيْن في العراء نهْداً من نهدَيْ هيلينا. كانت تبدو كأنها تغطّ في نوم عميق. ضوء الصباح، الذي بالكاد يتسرب عبر الستائر السميكة، كان يملأ الغرفة بعتمة لامعة. هناك في الخارج، لا بدّ أن الحرّ كان سائداً. شعَرَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بقضيبه يتوتَّرُ، ويتصلّبُ من جديد في رغبة لا تتحقق. حينئذ تذكّر ماريّا دا بّاش. تخيّلَ غرفة أخرى، سريراً آخر، جسدها المستلقي الذي يعرفهُ شبراً شبراً، جسد أنطونيو كلارو المستلقي، مثل جسده هو، وفجأة فكّر أنه بلغ نهاية الطريق، التي كانت أمامه تحدُّه، ولافتة على جدار كُتب عليها، **هاوية، ممنوع المرور**، ثم رأى أنه لا يستطيع العودة إلى الوراء، أن الطريق التي جاء منها قد اختفت، ولم يتبق منها غير فضاء محدود كان يضع فيه قدميه. كان يحلم، ولا يعرف ذلك. قلَقٌ، كان قد صار رُعباً، هو ما أيقظه بعنف في اللحظة التي كان الجدار ينكسر فيها بالضبط، وذراعاه، وقد رأينا ما هو أفظع من جدارٍ تنمو له ذراع، تجرّانه نحو الهاوية. كانت هيلينا تشدُّ على يده، تحاولُ أن تهدئه، **اهدأ**، كان كابوساً، وقد مضى، أنت الآن هنا. كان يلهثُ، يفُوقُ، كأن السقطة

أفرغته فجأة من رئتيْه. هدئ من روعك، هدئ من روعك، كانت هيلينا تُكرّر. كانت تتكئ على مرفقها، بنهديْها المكشوفيْن، غطاء السرير الرقيق يرسمُ نهاية خصرها، منحنى وركها، والكلمات التي تنطق بها تنزل على جسد الرجل المغموم كأنها مطرٌ خفيف، من ذلك النوع الذي يلامس الجلد كأنه يداعبه، مثل قُبلةِ ماءٍ. تدريجياً، مثل سحابة بخار ترتدُّ إلى مكانها الأصلي، أخذ الفكرُ الفزع لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يعود إلى ذهنه، وحين سألته هيلينا، **ماذا** كان ذلك الحلم الخبيث، احكِ لي، فإن هذا الرجل المضطرب، صانع المتاهات والتائه فيها، وهو الآن، هنا، مستلق إلى جانب امرأة لا معرفة له بها غير الجنس، يجهل عنها كل شيء، تحدّثَ عن طريقٍ لم تعد لها بداية، كما لو أن الخطوات الذاتية التي قُطعت قد التهمت موادها، مهما كانت، التي تعطي أو تمنحُ مدّةً للزمن وأبعاداً للفضاء، والجدار حين سدّ الممر أمام واحد سدّه أمام الآخر، والمكان حيث توضع القدمان، هاتان الجزيرتان الصغيرتان، هذا الأرخبيل البشري الدقيق، واحدة هنا، وأخرى هناك، وتلك اللافتة التي كُتب عليها **هاوية، ممنوع المرور**، remember، من يحذرك هو عدوّك، كما كان بوسع هامليت أن يقول لكلاوديوس، عمّه وزوج أُمّه. استمعتْ إليه مندهشةً، وحائرة إلى حدّ ما، فزوجُها لم يعوّدها على هذا النوع من التأملات وخصوصاً ليس بهذه النبرة، كأن كل كلمة يصاحبُها ضِعْفُها فيما يشبه صدى يتردّد داخل كهف مسكون حيث يستحيل تحديد من يتنفّسُ، من همهم للتو، ومن تنهّدَ. استمعتْ وهي تفكّرُ أن قدميها أيضاً كانتا جزيرتيْن صغيرتيْن وقربهما ترتاح قدمان أخريان ويمكن أن تشكل الأربع جميعها أرخبيلاً كاملاً، إنْ كان الكمال من هذا العالم وغطاء السرير هو المحيط حيث رغبت أن ترسو. **هل**

هدّأتَ من روعكَ، سألتْهُ، **لا** أظنُّ أنه يوجد شيء أحسن من هذا، قال، **غريبٌ**، أقبلتَ عليّ هذه الليلة كما لم تُقبل عليّ قطّ، شعرتُ أنك دخلت بلطفٍ ظننتُ بعد ذلك أنه كان مجبولاً بالرغبة والدموع، وكان فرحة أيضاً، أنينَ ألمٍ، طلبَ عفوٍ، **كلُّ** هذا كان كذلك، إنْ أحسست به، **مع** الأسف، هناك أشياء تحدث ولا تتكرّر، **وهناك** أشياء أخرى تحدث ثم تحدث مرة أخرى، **أتعتقدُ** ذلك، **هناك** من قال إن من قدّم وروداً مرة واحدة، لا يمكن أن يقدّم مرة أخرى إلا الورود، **يجبُ** التأكد من ذلك، **الآن**، نعم، بما أننا عاريان، **هذا** سبب وجيه، **سبب** كاف، ولو لم تكن أحسن الأسباب كلها. التقت الجُزر الأربع، تشكّلَ الأرخبيل من جديد، ارتطم البحر الهائج بالأجراف، وإن سُمعت صيحاتٌ هناك في الأعلى فقد كانت صيحات حوريات البحر التي تركب الأمواج، إنْ كانت هناك صيحات أنين، فلم يكن فيها أيُّ أنينِ ألَم، إنْ طلب أحدهم عفواً، فليحظ بالعفو، الآن وإلى الأبد. ارتاحا لوقت قصير الواحد في حضن الآخر، ثم، بعد قبلة أخيرة، انزلقت خارج السرير. لا تنهض، نَمْ قليلاً لمزيد من الوقت، سوف أذهب لأحضّر الفطور.

لم ينَمْ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. كان عليه أن يغادر فوراً هذا المنزل، لا يريد أن يجازف ويبقى حتى يعود أنطونيو كلارو قبل الموعد الذي أعلنه، قبل منتصف النهار كما قال لا بالضبط، لنتصور أن الأمور هناك في المنزل الريفي لم تجر كما كان ينتظر وعاد إلى هنا غاضباً، غاضباً على نفسه، مستعجلاً لا يستطيع إخفاء خيبته من هدوء البيت، وهو يحكي لزوجته كيف كان العمل، يبتكر كي يتجاوز مزاجه السيّئ أشياء متناقضة لا وجود لها، أحاديث لم تجر، واتفاقات لم تتم. المشكلة أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يمكن أن

يغادر هذا المكان هكذا، عليه أن يقدّم لهيلينا مبرراً لا يثير شكوكها، لنتذكّر أنها إلى غاية هذه اللحظة لم تجد سبباً لتفكر أن الرجل الذي نامت معه واستمتعت بمضاجعته لها ليس هو زوجها، ولذلك، أين سيجد الجرأة ليقول لها الآن، بعد أن أخفى عنها المعلومة إلى آخر لحظة، إن لديه أموراً مستعجلة يجب أن يباشرها في صبيحة صيفية كهذه، ذات سبت، بينما الانسجام التام الذي عاينّاه في هذين الزوجين يريد منطقياً أن يظلّا في السرير ليستأنفا الحديث المقطوع أو أن يحدث ما هو أحسن من هذا. لن تتأخر هيلينا لتظهر هنا مع الفطور، فمنذ مدة طويلة لم يتناولا هذه الوجبة هكذا، معاً، في حميمية سرير ما زال يفوح بروائح الحب، وقد يكون أمراً لا يغتفر أن يضيعا فرصة كهذه ربما تكون كل الاحتمالات، على الأقل تلك التي نعرفُها، تتواطأ علناً لتكون هي الأخيرة. يُفكّرُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، يُفكّرُ، ويُفكّرُ من جديد، وهو يُفكّرُ، ويُفكّرُ، وإلى هذا الحدّ استطاعت أن تصل في شخصه ما نُسمّيه الطّاقةُ المفارقة للروح البشرية، فتصير الحاجة إلى الرحيل أكثر فأكثر ضعفاً، وأقل إلحاحاً، وفي الوقت ذاته، بعد تجاوز طائش لكل الأخطار المتوقعة، هناك رغبة مجنونة بدأت تتشكل في ذهنه ليكون شاهدَ عيان على انتصاره النهائي على أنطونيو كلارو. بلحمه ودمه، وهو يتحمل كل العواقب. فليأتِ وليجده هنا، وليستشط غضباً ويستعمل العنف، مهما فعل، لا يستطيع التخفيف من هزيمته. إنه يعرف أن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هو من يملك السلاح الأخير، يكفي أن يسأله أستاذ التاريخ هذا، عليه اللعنة ألف مرة، من أين جاء في ساعة كهذه وأنْ تعرف هيلينا، أخيراً، الجانب القذر من المغامرة العجيبة لرجُلَيْن متطابقيْن تماماً فيما يحملانه من إشارات في ذراعيْهما، من ندب في الركبتيْن،

وحجم القضيبْن، وانطلاقاً من هذا اليوم، متطابقين في المضاجعة. ربما قد يتطلب الأمر أن تأتي سيارة إسعاف لتأخذ جسد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الذي تعرّض للضرب، لكن جرح عدوه، هذا الجرح لن يندمل أبداً. كان من الممكن لهذه الأفكار الانتقامية الدنيئة التي أنتجها ذهن الرجل الممدّد على السرير وهو ينتظر الفطور أن تقف عند هذا الحد، لكن هذا قد لا يأخذ بعين الاعتبار الطاقة المفارقة للروح البشرية التي ذكرناها سابقاً، أو إن أردنا أن نطلق عليها اسماً آخر، إمكانية بروز أحاسيس ذات نبل غير معهود، تصرُّف فروسي جدير بالثناء مثل بعض السوابق الشخصية الجديرة باللّوم. مهما بدا لنا ذلك أمراً يصعب تصديقه، فإن الرجل الذي ترك ماريّا دا بّاش في حضن أنطونيو كلارو هو نفس الرجل الذي يستعد ليتلقى أكبر ضربٍ في حياته، وفوق ذلك يظن أن من واجبه الأكيد ألّا يترك هيلينا في الوضع الهش الذي توجد فيه، رفقة زوج إلى جانبها وزوج آخر يقف عند عتبة الباب. إن الروح البشرية عبارة عن علبة يمكن أن يخرج منها دائماً مهرّج يحاول إضحاكنا ويُظهر لسانه، لكن هناك مناسبات أخرى حيث يكتفي هذا المهرج نفسه بالنظر إلينا من فوق حافة العلبة، فإنْ رأى، بالصدفة، أنّنا نتصرّف وفق ما هو عادل ونزيه، يومئ لنا موافقاً بإشارة من رأسه، ثم يختفي وهو يعتقد أننا لسنا حالةً ميؤوساً منها تماماً. بفضل القرار الذي اتّخذهُ للتو، محا تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من سجل سوابقه بعض الأخطاء البسيطة، لكن عليه أن يعاني كثيراً قبل أن يرى المداد الذي كُتبت به بقية أخطائه يتلاشى من ورق الذاكرة ذي اللون البني. يُقال عادة، **يجبُ** أن نعطي الوقت شيئاً من الوقت، لكن ما ننساه دائماً هو أن نسأل، هل ثمة من وقت يمكن أن نعطيه. دخلت هيلينا تحمل الفطور عندما كان تيرتوليانو

ماكسيمو أفونسو ينهض، **إذن**، ألا تريدُ أن تتناول الفطور في السرير، سألتهُ، فأجابها أنه لا يريد ذلك، بل يفضل أن يجلس مرتاحاً على كرسي بدل أن يظل بعيْنٍ على الصينية التي تتزحلق، وعيْنٍ على الفنجان الذي ينزلق، منتبهاً إلى الزبدة اللزجة التي تقطر، فتات الخبز الذي يتسرّب بين ثنايا الملاءات ثم ينغرس في أكثر الأماكن حساسية في الجلد. قام تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بهذا الخطاب لأنه كان خفيف الروح وحسن المزاج، لكن هدفه الوحيد كان هو التغطية على انشغال جديد يؤرقه، وهو إن جاء أنطونيو كلارو إلى هنا وفاجأنا في سرير الزوجية ونحن نعض في شبقٍ ما لذّ وطاب من كعك وخبز محمص، لو جاء أنطونيو كلارو، فينبغي على الأقل أن يجد سريراً مرتباً وغرفة مهواة، لو جاء أنطونيو كلارو، فينبغي على الأقل أن يرانا نظيفيْن، بشعر ممشوط وملابس مناسبة، لأن المظاهر مثل الرذيلة، نحن منغمسون فيها ولا نرى طريقة لتفادي القيام بذلك، إلا إذا بُجّلت الفضيلة من حين لآخر، ولو شكلياً، على أيٍّ، إذ من المشكوك فيه أنْ يكون طلبُ ما هو أكثر من ذلك أمراً يستحق.

كان الصباح متقدماً، والساعة تجاوزت العاشرة. ذهبت هيلينا لتشتري بعض الحاجيات وهي تقول، **إلى** اللقاء، وترسل قبلة تبقت من حرارة ودفء غرام الساعات الأخيرة التي جمعت وألهبت بشكل غير مشروع هذا الرجل وتلك المرأة. الآن، جالساً على الأريكة، ومعه كتاب حضارات ما بين الرافدين مفتوحاً فوق الركبتين، كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ينتظرُ وصول أنطونيو كلارو، وبما أنه شخص من عادته أن يطلق العنان لخياله، تخيّلَ أن أنطونيو كلارو هذا وزوجته ربما يكونان قد التقيا في الشارع وصعدا معاً ليوضحا هذا الوضع المعقد نهائياً، هيلينا تحتج، **أنت** لست زوْجي، زوْجي

في البيت، هو الذي يجلس هناك، أنت أستاذ مادة التاريخ الذي نغّص علينا حياتنا، وأنطونيو كلارو يُقسم، **أنا** هو زوجُك، أما هو فأستاذ مادة التاريخ، انتبهي إلى الكتاب الذي يقرأه، هذا الرجل هو أكبر محتال، وهي، بصوت حاد وساخر، **نعم**، نعم، لكن أولاً اشرح لي، من فضلك، لماذا يوجد خاتم الزواج في إصبعه وليس في إصبعك. دخلت هيلينا وحدها تحمل المشتريات وقد أشارت الساعة إلى الحادية عشرة صباحاً. وقريباً جداً سوف تسأل، **هل** ثمة ما يشغل بالَكَ، فيجيبها، **لا**، من أين خطرت لكِ هذه الفكرة، فتقول، **في** هذه الحالة، لا أفهم لماذا لا تكف عن النظر إلى ساعتك، فيجيبها أنه لا يفهم لماذا، إنها حركة عصبية، ربما يكون متوتراً بعض الشيء، تصوّري أن يمنحوني دور الملك حمورابي، سيعرف مساري في التمثيل تغيراً جذرياً. كانت الساعة قد أشارت إلى الحادية عشرة والنصف قبل قليل، بعد ربع ساعة سيكون منتصف النهار وأنطونيو كلارو لم يأت بعد. قلْبُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كأنه فرس جامح يرسل ركلات في كل الاتجاهات، الهلع يقبض حنجرته ويصيح في وجهه إن الوقت ما يزال أمامه، **اغْتنمْ** فرصة وجودها هنا في الداخل واهرُب، ما تزال أمامك عشر دقائق، لكن حذار، لا تستعمل المصعد، انزل عبر السلالم ثم انظر إلى هذا الجانب وإلى ذلك قبل أن تضع قدمك في الشارع. إنه منتصف النهار، أطلقت ساعة الصالة دقاتها ببطء كما لو أنها تريد أن تمنح أنطونيو كلارو فرصة أخرى ليظهر، ويفي، ولو في آخر ثانية، بما وعد به، لكن، لن يفيد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في شيء أن يخدع نفسه، **إنْ** لم يأت إلى حدّ الآن، فلن يأتي أبداً. يمكن لأي شخص أن يتأخر، عطب في السيارة، ثقب في الإطار، إنها أشياء تقع كل يوم، ولا أحد بمنأى

عنها. انطلاقاً من الآن، ستكون كل دقيقة بمثابة احتضار، بعد ذلك سيأتي الارتباك، الحيرة، وحتماً التفكير، **لنفترض** أنه تأخر، نعم يا سيدي إنه قد تأخر، فلِمَ تصلح خطوط الهاتف، لماذا لا يتصل ليقول إنّ الترس التفاضلي قد تكسر، أو علبة التروس، أو سِير المروحة، كل ما يمكن أن يحدث لسيارة عتيقة متعبة كسيارته. مرت ساعة أخرى، ولم يظهر ولا ظلٌّ أنطونيو كلارو، وحين جاءت هيلينا لتعلن أن الغداء جاهز على المائدة، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إنه لا يشعر بالجوع، أن تأكل وحدها، بل أضاف إن عليه أن يخرج حتماً. أرادت أن تعرف لماذا وكان بوسعه أن يردّ عليها إنهما ليسا متزوجين، وعليه فليس من واجبه أن يخبرها بما يفعل وبما لا يفعل، لكن ساعة بسْط كل الأوراق على الطاولة وممارسة اللعب النظيف لم تحن بعد، فاكتفى بأن قال لها إنه سيحكي لها كل شيء لاحقاً، وعدٌ يظل دائماً على طرف لسان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ويفي به، حين يفي به، متأخراً وبشكل سيّئ، وأمه تشهد على ذلك، كما تشهد على ذلك ماريّا دا بّاش، التي لا أخبار عنها كذلك. سألته هيلينا إنْ لم يكن يرى أنه من المناسب أن يغير ملابسه، فوافق على ذلك، لأن ما كان يرتديه لم يكن، بالفعل، مناسباً لما سيقوم به، وقد يكون من الأحسن أن يرتدي بدلة عادية، معطفاً وسروالاً، أنا لستُ سائحاً ولستُ ذاهباً في جولة اصطياف إلى الريف. بعد خمس عشرة دقيقة، خرج، رافقته هيلينا حتى مدخل المصعد، وفي عينيها وميض ينذر بالبكاء، وما كاد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو يصل إلى الشارع حتى انهارت باكية، تردد السؤال الذي ظل من دون جواب إلى حد الآن، **ما** الذي يجري، ما الذي يجري.

دلف تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى السيارة، وكان أول ما فكّر

فيه أن يبتعد عن هذا المكان، يذهب ليركن السيارة في مكان هادئ ويفكّر بجدّ في الوضعية، يعيد شيئاً من النظام لتلك الفوضى التي تضطرب في ذهنه منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة، ليقرر، في النهاية، ما سيقوم به. أقْلع السيارة، وكان يكفيه أن يعرج عند منعطف الشارع ليدرك أنه لم يكن بحاجة ليفكر، وما عليه إلا أن يتصل بماريّا دا بّاش، لا أصدّق أن هذا لم يخطر لي من قبل، لا شكَّ لأنني أغلقتُ على نفسي في تلك الشقة ومن هناك لم أستطع أن أجري المكالمة. بعد بضع مئات من الأمتار وجد كشك هاتف. أوقف السيارة، دخل إلى الكشك بقفزة واحدة ثم ركّب الرقم بسرعة. كانت هناك حرارة خانقة داخل الكشك. سأله صوت المرأة في الجهة الأخرى من الخط، **منْ** معي، لم يكن صوتاً مألوفاً لديه، **أودُّ** أن أتكلم مع ماريّا دا بّاش، قال، **نعم**، لكن، منْ معي، **أنا** زميل لها، من البنك حيث تشتغل، **ماتت** الآنسة ماريّا دا بّاش هذا الصباح في حادثة سير، كانت رفقة خطيبها وماتا معاً، إنها مأساة، وفاجعة عظيمة. في لحظة واحدة، صار جسدُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، من رأسه إلى أخمص قدميه، يتصبّبُ عرقاً. همهم بكلمات لم تتمكن المرأة من فهمها، **ماذا** تقول، ماذا قال، بضع كلمات لم يعد يذكُرُها ولن يذكُرَها، نسيها إلى الأبد، ودون أن يعي ما يفعله، مثل إنسان آلي قُطعَ عنه التيار فجأة، ترك السماعة تسقط من يده. جامداً داخل كشك الهاتف، سمع كلمة، كلمة واحدة، ظلت تتردّد في مسامعه، **ماتت**، لكن كلمات أخرى جاءت لتحل مكانها، **أنتَ منْ قتلتَها**. ليس أنطونيو كلارو من قتلها بسياقته المتهورة، إن افترضنا أن ذلك هو سبب الحادثة، بل هو من قتلَها، تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، قتلَها ضعفُه الأخلاقي، قتلتْها إرادةٌ جعلته أعمى لا

يرى كلَّ ما ليس انتقاماً، وقد قيل إن واحداً منهما، إمّا الممثل أو أستاذ مادة التاريخ، يزيدُ في هذا العالم، لكن أنتِ، أنتِ لم تكوني زائدة في هذا العالم، فليس منكِ ضِعْفٌ يمكن أن يُعوضكِ إلى جانب أُمّكِ، أنتِ كنتِ فريدة حقاً، كما أن كلّ شخص عادي فريد، فريد حقاً. يقال إن من يكره نفسه هو من يستطيع أن يكره الآخر، لكن أفظع شكل من كل أشكال الكراهية لا بد أنه هو ذلك الذي ينادي بعدم تحمّل تطابق الآخر، وخاصة إن كان هذا التطابق مطلقاً. خرج تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من الكشك مترنّحاً يمشي مثل سكّير، دخلَ إلى السيارة بعنف، كأنه يلقي بنفسه بداخلها، وهناك ظلَّ، كان ينظرُ أمامه دون أن يرى شيئاً، حتى لم يعد يتحمل أكثر من ذلك فرجّت الدموعُ والنحيب صدرَهُ. إنه في هذه اللحظة يحبُّ ماريّا دا بّاش كما لم يحبّها قط من قبل وكما لن يحبّها أبداً في المستقبل. الألم الذي يحس به يأتي من أنه فقد ماريّا دا بّاش، لكن الوعي بذنبه يجثم ثقيلاً على جرحٍ لن يتوقف أبداً عن إفراز القيح والغائط. نظرَ إليه عدة أشخاص بذلك الفضول المجاني والعاجز الذي لا يفيد العالم في شيء ولا يضره، لكن واحداً منهم اقترب منه وسأله إن كان يستطيع أن يساعده في أي شيء كان فأجابَهُ **لا**، شكراً جزيلاً، فزاد هذا الشعور بالامتنان من نحيبه، كما لو أن أحدهم وضع يداً على كتفه وقال له، **صبراً جميلاً**، سينتهي حزنك مع مرور الوقت، صحيحٌ، كل شيء ينتهي مع مرور الوقت، لكن هناك حالات يتأخر فيه الوقت في منح الألم وقتاً ليتعب ويمل، وقد كانت هناك حالات وستكون دائماً هناك حالات، نادرة لحسن الحظ، لا الألمُ تعبَ فيها ولا الوقتُ مرّ. ظلّ على تلك الحال حتى لم تعد لديه دموع للبكاء، حتى قرّر الزمن أن يتحرك من جديد ويسألهُ، **والآن**، إلى أين تُفكّر أن

تذهب، وها هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الذي تحوّل، وفق كل الاحتمالات، إلى أنطونيو كلارو لِما تبقّى من حياته، يدركُ أنْ ليس لديه مكان يلجأ إليه. أولاً، تلك الشقة التي كان فيما مضى يعتبرها شقته كانت في ملك تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أصبح اليوم في عداد الموتى، ثانياً، لا يمكنه أن يذهب إلى بيت أنطونيو كلارو ويقول لهيلينا إن زوجها قد توفّي، لأنه هو أنطونيو كلارو بالنسبة لها، وأخيراً، بالنسبة لمنزل ماريّا دا بّاش، الذي لم يدعُه أحد لزيارته قط، لا يمكنه أن يذهب إليه إلا ليُقدّم تعازي لا فائدة منها لأُمٍّ فقدت ابنتها. قد يكون من الطبيعي أن يفكّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في هذه اللحظة بالضبط في أمٍّ أخرى، إنْ كانت قد تبلّغت الخبر الحزين، ولا بدّ أنها بدورها تبكي بدموع يُتْمٍ أمومي لا عزاء لها، لكن مع وعي راسخ بأنه بينه وبين نفسه سيكون دائماً هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، وعليه فإنه حي بوصفه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ويجب عليه أن يكبح مؤقتاً ما كان ينبغي أن يكون هو اندفاعه الأول في ظروف مختلفة. في الوقت الراهن، سينبغي له أن يجد جواباً للسؤال الذي ظلّ معلقاً، **والآن**، إلى أين تنوي الذهاب، وهي، في الحقيقة، صعوبة من أسهل ما يمكن تجاوزه في مدينة لا تحتاج لتكون هي الحاضرة الكبرى الشاسعة كما هي، بفنادقها ونُزلها لكل الأذواق وبكل الأثمان. هناك ينبغي أن يذهب، ليس فقط لبضع ساعات يحتمي فيها من الحرّ ويبكي على هواه. فشيءٌ أن ينام مع هيلينا، حين كان فعل ذلك مجرد رد في إطار لعبة، إنْ ضاجعتَ زوجتي فسأضاجع زوجتكَ، كما ينص على ذلك قانون القصاص، بكل ما توحي به الكلمة من جزاء وعقاب، لأنه إن كانت الجرائم المرتكبة متطابقة، فالتطابق هو ما يجمع من ارتكبوها.

فشيءٌ، واسمحوا لنا بالعودة إلى بداية الجملة، أنْ يقضي ليلة مع هيلينا حين لم يكن أحد يتكهن بأنّ الموت يستعدُّ للدخول في اللعبة ويصل إلى مات الشاه، وشيءٌ آخر مختلف أن يكون على علم بموت أنطونيو كلارو، ومهما قالت الجرائد إن المرحوم يسمّى تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ويذهب مع ذلك لينام ليلة أخرى معها، ليضيف إلى الخداع الأول خداعاً ثانياً، أكثر فظاعة. ونحن البشر، رغم أننا ما نزال حيوانات بدرجات مختلفة كما كنا سابقاً، لدينا بعض الأحاسيس الجميلة، بل وأحياناً بقايا أو بداية شيء من الاحترام لأنفسنا، وتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، الذي تصرف غالباً بطريقة تبرر ما وجّهناه له من تقريع لاذع لن يتجرأ على تجاوز الحدّ الذي قد يحكم عليه إلى الأبد. سيذهب، إذن، ليبحث عن فندق، وسنرى غداً. شغّل السيارة وقادها نحو وسط المدينة، حيث ستكون له عدة إمكانيات للاختيار، وهو في نهاية الأمر يكفيه فندق متواضع من نجمتيْن، لليلة واحدة، **ومن** أدراني أنها ستكون ليلة واحدة، فكّرَ، أين أذهب لأنام غداً، وبعد ذلك، وبعد ذلك، وبعد ذلك. ولأول مرة، بدا له المستقبل مكاناً ستكون فيه حاجة إلى أساتذة التاريخ، لكنه ليس هذا المكان، حيث الممثل دانييل سانتا كلارا لا يمكنه إلا أن يتخلى عن مساره الفني الذي كان يعد بالشيء الكثير، حيث يجب اكتشاف أي نقطة توازن بين ما كان عليه المرء وما يستمر في كونه، ومما لا شك فيه أنه من المريح أن يقول لنا ضميرنا، **أعرفُ** من تكونُ، لكن سيبدأ هو نفسه بالشك فينا وفيما يقول إنْ هو اكتشف أن الناس من حوله ينقلون بعضهم إلى بعض ذلك السؤال المزعج، **وهذا**، من يكون. وكان أول من أُتيحت له الفرصة ليعرب عن هذا الفضول العمومي هو مستخدمُ مكتب الاستقبال في الفندق عندما

طلب من تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يقدّم بطاقة هويته، وحمداً للرّب أنه لم يسأله أولاً عن اسمه، لأنه كان من الممكن أن يفلت من لسان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، بحكم قوة العادة، ذلك الاسم الذي ظلّ يحمله خلال ثمانية وثلاثين سنة وقد صار الآن اسماً لجسد محطم ينتظر داخل غرفة تبريد مبتذلة عملية التشريح التي لا يفلت منها المتوفون في حوادث السير بحكم القانون. كانت بطاقة الهوية التي قدّمها تحمل اسم أنطونيو كلارو، الوجه في الصورة هو نفسه الذي يقف أمام مستخدم الاستقبال، وقد يأخذ في تفحّصه بعناية لو كان هناك من سبب للقيام بذلك. كلا، لم يكن هناك من سبب، فقد وقّعَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بطاقة المعلومات، وتكفي في هذه الحالة خربشة بسيطة تشبه توقيعاً رسمياً، صار مفتاح الغرفة في يده، قال أنْ ليس معه متاع، وحتى يعزز احتمالاً لم يطالبْهُ به أحد، قال إنه قد فاته موعد الطائرة وترك الحقائب في المطار، ولذلك لن يبقى سوى ليلة واحدة. لقد غيّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو اسمه لكنه ظل هو نفس الشخص الذي رافقناهُ إلى محلّ أشرطة الفيديو، الذي يقول دائماً أكثر مما هو ضروري، الذي لا يعرف كيف يكون طبيعياً، لحسن الحظ أن مستخدم الاستقبال له أمور أخرى يفكر فيها، هاتفٌ يرنُّ، بعض الأجانب الذي وصلوا مثقلين بالأمتعة وحقائب السفر. صعد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى غرفته، ارتاح، ذهب إلى الحمام ليريح مثانته، وعدا أنه فاته موعد الطائرة، كما قال لمستخدم الاستقبال، يبدو أنه لم تكن لديه انشغالات أخرى، لكن ذلك كان قبل أن يتمدّد على السرير بنية أن يستريح بعض الشيء، إذ فور ذلك وضع الخيالُ أمام عينيه سيارةً تحولت إلى ركام من الخردة، وبداخلها جسدان محطّمان يقطران دماً في منظر يثير الشفقة. عادت

الدموع، وعاد النحيب، ولا يعرف أحدٌ كم كان سيستمر ذلك لولا أنه هكذا، فجأة، برزت الذكرى الصادمة لأُمّه في ذهنه المشتت. جلس بقفزة واحدة، أمسك الهاتف، وهو يلعن نفسه في ذهنه، أنا مغفّل، بليد، غبي تماماً، معتوه، لست غير سخيف، كيف أنني لم أفكر أن الشرطة ستذهب لتطرق باب بيتي، أنها ستسأل الجيران إنْ كانت لي أسرة، أنّ الجارة في الطابق العلوي قد تعطيهم عنواني ورقم هاتف أُمّي، كيف نسيت شيئاً ظاهراً للعيان، كيف كان ممكناً. لم يجبه أحد. ظلَّ الهاتف يرنُّ، ويرنُّ، لكنه لم يأت أحد ليسأل، **منْ** معي، حتى يتسنى لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يجيب، **أنا**، إنني حيٌّ، لقد أخطأت الشرطة، سأشرحُ لكِ كل شيء لاحقاً. لم تكن أُمّه في البيت، وهذا الأمر، الغريب في ظروف مغايرة، لا يمكن أن يعني سوى شيء واحد، هو أنها كانت في الطريق، استأجرت سيارة أجرة وهي في الطريق، ربما تكون قد وصلت وفي هذه الحالة ربما تكون ذهبت لتطلب المفتاح من جارة الطابق العلوي وهي الآن تبكي حزناً، مسكينة أمي، التي كانت قد حذّرتني مع ذلك. ركَّبَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو رقمَ هاتفها، ومرة أخرى لم يجبه أحد. حاول جاهداً أن يفكر بهدوء، حتى يزيل ما يشوش على ذهنه، ورغم أن الشرطة أبانت عن سرعة مثالية فقد كانت بحاجة إلى وقت لتجري التحقيق وتتوصّل إلى نتائج، ينبغي التذكير بأن هذه المدينة عُشّ نمْلٍ ضخم يضمّ خمسة ملايين نسمة لا يتوقفون عن الحركة، أنّ الحوادث كثيرة وضحاياه أكثر من ذلك، ولا بدّ من تحديد هويتهم، وبعد ذلك البحث عن أسرهم، مهمة ليست دائماً سهلة لأن هناك أشخاصاً غير مسؤولين يأخذون الطريق دون أن يحملوا معهم ولو وثيقة واحدة على الأقل تقول، **إنْ** حدث لي مكروه

فاتصلوا بفلان أو بفلانة. لحسن الحظ، لم يكن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من ذلك النوع من الأشخاص، ولم تكن كذلك ماريّا دا بّاش على ما يبدو، إذن في مذكرة كل منهما، في الصفحة الخاصة بالمعطيات الشخصية، كان هناك كل ما هو ضروري لتحديد الهوية بشكل كامل، على الأقل فيما يتعلق بالأمور الأولية، التي غالباً ما تكون هي الأخيرة في نهاية المطاف. لا أحد، باستثناء شخص خارج القانون، يمكن أن يتجول بوثائق مزيفة أو وثائق سرقها من أحد آخر، ومن هنا من المشروع أن نستنتج من هذه الحالة التي تهمُّنا، أن ما بدا حقيقياً للشرطة كان كذلك فعلاً، خصوصاً أنه بما أنه لم يكن هناك من سبب للتشكيك في هوية أي واحدة من الضحيّتيْن، لا ترى لماذا سيكون هناك شك بخصوص الآخرين، بحق السماء. اتصل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو مرة أخرى، ومرة أخرى لم يحصل على أي جواب. لم يعد يفكر في ماريّا دا بّاش، فما يريد أن يعرفه الآن هو أين هي كارولينا ماكسيمو، فسيارات أجرة هذه الأيام آلات فائقة القوة، لم تعد هي سيارات خردة كما في الماضي، وفي وضع درامي كهذا لن تكون بحاجة لتنْخس السائق وتعده بمكافأة كي يضغط على الدواسة، وفي أقل من أربع ساعات قد تكون هنا، وبما أن اليوم سبت وعطلة، وحركة السير في أدنى مستوياتها في الشوارع، فلا بدّ أن تكون قد وصلت إلى بيت ابنها لتخفف من قلقه. اتصلَ مرة أخرى، وهذه المرة، من دون أن ينتظر ذلك، بدأ المجيب الآلي يشتغل، **معك** تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، اترُكْ رسالتك من فضلك، كانت الصدمة قوية جداً، فاضطرب كثيراً حتى أنه لم ينتبه إلى أن المجيب الآلي قد بدأ يشتغل قبل ذلك، والآن كأنه سمع صوتاً ليس بصوته، صوت ميت مجهول لا بدّ من تعويضه غداً بصوت أيّ حيّ

كان حتى لا يصدم ذوي الحساسيات المرهفة، عملية محو وإعادة تسجيل تتم كل يوم لآلاف وآلاف المرات في كل بقاع العالم، حتى لو لم نرغب في أن نفكر فيها. احتاج تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى بضع ثوان كي يهدئ من روعه ويستعيد صوته، وبعد ذلك، قال مرتعشاً، **أُمّي**، ليس صحيحاً ما أخبروكِ به، أنا حيّ أرزق، سأشرح لك لاحقاً ما حدث، أكرّرُ، أنا حيّ أرزق، سأعطيكِ اسم الفندق الذي أنزل فيه، رقم الغرفة ورقم الهاتف، اتصلي بي حالما تصلين، لا تبكي مرة أخرى، لا تبكي مرة أخرى، ربما يكون تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد قال هذه الكلمات للمرة الثالثة، لولا أنه أجهش بالبكاء هو نفسه، وهو يفكّر في أمه، في ماريّا دا بّاش، التي عاودته ذكراها مرة أخرى، إشفاقاً على حاله. منهكاً، سقط على السرير، وهو يشعر أنه واهن، ضعيف مثل طفل مريض، فتذكّر أنه لم يتناول الفطور، هذه الفكرة، بدل أن توقظ شهيته، أثارت فيه غثياناً قوياً فاضطر لينهض ويسرع كما استطاع ليذهب إلى الحمام حيث عمليات استفراغ متتالية لم تنجح في أن تخرج من معدته غير زبَدٍ مرير. عاد إلى غرفته، جلس على السرير ورأسه بين يديه تاركاً أفكاره تسبح في مرْكبٍ من فلّينٍ ينزلُ عبر التيار من حين لآخر، وحين يصطدم بصخرة يغيّر مجراه لحظة. وبفضل هذا الهذيان نصف الواعي تذكّر شيئاً مُهمّاً كان عليه أن يقوله لأمه. اتّصلَ ببيته معتقداً أن الآلة ستواجهه مرة أخرى بوقاحة عدم الاشتغال، لكنه أطلق تنهيدة ارتياح بعد أن أرسل الجهازُ إشارة على أنه ما يزال حياً، بعد بضع ثوان من التردد. كانت رسالته مقتضبة، واكتفى بالقول، **أحيطكِ** علماً أن اسمي هو أنطونيو كلارو، لا تنسيْ هذا، وبعد ذلك، كأنه اكتشف عنصراً ذا أهمية قصوى في التحديد النهائي للهويات المُتقلّبة والقابلة للتبادل، أضافَ

المعلومة التالية، الكلبُ اسمُه توماركتوس. عندما ستصل أمه، لن يحتاج ليستظهر عليها اسم والده وأسماء أجداده، ثم أسماء أعمامه وأخواله، لن يحتاج ليتحدث عن ساعده الذي تكسر يوم سقط من أعلى شجرة التين، ولا عن حبيبته الأولى، ولا عن الصاعقة التي ضربت مدخنة البيت عندما كان في سن العاشرة. حتى تكون كارولينا أفونسو على يقين مطلق بأنها أمام ابنها الذي وضعته من أحشائها لن تكون بحاجة إلى غريزتها الأمومية الرائعة ولا إلى أدلة الحمض النووي الدامغة، يكفيها اسمُ كلبٍ بسيط.

مضت أكثر من نصف ساعة قبل أن يرنَّ الهاتف. فزعاً، نهضَ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو على عجل، آملاً أن يسمع صوت أمه، لكنه وجد صوت مستخدم الاستقبال يقول، **معي** هنا السيدة كارولينا كلارو، تريد أن تتحدث معك، **إنها** أمّي، همهم، أنزلُ، أنزلُ حالاً. خرج مهرولاً، **يجب** أن أتمالكَ نفسي، لا ينبغي أن أبالغ في إشارات الحنان، فقلَّما لاحظَنا الآخرون يكونُ أحسن. ساعده بطء المصعد في ضبط طوفان مشاعره، وكان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو آخر، أكثر أناقة هو من ظهَرَ في بهو الفندق وعانقَ تلك السيدة المسنة، التي، إما بفعل احتراز غريزي، وإما بفعل ما قامت به من تأملات داخل سيارة الأجرة التي أقلَّتها إلى هنا، ردّت باعتدال على الإشارات العاطفية الصادرة عن الابن، من دون تلك البهرجة الانفعالية التي يُعبّرُ عنها بجمل من قبيل **آه** يا ابني العزيز، ولو أنه في هذه المأساة الحالية، قد تكون عبارة **آه** يا بني المسكين هي المناسبة أكثر للظروف. العناق، والبكاء المتشنج كان عليهما أن ينتظرا حتى تصل الأم وابنُها إلى الغرفة، حتى ينفتح الباب وينبعث الابن ويستطيع أن يقول، **أمّاهُ**، فلا تجد هي من الكلمات سوى تلك التي تستطيع أن تخرج من

قلبها الممتن، **أهذا** أنتَ، أهذا أنتَ. بيد أن هذه المرأة ليست من ذلك النوع الذي يقنع بالقليل، من تلك النساء اللواتي تكفي لمسة حنان لتُنسيهن إهانة، لم تكن حتى ضدها في هذه الحالة، ولا ضد الحكمة، والاحترام، وهناك أيضاً الحسُّ السليم، حتى لا يُقال إننا قد نسينا ذلك الذي بذل قصارى جهده حتى لا تنتهي حكاية الرجليْن المُكرّريْن بمأساة. لن تستعمل كارولينا ماكسيمو هذه العبارة، بل ستكتفي بقول، **هناك** شخصان ميتان، احكِ لي الآن منذ البداية كيف كان ممكناً أن يحدث كل هذا، ولا تُخْفِ عنيّ شيئاً، من فضلك، فقد انتهى زمن أنصاف الحقائق، وولّى وقت الأكاذيب أيضاً. سحب تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو كرسياً لتجلس عليه أمه، جلس على حافة السرير وبدأ روايته. منذ البداية، كما طالبت بذلك أُمّه. لم تقاطعهُ، ولم تتغير ملامح وجهها سوى مرتين، في المرّة الأولى حين أعلن أنطونيو كلارو أنه سيأخذ ماريّا دا بّاش إلى المنزل الريفي ليضاجعها، وفي المرة الثانية حين شرح لها الابن كيف ولماذا ذهب إلى بيت هيلينا وما حدث بعد ذلك. حرّكت شفتيْها لتقول، **يا لكم من مجانين**، لكن الكلمات لم تُسمع. كان المساء قد حلّ، وراحت العتمة تغلف ملامح هذا وتلكَ. حين سكت تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، طرحت الأم السؤال المحتوم، **والآن، الآن**، يا أُمّي، مات تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الذي كنتُه، أما الآخر، إنْ هو أراد أن يستمر كجزء من هذه الحياة، فليس أمامه من خيار سوى أن يكون أنطونيو كلارو، **ولماذا** لا يقول الحقيقة، لماذا لا يقول كل ما وقع، لماذا لا يضع كل الأمور في نصابها، **ها** قد سمعتِ ما وقع، **نعم**، وماذا بعد، **أُمّي**، إنني أطرح عليك السؤال التالي، هل تعتقدين حقاً أن هؤلاء الأشخاص الأربعة، الحيَّيْن والميّتيْن، يجب أن يلقوا في

الساحة العمومية كي يكونوا طعاماً سائغاً لفضول العالم المتوحش، ما الذي قد نجنيه من ذلك، فلا الميّتان سيعودان إلى الحياة ولا الحيّان سيشرعان في الموت في ذلك اليوم، **ما** العمل، إذن، **يا** أمي سوف تحضرين جنازة تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو المزيّف وتبكينه كما لو كان هو ابنك، ستحضرُ هيلينا أيضاً، لكن لا أحد سيستطيع أن يعرف لماذا، **وأنتَ**، **لقد** قلتُ لكِ، أنا أنطونيو كلارو، حين سنشعلُ الأضواء سترين وجهَهُ، وليس وجهي، **هل** أنتَ ابني، **أجل**، أنا ابنُكِ، لكني لا يمكن أن أكون ابنك، مثلاً، في المدينة التي ولدتُ فيها، لأنني ميت بالنسبة للأشخاص الذين يقطنونها، وحين نريد أن نلتقي، لا بدّ أن يكون ذلك في مكان لا يعلم فيه أحد بوجود أستاذٍ لمادة التاريخ اسمه تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **وهيلينا**، **غداً** سأذهبُ لأطلب منها أن تسامحني وأعيد لها خاتم الزواج هذا وهذه الساعة اليدوية، **وللوصول** إلى هذا كان لا بدّ من موت شخصيْن، **أنا** من قتلتُهما، وواحد منهما ضحية بريئة، لم يرتكب أي ذنب. نهض تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وذهب ليشعل الضوء. كانت أُمّه تبكي. ظلّا صامتيْن لبضع لحظات، يتفادى كل واحد منهما النظر إلى الآخر. بعد ذلك، همهمت الأُمّ وهي تمرّر منديلاً مبلّلا على جفنيْها، **كانت** العجوز كاساندرا على حق، ما كان عليك أن تترك الحصان الخشبي ليدخل، **الآن** لم يعد هناك من حلّ، **نعم**، لم يعد هناك من حلّ الآن، ولن يكون هناك من حل في المستقبل، سوف نكون جميعاً أمواتاً. بعد صمت قصير، سألها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **هل** حدّثكِ رجالُ الشرطة عن ملابسات الحادثة، **قالوا** إن السيارة انحرفت عن مسارها واصطدمت بشاحنة نقل دولية كانت تسير في الاتجاه المعاكس، كما أخبروني أن موتهما ربما كان في الحين،

غريبٌ، ما الغريبُ، **كنتُ** أعتقد أنه سائق جيد، **ربما** حدث شيء ما، ربما تكون قد انزلقت به السيارة، بسبب ما في الطريق من زيوت، **لم** يحدثوني عن أي شيء من هذا، فقط أن السيارة انحرفت عن مسارها واصطدمت بالشاحنة. عاد تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليجلس من جديد على حافة السرير، نظر إلى ساعته اليدوية وقال، **سأذهبُ** إلى مكتب الاستقبال وأطلب منهم أن يحجزوا لكِ غرفةً، نتناول العشاء معاً وتقضين هذه الليلة في الفندق، **أُفضّلُ** أن أعود إلى بيتي، بعد العشاء تطلُب لي سيارة أجرة، **سآخذكِ** أنا، لن يرانا أحد، **وكيف** ستأخذُني أنت إنْ لم تعد لديك سيارة، **لديّ** سيارتُه. حرّكت الأُمُّ رأسها في حزن وقالت، **سيارتُه**، زوجتُه، لم يبق لكَ سوى أن تعيش حياتَه أيضاً، **يجبُ** أن أكتشف حياة أحسن لي، والآن، من فضلكِ، هيا بنا لنأكل شيئاً من الطعام، وليذهب البؤس إلى الجحيم. مدَّ إليها يديه ليساعدها كي تنهض، بعد ذلك عانقها وقال، **لا** تنسي أن تمْحي المكالمات التي تركتها مسجلة في المجيب الآلي، فلا يمكن أن نكون محترزين بما يكفي في مثل هذه الحالات. عندما انتهيا من تناول وجبة العشاء، سألته الأُمّ من جديد، **اطلُب** لي سيارة أجرة، **سوف** آخذكِ، **لا** يمكن أن تجازف فيراك الناسُ، ثم إن فكرة الجلوس فقط في تلك السيارة تصيبُني بالقشعريرة، **سأرافقكِ** في سيارة الأجرة وأعود، **أنا** كبيرة بما يكفي كي أذهب وحدي، لا تلحّ على الأمر. وهو يودّعها، قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **حاولي** أن ترتاحي، يا أُمّي، أنت بحاجةإلى الراحة، **بكل** تأكيد، لن يغمض لنا جفن نحن الاثنين، لا أنتَ ولا أنا، أجابتْهُ.

كانت محقّة. على الأقل، لم يستطع أن يغمض تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو عينيه لساعات طوال، كان يرى السيارة تنحرف عن

مسارها وتندفع نحو واجهة الشاحنة الضخمة، ربما يكون قد انفجر إطارٌ من إطاراتها، كلا، لا يمكن، لو كان كذلك فإن رجال الشرطة كانوا سيشيرون إلى الأمر، صحيحٌ أن السيارة كانت في الخدمة منذ سنوات، لكن منذ ثلاثة أشهر فقط خضعت لفحصٍ جِدّي ولم يجدوا فيها أي خلل ميكانيكي أو كهربائي. نام عند الفجر تقريباً، لكن نومه دام وقتاً قصيراً، ولما تتجاوز الساعة السابعة صباحاً حتى نهض فجأة بفكرة أن شيئاً مستعجلاً ينتظره، ربما تكون زيارته لهيلينا، لكن، الوقت كان مبكراً جداً على هذا الأمر، فما الذي كان إذن، فجأة، ومض ضوء في ذهنه، الجريدة، عليه أن يرى ما تقوله الجرائد، فحادثة كهذه، على مشارف المدينة تقريباً، تشكل خبراً مثيراً. نهض بقفزة واحدة، ارتدى ملابسه على عجل، وخرج مهرولاً. مستخدمُ الاستقبال ليلاً، ليس مَن خدمه البارحة، نظر إليه متوجساً، فاضطر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليقول له، سأذهبُ لأشتري الجريدة، حتى لا يعتقد الآخر أن الزّبون المضطرب يستعد ليرحل من دون أن يدفع. لم يضطر للذهاب بعيداً، فقد كان هناك كشك عند أول زاوية في الشارع. اشترى ثلاث جرائد، لا بدّ أن تتحدث واحدة منها عن الحادثة، ثم عاد بسرعة إلى الفندق. صعد إلى غرفته وراح يتصفح الجرائد بلهفة بحثاً عن صفحة حوادث السير. وجد الخبر في الجريدة الثالثة فقط. كانت هناك صورة تُظهر السيارة في حالة متحطّمة. وجسده يرتعش بكامله، قرأ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، يقفز على التفاصيل، متوجّهاً مباشرة نحو الأهم، يوم أمس، على الساعة التاسعة وثلاثين دقيقة، وقع على مشارف المدينة تقريباً اصطدام قوي بين سيارة سياحية وشاحنة للنقل الدولي. راكبا السيارة، فلانٌ وفلانةٌ، اللذان حُددت هويتهما فوراً بفضل ما كان يحملانه من

وثائق، كانا ميتيْن عندما وصلت فرق الإنقاذ. أما سائق الشاحنة، فلم يُصب سوى بجروح خفيفة في يديه ووجهه. حين سأله رجال الشرطة، التي لم تُحمّله أي مسؤولية فيما وقع، صرّح سائق الشاحنة أن السيارة عندما كانت على مسافة بعيدة نوعاً ما، قبل أن تنحرف عن مسارها، بدا له أنه رأى الراكبيْن يتشاجران ويتبادلان الضرب باليديْن، رغم أنه لا يستطيع تأكيد ذلك بشكل مطلق بسبب انعكاس الضوء على الزجاج الأمامي. وكشفت معلومات استقاها لاحقاً قسم التحرير في جريدتنا أن الراكبيْن كانا خطيبيْن. قرأ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو الخبر مرة أخرى، فكّر أنه ساعة الحادث كان ما يزال مع هيلينا في السرير، وبعد ذلك، كما كان حتمياً، ربط تلك الساعة الصباحية بما صرّح به سائقُ الشاحنة. ما الذي يكون قد وقع بينهما، تساءل، ما الذي يكون قد حدث في المنزل الريفي بما أنهما استمرا يتشاجران في السيارة، بل ويتبادلان الضرب باليديْن، كما قال شاهد العيان الوحيد على الحادثة بدقةِ تعبيرٍ قلّ نظيرها. نظر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إلى ساعته اليدوية. كانت تشير إلى الثامنة تقريباً، لا بدّ أن هيلينا قد استيقظت، **أو** ربما ليس بعد، من المحتمل جداً أن تكون قد أخذت قرصاً لتنام، أو لتهرب، وهي الفعل الأكثر دقة، مسكينة هيلينا، البريئة تماماً من كل شيء مثل ماريّا دا بّاش، لا تتصور ما ينتظرها. كانت الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً حين خرج تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو من الفندق. كان قد طلب من مكتب الاستقبال كل ما يلزم لحلاقة وجهه، أخذ وجبة الفطور وسيذهب الآن ليقول لهيلينا تلك الكلمة التي تنقص حتى تكتمل نهائياً حكاية الرّجُليْن المكرّريْن التي لا تُصدّق وتستعيد الحياة سيرها العادي، تاركة الضحيّتيْن خلفها، كما تريد ذلك العاداتُ والتقاليد. لو كان

تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو على وعي تام بما هو قادم على فعله، بالضربة العنيفة التي سيضربها، لربما هرب من هناك من دون تقديم شروح ولا تبريرات، لربما ترك الأمور على حالها، حتى تتعفّن، لكن ذهنه كان كأنه فاتر، تحت تأثير ما يشبهُ تخديراً هدّأ من ألمِه وهو يدفعه الآن بعيداً عن إرادته. ركَن السيارة أمام العمارة، عبر الشارع، ودخل إلى المصعد. كان يتأبّط الجريدة، رسول المأساة وكلمة القدر، والتي تتفوق حتى على كاساندار لأن مهمتها تتلخص في قول، **وَقَعَ**. رفض تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أن يفتح الباب بالمفتاح الذي في جيبه، فالحقيقة أنه ليس هناك مكان للانتقام، للثأر والقصاص. دقَّ جرس الباب مثل بائع الكتب الذي كان يطري على المزايا الثقافية للموسوعة التي تصف بدقّة عادات سمك عفريت البحر، لكن ما يرغب فيه الآن، بكل قوى روحه، أن يقول له الشخص الذي سيفتح الباب، حتى إن كان يكذب، **لستُ** بحاجة إليها، عندي. فُتح الباب وظهرت هيلينا في نصف عتمة الممرّ. كانت تتفحّصه بدهشة، كأنها فقدت كل أمل في أن تراه مجدداً، كانت تُريه وجهها المسكين الشاحب، عينيْها المحاطتيْن بهالتيْن، واضح أن القرص الذي أخذته لتهرب من نفسها لم يأتِ أُكلَهُ. أين كنتَ، همهمت، ما الذي حدث، أنا لم أعد أعيش منذ الأمس، لم أعد أعيش منذ غادرتَ هذا المكان. خطت خطوتين نحو ذراعيه اللتين لم تُفتحا، وشفقةً عليها فقط لم تصدّاها، ثم دخلا معاً، هي ما تزال متمسكة به، وهو، أخرق، فظ، مثل دمية مركبة لا تستطيع أن تتحرك. لم يتحدث بعد، لن ينطق ببنت شفة قبل أن تجلس هي على الأريكة، وما سيقوله لها يبدو فقط تصريحاً تافهاً على لسان شخص نزل إلى الشارع واشترى الجريدة، والآن، من دون أي نية خفية،

يكتفي بالقول، **ها** قد أتيتُكِ بالأخبار، وسيبسُط أمامها صفحة مفتوحة، وسيشيرُ إلى مكان المأساة، **هنا**، وهي لن تنتبه إلى أنه لم يخاطبها بأنْتِ، ستقرأ بعناية ما كتب، ستُحول عينيها عن السيارة المحطمة، وتهمهم، في حزن، عندما تنتهي، **يا** للفظاعة. لكن، إنْ كانت قد تحدثت هكذا، فلأنها فقط امرأة ذات قلب رهيف، لأن هذه المصيبة لا تعنيها بشكل مباشر، بل لوحظ، في تناقض مع ما تعبّر عنه من تضامن تلك الكلمات التي نطقت بها، أن هناك ما يشبه الارتياح المعبَّر عنه بطريقة لاإرادية بالطبع، لكن كلامها أفصح عنه بشكل واضح بعد ذلك، **إنها** مأساة، لا تبعث أي فرح في قلبي، لكن، على الأقل، هل ستفيد في وضع حد لهذه الحيرة. لم يجلس تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، ظلّ واقفاً أمامها، كما ينبغي أن يظلّ الرّسُل وهم يؤدون مهمتهم، لأنه ما زالت لديه أخبار أخرى يجب أن يقدّمها وهذه ستكون هي الأسوأ. بالنسبة لهيلينا، أصبحت الجريدة شيئاً من الماضي، أما الحاضر المحسوس، الحاضر الملموس، فهو زوجُها العائد، المسمى أنطونيو كلارو وسيقول لها ما فعله بعد ظهيرة يوم أمس وهذه الليلة، وما هي تلك الأمور المستعجلة التي دفعته ليتركها من دون خبر لمدة ساعات طوال. أدرك تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو أنه لا يمكن أن يصمت لدقيقة أخرى، وإلا سيضطر ليصمت إلى الأبد. قال، **الرّجُل** الذي مات لم يكن هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. حدّقت فيه قلقة وتركت لتخرج من فمها أربع كلمات لا تفيد في شيء، **ماذا**، ما الذي قلتَهُ، فكرّر هو، دون أن ينظر إليها، **الرّجُل** الذي مات لم يكن هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. فتحوّل قلقُ هيلينا فجأة إلى خوف مطلق، **فمن** كان، إذن، **زوجُكِ**. لم تكن هناك من طريقة أخرى لإخبارها، لم يكن هناك في العالم ولا خطاب تمهيدي

واحد يمكن أن يستعين به، لم يكن من المفيد وضعُ الضمادة قبل ظهور الجرح. يائسةً، مهووسةً، حاولت هيلينا أن تدافع عن نفسها من هذه الكارثة التي نزلت عليها، لكن الوثائق التي تتحدث عنها الجريدة هي لهذا اللعين تيرتوليانو. أخرج تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو المحفظة من جيب معطفه، فتحها ومنها أخرج بطاقة هوية أنطونيو كلارو ومدّها إليها. أمسكت البطاقة، نظرت إلى الصورة بداخلها، نظرت إلى الرجل الماثل أمامها، ففهمت كل شيء. تشكلت من جديد بداهةُ الوقائع في ذهنها كأنها دفقُ ضوء عنيف، كانت فظاعة الوضع تخنقُها، وبدت في لحظة كأنها على وشك أن يُغمى عليها. تقدّم نحوها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أمسكها من يديها بقوة، ففتحت عينيها اللتين كانتا مثل دمعة ضخمة، سحبتهُما فجأة، لكن بعد ذلك، بلا قوة، تركتهُما، ثم ساعدها نحيب متشنج في تجنب الإغماء، وها قد صار النحيب الآن يرجّ صدرها من دون شفقة، **أنا** أيضاً بكيتُ هكذا، فكّرَ، هكذا نبكي أمام ما ليس له من حلّ. **والآن**، سألتهُ من قعر ذلك الصهريج الذي كانت تغرق فيه، **سأختفي** من حياتكِ إلى الأبد، أجابَها، لن تريني مرة أخرى، كان بودّي أن أطلب عفوك، لكني لا أجرؤ على ذلك، فقد أهنتُكِ مرة أخرى، **لم** تكن أنتَ المُذنب الوحيد، **صحيح**، لكن مسؤوليّتي أكبر، **أنا** مُتّهم بالجُبن الذي مات بسببه شخصان، **هل** كانت ماريّا دا بّاش خطيبتكَ حقاً، **نعم**، **هل** كنت تُحبُّها، **أجل**، كنتُ أعشقُها، كنا على وشك أن نتزوج، **وتركتَها** تذهبُ معه، **لقد** قلتُ لك، بسبب جبني، بسبب وهني، **وجئتَ** إلى هنا كي تنتقم، **نعم**. اعتدل تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وتراجع خطوة إلى الوراء. وهو يكرّر الحركات التي قام بها أنطونيو كلارو ثمانية وأربعين ساعة من قبل، فكَّ من معصمه ساعتَه

اليدوية التي وضعها على الطاولة، ثم، بعد ذلك، وضع قربها خاتم الزواج. قال، **سأرسلُ** إليك عبر البريد هذه البذلة التي أرتديها الآن. أمسكت هيلينا الخاتم ونظرت إليه كأنها تراه لأول مرة. شارد الذهن، كأنه يريد محو الأثر الذي تركتْهُ، حكَّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو بين سبّابة وإبهام يده اليمنى إصبع يده اليسرى الذي استلّ منهُ خاتم الزواج. لم يفكر أي واحد منهما، ولن يفكر أبداً في أن غياب ذلك الخاتم ربما كان هو السبب المباشر في موت الاثنيْن، ومع ذلك فقد كان الأمر كذلك. يوم أمس صباحاً، في المنزل الريفي، كان أنطونيو كلارو ما يزال نائماً عندما استيقظت ماريّا دا بّاش. كان يضطجع على جنبه الأيمن، ويده اليسرى مسترخية فوق الوسادة حيث وضع رأسه، عند مستوى عينيه. كانت أفكار ماريّا دا بّاش مشوشة، تتأرجح بين راحة رخوة في جسدها وقلق في ذهنها لا تجد له تفسيراً. الضوء الأكثر فأكثر توهجاً، المتسلل عبر شقوق أبواب النوافذ، كان يضيء الغرفة شيئاً فشيئاً. تنهّدت ماريّا دا بّاش والتفتت برأسها نحو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. كانت يدُه اليسرى تكاد تغطي وجهها. كانت تظهر في بنصره تلك العلامة الدائرية التي تتركها في الجلد الخواتمُ الموضوعة لمدة طويلة. ارتعشت ماريّا دا بّاش، ظنّت أنها لم تر جيداً، أنها تعيش أفظع كابوس، فهذا الرّجُل المطابق لتيرتوليانو ماكسيمو أفونسو ليس هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لأن تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو لا يضع خواتم في أصابعه منذ طلّق زوجته، والعلامة في بنصره اختفت منذ مدة طويلة. كان الرّجُل ينام بهدوء. انسلّت ماريّا دا بّاش بكل الاحتياطات خارج الفراش، جمعت ملابسها المشتّتة وغادرت الغرفة. ارتدت ملابسها في الصالة، عاجزة عن إيجاد جواب للسؤال الذي يدور في خلدها،

هل جننتُ. كانت متأكدة تماماً من أنَّ الرّجل الذي أتى بها إلى هنا لم يكن هو تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، لكن من كان وكيف يمكن أن يوجد في العالَم شخصان متطابقان تماماً، لدرجة أنهما يختلطان في الجسد، في الحركات، وفي الصوت. وشيئاً فشيئاً، كمن يكتشف قطعاً تنقصُ في لوحة «بازل»، بدأت تربط بين أحداثٍ وأفعالٍ، تذكرت كلمات غامضة نطق بها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، أجوبته المراوغة، الرسالة التي وصلتها من شركة الإنتاج السينمائي، الوعد الذي قدّمه لها بأن يحكي لها كل شيء في يوم من الأيام. لم يكن بوسعها أن تذهب أبعد من ذلك، ستظلُّ لا تعرف من يكون ذلك الرجل، إلّا إذا قال لها ذلك بنفسه. سُمع صوتُ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو هناك داخل الغرفة، **ماريّا** دا بّاش. لم تُجب، ألحّ الصوتُ، جذاباً، مداعباً، **الوقتُ** ما زال باكراً جداً، تعاليْ إلى السرير. نهضت عن الكرسي الذي كانت قد تركت نفسها تسقط عليه وتوجهت نحو الغرفة. لم تتجاوز عتبة الباب. قال، **أيُّ** فكرة غريبة هذه التي خطرت لكِ بأن ترتدي ملابسكِ، هيا، اخلعيها وتعاليْ إلى هنا، فالحفلة لم تنتهِ بعد، **منْ** أنتَ سألتْهُ ماريّا دا بّاش، وقبل أن يجيبها، سألتهُ، **أيُّ** خاتم ذاك الذي ترك علامة في بنصركَ. نظر أنطونيو كلارو إلى يده وقال، **آه**، هذا، **نعم**، هذا، أنتَ لستَ تيرتوليانو، **كلا**، لستُ تيرتوليانو فعلاً، **فمَنْ** تكونُ، إذن، **لحدّ** الساعة عليكِ أن تكتفي بمعرفة أنني لست أنا، لكن حين تكونين مع صديقكِ، يمكنكِ أن تسأليه، **سأسألُه**، أنا بحاجة إلى معرفة من خدعَني، **أنا**، في البداية، لكنه ساعدني في ذلك، أو بالأحرى، لم يجد الرّجُل المسكين خياراً آخر، فخطيبُك ليس بطلاً حقاً. غادر أنطونيو كلارو السرير عارياً تماماً وجاء نحو ماريّا دا بّاش مبتسماً، **ما** أهمية أن

أكون أنا أو أن أكون الآخر، دعكِ من هذه الأسئلة وتعاليْ إلى السرير. يائسةً، أطلقت ماريّا دا بّاش صيحةً، **الوغد**، ثم هربت إلى الصالة. ظهر أنطونيو كلارو قليلاً بعد ذلك، مستعداً ليغادر. قال غير مبالٍ، **لا** أملك صبراً مع النساء الهستيريات، سأضعكِ أمام باب بيتكِ ووداعاً. بعد ذلك بثلاثين دقيقة، بسرعة كبيرة، اصطدمت السيارة بالشاحنة. لم يكن هناك زيت على قارعة الطريق. صرّح شاهد العيان الوحيد لرجال الشرطة أنه، رغم أنه لم يكن متأكداً تماماً بسبب انعكاس الضوء على الزجاج الأمامي، فقد بدا له أنه رأى راكبيْ السيارة يتشاجران ويتبادلان الضرب باليديْن.

قال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو في النهاية، أتمنى أن يأتي يوم يمكنكِ أن تسامحيني فيه، فأجابتْهُ هيلينا، **المسامحة** مجرد كلمة، **الكلماتُ** هي كل ما نملكُ، **أين** ستذهبُ الآن، **إلى** مكان ما، أجمع القطع وأخفي الجروح، **مثل** أنطونيو كلارو، **نعم**، الآخرُ ماتَ. ظلت هيلينا صامتة، كانت تضع يدها اليمنى على الجريدة، وخاتم الزواج يلمع في يدها اليسرى، نفس اليد التي ما زالت تمسك بطرف أصابعها الخاتم الذي كان في حوزة زوجها. حينئذ، قالت، **هل** بقي لك من شخص يستطيع أن يستمر في أن يناديك تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، **نعم**، أُمّي، **هل** هي في المدينة، **نعم**، **هناك** شخصٌ آخر، **منْ** يكون، **أنا**، **لنْ** تُتاحَ لهُ الفرصة، لن نلتقي مرة أخرى، **هذا** أمرٌ يرجع إليكَ أنت، **لا** أفهمُ، **أنا** أطلُبُ منك أن تبقى معي، وأن تأخذَ مكان زوجي، أن تكون أنطونيو كلارو في كل شيء ومن جميع النواحي، أن تواصلَ حياتَهُ، بما أنّكَ أخذتْها منهُ، **أنْ** أبقى هنا، ونعيش معاً، **نعم**، **ولكننا** لا نحب بعضنا، **ربما** لا، **قد** تكرهينني، **ربما** يكون كذلك، **أو** أن أكرهكِ أنا، **أقبلُ** المجازفة، سأكون حالة

فريدة أخرى في هذا العالم، أرملة تطلقت، **لكن** لا بدّ أن لزوجكِ أسرةً، أبويْن، إخوة، كيف لي أن أعوضهُ، **سأساعدُكَ**، **هو** كان ممثلاً، وأنا أستاذ لمادة التاريخ، **هذه** قطعٌ عليكَ أن تلصقها بعضها ببعض، لكن كل شيء في أوانه، **ربما** سنحبُّ بعضنا، **ربما**، **لا** أعتقدُ أنني سوف أكرهُكِ، **ولا** أنا سأكرهُكَ. نهضت هيلينا ودنت من تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو. بدا كأنها ستقبّله، لكن ذلك لم يحدث، يا لها من فكرة، شيء من الاحترام، من فضلكم، لا ننسَ أنّ لكل شيء وقتَه وأوانَه. أخذت يدهُ اليسرى وبتثاقل، وبطء كبير، حتى تمهل الوقتَ وقتاً ليصلَ، أدخلت خاتمَ الزواج في إصبعه. جذبها تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إليه جذبةً خفيفة وظلّا كذلك، شبه مشبكيْن، شبه مُتّحديْن، على حافة الزمن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

جرت مراسمُ دفنِ أنطونيو كلارو بعد ثلاثة أيام. كانت هيلينا وأمُّ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد ذهبتا لتلعبا دورَيْهما، واحدة تبكي ابناً ليس ابنها، والأخرى تتظاهر بأنها لم تكن تعرفُ المرحوم. كان تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو قد بقي في البيت، يقرأ كتاب حضارات بلاد الرافدين، الفصل المتعلق بالآراميين. رنَّ الهاتف. دون أن يفكر في أنه يمكن أن يكون واحداً من أقاربه أو إخوته الجدد، رفع تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو السماعة وقال، **ألو**. في الجهة الأخرى من الخط صاح صوتٌ مطابق لصوته، **وأخيراً**. ارتعش تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو، في نفس ذلك الكرسي لا بدّ أن أنطونيو كلارو كان جالساً ليلة اتصل به. الآن، سوف يتكرّر الحديث، لأن الزمن ندمَ وعاد إلى الوراء. هل أنتَ هو السيد دانييل سانتا كلارا، سألهُ الصوتُ، **نعم**، أنا نفسه، **منذ** عدة أسابيع وأنا أبحثُ عنك، وأخيراً وجدتُكَ، **ماذا** تريد، **أودّ** أن ألتقي بك، **لماذا**، **لقد** لاحظتَ من دون شكّ أن صوتيْنا متطابقان، **يبدو** لي أنني لاحظتُ تشابهاً، تطابقاً، **تشابهاً**، كلا، إنه تطابق، كما تشاء، **إننا** لا نتشابه في الصوتيْن فحسب، **لا** أفهمُ، **أيّ** شخص يرانا معاً قد يقسم أننا توأمان، **توأمان**، **أكثر** من توأمين، نحن متطابقان، **متطابقان**، كيف،

متطابقان، بكل بساطة، **لنضع** حداً لهذا الحديث، أنا جد مشغول، **هل** تريد أن تقول إنك لا تصدّقُني، **أنا** لا أصدق المستحيل، **هل** لديك شامتان على ساعدك الأيمن، جنباً إلى جنب، **لديّ**، **وأنا** أيضاً، **هل** لديك ندبة تحت ركبتكَ اليسرى، **أجل**، **وأنا** أيضاً. أخذ تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو نفَساً عميقاً، ثم سأل، **أين** أنتَ، **داخل** كشك هاتف، ليس بعيداً عن بيتِكَ، **وأين** يمكن أن ألتقي بكَ، **ينبغي** أن يكون ذلك في مكانٍ منعزل، من دون شهود، **بطبيعة** الحال، نحن لسنا ظاهرتيْن مبتذلتيْن تُعرضان في السيرك. اقترح الصوتُ في الجهة الأخرى من الخط أن يلتقيا في حديقة تقع في ضاحية المدينة فقال تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو إنه موافق على ذلك، **لكن** السيارتيْن لا يمكنهما أن تدخلا، لاحظْ، **هذا** أحسن، قال الصوتُ، **هذا** هو رأيي أيضاً، **هناك** جزء من الغابة بعد البحيرة الثالثة، سأنتظرُك هناك، ربما سأصلُ أنا الأول، **متى**، **فوراً**، في غضون ساعة، **حسناً**، **حسناً**، كرّر تيرتوليانو ماكسيمو أفونسو وهو يضعُ السمّاعة. ثم أخرج ورقة وكتب فيها دون أن يوقّع، **سأعودُ**. بعد ذلك، ذهب إلى غرفته، وفتح الجارور حيث المسدس. أدخل المُشط في عقب المسدس وأسكن خرطوشة في مخزنها. غيّر ملابسه، ارتدى قميصاً جديداً، ربطة عنق، سروالاً، معطفا وأحسن ما لديه من جوارب. شدَّ المُسدّس إلى حزامه وخرجَ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

telegram @soramnqraa

الحديث عن الماضي هو من أسهل ما يمكن فعله، كل شيء مكتوب، يكفي أن نُكرّر، أن نتكلم كالببّغاوات، نتأكد من خلال الكتب مما يكتبه التلاميذ في التمارين أو ما يقولونه في الاختبارات الشفوية، بينما نحن نتحدث عن حاضرٍ ينفجر في وجوهنا في كل دقيقة، نتحدث عنه في كل يوم من أيام السنة ونبحر في نهر التاريخ باتجاه العالية حتى المنبع، أو بالقرب منه، نسعى جاهدين كي نفهم أحسن فأحسن تسلسل الأحداث التي جاءت بنا إلى حيث نحن الآن، وهذا أمر مختلف تماماً، يتطلب كثيراً من الجهد، يستوجب مثابرة ومواظبة، إذ ينبغي الحفاظ على الحبل موتوراً على الدوام مع تجنب تقطُّعه.

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922220352
9 789922 220352